2020
4.1.2020

دي.بي.سي. بيير

رواية

أُطفِئتِ الأنوار في بلادِ العجائب

ترجمة: أسامة منزلجي

دي.بي.سي. بيير

أُطفِئتِ الأنوار في بلادِ العجائب

ترجمة: أسامة منزلجي

أُطفِئتِ الأنوار
في بلاد العجائب

رواية

اسم المؤلف: دي.بي.سي. بيير
عنوان الكتاب: أُطفِئتِ الأنوار في بلاد العجائب
ترجمة: أسامة منزلجي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2019

Author: **DBC Pierre**
Title: **Lights Out in Wonderland`**
Translated by: **Osama Menzlchi**
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2010 by DBC Pierre

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

إذا خذلك مثالك الأخلاقي،
بدّله.

Per els somnis d'una nit
(حُلم ليلة صيف)

الكاتب دي. بي. سي. بيير

كاتب وُلِدَ في جنوب أستراليا عام 1961، لكنه سرعان ما انتقل إلى المكسيك ليمضي سنوات نشأته كلّها هناك. وهو الآن يُقيم في جمهوريّة أيرلندا.

حاز بيير على جائزة بوكر للأدب عن روايته «*فرنون الإله الصغير*»عام 2003. أعمال بيير الأخرى تتضمَّن بالإضافة إلى «أُطفئت الأنوار في أرض العجائب»، «*لغة لودميلا الركيكة*» (2006)، و«*وجبة إفطار مع عائلة بورجيا*»(2014)، و «*أطلِقوا الخفافيش*» (2016)، بالإضافة إلى مجموعتين من القصص القصيرة. أسلوب بيير يعتمد في أساسه على الكوميديا السوداء.

قالوا في مديح

«أُطفئت الأنوار في أرض العجائب»

«إنها قصة سكرى بتهوُّر، هدفها الإمتاع... إنَّ أسلوب بيير في الكتابة مندفع، يبلغُ ذُرى سامقة من الابتكار اللغويّ. إنّه يُبيِّن أنَّه خبير في استحضار الحسّ بالمكان - وهذه المرة المكان هو اليابان وألمانيا - لا يقلّ عما فعل في استخدامه لكُنَةَ أهالي تكساس الدقيقة في روايته الأولى التي فازت بجائزة بوكر، «*فرنون الإله الصغير*»

صحيفة «*إندبندنت*»

«إنَّ أسلوب بيير في الكتابة فائق الحيويّة»

صحيفة «*سبكتاتور*»

«هناك، على امتداد الكتاب، مقطوعات تتّسم بتألُّق مجنون... بالحيويّة التي تُغلِّف السواد العَدَميّ، واللمعان البرّاق لنثره النقيّ الكلاسيكيّ الذي يؤدي تحيّة مُراهقة للمجتمع؛ كلّ شيء يُشير إلى رواية ممتازة وهامة... وتأثيرها لا يمكن إنكاره»

دايلي تيليغراف

«إنَّ بيير يمدّنا ببعض من النثر اللذيذ»

دايلي ميل

«إنَّ رواية *أُطفئت الأنوار في أرض العجائب* تُعيد [بيير] في شكلٍ رائع... فالأسلوب ممتاز بكلّ بساطة والحبكة تغويك بمتابعة القراءة، واللغة تكاد تغرِّد وتطير عن الصفحة... واتّهامات [غابرييل] المتشائمة للرأسماليّة، الوحش الذي يجعلنا نرغب في المزيد والمزيد لكنّه يضمن أنْ يتركنا شاعرين بجوع أبديّ، سوف تترك أثرها على كلّ شخص»

آيريش إندبندنت

«إنها رواية تعكس بدقّة تفاهة وأنانيّة عصرنا الكئيب»

آيريش تايمز

«إنْ كان هناك مَنْ سيجرِّب اللجوء إلى حكاية رمزية مُفكَّكة بشكلٍ مناسِب تتحدَّث عن إسراف النظام الرأسماليّ الحديث والانهيار الماليّ، فإنّ دي. سي. بيير هو دائماً الرجل المناسِب لهذه المهمّة»

الأوبزرفر

«إنَّ [هذه] الملحمة العالميّة المُضطربة هي عمليّة استكشاف متعدِّدة الطبقات لانحطاط وإخفاقات النظام الرأسماليّ، لكنّها في الوقت نفسه مُضحكة إلى أقصى درجة»

كورِيير ميل (أستراليا)

«إنها حكاية أخرى ساحرة عن الآمال المُحبَطَة والأحلام المُجهَضَة... إنَّ المُعجبين سوف يعشقون هذه الحكاية الرمزيّة عن قلق العصر الحديث»

ماري كلير (أستراليا)

«إننا نجد في غابرييل الساخط الوساطة المناسبة لإعطائنا مقطوعة هجائيّة عن الغرب المنحطّ... إنَّ لغة بيير نضرة مُنعِشة: شعبيّة، سوقيّة،

ومناسِبة للعصر... ولدى بيير أسلوب مُعبِّر عن الجوّ المتوتِّر وقليلون هم الكتّاب المُعاصرون الذين يستطيعون أنْ يُجاروا هذه التركيبة من التهوُّر والجدّيّة، من الهزل الرخيص والسياسيّ»

أسترالِيان

«بينما غابرييل يعدُّ العُدَّة لموته، تضجُّ الرواية بالحياة، وتفيض بالشخصيات الفاتنة الساحرة، بالعبارات الفلسفيّة الساخرة وبانحرافات في الحبكة غير متوقّعة ومُرضية. الإيقاع سريع، والحوار (الداخليّ والخارجيّ) غالباً مُثير للضحك والأثر العامّ مُسلٍّ بصورة راقية. ولكن إليكم الضربة الحقيقيّة: إنَّ بيير ينجح أيضاً في لسع جور الرأسماليّة المتأخّرة بصورة لا تعرف الرحمة وبعيداً عن أدنى قدر من الوعظ... إنه كتاب ممتع حقّاً»

ويست أسترالِيان

لندن

عندما تنفجر المجاري، وتلفظ أقذارها،
يجب أنْ يستسلم طريقنا للروائح الكريهة؛
سوف يتجمّع الأطفال مرفرفين دون جلبة،
لكي يتراكضوا ويعبثوا بالقذارة؛
والآن يتقوَّض المجتمع تحت قوانين مشابهة،
يُلفظ الظُرف، والحقيقة، والعقل كالبول؛
وعندما يمتدّ المستنقع على أرضياتنا،
لا نعود نرى راكضين ولا عابثين:
هذا الغياب للشغف يُنزِل العار بزماننا،
لذلك يُناشدنا التاريخ أنت وأنا:
أن اشهدوا! فلنشجب هذا الانحطاط المتهور،
ولنمرح في آخر إفراز الإمبراطورية.

-1-

ليس لوضعي تسمية. أولاً لأنني قررت أنْ أقتل نفسي. وأيضاً بسبب الفكرة التالية:

لستُ مُضطرّاً إلى فعل هذا على الفور.

وووش بسرعة – أمرٌّ من خلال بابٍ صغير[1]. إنه اليمبوس[2].

لم أعد في حاجة إلى الردّ على الهاتف أو تسديد الفاتورة. لم تعد ديوني تهمّ. ولا تهمّ المخاوف والواجبات الإلزامية. الجوارب لا تهمّ. لأنني سأكون قد مِتّ. ومَنْ أنا حتى أموت؟ طبّاخ على المايكروويف. كاتب كرّاسات. نِتاج عصرنا. طالب فاشل. رجل كثير العيوب. شاعر رديء. ناشطٌ بدماغَين. شارب للحليب بنكهة الشوكولاته، وإذا لم تتوفر الشوكولاته، فالفريز وأحياناً الموز.

في عصر يتكيَّف مع شِعار البقاء للأصلح – وليس مع الأصلح.

---

1 – المؤلِّف يُشبّه ما يحدث معه بما يحدث لأليس في قصة لويس «*أليس في بلاد العجائب*» عندما تبدأ رحلتها بالولوج إلى حفرة وجار الأرنب ومنه إلى بلاد العجائب. – المترجم

2 – ما هو اليمبوس؟ إنه نوع من الانفصال عن العالم الموضوعي، مزيج مما مررنا به من لحظات الصدمة. إنني أشعر منذ الآن أنه مُغلَّف، منطقة أحدثها الخوف، والنسيان المُريح. العِلم يُسميها «حالة انفصال»، ولكن في الحياة لدينا خيار بين تفسيرَين تحليليّ ورومانسيّ – واليمبوس هو الخيار الرومانسيّ. وفي حال كنتَ في حاجة إلى حجج لتفضيل الرومانسي على العِلمي، تذكّر ما يلي: إنّ العِلم ما زال يجهل لماذا ننام. – المؤلف

– سوف يستعيض المُترجم أحياناً وعلى امتداد الكتاب عن كلمة «**اليمبوس**» بـ «**أرض الضياع**» أو «**الضياع**».

آه حسن. إنني دائماً أتجنّب المرايا ولكن هنا، وأنا عارٍ في غرفةٍ تحتوي مغسلة ومرآة، أختلس نظرة. وووش بسرعة – يختفي ابن عرس. فجأة أنا أبو الهول ذو عيني صبي جوقة، مُضاء وفظّ كلوحة زيتية قديمة متهرئة.

لأنه لم يعد أيّ شيء يهمّ.

مركز إعادة التأهيل ليس المكان المناسب لهذا النوع من الإلهام، إذا استطعتَ أنْ تتجنبه.

على سبيل التعبير عن البهجة أتبوّل في المغسلة – فقبل كلّ شيء، إنَّ تمديدات البورسلين تؤدي إلى مياه الصرف – ثم تتدفق مع مياه الحنفية، وأنا أشعر بأنَّ هذا يدلّ على الرقيّ. إنَّ العقل والرقيّ ظاهران في الساعات الأخيرة من حياتي. إنهما الدليل على أني لستُ خرِفاً، على أنني أنحدر من عائلة كريمة. أو على الأقلّ، من قصص عن عائلة كريمة.

أرتدي ملابسي بسرعة، لا أزعج نفسي بالاغتسال، لا يهمّ. أتوقف فقط أمام النافذة لأتمطّى وأتأمّل المنظر. لقد زالت كآبتي. وووش – يختفي أرنب داخل حفرة. كلّ شيء يحدث بسرعة. إنها سِمة هذا الضياع. طبعاً هذا الأسلوب ينجح فقط عندما يكون قرار الموت نهائيّاً. كما في حالتي.

والسبب في ذلك بسيط: هو أنه من بين الأمور العديدة التي كان من المفترض أنْ أكونَ وأقتني وأفعلَ، لم أصبح، ولم أقتنِ، ولم أنجزْ أيّاً منها. إنني أقف في عشيّة الحياة المعاصرة المحمومة، أراقبها وهي تختفي بسرعة. قد يبدو الأمر مُثيراً للشفقة لولا شيء واحد: إنني لا أفتقر إلى الطاقات الداخلية. إنَّ لديَّ من الطاقات الداخلية ما يزيد عن كفايتي. لكنها لا تجد متنفّساً لها.

إنها طاقات مكبوتة، وعقيمة كما لو أنها غير موجودة.

قد يبدو في سياق كلامي أنني أنصحك بسلوك هذا المسار المُميت.

حسن، إنني أنصح به. اتّخذْ قرارك وَفقاً لِما ترتئي، ولكن في هذه الأثناء سوف أعتبرك فريقاً متعاطفاً. وأقول لك ما يلي: إنَّ كلّ شخص يندم لأنه غادر الحفلَ باكراً، بعد سماعه ضحكاً من صالون خلفه. هكذا ينبغي الإحساس بالموت. لكنني لا أشعر به على الإطلاق؛ لأنَّ هذا الحفل انتهى. زجاجاته فرغت. البراميل تلفظ زَبَداً. إنَّ إمبراطورية التسوّق الخاصة بنا تلفظ أنفاسها الأخيرة. باي باي أيتها الأسواق الحرّة، وداعاً أيتها الشروط والتعليمات، تشاو أيها الضحك الزائف، ها ها، ووبس، وا-هاي. إنَّ آخر المُعربدين هم الحثالة الذين نراهم في أية مناسبة مجانية، وهم يتقيؤون الآن. إنَّ ما أشعر به ليس ندماً بل افتخار بأنني أتقصّى حالة المسرحية، وأخرج في الوقت المناسب.

أديو[3] إذن، أيها الزمن المعاصر، أديو. إنَّ فرصةً أخرى لإثبات قُدرتنا على ضبط أنفسنا، وبالتالي جدارتنا بالحرية، ضاعت. إننا نعي هذا جيداً في أعماقنا؛ فعلى مدى عقدٍ من الزمان اكتفينا بإعادة تسخين الماضي، وتمجيد أفضل مئة لحظة مراراً كعجائز يستعرضون صور أيامهم السعيدة، وهم يودّعونها دون وعي منهم[4].

راقبوا الآن الأنوار تخفتُ في بلاد العجائب.

بسرعة. يا له من انحطاط.

في مكان ما في الخارج كرةٌ يتقاذفها مضربان، وفي أذني يشبه إيقاع الضرب تكات الساعة، إنه غير منتظم كزمن الطبيعة الحقيقي. يجب أنْ أختفي من هذا المكان - بسرعة، قبل أنْ يبدأ أحدهم بتحليل حالتي العقلية.

3- Adieu : وداعاً، بالفرنسية. - المترجم

4- نعم، إنها النهاية: لقد فازت المنفعة في اللعبة، لكنها كالعدوى، تقتل مُضيفها. ونحن كنا المُضيف. لقد ماتت الجودة لأننا تخلينا عن حقنا في تنقية خياراتنا: أصبح الربح هو أداة تنقية خيارنا. وماتت الحقيقة لأننا لم نعد نصفّي الخبرة الحقيقية؛ أصبح ربح وسائل الإعلام هو أداة التنقية. إنَّ العدوى تعثر على كلّ كائن بشري متلقّ، ومرتبطة بكلّ مادة بروتينية، وتمتصها حتى الجفاف بغية تغذية كلّ ورم تحصّنه الحكومة ضدنا. الآن المضيف هو جثّة، والسوق هو أنزيم جرثومي. إذن أديو! - المؤلف

سأذهب لأعيش بانطلاق لساعة أو اثنتين. لأنني أستحق هذا، ها ها. أما بالنسبة إلى السلوك الذي توحي به حالة الضياع التي أعيش، فانظر حولك. إذا سرنا على خُطى أقراننا، فلن نحتاج حتماً إلى أخلاقيات أعظم منهم.

إنَّ هذا يعني منح سُلطة مُطلقة لغابرييل بروكويل.

الأمور الهامة أولاً - سوف أقتفي أثر أشدّ مَنْ أعرف تهتّكاً: صديقي الحميم نلسون سميتس، وهو رجل منغمس في السُّكر والفسوق. سوف أحوّل هذه الساعات الأخيرة، وأنا معه بوصفه ذراعي اليمنى، إلى نموذج مُصغَّر دقيق للعصر الذي أتركه ورائي، إلى لا أقلّ من انغماسٍ مرح أخير في النسيان.

آه، الانحطاط. أرسلُ ابتسامتي عبر النافذة. يقبعُ مركز إعادة التأهيل وهو يتقيَّح كسرّ عائليّ في منطقة ريفية شمال لندن. إنه يضمُّ كهوفاً، وشجيرات وبركاً جافة مغطّاة بالطين اللزج. النزلاء - أي الزبائن - يتجولون في المكان ويمتصّون الأوراق اليابسة - أي الهواء المنعش - ويرتدون بنطلونات لا تلامس سيقانهم بل تحوم خاوية فوق النوع غير المناسب من الأحذية.

غرفتي ليست موصدة. الممر الخارجي ينضح برائحة المكنسة الكهربائية الآليّة-العانيّة[5]. أغوص فيه بينما أشعة الشمس المتأخرة تغطي المبنى، كهبّة هواء ذهبية تُضيء مجرات من الغبار في ظلام الردهة. ووش أتحرَّك بسرعة. القدامى سيقولون إنها إشارة تبشّر بخير. يبدو أنَّ القرارات الكبرى تستدعي إشارات من فورات الحماس العُلوية، ربما ومض ضوء أو تجهُّم ظل عندما نقوم بعمل خطير. لا بُدَّ أنَّ تلك الآلهة الساخرة وصاحبة النزوات كانت تتدفق من حولنا. لا ريب في أنَّ حالة الضياع كانت ستجذبهم - يبدو أنَّ حالة الضياع قبل الموت تنبع من الدوامة التي تُحدِثها. مَنْ يدري إنْ كانت تُفضّل الحياة على الموت، أو تُرسِلُ إشارات على طول درب المغامرة، أو تحتفظ بدروسها إلى الآخر.

5- العانيّة: نسبة إلى منطقة العانة. - المترجم

ومع ذلك، هيا بنا – سوف نرى.

ثمة فتاة طويلة الوجه تجلس متراخية خلف طاولة الاستقبال. إنها تراقبني، تأمل في ألّا أقترب منها. بحركة سريعة – أشقّ الضوء وأنا أدور حول نفسي مقترباً منها. لقد زال حيائي. إنَّ سرّ موتي يجعله بلا معنى، وهكذا أقتربُ إلى أنْ يُصبح وجهها في الظل، وأطلب قلم حبر وورقة. سوف ندوّن ملاحظات – نعم! – ما دام كلّ شيء واضحاً. بينما الفتاة تبحث حولها، أجد استمارات الخروج قابعة خلف المنضدة، وأمدّ يدي لأتناول إحداها. تتراجع، كأنَّ لذراعي حقل طاقة هائلة. لكنني أتبيَّن أنَّها تَجْفُل من كلّ شيء. كلّ حركة تمثّل مفاجأة بالنسبة إليها. تضع كمية من ورق الملاحظات، وتضع إلى جوارها قلم حبر، وتتراجع خطوة إلى الخلف بينما أعدِّل من وضع استمارة المغادرة على المنضدة، عابساً بفعل التركيز. وأتناول قلم الحبر بنشاط:

أكتب: «إنَّ القول بأنَّ كلّ سعادة لا تُستمدّ من المُسكِرات – قول زائف».

تفغر فمها ببطء: «حسنٌ. يمكنني أنْ أستدعي ديفيد، أو روزميري – مَنْ منهما كنتَ تقابل – ديفيد، أم روزميري؟».

يبدو وجهها كأنه يستطيل أكثر، يذوب باتجاه المنضدة مع كلّ كلمة. هذه فتاة سالفادور دالي، شخص ينطوي على غصن شجرة وساعة تقطر.

أقول: «لا أحد منهما»، وأواصل الكتابة:

«كلّ معرفة للذات، وشجاعة وتصميم لا تنشأ من استخدام المُسكرات – زائفة».

«سوف أستدعي ديفيد»، وتمدّ يدها إلى سماعة الهاتف.

أتابعُ الكتابة، منتقلاً من بند «*أسباب الإخلاء*»، إلى «*تعليقات المعلِّم*»، أكتبُ أقول: «لا تستقيم الفكرة التي تقول إنَّ أولئك المشردين في المجتمع الذين يشعرون بالأشياء بحدّة أكبر، الذين يستسلمون لثروة

الحساسيات التي تجعل منهم بشراً، لسمات وانفعالات يحتفي بها حتى أقرانهم –».

«نداء إلى ديفيد ويست، ديفيد إلى قسم الاستقبال».

«– يجب، بسبب فشلهم في الانسجام مع السِّمة العادية والعمل اللاإرادي، أنْ يُسجَنوا مع المُستغلين السلبيين والعدوانيين الذين يُنفقون تصرفاتهم العدوانية بالتدليك اليدوي والتعليم كنوع من العلاج الشافي».

«ديفيد إلى قسم الاستقبال، من فضلك».

«إنَّ الحاجة إلى هذا التصنيف للمتطرفين الشاذين في كاليفورنيا الجديدة لمُحاباة السلطة والتأثير عليها وممارسة العطف الزائف مع آخرين، يدل على اضطراب في الشخصية أكثر إدهاشاً وخبثاً من أيّ شيء يمكن أنْ أطمح إليه. وإذا كان هناك شيء واحد جدير بإقناعي بالابتعاد عن مركز التأهيل فهو هذه المعرفة الصاعقة: وهذا لا يعني أنَّ مثل هذه الخدعة تجد لها أنصاراً – بل يعني أنَّ أولئك الأنصار إذا عثرت عليهم يجب أنْ يتمركزوا بصورة مُهدِّدة في مكان واحد».

فتاة دالي تنتفض. تعدِّل من وضع الكراسات. «الله أعلم أين هو ديفيد. هل ترغب في الجلوس في(الغرفة الهادئة) ريثما – نحلّ بعض الأمور؟».

أقول: «كلّا».

تطرف بعينيها، وتومئ برأسها ببطء. «المشكلة – هي أنَّ الاستمارة التي تكتب عليها ليست لك. استمارتك موجودة في ملفاتنا. لذلك ينبغي أنْ نُعيد كتابة هذا كلّه من جديد».

أتوقف أراقبها برهة. «إذن لِمَ لا ننسخ تفاصيل تسجيلي القليلة من الاستمارة التي في حوزتكم، إلى هذه؟».

«حسن، كلّا، ولكن – هذه ليست الاستمارة التي في حوزتنا لك. أفهمت؟ وليس من المفترض حقّاً أنْ تملأ الاستمارة أصلاً».

أُسدِّدُ تحديقي.

«أيضاً استمارتك سوف تحتوي تعليقات و –».

«هذا غير صحيح. أنا لم أحضر أيّة جلسة».

«حسن، نعم، ومع ذلك سوف تحتوي، لأنّ – حسن، *تلك هي استمارتك*».

«إذن لِمَ لا تُحضرين تلك الاستمارة؟».

«أخشى أنها سرية».

أبدِّلُ من مركز ثقل جسمي. «همم».

«أنا آسفة – كلّ ما في الأمر هو، مثلاً، أنَّ أية ملاحظات سرية سوف تكون موجودة هناك، وطبعاً تفاصيل دفعاتك».

«هل ستحاسبونني حتى على مبيت نصف ليلة؟».

تسكنُ حركة الفتاة. «إنَّ الدورة مدفوعة التكاليف مُسبقاً. أتفهم؟ التعليمات والشروط –».

«كلّا، كلّا – إنَّ الشروط والتعليمات في العالم الوجودي هي أنني وصلتُ في أثناء الليل، والآن أنا أغادر». لا أقول هذا بلطف. بل أترك فمي فاغراً، وأبتسم. وتبرز ذؤابة لحيتي كذؤابة سنجاب.

تتلوى فتاة دالي.

«آه حسن، حسن». حتى هنا نجد أنَّ الربح يعلو على صحة الخاطئ. أتراجع خطوة. تعبث فتاة دالي بالأوراق بينما أحاول أنْ أتقبّل الحقائق. «لا أعلم أين هو ديفيد»، وتقطّب جبينها وهي تسير في الممر.

«حسن، هذه إهانة»، وأضع دفتر الملاحظات والقلم في جيبي.

«ديفيد ويست، إلى الاستقبال لأمر عاجل من فضلك».

يلمح تحديقي شجرةَ نخيل في أصيصٍ موجود بجوار طاولة المكتب، ثم بعض الأحرف في الخلفية تبيِّن بصعوبة كلمةِ (أمل). وأفكّر أنَّ كلمة مثل (باهر) كانت ستبدو أفضل. أو حتى لافتة من مجمع تجاري صيني تقول: (علف ممتاز) أو (أخبار الزواج).

وتتباهى فتاة دالي بفكرة جديدة: «المشكلة هي أنكَ ستريد أنْ تستلم متعلقاتك الشخصية؟ محفظة نقودك، والهاتف وحاجياتك؟ وسوف أحتاج إلى عضو كبير في الهيئة الإدارية ليصرِّح بتسليمها، ولا يمكن أنْ أسلّمها هكذا ببساطة. هذه هي المشكلة».

«اسمعي - في غضون ثلاث دقائق الأسباب التي أعطيتِها لكي لا تكوني ذات عون كانت: أنَّ عليَّ أنْ أملأ استمارة مختلفة؛ وأنّه لا يُسمح لي بملء أية استمارة؛ وأنه لا يُسمح لي برؤية الاستمارة؛ وأنكِ في حاجة إلى أشخاص محترفين لكي يفتحوا الخزانة».

تقول، معبِّرة عن سعادتها للتخلُّص من الموضوع: «هذه هي المشكلة؛ هل أستطيع أنْ أجلب لك ماءً من النبع؟ ريثما يحضر ديفيد؟».

هذه هي المشكلة. أرى على سيماء وجهها القدرة على الاتصال بأناسٍ يمكن أنْ يُسرعوا في الحضور أكثر من ديفيد، ومعهم الدواء. وبسرعة. أكتفي بقبول الماء، بصراحة، الذي تئزّ فقاقيعه الفوّارة حول شريحة من الليمون، وأمسح بنظري الممر حتى (الغرفة الهادئة). هذه مكنسة الروح الكهربائية تطلّ على أرض المؤسسة. بالضبط في الموقع الذي تتوقّع أنْ تنتظر ديفيد. إنها تفوح برائحة الدهان والرطوبة. أراها خالية، فأجلس على أريكة بلون الصديد تواجه نافذةً تضرب أغصان الأشجار فروعَها الخشنة من خلالها بسبب الريح، ريح قوية مختنقة بأوراق النبات الميتة.

كان ينبغي أنْ أخرج من المكان. كانت فكرة التوقُّف عند موظفة الاستقبال خاطئة.

ثمة رقعة شطرنج تستقر على طاولة جانبية مع بعض المجلات التي تسترخي وتتنفّس. ويجعل انعكاس ضوء مصباح الطاولةَ أغلفتها تتوهّج. أقول في نفسي، إنَّ الكائن الحيّ الذي يحتاج إلى دغدغة ليتنفّس ربما يجب أنْ يُسمح له بالموت. وتساءلتُ إنْ كان الضوء سيقفز أيضاً من نسخة مجلة «*بيكون بسترز*» و«*فيستننغ وايفز*». لن نعرف ذلك أبداً؛

ولهذا السبب تسبِّب مراكز التأهيل الريفية الاضطراب. لأنَّ ما كان ذات يوم قصراً منيفاً يدور فيه الرقص على إيقاع الفالس، ويعبق جوّه بعبير العطور وبنباح الأطفال الأحباء والكلاب، وأضحى الآن نُصُباً للعار، والتعالي ونبات البقول - سوف يحتوي تحت حديقة المطبخ نسخة من مجلة «*فسيتنغ وايفز*» أو جثّتين.

ولن يحتويهما معاً.

أطفأتُ المصباح وغمرني وهج بنفسجي. رقعة الشطرنج تجلس في انتظار مباراة. أتفحَّص صفوف القطع. البيادق تصطف لكي تموت، والأفيال تتأمّل بشكل منحرف، والقلاع تتحرك بخطّ مستقيم. وبضربة واحدة قاصمة آكل الوزير الأبيض وأقتحم المعسكرَين، وأقضي على الملك الأسود. هذا هو الموقف الذي نحتاج إلى اتّخاذه هذا المساء. ومهما كانت الرحلة التي ننطلق فيها - وأنا أشعر بأنها رحلة، وإنْ كانت قصيرة - يجب أنْ تُبدي احتقاراً للحياة وللطبيعة يُعادل ما تبديانه لنا. سوف نسعى إلى المتعة بلا ضوابط.

اخرجوا كحيوانات. كرأسماليين!

آه، إنَّ هذه اللحظة السابقة للموت هي ساحة عذراء. وهذا لا يعني أنني أول مَن اكتشف أنَّ الانتحار، حتى أنت ينبغي ألّا تفكر في هذا، يكشف عن وجهه في لحظات سوداوية معيَّنة، وشممتُ رائحته، وقدّرتُ حجمه. أنا لا أقول إنك خطّطتَ للأمر مثلي؛ ولكن يجب أنْ تخمِّن، وسط مزيج المُصادفة الذي يدور من حولك، على الأقلّ إحدى النتائج التي تدفع ثمنها حياتك[6]. وأتساءل إنْ كان هذا يحدث عندما نشعر بأننا

6- فيما يخص الانتحار: تخيَّل الروح على صورة قصر. سوف تُخمِّن أننا لا نستخدم فيه الكثير من الغرف. وفيما عدا بضع لحظات في عهد الطفولة لا نرقص حوله تحت أشعة الشمس. ولكن هناك أشياء كثيرة تدخل وتخرج، وما يحدث هو أنَّ حشداً ضخماً من الأشخاص غير المرغوب فيهم يمكن أنْ يتجمّع في الداخل. يتكاثرون ويتكاثرون، ويُهددوننا. وعندما نعجز عن تحريكهم، نختبئ في أماكن أصغر بكثير. وفي حفرتنا الأخيرة، تقدِّم لنا الحياة خياراً: إما أنْ نمثل موتنا على مسارح متوازية

محظوظون، نراقب أصابع القَدَر تمرّ على زنادنا، نراقب زناد أشخاص آخرين وهو يُضغَط. لا ريب في أنَّ هذا وحده يجعل الخبر مُربِحاً جدّاً.

على أية حال – لقد تمَّ الضغط على زنادي.

انتقل عقلي إلى التفكير في نلسون سميتس. أية ملذات سننغمس فيها. أية عربدة. آخر ما عرفت عنه أنه قد عاد توّاً من بروكسل، وهو موجود في مطبخٍ خاص في الجنوب. حدث ذلك قبل وقت قصير. قبل عام، ربما. آه سميتس.

في سياق هذه التأملات، يُفتح باب (الغرفة الهادئة). يُلقي شابٌّ نحيل نظرة إلى الداخل. إنه يرتدي سترة من الجلد وله وجه شاحب لا شكل له، كجنين حصان. فقط يقف وينظر.

ثم بعد قليل يُشير إلى حذائي:

يقول: «هذا جِلد مدبوغ».

لمّا لم أفهم ما يرمي إليه بذلك، أبادله النظر برهة، وبعد أنْ يمتنع عن إعطاء المزيد من الشرح، يرفع إصبعاً إلى قمة رأسه ويقول: «هذا صوف».

يقول: «نعم، لكنَّ الحَمَل نجا».

أُشِيح بنظري بعيداً، طارفاً بعينيّ.

بعد المزيد من الصمت يقول: «ألستَ قادماً؟».

أقول: «كلّا».

وتمرّ بضع لحظات أخرى. ثم يخرج ويُغلق الباب خلفه. تُسمَع همهمات أخرى في الرواق، ومع تلاشيها، يقترب وقع خُطى.

يهتف رجل عند الباب «غابرييل بروكويل؟». يهتف دون أنْ يبذل مجهوداً، بنبرة صوت لا تجعله يبدو أحمق إذا لم يأته جواب.

– الاضطراب العقلي، الحماسة المفرطة، الدين، السرطان، الإدمان – أو ننسحب بهدوء. ولكن حذارِ: إنَّ الحياة لا تطرح مثل هذه الأسئلة الكبرى عندما نكون واثقين من أنفسنا ونشطين – بل تنتظر حتى يحلّ اليأس. – المؤلف

أتجاهله. سأنتظر إلى أنْ يسود السكون، ثم أهرب. أشعر به يبدو عليه الحمق من خلف الباب، لكنني لا أشعر بانزعاج لتجاهلي إياه، أو بأيّ اهتمام. إنَّ مصادر التوتر هذه تلاشت الآن، لأنَّ في استطاعتي أنْ أنتحر في أية لحظة.

«غابرييل؟».

عندما ينطق اسمي، أُدوّنه في الدفتر.

يظهر عنوان: *دفتر غابرييل*.

ثم عنوان فرعيّ: ***أيّ شيء - مقابل حمير، وكلاب وشعراء.***

أكتب «*أيّ شيء*» وليس «*كلّ شيء*» لأنّه يبدو أنَّ الأشياء كلّها تنشأ بالطريقة نفسها[7]. ولكي تدعم حشداً من الصناعات الزائفة، قادتنا الأسواق إلى الاعتقاد أنَّ كلّ جزء من الحياة مُتخصص إلى أقصى درجة، وبالتالي في حاجة إلى بضائع وخدمات للتحكُّم فيه؛ في حين إنَّ الحقيقة هي أنَّ الطبيعة تتصف بِسِمة مملّة تماماً ويمكن التكهُّن بها، سواء أكنتَ خنفساء أم آلة تصوير بالأشعة، يفرّ منك طائر أم تصوِّر صدراً. أما بالنسبة إلى المخلوقات الواردة في العنوان، أشعر بأنهم سفراء للروح الإنسانية، دوافع ينبع منها السِّحر واحتقار الذات. وقد يكون لها جنّتها الخاصة - ولِمَ لا؟ - إنْ كان سوينبرغ يقول إنَّ هناك جنّة خاصة بالأتراك وبالألمان.

بما أنَّ الدفتر يبقى عادةً مفتوحاً تسود روح البحث في الضياع. وأيضاً واجهة قيِّمة، جديرة برجل أعمال أو حتى بحاكم؛ وفجأةً لا تعود مهمتنا ذات طابع عابث، بل عِلميّ، بادرة شجاعة وإيثار حيال امتداد الفهم الإنساني. ولذلك يجب أنْ تكون ملاحظاتنا واضحة، وسوف تغفر لي إذا بدتِ اللغة رسمية - لكي تلقي طبعاً الضوء على الانحطاط الذي ينبغي أنْ نبتعد عن لغته الخاصة، والتوائها هكذا هو من أجل تبرير الغضب. إذ

7- تذكّر أنَّ هوبارت لوتس قال: هناك الكثير من الأشياء في كلّ شيء؛ ولكن ليس هناك إلّا أي شيء واحد. - المؤلف

أليست اللغة هي دعامة الحضارة؟ لكي تشرح مواطن الالتواء والجرائم بكلّ رهافة، دون أيّ هامش للخطأ أو للهرب؟[8]

مع هذه الضربة الحاسمة أنهضُ عن الأريكة. يمكن لحاجياتي أنْ تبقى في الاستقبال، سميتس سيكون معه نقود، سميتس سيكون لديه طعام ونبيذ جيد.

ولكن حالما وصلت إلى الباب، اقترب وقع خُطى جديد.

برز رأس رجل إلى داخل (الغرفة الهادئة):

يقول: «أه - ها أنتَ ذا».

8- للتأكيد، نقول إنَّ الانحطاط يعتمد على الطيش الجماعي، وهذا أول ما يظهر على اللغة. فعبر اللغة تُصبح الأفعال والأفكار التي كانت قبل بضع سنوات تسبب الغضب مقبولة. حتى أشدّ الكلمات التي تُلقى جزافاً تولِّد مواقف في الثقافة تجعل العقل خارج العصر. إنَّ مفردات اللغة تتقلَّص، تُقحِمُ بعض المفاهيم على حساب بضعة تعبيرات؛ وبهذه العملية يختلط المقبول وغير المقبول، وينتحل كلٌّ منهما هوية الآخر. وأينما نشط المُخرِّبون، في الحكومة أم في التجارة، نجد هذه الأداة. إنَّ الكلمات أداة للتركيز، والانحطاط يعتمد على الغموض لكي ينجح. آمل أنْ يكون هذا مفهوماً. على أية حال، أيّاً كان، انسه. - المؤلف

-2-

ديفيد ويست رجل شاحب يمكن أنْ يُجرَح بسهولة. عيناه أشبه ببيضتين مسلوقتين، خاليتين من البريق، بل إنَّ ما يُشبه مُخّ البيض يلوح من تحت البياض. المِحجران أشبه بكوبي بيضتين يُثبتانهما في مكانهما. لا أحبّه.

يقول: «ليس من السهل العثور عليك. لقد بدأتِ الجلسات، ألن تنضم إلينا؟».

أقول: «كلّا».

يقودني من الغرفة الهادئة، عابساً ومُبتسماً في وقت واحد. «تبدو في حالة مزرية. نكاد نتساءل إنْ كنتَ تنام أصلاً».

«لا شيء هامّ. أنا فقط في حاجة إلى قطعة كعك».

تمدُّ فتاة دالي عنقها من الاستقبال، مُستبشرة بظهوره: «آه، ديفيد. مستر بروكْويل في حاجة إلى بعض المساعدة»، ثم تُردف بصوت منخفض: «يبدو *غاضباً*».

وهذه شِفرة إنذار. تبادلا النظرات، وسط فترة صمت. تستخدم فتاة دالي الطرف بعينيها لتلفِت انتباهه إلى استمارتي على الطاولة، واضعة إياها في زاوية مناسبة له. وبحركة تدل على صداقة حميمة زائفة، تقنية ساخرة بلمسة إنسانية، يقبض على كتفيَّ في أثناء مروره وهو يقرؤها. ولكن حالما ينطلق يبدأ بالتراخي كمتجول يجد المسافة أبعد مما اعتقد.

أخيراً يلتفت إلى الفتاة – «هلّا جلبتِ ملفّ غابرييل؟»- قبل أنْ يقول لي: «غابرييل، يا غابرييل – أنت شديد التعقيد! لا أعلم هل أعالجك أم أنشر حالتك!».

الآن يُصبح فكِهاً. وهذا لا يُناسبني. «همم»، وأتلفّت حولي. «ليتني أحصل على أغراضي».

يحوم مُقترباً مني، ويمضغ شفته. «يجب أنْ تعلم أنني مُحبَط. نحن هنا من أجلك، ولكن عليك أنْ تأخذ الخطوة الأولى. هيا بنا ندخل، يا غابرييل. إنه عقد – ويجب أنْ يكون في صالح الجانبين. لا أستطيع أنْ أدعك تختبئ من هذا».

أهـرشُ شعري بطريقة غامضة. «يا سيد ويست – إنَّ تكاليف أسبوعين في مقابل مكوث ليلة واحدة لا يعني أنَّ الأمور تُحلّ بأكثر من طريقة واحدة».

يقول: «اسمع، أنا أعلم أنكَ لست أسعد المتسوّقين. ولا ضير في هذا. لكنكَ تُقيم على الكوكب نفسه، وتعلم كيف تجري الأمور. إنَّ هذا فندق. فإذا أردنا أنْ نكون جادّين في تقديم المُساعدة إليك يجب أنْ تبقى غرفتك آمنة طوال فترة الدورة. إنَّ موقفي يشبه موقفك من الشروط والحدود، ولكن –».

«إذن لِمَ لا تفعل ما تعلم أنه مُنصِف؟».

«يا غابرييل، هذه تجارتنا أيضاً. ووسيلة كسب عيشنا. ولا ينبغي لأيّ شخص، في ظل أيّ نظام، أنْ يفقد مصدر رزقه. إنَّ البقاء على قيد الحياة ليس مفهوماً رأسماليّاً».

«عفواً – إنَّ بند غرامة ألف بالمئة مكتوب بخطّ صغير[9] هو مفهوم رأسمالي. وبصورة ما لا يمكن النجاة منه».

«لكنه ليس غرامة؛ لقد اكتتبتَ مُقدَّماً مُنتجاً مدته أسبوعان. والعقد يبيّن أنَّ في استطاعتك أنْ تقبله أو ترفضه – الشروط واضحة».

«وهذا حسن وجيد لولا شيء واحد – أنا شخصيّاً لم أكتتب أيّ مُنتج، لأيّ مدة زمنية، في أيّ عقد».

يسكتْ ديفيد، متفقِّداً ساعة يده. ثم يتنهّد: «سواء أكان والدك أم أنت

9- في أيّ عقد يوجد بند يُكتَب بخطّ صغير ليكون فخّاً للمتعاقِد. – المترجم

فهذا لا يُغيِّر من الحقيقة في شيء. في الواقع، بما أنَّ والدك هو الذي ضمن الاكتئاب، فهل ينبغي أنْ نُناقش عقد الثقة الذي تعمل على نكثه معه؟ على الرغم من كلّ شيء؟ ألن تُفسَّر غرامتك على أنها نوع من السرقة؟ من والدك؟».

«لقد كنتُ نائماً عندما ورّطني».

«نائماً». كان هذا بصيص أمل. «أم غير واعٍ؟».

يذكِّره وجهي بأنَّ الحالتين هما ببساطة بمثابة نوم. لكنه يتابع قائلاً: «أتعلم، يا غابرييل، إنَّ الدورة تستمر أسبوعَين لأنَّ بلوغ أعماق الأشياء يستغرق تلك المدة. الأمر معقَّد. *وأنتَ* مُعقّد. ومن غير المقبول أنْ تقضي أقلّ من يوم هنا وتشتكي من سوء تقدير قيمة المال. اثنتان وأربعون جلسة – فردٌ واحد، ومجموعة واحدة، وجلسة واحدة لكلّ مادة في اليوم – حاول أنْ تحصل على هذا في لندن مقابل الرسم الذي نتلقّى».

تعود فتاة دالي حاملة إضبارة ليلكيّة إلى ديفيد. أستدير نحوها: «*هلا أحضرتِ لي أغراضي!*». تَجْفُل.

يرفع ديفيد يده: «كفى، كفى. إنَّ لسوزانا الحق في الحصول على جوّ عمل وظيفي مناسب».

في أثناء كلامه ألاحظ بشرته: إنها جافة ورقيقة كما الورق. هذا، وقسمات وجهه المشدودة، تجعلني أميِّز إشارة تبثّها دوافع متعصّبة: ديفيد ويست شخص منطوٍ على نفسه[10]. تبسطه الثقافة، وتجعّده،

10- ما أشد اعتداد أولئك المحكومين بخوفهم باستقامتهم. والدافع الرئيس في حياتهم وتالياً كلّ ما يُنادون به هو التردد. إنَّ المنطوين لا يُجازفون، ويرتدون ملابس عادية ويتفوهون بأقوال عادية. يكتنفهم جوّ من الاعتداد بالنفس، أو من الوداعة المقبولة بصورة مُبالغ فيها، وهي شكل راقٍ من الاعتداد بالنفس. انظر إلى مسؤوليتهم الفريدة عن غالبية ردود أفعالهم المُضادة للقيام بالمحاولات، وعن تهميش ذوي السِّمات الخاصة بعيداً عن نمطهم الجامد. المنطوون هم الذين يُحددون مشاكل الآخرين، ويتكهنون بسقوط الجميع ما عدا أنفسهم. هؤلاء المتقوقعون هم أعداء سريّون؛ وحتى وأنت تقرأ هذا الكلام، هم موجودون في الحياة منهمكون في جمع الدليل على فشلك. – المؤلِّف

وتطويه وتصنع منه شكلاً بارعاً لإنسان، وزخرفةً على منديل تخلو طيّاته من أية أفكار، يبسط الآخرين لكي يُجعّدهم ويُعيد تشكيلهم على صورته. عندما يرفع نظره عن الإضبارة لا بُدَّ أنه يرى الرعب الظاهر في تحديقي، لأنَّ تقاسيم وجهه تزداد حِدَّة.

يقول: «أنت تُثير حنقي. لقد كنتُ صبوراً جدّاً معك، على الرغم من أنكَ جعلتني أتأخّر عن زبائني الآخرين. أليست قضاياهم هامة كقضيتك؟ هل ينبغي أنْ يفقد الجميع حقهم في المعاملة بسبب سلوكك؟».

أنتظرُ الدفعة التالية من القذارة التي تلفظُها ذاته. الآن بتنا نعلم أنَّه يُفضِّل أيضاً ألفاظ رجال الشرطة القذرة. لكنَّ رجال الشرطة والفتيات في سن الثامنة يبدؤون تعاملاتهم بأسئلة تافهة مثل: «هل دائماً تترك سيارتك في وسط الشارع، يا سيدي؟ أعتقد أنك ستسمّي ذلك سلوكاً لائقاً، يا سيدي؟ كيف تشعر، يا سيدي، إذا فعل أحدهم هذا بك؟»، وما إلى ذلك[11]. وهذه الأسئلة، بالإضافة إلى أنها تعبير عن اعتداد متأصّل في النفس، هي أيضاً خدعٌ المقصود منها إجبارك على الاستسلام؛ لأنَّ الإجابة الصادقة تجعل المرء أحمق - والإجابة المعقولة تجعله سجيناً.

لقد بالغتُ في تقديري لديفيد ويست.

أخرجتُ سيجارة من جيبي.

11- انظر كيف يجري الأمر: إنَّ الضباط يتلاءمون مع وظائفهم لأنهم يمارسون في وقت واحد السلطة على الآخرين واتّخاذ إجراء مُطلق، ومن دونهما تكون حياتهم قلقة. لأنَّ الإكراه والانحياز هما وراء كلّ خيار إنساني، والممارسة البوليسية تجذب إليها أنماطاً معيَّنة، بمن فيها ممَّن يتعرّضون للتنمُّر كالأطفال، العديدون. في حين للإنصاف هناك أيضاً مثاليون بين المراتب، وهناك ببساطة أصحاب الطموح المنخفض. وفي رأيي ليس هناك إلّا نمطان يستحقان الثقة: أحدهما هو الساذج المتحمس، والآخر، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ أكبر منظمة إجرامية في أيّ دولة تعريفاً هي قوتها البوليسية، هو الموظف الفاسد. لأنه سيعيش ضمن مجموعة من المواقف المتعصبة؛ من المجازفة، والسريّة، والاضطراب، التي تتطلب مواقف ارتجال شجاعة واتصال بالمصائر المتهورة - وهذا يمنحنا على الأقلّ بعض الفهم العام بوصفنا مخلوقات. - المؤلف

قال بصوت منخفض: «ليس هنا، هيا بنا، دعنا لا نسيء التصرُّف. أنتَ تعيش ظروفاً صعبة، وأنا آسف. لقد خسرتَ شريكاً، وخسرت عملك. خسرت كلّ ما يترافق معهما. خسرت –».

«هذا كلّه موجود في الملف، أليس كذلك؟».

«لا تنسَ، لقد أدخلتكَ بتوصية من والدك. ما أرمي إليه، يا غابرييل، هو: لقد كانت الظروف صعبة، وأنا أتعاطف معك – ولكن لستَ مُضطرّاً إلى الكفاح وحدك. ولستُ مضطرّاً إلى أنْ أكون قاسياً هكذا. فقط قدِّم لي معروفاً واحداً: اجلس معي قليلاً ولنتحاور. يمكننا أنْ نبدأ بالحديث عن أيّ شيء – مثلاً عن تلك القضايا ثنائيّة القطب التي أراها مُدوّنة في ملاحظاتك».

أعبثُ بولاعتي وأقول: «لقد كنتُ مبتئساً. والآن أنا على ما يرام».

يُغلق الإضبارة. «حسن، إليك ما يُقلِقني – إنَّ الابتئاس لا يتراوح بين الابتئاس وعلى ما يُرام. وإلّا كان اسمه ابتئاساً جيداً. ألا تعتقد؟».

أُشعِلُ سيجارتي.

«سوف تجعل حنقي يثور».

أرفعُ بصري، وأسحبُ مجّةً كبيرة من الدخان مُستعرضاً الطنف العالي في الغرفة، وضفائر الكرمة الأنيقة، والأزهار التي على هيئة أبواق والأوراق، بعضها يحمل قطرات من الماء. كلّها أصبح لونها الآن لبنيّاً باهتاً. أتخيّلها مُذهّبة، تُحيط بلوحة جدارية بلون الزبرجد تمثّل ذُرى أشجار وسماء، كما تُرى عندما يُنظر إليها عالياً من قبر.

«غابرييل: أنت تخرق القانون».

تسعل فتاة دالي. ليست مُقنِعة. إنها تقصد أنْ تلمِّح إلى مرض السرطان، لكنّها تبدو كربّة منزل تُشير إلى وجود مخاط على شفة أحدهم. أواصل بهدوء تدخين هذا الشيء الفاسد، رامياً رخاماً إيطاليّاً على الأرض، مُنشئاً في الردهة نافورة فيلا من الخمر تفيض بأزهار نيلوفر مقدسة وخشخاش الماء.

«غابرييل: أنت تنتهك حقوقنا وتخرق القانون».

يا لهذا المكان الشبيه بمجرور نفسي. يا له من عفن وتافه. أخيراً التفتُّ إلى ديفيد، بعد أنْ أسحب دفعة أخرى من دخان السيجارة متأملاً:

أقول: «كيف تجرؤ على تدنيس هذا المكان، أيها العاهر».

-3-

هذه غلطة. كان ينبغي أنْ أترك المكان وأخرج. ضوء النهار المتلاشي يصبغ أريكة الغرفة الهادئة بلون جرح فاسد. يخرج الممرِّض، ويتركني وحدي.

الباب يوصد خلفه.

النساء على صواب: كان استخدام كلمة عاهرة فظّاً في الماضي. في أول مرة سمعتها كنتُ أرتدي بيجاما عليها رسم الدب ويني ذا بو. وذلك في الليلة التي بدأتِ الأمور تنهار. أقول ليلة – ولكن كان ذلك في وقت متأخر من عصر يوم أشار إليه البالغون جزافاً بأنه ليلة لأغراضٍ في نفوسهم. في لحظة كنتُ أركض بخفّة في الرواق، هفهافاً بعد الاستحمام، أغني كأحمق. انتابتني فجأة شعور بالتوهج، إحدى نوبات الهذيان الصغيرة التي يمكن أنْ تنفجر في الصغار كفقاعات من دودة الجنون: رحت أغني «وو – وو، خذ النقود واهرب!».[12] ولم أكن أعرف معناها، كنتُ فقط مُعجباً باللحن. لم أُخمّن أبداً مغزاها في تلك اللحظة بالذات.

الشيء التالي الذي أتذكّره هو أنَّ والدي رماني بقوة على الباب الزجاجي:

---

12 - «خذ النقود واهرب»: عنوان أغنية وفيلم سينمائي ساخر، من بطولة وتأليف وإخراج وودي ألن من إنتاج عام 1969. ورُشِّحَ الفيلم ومُخرجه لعدد من الجوائز. يحكي الفيلم عن حياة لص وكيفية القبض عليه في النهاية. – المترجم

وهمس: «*عاهر، أنتَ عاهر صغير!*».

وهذه أيضاً لم أفهم معناها، لكنها بدت حادّة. كانت تتلاءم مع حفيف وخشخشة خفّتي لدى ارتطامها بالزجاج. وبعد ذلك ارتميت على سجادة الرواق، وأنا مُغطّى كأنما بصلصة من الدماء التي تنبع بهدوء من الخدوش. وكلّ ما أتذكّر هو أنّني اعتقدتُ أنَّ كلمة عاهر هي الوصف المناسب لذلك السلوك.

فكّرتُ في هذا وأنا أحاول أنْ أنهضَ على قدميّ.

ولكن بصورة ما، لم أنهض أبداً لأقف على قدميّ.

فذلك الصبي الصغير ظلّ مرتمياً هناك ويدمى منذ ذلك الحين.

كان صديقي نلسون سميتس يقيم معي في تلك الليلة. فهرع إليَّ مرتدياً بيجاما رُسِمت عليها بنادق رعاة البقر، وهو مُسمرّ البشرة بعد عودته حديثاً من كيب تاون. وبعد تحطم الزجاج مرَّ من خلال الباب، وأخذ يجمع شظايا الزجاج ويضعها بعناية على صدري. حيث اعتقد أنها تنتمي، مع باقي القطع الصغيرة كلّها. هذا هو تعريفي لسميتس لك.

لقد شكّل الباب الزجاجي نقطة تحول بالنسبة إليَّ. ولكي يُغطي والدي على الموضوع، لدى سماعه وقع خُطى صديقته حينئذٍ، وقف فوقي وصرخ: «كم مرة أخبرتك ألّا تجري داخل المنزل!». وعندما وصلت أضاف: «*Niecht hier drinnen!*».(ليس في الداخل!). كان يمثل أمامها دور الرجل الأوروبي. كان غاي بروكويل أحد أصحاب اللحى الذين ذهبوا إلى برلين الشرقية بعد انهيار الجدار. وضع فردة حذاء في واجهة مصنع مهجور وافتتحَ نادياً مزوّداً بجهاز ستيريو خاص بالسيارات وبزجاجة من نبيذ الزنجبيل. وعندما وقعت حادثة الباب الزجاجي كنا قد عدنا حديثاً من تلك المرحلة الأخيرة الهزيلة من شبابه. لم يكن قد بقيَ منها غير بنطلون مُخادع وبعض العبارات بالألمانية يستعملها مع السيدات. أما أنا، فلا أزال أتذكر بعض الأشياء بالألمانية حتى اليوم، حتى بعد مرور كلّ تلك السنين. إنَّ عقل الطفل طري كالثريد، وتلك الذكريات تغوص فيه.

بالإضافة إلى ذلك رجعت مع كتاب عنوانه «*فريدريك*». وفريدريك هو فأر يحتفظ بالألوان في فصل الصيف، وفي الشتاء عندما لا يكون لباقي الفئران إلّا اللون الرمادي، يُعيد كلّ الألوان التي احتفظ بها إلى أماكنها. وفي النهاية تبتهج الفئران، وتهتف: «*فريدريك*، *Du bist ja ein Dichter!*، أنت شاعر!».

كنتُ أعلم أنَّ فريدريك هو أنا. بل إنَّني أُشبهه. كنتُ أجرُّ كرسيّاً وأضعه أمام منزلنا الذي يحمل آثار إطلاق رصاص في برينتزلاوربرغ، وأعتليه وأُلقي أشعاراً. لم أكن أنظر إلى أحد، بل أختبئ خلف القافية. لكنني كنتُ دائماً أبدأ قراءاتي كما فعل فريدريك: «*Ihr lieben Mausegesichter* – أو أصدقائي الأحباء ذوو وجوه الفئران».

كان شرق برلين بعد انهيار الشيوعية أشبه بصندوق رمال الأطفال. لا أحد كان يعلم مَنْ يمتلك أيّ شيء، لا أحد كان في حاجة إلى المال أو الإذن لإنشاء مشاريعهم، كلّ ما كانوا في حاجة إليه هو كيس من القماش، وبعض الموسيقى الحزينة أو وعاء لرش النباتات مرسوم عليه مُقلة عين. كان الغربيون يندفعون لارتداء ملابس رديئة وينكمشون كعمال كئيبين وضيعين من الشرق. أصبح التشبُّه بالشرقيين وضعاً إنسانيّاً جديداً.

لم أتذكَّر هذا وأنا مُستلقٍ على الأرض أنزف في تلك الليلة في إنكلترا. عالجني والدي على طاولة المطبخ باليود وبشريط لاصق، وهو يحاول أنْ يكظم غضبه بالصرّ على أسنانه. كانت الطاولة تفوح برائحة مستوصف. وأرسلتْ عينا سميتس ومضاً في ظلام ممرّ الباب. كنا جميعاً خائفين، كخوف الحيوانات بعد أعمال العنف.

كان والدي قلقاً بشأن المال، ولهذا كان عدوانيّاً. وللإنصاف لم يكن يسعى وراء الهموم - كمعظم الناس فرح ذات يوم ووقّعَ على شيء لكي يدعم ما ظنَّ أنَّ عليه أنْ يكون. بعض الموسيقى المرحة، بعض الألوان الحيوية، بعض الصور لنساء شابات، ووقَّعَ على شيء. أخذت النقود تُضاف إلى حسابه في البنك، تتدفق أو تفيض وَفق الوضع الاقتصادي.

ثم أخذت أحواله تضطرب، وراقبت تغيّره. كان إحساسه بذاته يعتمد كلّيّاً على تدفق البضائع والرصيد.

إنَّ الكسب هو الذي دفعني وهشّمَ الزجاج، وليس هو.

وسرعان ما أدّتْ تلك الإصابة إلى دماره. وقد صدّقتُ على هذا بعد ذلك بسنوات عندما رأى كتاب فريدريك وسخر منه. لقد وجد الفأر التافه بؤرة ملائمة له في السوق، وأنتجَ بضاعة وملأها بها – ومن ثم وزعها مجاناً.

سمّاه والدي، دليل الفاشلين.

كان والدي يعتنق الرأسمالية بقوة كالمهووس جنسيّاً بالأطفال[13]، عندما كان ارتكاب الخطأ مقبولاً بالنسبة إليه ما دام يُعتبَر رحلة لاكتشاف الذات، عندما كان التقدُّم يعني العثور على أساليب جديدة للتنصُّل من المسؤولية. إنه ينتمي إلى الجيل الذي قرّر أنْ يكون أفضل أصدقاء ابنه، الذي يسأل الآن إلامَ آلت الأمور؟. والجواب على هذا هو أنَّ على مدى ثلاثين عاماً لم يكن هناك والدان.

فقط أصدقاء عابرون لا يمكن أنْ يثق فيهم.

على أية حال. لن أُثقِل الملاحظات بالتاريخ، لم يعد هذا هامّاً الآن. أسمع خارج باب الغرفة الهادئة صوت ديفيد ويست يقترب. ومن فترات سكوته وتغيُّر نبراته أشعر كأنَّ والدي على الخطّ. العقبة التالية.

يقول ديفيد: «من الناحية التقنية، يمكن أنْ يوضع تحت رعايتك، على سبيل المثال. لكنني لا أنصح بهذا إلّا بعد أنْ نُخضعه للقانون».

13- إنَّ اقتصاد السوق الحرّ هو صندوق عتيق، قذر ولامبال، مملوء بالخدع وعيبه الأساسي الغريب واضح حتى لعين طفل. ومع ذلك انظر كم من الراشدين يقعون لاهثين فريسة لشهوة وعوده – على الرغم من اضطرارهم إلى التخلّي عن التعاطف الإنساني والحكم الأخلاقي من أجل اعتناقه. ويستغل سرّهم القذر ذكاءهم كلّه ناثرين الغبار حول الحقيقة الساطعة: وهي أنَّه من دون الخداع أو تآكل القيمة، ومن دون الابتزاز، والتلاعب، والغش أو السرقة الصريحة – فإنَّ الربح ببساطة لن ينمو على الدوام. – المؤلّف

تراخى حاجباي. لا شك في أنه يعني قانون العلاج العقلي. تراجعت إلى النافذة، لأراقب الخريف يسوط الظلام في الخارج. وكأنَّ المشهد يصرخ، لقد انتهت فصول الصيف كلّها. وهل استمتعت بالصيف الذي انصرم توّاً؟ هل تذوّقت رحيقه حتى آخر قطرة؟ كلّا. لأنني لم أكن أعلم أنه حلَّ قبل اللحظة الحاضرة بلحظة. ولو أنني علمت ذلك لأخذتُ أعدو خلال الحقول التي تغسلها أشعة الشمس، ورميت حذائي عالياً نحو السماء. ولكن مَنْ يعلم ما هي اللحظة السابقة للحظة الحاضرة؟ وحتى لو عرفها المرء، فكيف يمكن الحِفاظ عليها؟ هذه هي الألغاز الكامنة خلف العيش الرغيد.

إنَّ استعدادي للحياة سيئ مع حزمة الألغاز التي في حوزتي.

لقد خمد الضياع. وهذا يجعلني أرغب في الموت. ويُثير الفكرة التالية: لستُ مضطرّاً إلى فعل هذا فوراً. وهذا يُعيدني إلى الضياع. إنها دائرة مُقفلة.

وبدأ الضغط الأول يظهر: ماذا لو ضعفت عزيمتي؟ ينبغي ألّا أجازف بخسارة زخمي. حتى إذا حان وقت موتي، أكون مستعدّاً دائماً. في كلّ مكان، في كلّ غرفة جديدة، يجب أنْ أستكشف أدوات الموت المُحتملة.

أعتقد أنني يجب أنْ أبدأ من هنا، إذا كنتُ جادّاً.

-4-

إسفين الليمون ينزّ من مائي. أميل عبر الأريكة وأضغطُ زرّ المصباح وأُحرّك القابس قليلاً خارج الجدار. إنَّ فيه تقنية الرقّاص تجعله يقفز نحو الخارج عند نقطة معيَّنة، لكنني أتناول مجلات عن الطاولة وأحشرها بين الأرض ومأخذ القابس. وهذا يوجِد فراغاً بين المأخذ والقابس وتبقى الكهرباء سارية.

امتصصت الليمون.

وووش. كراك! ضربَ نبضٌ أعلى ذراعي. توقفت الآلات وأُطفئت الأنوار عن المبنى كلّه. تراجعتُ بحركة مفاجئة شاعراً بالإغماء.

شلالات هادئة أشدّ ظلمة. أهو الموت؟

ثم وقع خُطى من أمام الباب.

تدخّلت أجهزة الصحة والأمان. يُفتح فمي بارتخاء، أُحركّه يساراً ويميناً، وأطرف بضع مرات. ومع استعادتي وعيي، ينبع داخلي إحساس جديد. أمرّ من باب صغير آخر. أعود إلى منطقة الضياع ولكن أعمق، على مستوى جديد. ذلك الضياع الأول كان مجرد نسيم يهبّ بالمقارنة مع هذا الريح الصرصر. ربما لأنني أثبتُّ أني أتمتع بالشجاعة أمام المجازفة المميتة والألم[14]. لعلَّ الضياع رمى اختبارات على طول الدَّرَج وحتى غرفة، على غرار طريق

14 - يبدو أنَّ أسلوب موتنا يهمنا أكثر من الموت نفسه، سامحين للخوف أنْ يُشكّل عائقاً. اليمبوس لا ينشأ إلّا إذا كنتَ ضمنتَ أسلوب الموت. وهذا يفسّر قلّة عدد يمبوس الانتحار، لأنه يتمّ التفكير فيه بدم بارد. لذلك، إذا لم تُخطّط للارتماء تحت عجلات قطار، أنصح بالتدرُّب على الركض - أو على الأقل إقامة علاقة حميمة رومانسية بأسلوبك الخاص وما يترتب عنه من آلام. - المؤلّف

الأوديسة. وأتلفّت حولي لأجد أنني أشدّ انفصالاً عن العالم الموضوعي، وكأنني أستخدمُ iPod؛ وهذا يمكن حتماً أنْ يساعد فقط في تعاملي مع والدي، الذي يوحي الضجيج الذي يُثيره عند الباب بأنه العقبة التالية. إنَّ الضياع الخاص به يجب أنْ يتمدد. ربما بين ليلة وضُحاها - وربما في غضون يوم أو يومَين. وربما أنا وسميتس في حاجة إلى السفر قبل أنْ ننكبَّ على العمل.

ولِمَ لا - إنْ كان لا شيء يهمّ؟

أودعتُ هذه الفكرة ذلك المخبأ في دماغي الذي تجد فيه الدوافع المتطرفة رغبات تعمل عليها. إنها تجلس هناك وحيدة؛ رغباتي كلّها زالتْ. إنه مشروعها الوحيد بالإضافة إلى الموت. سوف نرى أية نزوة تجلبها ويجب تحمّلها - سوف تعلم أنَّ الرغبات نادراً ما تصل غير مزخرفة بالدوافع المتعصبة.

تعود الأضواء، وبعد بضع لحظات يدخل ديفيد، عابساً. يشمّ الهواء. «أأنت تدخّن هنا؟ لا تدخن هنا، من فضلك. إنَّ والدك ينتظر كلمة منك». يفتش عن سجائر قبل أنْ يُعطيني الهاتف.

ذراعي ينبض وأنا أتناوله. يُشير ديفيد إليَّ، ولا زال يفتش في المكان، لكي أخرج إلى الرواق وأغلق الباب خلفنا. في أثناء مغادرتنا أسمع صوت أزيز، وقرقعة. تنطفئ الأضواء من جديد. ونسمع صوت أقدام تركض بانتظام في الرواق.

يقول والدي: «ما الأمر؟».

«إنهم يحتجزونني رغماً عن إرادتي».

«ماذا؟ بل بسبب *إرادتك*. هل تدخّن وأنت هناك؟».

أترك فترة من الصمت تمرّ لكي يُرقِّق من نبرة صوته. ثم أقول: «ليس من المفترَض أنْ يكون سجناً».

«أنت محظوظ لأنك لم تودَع السجن. إنَّ قصص أصحابك الشيوعيين في كلّ نشرات الأخبار».

«هيا. ثم إنهم ليسوا شيوعيين. إنهم مناهضون للرأسماليين».

«إنهم مُخرّبون، كرعاع الدفاع عن الحيوانات. هل تدخّن؟».

«اسمع -».

«لقد أُدينوا، كلّهم».

«أنا لم أقترف ذنباً. هذا هو الموضوع».

«الغريب في الأمر هو أنَّ الآباء هم الذين يدفعون كفالتهم جميعاً دائماً».

ألـزمُ الصمت ريثما يصبّ جام غضبه على هذا وعلى أولئك (الطفيليين)، (المُساهمين في المجتمع)، إلى آخره، وأفكّر في أنّ التقدُّم في السن يُولِّد النزعة المُحافِظة، ولا مفرّ من ذلك، إلّا إذا كنتَ فرنسيّاً. وأخيراً تسود فترة كافية من الصمت من جانبي بحيث إنَّ ديفيد يستأذنُ مني لكي ينضم إلى مجموعة المعالجة. وأبقى وحدي من جديد في الرواق.

أخيراً أقول: «لقد واجهت[15] مشكلة صغيرة».

«أحقّاً. سيكون أمراً عجيباً لو تمكنتَ من رفع قاذف».

«ليس هذا ما أقصد. إنني لم أقرب الخمر إلّا لاحقاً[16]. وأحاول أنْ أُخبرك أنني فقدتُ إيماني. لقد كان المبنى نفيساً جدّاً ولا يستحق التدمير. والرأسماليون قاموا بتجديد ذلك الصرح الشامخ الذي يعود عهده إلى قلب العصر الفيكتوري بما فيه من أعمدة وزخارف. المال جدَّده. كانت لحظة تجلّ. وقد أدركتُ أنَّ المشكلة لا تكمن في الرأسمالية - بل أنا

15- استعمل الكاتب كلمة Hit في الجملة وتعني حرفيّاً «أصاب»، وقد وجب التنويه إلى هذا من أجل فهم الجملة التي تلي. - المترجم

16- على الرغم من أنَّ هذا لا يحتاج إلى مزيد من الشرح، ولكن دعنا نوضّح باختصار: إنَّ الهدف العظيم من معاقرة الخمر هو حلّ الارتباط بهذه الأرض والارتقاء إلى مصافّ الآلهة والدوافع المتعصبة التي تنبع منها أرواحنا. وعندما يمارس السُّكر باعتدال يُصبح حالة نبيلة من الجنس البشري، ومنبع الكثير من القدسية. وفي حين إنَّ النوازع الدينية المتقدة، والهوس بالجنس، وبعض العقاقير وأنواع الطعام يمكن أيضاً أنْ تولِّد مثل هذه الحالة، تذكَّر: إنَّ يسوع شرب الخمر، وانظر ماذا أصبح. - المترجم

المشكلة. نحن المشكلة. الطبيعة هي المشكلة. لماذا ذهبتُ إلى هناك لأخرّب ذلك البناء الرائع؟».

يقول والدي: «عُد جُملتين إلى الوراء. أنت المشكلة».

«لقد حملتُ بطاقتي الائتمانية وذهبت إلى المصرف - فسمحوا لي بالدخول. هلّل أفراد مجموعة العمل، مُعتقدين أنني خرقت الحواجز من أجلهم. لكنني وقفتُ جانباً ورحتُ أراقب عملية القبض عليهم على الدَّرَج. لن أنسى وجوههم أبداً. لقد صُدِمتُ: وكائناً مَنْ كنتُ أناصر، فسوف أبقى منبوذاً من الغالبية. لقد باءت جهودي كلّها للاندماج بالحضارة بالفشل. ليست هناك طريق واحدة. ولا خير واحد. لقد انتهى الله، وحلّت الأسواق محلّه. والآن حان وقت زوالها. لم نعُد نعرف مَنْ نحن لأنه لم يعُد هناك *نحن*».

«ماذا تعني بقولك إنَّ الله قد انتهى؟ أنت حرٌّ تماماً في أنْ تنتقي أيّ نوع من الإيمان تشاء، هذا هو مغزى عصرنا كلّه!».

«أبي - هناك فيلم سينمائي عنوانه: *تفاحة يهوه*».

«أنت تهذي. هل خدّروك؟».

«قبل أسبوعَين بدأتُ أستمع إلى إذاعة هارت إف. إم. وكدتُ أبكي. إنها تبثّ موسيقى البوب. وأدركتُ أني أمضيتُ حياتي وأنا أودِّع شيئاً لا أعلم ما هو. كلّنا فعلنا ذلك. إنه ليس حنيناً، وليس موضة ارتجاعية - إنها نهاية ازدهارنا. لم يعُد التقدُّم الإنساني استثماراً مُربِحاً.

سكت غاي بروكويل في أول الأمر. ثم انفجر قائلاً: «ما هذا الهراء الجامعي المُسهب. على أيامنا -».

«إنَّ هذا هو نتيجة أيامكم».

«أوه، أحقّاً؟ وأعتقد أنكَ كنتَ ستفضِّل أياماً أكثر استبدادية، وطفولة كطفولة غيرد شبيخت، وسجلّاً يحتوي رائحتك لكي يتمكنوا من اصطيادك بالكلاب».

«لا شيء أشدّ استبداداً من الربح. والكلاب هي الآتي، انتظر وسوف ترى. لقد حوَّل مجال الأعمال هذا البلد إلى شارع خلفي أفغاني».[17]

«يا إلهي. لا أصدِّق أنَّ عيد مولدك التالي سيكون السادس والعشرين».

«في الحقيقة إنَّ كلّ مشكلة عالمية –».

«قِف عندك – دعنا نتحول إلى موضوع المخدرات القوية».

«أنا –».

«المخدرات القوية، يا غابرييل. إنَّ الممرضين ليسوا أغبياء. إنهم لا يفتشون الأبنية بحثاً عن زخارفها. ليلة أمس كان في استطاعتي أنْ أقود حافلة من خلال بؤبؤي عينيك. إذا كنتَ تحاول أنْ تحشد الدعم لمثل هذه المقامرة فعليك أنْ تحفر أعمق من إذاعة هارت إف. إم. ها أنا أخبرك الآن – إنَّ إعادة تأهيلك هو آخر ما يمكنني تقديمه إليك. بعد ذلك يمكنك أنْ تغوص أو تسبح كما تشاء».

«سيكون هذا تغيُّراً».

«يا بنيّ المسكين: لقد خسرتَ وظيفة إعادة تسخين رقائق البطاطا. وهو أفضل عمل حصلت عليه، في حال تساءلت أين ذهبتْ حشود مُستثمري مستقبلك».

«عفواً – تلك كانت غرفة طعام شاسعة».

«غابرييل، إنني أمرّ بسيارتي من ساوث ميمز كلّ أسبوع. إنه محلّ على الطريق العامة. يبيع بيغ برغر كينغ اللعين».

«لعله يشترك في المبنى مع محلّ برغر كينغ، لكنَّ قسم قاعة الطعام امتدّ عبر_».

17- *ماذا بعد هذا الانحطاط*: إنَّ جيل تاتشر الذي أعدَّ لهذا الانحطاط لم يترك مجالًا لاختيار إلّا الحالة الاستبدادية: لأنَّ عاداتهم جعلت الانضباط شيئاً بائداً. والآن وزراء الدولة وحدهم منضبطون، ويُصبحون كذلك باطراد. وعندما سُحِقَت القوانين وحُوِّلتْ لفائدة آبائنا الآنيّة، أُطلِقَتِ القِوى وهي الآن تبحث عن غايتها. وأطفال تلك الغاية لا يعرفون حدوداً، وليس لديهم ضمير. سوف يُنظِّمون باستخدام الخوف والقوة، وبتمويه الديموقراطية غير المباشرة وسوف تتلاشى حرياتها. - المؤلف

«لا تعطِ نفسـك أكبر من حجمها. والآن دعِ الطبيب يكلمني عبر الهاتف من جديد».

«لقد قلت لك إنني أتغيَّر. ولكن أشعر بأنَّ إعادة التأهيل ليس الحلّ الصحيح».

«ماذا تتوقع مني أنْ أفعل، بعد ما شاهدت؟ لعلك تحولتَ إلى الفلسفة، لكنها تشوّش ذهنك بشكل لعين. ليلة أمس حاولتَ الانتحار، يا غابرييل، ماذا سيظن الناس؟ والآن أعِد الطبيب إلى الهاتف، أنت تهذي».

كان ديفيد يتمشّى على طول الرواق، ثم يتوقف على مسافة عشر خطوات وكأنه مربوط بحبل خفيّ. يتكئ على الهواء، ويُداعب ذقنه.

أقول لوالدي: «إنني في حاجة إلى الابتعـاد فقط. ابعث جواسيسك خلفي كالمعتاد».

«هراء، سوف تهرب مع نلسون سميتس، إذا لم يكن قد مات».

«إلى أيرلندا، على سبيل المثال. أو برلين – ما رأيك؟ بعيداً عن حرب الأسواق المجنونة. على أية حال، إنَّ إعادة التأهيل لن تحلّ أيّ شيء خلال أسبوعَين».

«يمكنك أنْ تبقى إلى أنْ يتمّ العلاج. ولا تحزن على برلين، لقد مرَّ عشرون عاماً منذ أنْ كنا هناك. إنني مندهش لأنكَ لا زلت تتذكرها».

«إنه آخر مكان شعرت فيه بالحرية».

«غابرييل: منذ ذلك الحين عادت لتصبح العاصمة من جديد، لثالث أكثر الدول تقدماً اقتصاديّاً في العالم. سوف تصبح أكبر شطيرة ماكدونالد، وأكبر موقف سيارات لعين. لم يعد أحد يرتل الأغاني الروسية ويحتفظ بقطع نفيسة من الجدار. لقد بدأتِ الأمور تتغيَّر قبل أنْ نغادر – لقد تركت مجال أعمال جيد، أتذكُر. على أية حال إذا فقدتَ عملك فلن تستطيع أنْ تتحمل تكاليف السفر. ونصيحتي إليك هي: التزم

بعلاجك. وإذا فشلوا في معالجة حاجتك المُلحّة إلى فلسفة كلّ شيء، فعلى الأقل جِدْ قدوة أخلاقية تدفعك قُدُماً على طريق الحياة».

«أنا لديَّ القدوة – إنَّ الحياة نفسها هي التي تتحرك إلى الخلف. على أية حال، إنَّ أسبوعين من العلاج مقابل ليلة واحدة من المرح الصاخب أمر سخيف. ولنفترض أنهم اكتشفوا ورماً دفيناً – فكيف سيساعدني ذلك؟ أليس هذا عبئاً ثقيلاً عليَّ وحدي، على امتداد الحياة؟».

يتقدم ديفيد ليستلم الهاتف. أُشيح وجهي عنه.

يقول والدي: «لم نتفق. إنَّ تسليط الضوء على بعض القضايا يجب أنْ يكون هو السبيل إلى التقدّم نحو الأمام. إنَّ الأمر لا يتعلَّق بليلة واحدة – أنت لم تكن على ما يرام منذ زمن بعيد. يجب تسليط الضوء».

هنا يقع في الفخ. أنتظرُ قليلاً ريثما يُقرر أنَّ (تسليط الضوء) يعني متلاعبين مُحترفين يتناولون حادثة اختراق الباب الزجاجي. وأسمعه يُجري حواراً داخل عقله. هناك لهاث، هناك ينتصر المُعالِج. هناك أحققُ نجاحاً ساحقاً لأنَّ العلاج كان بسيطاً بساطة اتّهامه في الصحافة وإطلاق حملة خيرية لصالح الأطفال الذين يتعرّضون للضرب.

هذا هو اسمه – ***تحطيم***.

هذا هو شِعاره – ***بابٌ مُحطَّم***.

ألزُم الهدوء. إنَّ إحدى السِّمات المُفيدة للمُذنبين أنَّ خوفهم ينمو من دون حاجة إلى تغذية من الخارج. لاحظتُ ذلك للمرة الأولى خلال الفترة الفاصلة بين طلاق أبويَّ ووفاة والدتي – كان إحساساً ثقيلاً بالذنب لم يتمكن حتى والدي من تحمّله إلّا بصعوبة.

أخيراً يقول متفكِّراً: «برلين، برلين»، وكأنه يسمع بها للمرة الأولى، «أنت لن تتذكّر غيرد، شريكي في نادي بيغو. وهو لم يشترِ حصتي فيه في النهاية. يجب أنْ ألاحقه لكي أحصل على حصتي اللعينة. لا بُدَّ أنها تساوي مبلغاً ضخماً في هذه الأيام – هل تتخيَّل، هذه الأيام؟ شيء لا يُصدَّق. غيرد شبيخت. حينئذٍ لم يكن من الممكن إزاحته».

«لعلَّ في استطاعتي أنْ أتولى هذا الأمر عنك. قلتَ إنها تجارة العائلة التقليدية، هه؟».

«بوجود غيرد شبيخت؟ لا بُدَّ أنكَ تمزح. هذا مستحيل. إنه رجل منحطّ جدّاً. والآن أعطني الطبيب».

«إنه ليس طبيباً».

«أعطني إياه».

أناوله السماعة. يُواكبني ديفيد على طول الرواق إلى الاستقبال، وهناك أرى فتاة دالي تفتح خزائن خلف منضدة الاستقبال. يطلب ديفيد من أبي أنْ ينتظر برهة، ثم يضع يده على السماعة: «أتريد مياهاً معدنية؟» وهو يبتسم لي، وبعد أنْ أهزّ رأسي نفياً، يلوح بيده لفتاة دالي ويقول برقّة: «بعض الماء. وانظري إنْ كان رومان حرّاً لكي يقوم بالحراسة هذه الليلة. وأريد غرفة للحراسة أيضاً. أعتقد أنَّ الساعة الثامنة مناسبة».

إنه يعني الحراسة منعاً للانتحار. أشعر بالتوتر عندما تقترب فتاة دالي من المنضدة. يظهر خادم عند الطاولة. ويهتف نظام اتصال داخلي: «الرجاء من رومان أنْ يأتي إلى الاستقبال - رومان».

أكاد أسمح للاكتئاب أنْ يُسيطر عليَّ عندما ينطلق إنذار الحريق بخرق السكون الذي يسود الفصول، حين تذوب مجموعة من الأصوات في التي تليها.

تندفع موجات الحماس داخلي. يهرع حاجب مُرتَّب الشكل صاعداً من أسفل الرواق ويجتاز ممرات الأبواب كلّها، ويصفع الأبواب بينما يقفز ديفيد ليقوم بعمله. ويبدأ الزبائن بالسير على طول الرواق بخُطى متثاقلة، مسرورين بحدوث تحول في الوضع السائد، وحتى قطة المطبخ - الحيوان المُساعد المزعوم - أخذت تتمشّى بأناقة.

صرخ الحاجب: «في الغرفة الهادئة! دخان!».

يزعق نفير الإنذار، ويندفع ديفيد على طول الرواق، وبينما الزبائن يتدافعون خارجين إلى الفناء الأمامي أتلكأ متراجعاً إلى الوراء وأرى

خزانة المفاتيح خلف النضد. وحالما تغيب فتاة دالي عن الأنظار، أتبيَّن مفتاح غرفتي، وأفتح الخزانة وأختطف منها محفظتي وهاتفي قبل أنْ أهرع خارجاً لأنضم إلى المُجلين.

في الخارج يندفع رذاذ المطر تحت الأضواء الكاشفة، كأحجار كريمة تتلاعب بها نزوة الرياح، بينما الجميع متكتلون معاً في انتظار ظهور اللهب - وكأنهم يأملون أنْ يحدث ذلك، كما بدا لي. وحالما أتيقَّن من شرودهم أختفي بين صفٍّ من الأشجار على طول درب السيارات، وأتسلل بين الظلال إلى الطريق.

في الطريق أمرّ من أمام الغرفة الهادئة.

تُفتَح نافذة، وتُسمع أصوات تقول:

«يبدو أنه ليمون».

«*ليمون*؟».

«إنه عمل متعمَّد. سوف نحتاج إلى وجود رجال الشرطة أيضاً».

«*ليمون* اللعين؟».

-5-

أبتعدُ عن مركز التأهيل بخطٍّ متعرِّج وبخُطى واسعة، وأتلوّى في وجه الريح الباردة كدودة تحاول أنْ تقف باعتدال. لا يهمني إنْ أُلقيَ القبض عليَّ. إنَّ خطّتي هي أنْ أتوجّه مباشرة إلى أقرب مدينة تالية لكي أتلقى إعادة تأهيل. إنَّ إحدى مزايا هذا العصر هي أنك لستَ مُضطرّاً إلى أنْ تتحلّى إلّا بالقليل من البراعة. وتذكّر هذا: لم يتبقَّ هناك متلقّون للبراعة في المجتمع. لست في حاجة إلّا إلى القليل من البراعة والقليل من اللطف. وإذا زاد عن ذلك تُثير الشُّبُهات والغضب، ويُربِك النظام الذي يُدير البلد. ذلك لأنَّ آليات المجتمع مُصمَّمة على قياس الحمق والكسل - وإذا لم تكن هكذا في هذه الأيام يعني، تعريفاً، أنك مُعادٍ للمجتمع. لذلك وفّرت على نفسي دراما اختراق السياجات واجتياز الحقول. إنني ببساطة لست أتوجه إلى البلدة الأقرب، بل إلى البلدة التي تليها، وهذه فكرة بارعة جدّاً. فليس من المربِح لأيّ إنسان أنْ يفتش أبعد من البلدة التالية، خاصة في مكان لم يُزعج أحد فيه الربحَ.

أنا حرٌّ في أنْ أموت. وإدراكُ هذا يمدُّ بالقوة. وكلّ هبّة ريح، وكلّ شق في ورقة نبات يُثير المشاعر كاحتفال الليلة السابقة بعيد الميلاد الخامس. وعندما تقوم بأمرٍ للمرة الأخيرة في حياتك، مهما كان ضئيلاً، يُصبح ذا أهمية. وإذا علِمتَ مُسبقاً أنه آخر أمر - يُصبح بالغ الأهمية.

كلّ شيء يسوده السكون في مركز التأهيل، لكن في أثناء السير على هذا الدرب المحشور بين السياجات تهب الريح من جديد، وأشعر

بألفة. الأغصان الصغيرة تمتدّ نحوي كالمخالب، وأختبئ بينها كلّما مرّت سيارة مسرعة، وأستغلُ هذا المسير لكي أبدأ بابتكار نظرية أخلاقية لليمبوس. لا لتعقيد شيء في أساسِ حرٌّ، بل لكي لا تُعميني البهجة فلا أرى هدفي.

وأبدأ بتحديد سبعة أسباب للموت:

أولاً: إنني أنحدر من عائلة آدمز العاطفية. وأمثّل آخر سلسلة من الحالات النفسية السَّلَفيّة والثقافية التي أخفقتْ إخفاقاً تامّاً ويجب إيقافها.

ثانياً: إنني أستطيع أنْ أرى بوضوح تامّ التحركات الغامضة للبشر النشطين، وأرى أنها مفترسة وزائفة. ولا يمكن لأحد أنْ يثق في أنني سأتصرف بصورة مثالية. إنَّ كلّ ما أحتاج إلى معرفته عن التعاملات البشرية كان يمكن أنْ أتعلّمه من مراقبة أطفال في التاسعة وهم يلعبون في الفناء. إننا كأيّ قرد نتنافس على أدواتنا العقلية لكي نحظى بسيطرة خفيّة. وبعد هذا، تُصبح العملية المُسمّاة بالنضج مجرد قناع[18]، والحياة الاجتماعية مجرد فرصة لنتعلَّم أنَّ الله لا يحبّ الفقراء.

ثالثاً: لقد خلُصَ أبرز المفكرين على امتداد التاريخ في نهاية المطاف إلى أنَّ عيوبنا من فرط القوة بحيث لا يمكن ائتماننا على الحرية. وهكذا، وُضِعنا كالقوارض داخل دولاب يدور لمتعة القِلّة الضاحكة. لنْ تُنجَز بعد الآن أعمال عظيمة في ظل النظام السائد، لأنَّ الجمال ليس ديموقراطيّاً أو مُربِحاً.

رابعاً: بالنظر إلى ما سبق، فإنَّ صورة الشخص الذي أريد أنْ أكون لا يمكنني إنجازها؛ ولن أتمكن حتى من مُحاكاة زخارفها بصورة كافية.

18 – كم ابتعدنا عن حقيقة أنفسنا كقرود! إننا نعتبر أنَّ من سوء الحظ أننا أمضينا حياتنا وسط الروائح الكريهة والجراثيم. إنَّ الغرور يرافقه العطر، ولاحقاً سوقٌ لجأت إلى الصور المتحركة لتُشير إلينا. الآن أصبحت سوائلنا زرقاء اللون، وصورنا الفوتوغرافية أُعيدَ تركيبها لتتلاءم مع أهداف الصور المتحركة، واستمرت الحياة الاجتماعية والجنسية لجيل كامل دون أنْ تتلوّث بأيّ اتّصال إنسانيّ. إذن وداعاً، وداعاً! – المؤلِّف

خامساً: إنَّ الحبّ، الذي يُعتبَر السبب الرئيس للحياة، هو مجرد شريط الأضرار العقلية اللاصق الذي يعثر على عدوّ ويلتصق به. والنتيجة هي تكلُّس الروح. الحبّ هو دعوة إلى الموت، وليس إلى الحياة، ورفرفته في القلب هي نذير نهاية مثل الحشرجة التي تصدر عن حنجرة جثّة.

سادساً: إنَّ لحظات الذروة التي تتفجَّر ذواتنا المثالية خلالها ببطولة بالحياة، ونحلم بها ونتصيَّدها، لن تحدث أبداً بسبب القيود التي تحيط بشخصياتنا. ولم أعثر على ركن تنطلق فيه حيويتي المكبوتة وتمرح إلّا باختيار الموت؛ وفي رأيي إنه ثمن مُنصِف مقابل مشاهدة ومض الحياة مرة واحدة على الأقلّ[19].

سابعاً: الدوافع المتعصبة واضحة حول كيفية عمل الأشياء. لقد قادنا بروز العِلم كمصدر للحِكمة - العِلم الذي يربط المعرفة الضعيفة الحالية بكلّ الوقائع - بعيداً عن أشد حقائق الحظ وضوحاً: عند المخلوقات المُفكِّرة كلّ سعادة ليست مُستمدّة من المواد المُسكِرة زائفة. ولطالما كان هذا صحيحاً. هذا هو سبب وجود المُسكرات في الطبيعة. لكنَّ ثمن تعاطي المُسكِرات هو الموت. إنَّ الرسالة بسيطة: كُنْ سعيداً لفترة وجيزة - إذ لا وجود لسعادة طويلة الأمد - ثم تنحَّ جانباً.

لدى اقترابي من ضوء مصابيح الشارع بدت السماء ليلاً أشبه بحوض مائي، والسحب تتسلل معاً كحلزون البحر لتتغذى هناك. همهمة

19- *لِمَ يجب أنْ أموت الآن؟* إنَّ الأسباب العملية لموتي هي كالتالي، وهي تنطبق عليك أنت أيضاً. يجب أنْ نعترف بأنَّ قرع هذه الأسباب على أبوابنا قد تطورت وأضحت ضرباً قويّاً وتحطيماً وخلعاً باستخدام الأدوات. وبالتزامي بالموت عثرت على دافع لعيش حياة من الحيوية العذبة وثقة في النفس لطالما تقت إليها. ومع اقتراب مرحلة النسيان، هدأت ثورات غضبي وجراحي، وأصبحتُ حرّاً. أصبح للحياة الآن وقت مُقدَّر، على هيئة قمع أنيق، ويمكنني أنْ أزيِّن هذا الوقت منهجيّاً بجماليات وأفكار جريئة أتخيَّل أني قد أتوق إليها بقوة في عهد الشيخوخة؛ لأننا لا نقوم بالأشياء التي علينا القيام بها، ولا نتوقّع نهايتنا - في حين إنه إذا كان للموت وقت مُحدَّد فسوف نُسرع إلى إنجازها كلّها. - المؤلف

إنكلترا يخترقها هدير المطر، ترشّ حفنات منه وجهي، مع دفعات من الضجيج المُهشَّم. وسرعان ما تظهر أمامي بلدة إنكليزية تقليدية. تتألّف من أحد فروع تيسكو[20]، ومستودع هواتف السيارات، ومحلّ و. هـ. سميث، ومحلّ بيع منتجات فودافون، ومحلّ برتون للملابس الرجالية، وسوبرماركت آرغوس، ومحلّ لبيع الأحذية والقمصان، ومحلّ بيع برغر كينغ، ومحلّ شطائر KFC، وقطار نفقي، ومحلّ هالفورد لبيع قطع غيار السيارات والدراجات، ومحطة خدمة وقود شل، ومرطبات أيسلند، ومحلّ شطائر ماكدونالد، ومركزين للأعمال الخيرية، ومحلّات بيع أدوات بثلاثة جنيهات، ومحطة قطار ومركز للشرطة.

ثمة كنيسة غوطيّة الطراز مُعتمة خلف الأشجار.

أشعر بالهدوء لوجودي على أرضي اللاهثة. لعلَّ إمبراطورية بريطانيا هي إمبراطورية الإمبريالية الحديثة، من اختراع أشدّ أوغادها جاذبية، لكنني أُقرر أنَّ عيبها الأكبر ليس ذنب بريطانيا. بل هو بكلّ بساطة، وكأيّ شيء يبشر بالأمل، ذنب الطبيعة وبراعتها في المزاح. والطبيعة الحمقاء، التي تدفعنا الكنيسة إلى التغنّي بها بوصفها نظاماً مثاليّاً، أعاقتنا كما تُعيق وتقتل كلّ شيء وفق خطّة رديئة. وكلّ ما دفعتنا الطبيعة إلى إنجازه عبر التاريخ جعلنا اليوم رخوين كبراز الأطفال. وبلدي الحبيب، الذي كان في أوج إنجازه، قام بالهجمة الكبرى.

وبعض الإصلاح مُستمَدّ من الطبيعة.

وسوف نخوض في هذه النقطة، في لحظة صفاء، مع كأس من النبيذ.

مرّت سيارة إطفاء تزأر وتومض بأضوائها. أعطيتها ظهري ورحتُ أحدِّق إلى محلّ شطائر برغر كينغ كأنني أريد أنْ أشتري. ولكني فجأة - أرى جَمالاً هناك. كان ضوء النيون قد أعتم في زاوية الإعلان، مُسبباً تدرُّجاً مرهفاً في لون الأحمر، من أحمر الفلفل إلى لون الدم الجافّ.

20- تيسكو: ثاني أشهر سلسلة محلات بيع التجزئة بعد وول مارت في إنكلترا والعالم.
- المترجم

والجزء المُعتِم يقع في الأسفل، مُشكِّلاً كتلة قاتمة هناك، لكنَّ اللون الدموي القديم يتلألأ بأضواء تُسلطها مصابيح أخرى قريبة. وأفكر، ليس هناك لون أرجواني خفيف أو زنبقي يُضاهي لون هذا الجزء من الإعلان.

طبعاً لم يكن أيّ منها يُضيء كلمة (كينغ).

لدى وصولي إلى محطة القطار أجد أنها تضجّ برتابة تيار متناوب من الفتور والحنق، يسري بين القطارات كما عندما تنطلق بسرعة مارة دون توقف. أضغط زرّ الهاتف وأسمع صوته وهو يُظهِر سلسلة من الرسائل.

أقول لقاطع التذاكر: «بطاقة إلى لندن من فضلك».

ينظر: «ثمانية وأربعين جنيهاً وثلاثين سنتاً».

«لشخص واحد؟ أي بواقع جنيه لكلّ دقيقة. والدرجة الأولى؟».

«خمسة وخمسين».

«إذن، أريد بطاقة لشخص واحد في الدرجة الأولى».

حدَّقَ الموظف عالياً من فوق نظارته. «إذا أردتَ رحلة خاصة، أستطيع أنْ أوفّر عليك مقابل اثنين وثلاثين».

«فليكن إذن، من فضلك، الرحلة التالية».

ضيَّق عينيه وهو ينظر إلى الشاشة: «سيكلفك ذلك واحداً وعشرين وستة وثلاثين. وسيغادر بعد عشر دقائق».

بعد أنِ ابتعت البطاقة انتقلت إلى الدكان ورحتُ أتمايل قليلاً أمام قسم الشطائر. إنَّ هذه المهنة الوطنية الرصينة تستحق الاستمتاع بمذاقها للمرة الأخيرة، بما تتميز به من فظاعة لذيذة في سوء الانتقاء وبهذا تقلّص السعادة. لا أقترب كثيراً من ذلك القسم لأنَّ هناك آلة تصوير تراقب، وهذا يعني أنني مشبوه. وكما أنه يمكن للجرف العالي أنْ يكون مُخيفاً إلّا إذا دفعتكَ فكرة مجنونة إلى رمي نفسك منه، كذلك يُستحسَن الابتعاد قليلاً عن القسم لأنهم ربما، بما أنني مشبوه، يعرفون شيئاً لا أعرفه. قد أختطف واحدة لاإراديّاً، تحت ضغط التمعّن في النظر.

آه، الشطائر – اللعبة الجميلة.

عندما يحين وقت الانتقاء، ألزمُ جانبَ الأمان وأختارُ البيض. أشتري تلك التي فيها أكبر كمية من المحّ، ولكن بعد ذلك عندما أرفع رغيف الخبز أرى صفّاً من المُحّ المُقطّع إلى أنصاف شرائح في المقدمة، مع قطعة وحيدة من البياض على الجزء الممتدّ إلى الخلف.

وهكذا تقلّص حجم السعادة. وأشقّ طريقي إلى رصيف المحطة. الضجيج عالٍ جدّاً بسبب الاعتذارات التي تصدر عن مكبّر الصوت حتى إنني لا أسمع الرسائل التي تردني عبر الهاتف المحمول، وبدل ذلك أُصيخ سمعي للأساليب المتنوعة للاعتذار على الفوضى العارمة، فإذا بها واحدة. ويصل القطار في موعده، ولكن بينما أرتقي متنه، تتقدم حارسة الرصيف لكي تتفقّد بطاقتي. إنها جميلة، وبدأ يبرز كاحلاها الضخمان ووركاها مما دلَّ على أنَّ الرحلة إلى الشمال؛ رحلة فخمة بالمقارنة مع الرحلة إلى الجنوب، حيث تُلبَس البناطيل تحت الفستان كأنه يُلغي المؤخرة كلّيّاً.

تُشير إلى البطاقة: «أخشى أنَّ هذه الرحلة ليست لك».

«ماذا؟ ولكنها التاسعة وست وثلاثون دقيقة»، وبينما أقول هذا، يُبطئ ضابط مار خطوته وهو يقوم بدوريته، ويُلقي نظرة ليُقيِّم احتمال وقوع جريمة قتل.

«أخشى أنَّ هذه الرحلة أُلغيَتْ. إنَّ هذه رحلة متأخرة وتنطلق عند التاسعة واثنتي عشرة. وعليك أنْ تنتظر وتلحق بالرحلة التالية».

أنظرُ إلى داخل العربة الخالية. لا أستطيع أنْ أفوِّت هذا القطار، إنني أشعر بسلطات إعادة التأهيل، ووالدي، وربما رجال الشرطة، يلاحقونني.

«تقتضي شروط أجرة التوفير أنه في حالة إلغاء رحلة تلحق بالتي تليها. وهي تنطلق في التاسعة وتسع وخمسين، على الرغم من أنها لن تنطلق الآن إلّا في العاشرة وعشرين دقيقة».

«وكيف أستقلّ ذلك القطار؟».

«أخشى أنَّ عليك أنْ تحجز بطاقة جديدة - عليك أنْ تدفع كامل الأجرة المرنة على متن القطار».

«وهل أستطيع أنْ ألغي هذه البطاقة؟».

«أخشى أنَّ شروط أجرة التوفير -».

«ولكني اشتريتها قبل عشر دقائق فقط».

«أخشى أنَّ الرحلة أُلغيت في هذه اللحظة بالذات. يمكنك أنْ تطلب استمارة من المكتب وتقدمها إلى قسم خدمات الزبون. في الواقع، إنّ الشروط واللوائح -».

انتظرتُ إلى أنِ انتهت من إلقاء الشرط-الفخ، ثم نظرتُ إليها فوجدتُها في حالة استعداد، والضابط ينتظر يقظاً في حال لجأتُ إلى التهديد أو إلى استخدام لغة مُهينة، في حين إنَّ كلّ ما حولنا، بدءاً بكلّ قبّة وصدع، وكلّ برج وسارية، وما أنتجته الفاشية، وشكّلته الدولة لتزيل به قذارتها، يُراقبنا على شرائط فيديو. أخيراً أحكُّ رأسي وأقول: «همم، حسن. لا أستطيع أنْ ألومك».

تنصبُ رأسها تعاطفاً، وتشرد. والضابط أيضاً يُواصل طريقه، خائب الأمل. هذا الحديث يُبرِزُ مشكلتي مع الحرب على الرأسمالية: إنَّ عقولها الجبارة المجرمة تنأى بنفسها عن المُحاسبة خلف مُسننات الحياة المُحكمة، وتسحق حياتها الخاصة بين الكمّاشات والمُسننات.

إنه ستار إنساني يُغطي المجتمع بأكمله.

لو أنَّ في استطاعتي أنْ أقابل القِوى المُبهمة لاختلف الأمر. أعطنيّ القِوى المُبهمة! التي استنزفتنا شيئاً فشيئاً إلى أنْ بدأنا نتقبّل المهانة، ضَعنا كلّنا في غرفة واحدة ومن ثم نرى.

أشتري بطاقة أخرى بثمن كامل إلى لندن. تتحرك مصادر الإحباط داخل عقلي كتوزيع ورق اللعب، ليس أقلّها أنَّ لغتنا تُنشئنا على كلمات مثل (أخشى) و(آسف). ولا شك في أنَّه لا توجد لغة أخرى تمهد طريقها بنفسها نحو الرعب. ثم تأخّر قطار الساعة التاسعة وعشرين دقيقة

لأنَّ السكّة والإشارات الضوئية تحتاج إلى استثمار وهو مُكلف أكثر من الممكن؛ إنَّ بطاقتي تكلِّف خمس مرات أكثر مما تكلّف في هولندا لأنَّ على الشركة أنْ تدعم تلك البنية التحتية المتهالكة في حين إنها في الوقت نفسه توسِّع أرباحها؛ وأجرة التوفير أرخص لأنَّ عدداً أقلّ سوف يسافرون في واقع الأمر، لأنهم حُفِروا على دولاب التأخير الدوّار أو وقعوا ضحية خدعة بند قذر.

إليك فحوى الأمر: إنَّ كلّ تحليق وانطلاق للأمل، وكلّ حنق وهدوء، وقرقعة وهدير كلّ حياة تدين بشكلها المعاصر إلى شيء واحد - الربح الذي يجنيه الآخرون المجهولون. وفي حادثة السرقة هذه سلكتُ طريق الرجل الإنكليزي للخروج وقررتُ ببساطة ألّا ألجأ إلى هذه الوسيلة للانتقال. بل إنَّ مزاجي أصبح مرحاً بالنكات التي يُثيرها هذا الحادث. لن ألجأ مرة أخرى إلى هذه الوسيلة للسفر ولو على جثتي. ها ها.

لدى مرور القطار عبر بلدة ستيفنيج لاحظتُ أنَّه لا يوجد من المسافرين إلّا الخنافس. بقع صغيرة متوردة، ذات أطراف نحيلة ومتشبثة. المحظوظة بينها تعثر على صحف متروكة على المقاعد أو على الأرض وتقرؤها، تستهجن بينما النوافذ تومض بالمنشآت الصناعية، والطرقات وأعمال الطرقات، بالعربات المتنقلة وبالسيارات التي تراوغ وتندفع بسرعة خلفها وكأنها تسبح في الغائط. هكذا كانت آخر رحلة لي على متن قطار، مونتاجاً سريعاً جدّاً للأشياء الثابتة في مكانها. وأتلفّت حولي وأتساءل ما الذي يجعل أقراني يتحمّلون مثل هذه الحياة. كيف يستطيعون أنْ يتحمّلوا النهار وأنا لا أستطيع؟ أهناك سرٌّ في العيش يجعل شروطه مستحيلة؟ إلغاء التوقّع وسيطرة الدنيوي؟ أم إنهم تعوَّدوا على الاغتصاب.

أُقرر أنَّ الرحلة ليست إلّا درساً في عدم العيش في الضياع. وإنْ كان هناك وقت تسعى فيه لقضاء فترة من الراحة، فهذا هو. في الضياع ليست هناك أية إشارة إلى المستقبل، وقد فوجئت بأنه فسحة رأسمالية بصورة

طبيعية. لعلها الفسحة الرأسمالية المثالية، وأساسية تماماً. ليس للضياع ميزانية، ولا تثمين، ولا حدود. إنها إنفاق. كان يمكن أنْ أشتري كلّ تلك الشطائر في المحطة وأنتقي أفضلها. ولم أكن في حاجة إلى معاناة مهانة أجرة التوفير.

أخيراً توصلتُ إلى الإلمام بجمال المال: إنه يرتفع بالحياة إلى الذرى، فوق سُحُب الشروط واللوائح. إنه لا يعترف بأية شروط أو لوائح غير التملُّك. لا يُرافق الأجرة المرنة الكاملة أية جريمة قتل. وعلى الرغم من أنه يُطلَب منا أنْ نقبل أنْ نُسرَق صراحة - فهل للسرقة وجود في عالم الضياع؟ إذا كان الضياع خالياً من المستقبل، فالسرقة لا تُجرّدنا من أية فائدة مستقبلية. إذن لا يمكن للسرقة أنْ توجد، إلّا إذا جرّدتنا من مدخراتنا كلّها منذ البداية.

تلوح رؤيا في الأفق.

لطالما تساءلتُ لماذا يسمح القانون للشركات بالقيام بسرقات صغيرة من الأفراد، ولا يسمح للأفراد بسرقة الشركات. ولماذا لم تعُد الحكومات تُعزز رؤى حول مجتمع المستقبل، لماذا لا تتحدث الوعود إلّا عن خير أكثر وشرّ أقلّ:

الرأسمالية هي ضياع.

إنها ليست بناء بل لا بناء. لا تتوجه نحو نهاية مُحدَّدة، بل تحوم فوق حاضرٍ دائم، حاصدة دفقاً من الدوافع الإنسانية العاجزة. إنها تبني مستقبلاً آمناً، ولا تُخلِّف وراءها صروحاً عظيمة، ولا تُعِدُّ أحداً لِما هو قادم. ولِمَ تفعل؟ إننا لا نتقدَّم في عصرٍ من الحضارة بل نعوم بين نظامي ويندوز وماكنتوش، نتخبّط في الماء.

الرؤيا هي سخرية موجَّهة من الأفكار المتعصبة. وبعثوري على الاستسلام الأنقى قبل الموت، وبتفادي عبادة الأسواق الحرّة - أصبحتُ متلائماً مع نفسي.

وووش بسرعة – يحدث انتفاخ للجسم.

أتلفّتُ حولي وإذا بالأشياء تصبح فجأة كالحلم. أنا إيبينيزر سكروج[21] في رحلة أخلاقية حول الواقع الثقافي. حتى أبناء بلدي على متن القطار هم نتاج مثاليّ، خنافس بدينة تحتوي أكياساً من مخزون السكر والدهن، ولها أطراف فيها من القوة ما يكفي للتعامل مع صناديق النقود والمحلّات التجارية – أو شاحبة وجامدة كأبي الهول، لها عيون ناعسة يشع منها السخط[22].

يجب أنْ أضع نُصب عينيَّ يمبوساً أرقى، تفوح منه رائحة صابون الفنادق، حيث يُبدي شبان سويسريون غرباء اهتمامهم بي. أمسية أكثر روعة من أية ليلة أخرى منذ سقوط روما – إنني أطلبها الآن، كرأسمالي حديث العهد، أنظر إلى الليل عبر النافذة. تعالي، أيتها الأفكار المتعصبة، حققي لي هذه الرغبة.

ودعينا نتأمل روعة أسلوب تحقّقها!

في غمرة أحلام يقظتي ذكّرني إنسان الهاتف الآلي بأنَّ لديَّ رسائل صوتية. ولكن هناك مشكلة حديثة: إنَّ رصيدي من المكالمات منخفض، وإذا اتصلتُ بشركة فودافون لكي أكتتب على بطاقة الدفع المُسبق، فسوف يعمل مصرف لويدز على الفور على إغلاق حسابي. وإشارة الإضافة على رصيد الهاتف النقّال تعطي صوتاً زائفاً. إذن لن أتمكن من إزالة الإغلاق لأنَّ الهاتف سوف يفرغ من الرصيد في أثناء إصغائي إلى قوائم لويدز

21- إيبينيزر سكروج: بطل قصة تشارلز ديكنز «*ترتيلة عيد الميلاد*»، ويرمز إلى البُخل الشديد والطمع وانعدام الرحمة. - المترجم

22- إنَّ المنشآت الإنسانية لا تعكس إلّا صورة الجسد الإنساني وسلوكياته: انظر إلى أيّ نظام وضعه البشر وسوف ترى أنه ينسخ بصورة غير واعية تقنية عمل أجسادنا. بدءاً بالحكومات إلى المدن والمطاعِم والمصارف وأدوات التسليف – كلّها نماذج للتزود وطلب الأوكسجين والطعام، وانتقالهما، وتحولهما والتخلّص منهما. ثم لاحظ العكس: إنَّ أجسادنا تشبه المجتمع من حولنا. أهي صحيّة، أهي ملائمة، أم مرحة أم مُهذّبة؟ انظر حولك في القطار: ترى الثقافة عارية. - المؤلف

الآلية. ولن أتمكن من الحصول على النقود لأشتري رصيداً من الدكان لأنّ الإغلاق سوف يستمر إلى أنْ أتّصل بلويدز. بل إنني لن أتمكن من الاتصال بفودافون - لأنها ستطلب رصيداً لكي تناقش الرصيد.

إنَّ الهاتف يمرّ بحالة احتضار الضياع الخاص به. بضغط من الأسواق. يا له من رمز. كم نحن متشابهون. وفجأة يُصبح الضياع هو مفتاح فهم الحداثة برمّتها. وفي كلّ الأحوال، أُقرر بسرعة ما يلي: سوف أستمع إلى رسالة واحدة وأستخدم باقي الرصيد لاستدعاء سميتس من خلف عربدة الليل.

لن أتمكن أبداً من ملء الهاتف بعد الآن.

ما دمتُ حيّاً، ها ها.

الرسالة من سارة، صديقتي حتى يوم أمس:

تقول: «إنه أنا. لكي لا تلومني لعدم تحذيرك، إنَّ هيميش سيزورك في منزلك هذه الليلة. يريد أنْ يقتلك، حبّاً بالله افعل ما يريد. يجب أنْ توقِّع على ترك مجموعة العمل، والأوراق في حوزته، ونايجل هو أمين الصندوق الجديد. ياسين Yaseen يريد أنْ تعطيه نصّك من أجل الكُتيِّب. وهو أيضاً ليس سعيداً، الاثنان خرجا بكفالة لكي يمثلا أمام المحكمة غداً. لقد أخبرتهما أنك لا يمكن أنْ تلمس قرشاً واحداً من الصندوق. ولكن هذه آخر مرة أشهد فيها لصالحك، يا غابرييل. إنني أشعر بأني حمقاء لعينة. جميعنا نشعر هكذا. لقد ظننا أننا حسّاسون جدّاً - لكنه مجرد ضعف. قصور بورجوازيّ. إنَّ كلّ ما تحتاج إليه قِوى الربح لكي تدمِّر هذا العالم هو حفنة من الرجال أمثالك، ليس لديهم إلّا الكلام، ولا فعل. على أية حال، لا تعاود الاتصال بي. إذا وجدتَ شيئاً من أجل دوغلاس وفاي، أرسله عبر ياسين».

هنا تنتهي الرسالة. آه حسن. كم تبدو حياتي السابقة نائية. إنني مُنفصل عنها وكأنني أستخدم iPod. حتى الأفكار السياسية اليقينية الكامنة خلف مجموعة عملنا لفتت انتباههم في غضون يوم واحد - وقفزتُ من جديد

على متن هذا القطار وحدي. والعزيزة سارة، الثوريّة، لا زالت حانقة بشأن هدية من أجل دوغلاس وفاي لحضور حفل عشاء يُقام في فولام. ثم تنعتني بالبورجوازي!

أسترخي على مقعدي وأفكِّر في علاقتنا، المكشوفة أمامي هنا. سوف تعلم أنَّ العلاقة الرومانسية تبدأ عندما نصيد شيئاً طائراً في الهواء. وحالما يقع في الفخ يسقط لكي يُعلَّق كشيء ذي أهمية أو يُثبَّت معاً على قضبان وعلى المدى الطويل يُفسَّر ذلك على أنه حبّ. لكنَّ هذه العلاقة الرومانسية لم تبدأ بشيء يطير. لقد عثر كلٌّ منا على صيد الآخر يجرّ نفسه على الأرض، ووطأ بقدمه عليه. لم يكن انتفاخ بطنها يتألَّم من لمسة يدي، ولم يكن صدري الغائر يضرب بقوة تحت وطأة تحديقها. ولم تضمَّنا بوتقة الغضب، ولا نفَّسنا عن ضغوط مكبوتة بالشهقات. لم نمارس على ملعبنا إلّا لعبة واحدة: «لولا أنت»، التي يمكن ممارستها على ملاعب من كلّ الأحجام. آه حسن. من هذا نتعلَّم درساً سوف نناقشه أنا وأنت لاحقاً، في حالة ذهنية أشدّ كسلاً، ومع كأس من النبيذ. سوف ترى أنني تفحّصتُ عن قرب آليات العلاقة الرومانسية، ولكن أؤكد لك أنَّ هذه العلاقة كانت مُميَّزة بسبب افتقارها إلى مقوّمات الحبّ الرومانسي، بما فيها الرومانس، أو الحبّ. طبعاً تميَّزت بجاذبية الليلة الواحدة العابرة، عندما كانت وجهات نظرنا بالمصادفة متناغمة. وتمَّت الإشارة سرّاً إلى الجمع بين روحينا - ولم يعمل أحد على تحقيق ذلك الحلم الذي يُثير الضحك. ومع ذلك، كان كافياً لتحريك العوارض المَرَضيّة التي ربطت بيننا. هذا ما يحدث عادة عندما تدعونا الطبيعة إلى الاعتقاد أنَّ هذا من عمل القَدَر، إذ أيّ شيء آخر يمكن أنْ يُفسِّر لغز ارتباط شخصين غريبين؟ حسن، كلّا. ليس القَدَر مَنْ كان حاضراً، بل المرض. ومع ذلك، بهذه الخصائص كانت علاقتنا إنكليزية حقيقية، وإنسانية، وأنا أدافع عنها، وعن زوجتي. وفقدان تلك الصفات الروتينية القاهرة سيكون كالضربة القاضية بالنسبة إلى سارة. وأنا فقط آمل، بما أنَّ

ألعابنا المُثيرة للشفقة تختفي خلف واجهة عامة، أنْ تتظاهر حتى النهاية بأنَّ الخسارة هي حبّ مأساويّ وتستمتع بما ينتج عنه من هجران. إنه نوع من الضياع، وإرثٌ مناسب جدّاً مني.

على الرغم من أنني أصبحت الآن شبحاً إلّا أنَّ الخسارة تصدمني مع ذلك. إنها رباطٌ آخر يُقطَع مع الأرض. قد يبدو كلامي هذا مُثيراً للكآبة، يا صديقي، وأنا لا أفعل ذلك ازدراءً لرؤى الحبّ، بل اعتناقاً لها. لقد حلمتُ بخدمة روح لطيفة، طبعاً فعلتُ - بصاحبة قلب مبتهج، عازم، قلب ورّطني في معركة حول أمور هامة، خرقت أيّ جزء مني حرفَ نعيمنا، وسيطر عليَّ في غفلة من نفسي. امرأة تولّت عملي وأولتني عملها. بل إنني تصوّرتها ضئيلة البُنية، جميلة، ذات شعر أسود بلون الكهرمان، لا تتجهم أبداً أو ترمي ملاحظات جانبية تُثير الشك، بل تحلّ مشاحناتنا بقتال الوسائد. ولا حاجة إلى القول بأنني لم أقابل مثل تلك الروح من قبل. في زماننا ومكاننا كان الأشخاص الذين عثرت عليهم كلّهم حبيسي ذواتهم، ومنهمكين في نرجسيتهم إلى درجة أنهم لم يشعروا بيدي الممدودة إليهم.

آه حسن. يبدأ ذهني باصطياد أشياء يصبو إليها، هكذا يعمل، يتقدم على طول سلسلة من وسائل العزاء المستقبلية ويُحصيها فور ورودها. إنني أراه الآن كأداة يدوية. ولكن مع ذلك أتركه يحوم إلى أنْ يستقر على نلسون سميتس. كم سننغمس في الملذات. وفكّرت في أنه من بين الأصدقاء الذين تعرّفنا إليهم على مدى سنوات العمر، لم يكن كلّ منهم مناسباً للظروف كلّها. كان لكلٍّ منهم وقته، أوقات ازدهارهم وأفولهم. لكنَّ هذه الليلة تضربها العواصف، هذه الرحلة الطويلة على شفا النسيان - هذه هي ليلة سميتس.

بديهة: لطالما وددتُ لو كنتُ هو.

أصبح سميتس طاهياً عظيماً، على الرغم من أنَّ طِباعه لا تخوّله أنْ يكون مُستَخدَماً بالمعنى العادي للكلمة، إلّا أنَّ العالم الحسّي السفلي

جرّه إلى أندر أعماقه. وبعيداً عن فصول صيف الطفولة التي كان والداه بالتبنّي يستدعيانه خلالها من جنوب إفريقيا، انطلقنا معاً لاحقاً لنصبح طاهيين. وكان والدي مسؤولاً عن ذلك بصورة غير مباشرة. وبما تبقّى من تبجّحه حول افتتاح نادٍ في برلين، والنقود التي حصل عليها من مصدر غامض، شاركَ كنديّاً متأنّقاً يُدعى تاترسفيلد في افتتاح مطعم ومقهى صغير في كيلبرن هاي رود. سمياه Coup de Grace (رصاصة الرحمة)، بصورة تدعو إلى الرثاء. لم يُطبخ هناك أيّ شيء جيد بحيث يُزيل رائحة الدهان الحديث، حتى عند تقديم أنواع الصلصة الصفراوية، لم يكونا يكفّان عن المُشاحنة حول اسمها. كانا يتشاجران حول ما إذا كان نُطق العنوان Coup de Grace سوف يجذب من الانتباه مثل نطقه بـ Cup de Grace أو Coupe de Gras أو Ku-D-Gras، كما اقترح الأبله المتأنّق تاترسفيلد قبيل أنْ يجعل حبيبته الحمقاء حبلى. وإلى هذا أضاف فماً صارخاً اسمه لوفي إلى لائحة رواتب المقهى، وضربة قاصمة إلى نوائبه الثقيلة.

وفي أثناء ذلك كلّه، كنتُ مع سميتس نسكن المطبخ.

وهناك نمتِ الأحلام.

كنا سنصبح طاهيين عبقريين. سيبكي الذواقة من فرادة إبداعاتنا، سينتحرون في يأس منتشٍ. حلمنا بافتتاح مطعم اسمه نيمبوس (هالة)، تيمّناً بالهالة التي تُحيط برؤوس القديسين - لأنَّ أطباقنا سوف تُضيء هالة حول رؤوس زبائننا المواظبين. لن يحمل المكان يافطة، وسوف يُتداول اسمه همساً. سوف يبقى طيّ الكتمان، ولا يُسمح للأزواج بدخوله. وبعد التوقيع على الوصيّة والوثيقة الأخيرة، يُربَط الزبائن بعد تناول الطعام إلى كراسي صيد ويتدثّرون بغطاء من الكتّان يستعملونه لكي يُجففوا دموعهم.

وأثرنا إشاعات تقول إنَّ والدينا أرسلانا إلى كلّية الطهي.

ولكن بعد مرور أسبوع بات جليّاً أنني لم أكن أملك إلّا قبض الريح،

وأخلو من أية موهبة. إلى جانب أني كنتُ أخاف السكاكين واللهب. هذه الصفعة من الحقيقة أنهت عهدي بمدرسة الطهي. وتسللتُ عائداً إلى البيت لأساعد أبي في تدعيم تفاهتي؛ وهي مهمة أدَّيناها بكلّ استمتاع المتحمسين المثاليين.

لكنَّ سميتس كان يتمتع بعبقرية حقيقية. بالنسبة إليه الطعام مادة خيميائية سرية. كان يرتعش لدى ذِكر الطعام، ويُطلق زمام أحاسيسه عليه إلى أنْ تكشف كلّ قطعة صغيرة من اللحم، كلّ عود من البهار عن آخر أسرارها. بين يديه تومض شفرات السكاكين كضوء الشمس. ومع ذلك حانت ساعة اختباره الأخير وانقضتْ من دونه. وعُزيَ سبب غيابه إلى مزاجه الخاص، الذي كان في ذلك الوقت يُعتبَر ظاهرة مناخيّة في الجامعة. ولكن بعد ذلك تلقّى عدد من رفاقه من الطلاب وبعض الأساتذة دعوة لحضور عملية إحراق جثة. كان سميتس قد حجز فترة عشرين دقيقة بين الجنازات، وفي أثناء الامتحان كان قد طبخ بأسلوب مثالي خنزيراً رضيعاً أُخِذَ مباشرة من رحم أمه، قبل أنْ يولد ولادة طبيعية. مع وصول رفاقه في الجامعة كان سميتس قد رحل - لكنَّ الخنزير كان موجوداً، يتصاعد البخار منه تحت قبّة طبق التقديم.

في الكليّة شقّوا الحيوان، في أول الأمر صبّوا جام غضبهم على سميتس لأنَّ الأعضاء الحيوية كانت لا تزال في داخله. ثم رأى أحد الأساتذة أنَّ الأحشاء مُبطّنة بالمعجنات، والأمعاء عبارة عن كعكة سوداء اللون من أنواع الجوز البري، والكبد كتلة من عجينة كبد الإوز، والكليتين من معجّنات الرافيولي مع الجوز الأرمد، وكلّ شيء في مكانه الصحيح تشريحيّاً. وعندما قطّعوا الزلابية الزرقاء والصفراء بلون الذرة التي هي القلب، خرجت من الصلصة الخفيفة القرمزية رقائق ذهبية وانتشرت على الطبق.

ووُلِدت عبقرية في دهاليز المطبخ السفلية.

وكان سميتس يتمتع بمزايا أخرى. لقد أتى إلى الحياة مع بُنية جرو

رقيقة، وعينين ورموش تجعل كلّ شخص يرغب في لمسه والاعتناء به. ومع انصرام ذروة شبابنا، بدأتِ الطبيعة تنحت جسم سميتس. فضاق وركاه بصورة قاسية، وأصبح كتفاه وذراعاه أشبه بمخالب سرطان ضخم. وفي المقابل كانت الطبيعة تعتني بي. فجحظتْ عيناي بصورة تدعو إلى الاعتذار، ومالتْ بُنيتي الشبيهة ببنية أفراد العصابات نحو الخلف وكأنها تتفادى ضربة وشيكة. لم يكن أمامي إلّا أنْ أُنمّي سِمات خاصة في شخصيتي وأُحدِّق بإمعان من كآبتي الكامنة خلفها. في تلك الأثناء كان سميتس يتمدد تحت تموجات أشعة الشمس، مع كلّ ما يتناغم مع ذلك ويُشكِّل جواز سفر غير مُعلَن إلى المجتمع. وهذا لا يعني أنه كان فظّاً مثل الرجال القُساة والغاضبين، بالأحرى لقد شُكِّلَ ونُحِتَ ليتلاءم مع الطبيعة، ليكون أحد المتباهين بها، كطائر الطنّان أو يوم صيفي. كان يعبِّر بخشونة صوته الرقيقة عن أفكارٍ بسيطة بكلمات أنغلو-سكسونية بلا إحساس، وكلّ فعل يقوم به، حتى وإنْ كان ابتلاع لعابه، كان يتطلّب جهداً عضليّاً مُضنياً من جسمه كلّه. ومع تقدمنا في العمر صرتُ أشعر بأنَّ الفتيات لا يقوين على مقاومة سِحره. كنَّ يُصبحن حمقاوات وينسين أنفسهن. في حين إنهنّ معي كنَّ يتذكّرن أنفسهن - أو الأسوأ، يتذكّرن طموحاتهن العالية - بل يستخدمنني لشحذ نزواتهن الخشنة. وأعتقد أنَّ هذا هو سبب توجيه نوبات توتّري نحو الداخل، في حين إنَّ توتّره كان موجّهاً نحو الجلد حيث تقع الأصابع والألسنة فريسة هوس عاجز. كان سميتس يُثير شعوراً حميماً بمجرد حضوره. وكانت الفتيات العاديات على استعداد لفعل أمور لأجله تعفّ نفوس العاهرات عن القيام بها.

لهذه الأسباب كلّها لم يكن يرى أبداً أننا مختلفَان، وكان ذلك يرفع من معنوياتي. كان يتقاسم معي تلك الأمور الحميمة وكأنها جزءٌ من حياتي. وبهذا أصبحتْ بسببه جزءاً مني، وكانت تزيد من غليان أحاسيسي.

أكاد أشعر بسميتس يرفع بصره إليَّ. كان يمكن لمزاجه أنْ يتغيَّر بسرعة كبيرة إلى درجة أنَّ مشاعره كانت دائماً مرتبكة؛ ولأنَّ أحاسيسه

متوجّهة نحو الخارج لكي تُدلَّل، لم يكن على تواصُل مع تلك المشاعر الداخلية المزدحمة. وأعتقد أنَّ تحليلي الوجداني للأشياء كان له تأثير مفيد ومُهدِّئ عليه. وأعتقد أنَّنا لهذا السبب كنا أصدقاء. كان لكلّ منا خاصيّةٌ من دونها يُصبح الآخر عقيماً قليلاً.

أنا ذاهب لأشرب آخر نخب مع سميتس.

اتصلت برقم هاتفه النقّال. أجاب بعد خمس رنّات.

«ألو».

أقول: «سمتي، أنا غابرييل!».

«مَنِ الذي يُخاطبني بسمتي؟».

«إنه أنا غابرييل».

«انتظر لحظة – ماذا تقول؟».

«غابرييل... كما في روكويل».

«يا إلهي. إنها السادسة إلّا عشر دقائق».

«أه – أين أنت؟».

«في طوكيو».

«أوه. حسن، سميتس –».

انقطع الخطّ.

أه، هذا هو سميتس.

سميتس، سميتس. همم.

-6-

لعلَّ النخب الأخير يجب أنْ أشربه مع ألان. يمكن لمواسم شريك الغرفة أنْ تزدهر وتذوي، أما هذه الليلة فأشبه بغرفةٍ تضربها الرياح - لعلها ليلة ألان.

يبدو أنَّ الضياع ليس منيعاً ضد الإحباط[23]. وأعتقد أنَّ الأسواق تواجه الدرس نفسه. والثقافة تواجهه. يمكن للأشياء أنْ تبدو ورديّة من داخل الضياع. ومنفصلة كأنك تستخدم iPod.

لدى اقتحامي محطة قطار كينغز كروس أجد أمامي نوعين من البشر: السكارى والخائفين، ورعاعاً يتدفقون إلى القطارات التي تُطلقُ أصداءً نحو السقف الزجاجي العالي وقطارات عديدة تنطلق من دون قاطعي تذاكر، ربما لأنَّ لا أحد يجرؤ على ركوبها. ولكن أقول في نفسي ما أفخم هذا المشهد - إنه المجتمع في حالة الضياع، مغادراً موعداً زائفاً وشاقّاً طريقه نحو المشاعر التي وُعِدَ بها. لأنَّ الأمر يستحق العناء، ها ها. إنَّ قلقي الوحيد هو أنه يمثّل انحطاطاً بشعاً، بلا معلّمين ولا رُقيّ. عواقبه القيء والدَّين.

قد نخوض في هذا، في سياق الأمسية، ونحن نشرب النبيذ.

23- اعترف مدير شركة أدوية بأنَّ 30 ٪ فقط من الأدوية تعطي مفعولها الصحيح على 30 ٪ من الناس. وإذا أمعنت النظر في الحياة فسوف تدرك أنه فقط يُعرِّف العتبة الخسيسة للنجاح الإنساني في الطبيعة. لقد كانت الشركة نموذجاً حيّاً على حساب التوقّع، والمحاولة، والهوى والحظ . لذلك ألغِ فكرة حلول الـ 100 ٪ التي تؤيدها الثقافة. ووفقاً للطبيعة، إنَّ نسبة 30 ٪ مُفاجئة. - المؤلِّف

في هذه الأثناء يتصاعد التوتر في الضياع. قد تكون شقّتي هدفاً لشن غارة، من مجموعة العمل وتقارُب والدي. ومع ذلك يجب أنْ أعود إلى المجموعة، بعد هذا الإخفاق مع سميتس، والشقة هي حيث أُقيم؛ أو كنتُ أقيم. أيضاً سوف يكون عند ألان ما هو أقوى مفعولاً بقليل من المشروب، وأشعر بأنَّ الأمسية سوف تحتاج إليه[24].

بعد أنْ قرّرت أنْ أُعدّ هجوماً مُفاجئاً بسيارة أجرة، ترسل إليَّ فورات الحماسة سائقاً من نوع سائقي سيارات لندن ذوي الشَّعر الأبيض الذين قرروا أنه في معادلة الزمان-المسافة لعدّاد سيارة الأجرة، الزمن يُجزي أكثر. وهكذا ينتظر عند كلّ إشارة مرور كي يتحول الضوء إلى أحمر. وأخيراً ننطلق في طريقي. أعتقد أنَّ هناك الكثير ممّا يُقال عن زاوية شمال لندن حيث كنتُ أقطن، لكنه لم يعُد يهم سرد الرواية. أحد صفوف المنازل المبنية على الطراز الفيكتوري هو المكان الذي كنتُ أتقاسم السكن فيه مع رفيقيَّ ألان وإيفلين. وأمرّ متجاوزاً إياه بسيارة الأجرة، متقصياً أية دلالة على وجود مشاكل. يبدو كلّ شيء هادئاً. التلفاز يومض من خلال نافذة الطابق الأول. أُبقي سيارة الأجرة منتظرة عند المنعطف وأدخل، مُلملماً النشرات الإعلانية من تحت صندوق الرسائل، على الرغم من أنني لست مُضطرّاً إلى فعل ذلك بوصفي ميتاً عمليّاً. لقد كانت كياستي واضحة خلال الساعات الأخيرة. أعتم الضوء في بئر الدَّرج حتى أصبح ظلاماً في أعلاه. وأسمع صوت التلفاز في الخلفية.

تقول امرأة: «أنا ربة منزل وأمّ».

24- على الرغم من أنَّ هذا انحطاط نحو الحضيض، كانت استجابتنا إليه كثقافة صحيحة. لقد وعدونا مُشددين بأنَّ شطيرة الهامبرغر توفّر السعادة، والصُّحبة والأمان، وكذلك تفعل الأريكة وبطاقة الائتمان. في حين إنَّ ما يوفّرها لنا حقّاً هو المشروب. وبما أننا حللنا هذه المسألة، قامت الحكومة في الواقع بمنع إعلانات المشروب، ولكن ليس الإعلان عن الأريكة. ولنقتطف من قول سائر هذه الأيام: قُم أنت بإجراء الحساب. إنَّ المفتاح إلى أسواق المُستهلك هو التعاسة، والأنانية والخوف - حيث تشع الوعود بإشراق أكبر. - المؤلِّف

ويهتف المُعلِن بصوت عالٍ: «وهل لديك أطفال؟».

«نعم، ثلاثة».

«ثلاثة أطفال رائعون! وماذا تعملين؟».

«أنا ربّة منزل».

عندما يُفتَح الباب الأمامي، تنتقل القنال إلى صوت هامس في إفريقيا. إنَّ ألان يكره أنْ يُفاجأ وهو يشاهد البرنامج المُفضَّل لديه. وعندما يقرأ دليل برامج التلفاز يستطلع أولاً برنامج الغلاف، لكي يعرف أية قنال ينتقي إذا ما فاجأه أحد[25]. في الأسبوع الفائت جعلته ينتقل من قراءة «*أمراض المشاهير المُحرجة*» إلى قراءة رسائل سيبيليوس[26]؛ ومن «*أخطاء مركز التخسيس الشَّنيعة*» إلى نظرية بيير بورديو عن التمييز الاجتماعي، ومن «*الملتزمون بالحِمية في هوليوود*» إلى قراءة الأخبار بالعربية، التي كانت أمراً سهلاً عليه، على الرغم من أنه لا يزال يشاهد بتركيز. كنتُ شديد الكلف بذلك الذي يشاركني نقاط ضعفي بحيث إنني انضممتُ إليه وجلستُ لأرى إلى متى سيستمر في ذلك.

بعد برهة من مشاهدة إفريقيا، ينفجر صوت ألان قائلاً: «أنا ميّت! اترك الأزهار واغرب عن وجهي!»، ثم يتنحنح ويُضيف: «إلّا إذا كان هذا أنتِ فعلاً، يا إيفلين، بكلّ وضوح».

تهتف إيفلين من خلف باب غرفة نومها: «مـاذا؟». سوف تكون

25- إننا نستمد معظم الدغدغة من هذه الأشياء المُفضّلة لدى أسلافنا القرود. وأسواق وسائل الإعلام موظَّفة بكثافة في استهداف المتخلفين عقليّاً، وتنجح في ذلك إلى حدّ بعيد، على الرغم من أنَّه تبقى قِلّة من أمثال ألان تعتبر الإرتداد سرّاً ينطوي على إحساس بالذنب. ولكن لاحظ مفهومنا الأخلاقي حول التغلُّب على الحضارة: «إذا كانت هذه رغبتنا، لِمَ لا؟». إنه صوت اليمبوس الحقيقي. فعلاً لِمَ لا، إذا كنا في الحقيقة نتقاسم السلف نفسه مع القرود؟ - المؤلّف

26- جان سيبيليوس (1865 - 1957): مؤلف موسيقي فنلندي. له سبع سيمفونيات، وقصائد سيمفونية، مثل *فنلنديا* (1900)، *وتابيولا* (1925) وله كونشيرتو شهير على الكمان. - المترجم

جالسة تتبادل الحديث عبر شبكة الإنترنت، وتُصغي إلى إديث بياف عبر سماعات الأُذن، لكي تشعر كأنها في باريس.

يهتف ألان: «آسف، حسبتُ أنه كيفين. مَنْ هذا؟ حسبتُ أنه كيفين».

رددتُ: «إنه أنا».

أُضيء مصباحٌ عند الباب الأمامي.

يقول التلفاز: «يُضطر القرويون إلى المشي عشرة كيلومترات لجلب الماء، وهو مالح وغث، ومُلوّث ويعجّ بالجراثيم المؤذية».

تصرّ ألواح خشب الأرضيّة. ألان يتمشى في المكان مرتدياً جورباً.«يا إلهي، كلّ شيء يحدث هنا هذا اليوم. لا أستطيع أنْ أوقظك من النوم طوال الصيف ثم إذا بك ترحل كجرثومة آلية لعينة».

أقول وأنا على الدَّرَج: «تبدو عصبيّاً».

«إنَّ حياتك تمتاز بشيء واحد عظيم: نوم واحد آخر حتى حلول عيد الميلاد اللعين. وإنجاز رائع في حملة الاحتجاج. كانت سارة هنا تجمع أغراضها. وترفض أنْ تنظر في عينيّ. وكأنَّ لي صِلة بالموضوع كلّه!».

«تبدو لي غاضباً قليلاً».

«لا أستطيع أنْ أتصور السبب. هل تريد أنْ تسمع عن المجموعة الأولى أم الثانية من رجال الأمن الذين يبحثون عنك؟ وقبل عشر دقائق أخبرتُ الشرطة أنك لستَ هنا، ووالدك، والطبيب. إنَّ الأمر أشبه بمسلسل تلفزيوني».

أُبطئ في خطوتي الأخيرة نحو مسطبة الدَّرَج وأتوقفُ هناك. يظهر ألان عند باب الغرفة الأمامية. إنه يرتدي قميصاً أبيض وقميصاً تحتانيّاً، ويبدو أشد كآبة، وقوة من المعتاد. لم يحلق ذقنه. القذارة المُلتصقة بأسفل جوربه تمتدّ إلى الأعلى نحو كاحليه، وضوء المصباح يشع على قذارة مُشابهة على نظارته. وفوق ذلك كلّه، ويمثّل تجسيداً لجوهر الإنسانية، يبرز رأسه الشبيه بالسلحفاة ببلاهة من قلب الكآبة. وأخيراً يُشير إليَّ:

«وتستطيع أنْ تختار إنْ كنتَ تودّ أنْ تُتَّهم بإحداث أضرار مجرمة أم بإشعال حريق».

وقفتُ أراقبه.

«هذا ما يقوله طبيب مركز التأهيل، على أية حال. وأعتقد أنه مصدر موثوق، إن كان قد عالجك في أقلّ من يوم. إنه أشبه بالمسيح اللعين».

«إنه ليس طبيباً».

«الأمر هنا أشبه بمسلسل تلفزيوني. إنَّ رجال الأمن لن يكفوا عن المجيء في الواقع، إنهم لم ييأسوا بعد».

«ألان - إنْ كانوا حقّاً من رجال الأمن في استطاعتهم أنْ يأخذوا ما يشاؤون. لستُ مُضطرّاً إلى أنْ أكون هنا. أعتقد أنكَ اخترعت هذا الجزء، أعني حول رجال الأمن».

«حسن، سوف يأتون. سوف يأتون قريباً جدّاً. لقد سألوني مرتين عبر الهاتف عن حاسوبك المحمول».

إنَّ هذا الرجل البالغ الخامسة والأربعين من العمر متقلّب كفتاة بالغة، وتكاد ترى مشاعره تومض من خلال جلده. ومع ذلك، أشعر بأنَّ حاسوبي المحمول ليس هو القضية. ثمة شيء آخر يُغضبه، ويجب أنْ يتطهّر منه قبل أنْ نتمكن من التقدّم. وطرقتُ المسار الأنسب:

«وكيف حال كيفين؟».

انهارت قسمات وجهه بصورة تدعو إلى الرثاء. تقدَّم ليعانقني. ثم راح يمشي بخُطى واسعة ويتكلَّم بتشنُّج في أنحاء الغرفة، مُرسلاً نوبات من الظل على الجدران، وناثراً لعابه في الهواء. ويقول بصوت صارّ: «ثلاثة أسابيع! وهم ينتزعون المعلومات القليلة من محلّ جينارو - على مدى ثلاثة أسابيع لعينة!».

عندما اقترب في أثناء سيره مني، أمسكت به من كتفيه وثبّته أمامي: «تعال نتناول مشروباً».

«هل أبدو أنَّ في استطاعتي أنْ أتحمل السُّكر؟ إنّ جِلدي يلتهب من

ذلك اللعين! كيف يمكنني أنْ أشرب؟ غابرييل؟ إنني أكاد أعجز عن التقاط أنفاسي!».

«ألان – أنت تعلم أنكَ ترغب في ذلك».

«إنني لا أرغب إلّا في الموت».

أه حسن. عندما يتعلَّق الأمر بخططي، لا يُحرز الضياع من النجاح أكثر مما تفعل الحياة. إنه منحى مُحبِط. وإذا لم تكن فورات الحماس بارعة في لعبة النهاية، فالدليل على أنها وراء الأطراف ضعيف. في الحقيقة يبدو الواقع شديد القرب من اليمبوس[27]. وهذا لا يعني أنني أتوقع منها أنْ تُعيد سميتس بسرعة من الجهة المقابلة من العالم – ولكن كان يمكن أنْ يبقى على الهاتف مدة أطول. أما ألان، حسن. ألان يضيع من دون السُّكر، إنْ كان هذا ممكناً. انظر إليه. انظر إلينا، يا صديقي. ها هنا عالم تركته ورائي. عالم منهار خاضع لنزوة طبيعة قذرة، عالم يأكل الحبّ فيه، وهو الشيء ذاته الذي نسعى بقوة إلى العثور عليه، ضحاياه ويهضمهم بالأسيد. إنني أقف في كآبة رائحةِ ألان وأرى كلّ شخص أُجبِرَ على وطء هذا المكان البائس.

بعد برهة من تدقيق كلٍّ منا في بؤبؤي عيني الآخر، يتمالك ألان نفسه ويربّت على كتفي. «إذن هذا هو أنا. أفكر في تناول بعض الأقراص وإنهاء الأمر كلّه. ما رأيك في هذا؟».

«حسن – أنت تعرف أيام الثلاثاء».

«أنحن في يوم ثلاثاء؟»، ويتنهّد. «إنَّ ذلك السمك الذي في البرّاد يجب أنْ يؤكل، إذا رغبت في أكله. إنه لذيذ، من بحيرة موير».

27- دعنا نراقب هذا المنحى. كنت قد تخيّلت أنَّ اليمبوس يعمل عبر نوع من الأقفال، كما في الأقنية، ويعلو مدّه أكثر من الواقع المجاور، ويُزود بوجهات نظر وبقوى تعلو بالروح. لكنه يُعطي دلالات مبكّرة على أثر ثمالة بسيطة يمنح انطباعات بالعلو. ترقّب الإشارات – ولكن تأمّل بجديّة في ظهور مفارقات وتعقيدات قد تُعلن عن لعبة نهاية فخمة بفورات الحماس. – المؤلّف

«لا يوجد مكان اسمه بحيرة موير».

«ماذا؟ إنه من محلّ ماركس وسبنسر. سلمون بحيرة موير».

«لا يوجد مكان اسمه بحيرة موير. لا وجود لمثل هذا التجمُّع المائي».

«إذن من أين أتى السمك؟».

«مَنْ يدري. ربما نشأ في حوض في مكان ما».

«حسن، لا زال في حاجة إلى أنْ يؤكل قبل انتهاء هذا المساء. لم أكنْ أعلم أنكَ ستحضر إلى هنا. كنتُ أتوقع قنبلة حارقة تأتيني من النافذة على أيدي رفاقك اليساريين. ما الأمر، حسبتُ أنك عضوٌ مؤسِّس؟ لقد ضحكتُ كثيراً عندما ذُكر ذلك في التلفاز».

انهار تحديقي. «همم. لقد فسدت المجموعة».

«هل الأمر يتعلَّق بحملة الكُرّاس؟ لا أعلم لماذا أنت مُكتئب، لقد ظننت أنه أمر رائع - **الرأسمالية الحديثة** - تمنح احترام الذات الأحمق منذ عام 1850. وقد استخدمناها أنا وإيفلين كبطاقة معايدة. بل شاهدنا مُلصقاً في المحطة».

«هذه هي المشكلة».

«ولكن أليس هذا أمراً عظيماً؟ ينبغي أنْ تكون سعيداً جدّاً!».

«كنتُ كذلك. ثم أصبح الأمر مُربحاً. تشكّلت لجانٌ جديدة. وذات يوم جلب نايجل عدداً من الوجبات الجاهزة وبعض أصحاب الألسنة المعسولة إلى اجتماع عمل. وبعد ذلك أصبح الجميع يرتدون ملابس أنيقة. وأصبح كلّ اجتماع يدور حول الكُرّاس التالي. لا أحد نظر إليَّ، كانوا يتجادلون بصخب من فوق رأسي حول المال. حول الكرّاسات المتنافسة. وأصبحت الحاضر الغائب. بل لقد لمحتُ هيميش وسايمون يتناولان مشروباً في سوهو».

«إنهما بالكاد ظهرا على الصفحة الأولى، إنهما تافهان مُدّعيان».

«ثم أمضى نايجل العطلة في سردينيا».

«اســمع، لقد أحبّوا كرّاسـتك فعلاً. لقد نجحتْ. يجب أنْ تكون في قمة الســعادة!».

«المجموعات التي لا تضمني إليها تشكّلتْ لمناقشة الكرّاس التالي. وتكوّنت الآراء، والتكهّنات والخطط حولي في أثناء غيابي، وكنتُ أستشفّها من وجوههم، وأسمعها في أسلوب كلامهم - لكنني أبداً لم أغوهم لمشاركتي إياها. وارتفع بيننا جدار من زجاج. وأصبحوا مؤدبين معي. أصبحت معاملتهم لي كيِّسة بكلّ معنى الكلمة. ولكن من خلف ظهري كانوا يعبرون عن غضبهم بسبب المقتطفات من أعمالي لصالحهم».

ضمَّ ألان وجنتيَّ بين يديه وسألني: «لا تبالغ في الحساسية، يا غابرييل! طبعاً أنتَ لا تدافع عن الفقر؟ إنَّ اليسار ليس إلّا أسلوب الفقراء في التعبير عن توقهم الشديد إلى الثراء».

«إنَّ المسألة ليست مسألة ثراء وفقر؛ بل مسألة صدق وشراكة مفتوحة في مقابل تلاعب من الناحية النفسية. إنها مسألة رفقة. الرفاق لا يُهين أحدهم ذكاء الآخر سعياً وراء الربح».

«على أية حال، حسبتُ أنكَ كنتَ أمين صندوق؟».

«كان لقباً شرفيّاً ومؤقتاً. لقد كنتُ صاحب أقلّ عدد من الأحكام القضائية عندما فتحنا الحساب المصرفي. أنا لم أكن موجوداً في لجنة التمويل».

«حسن، إنَّ بعضاً من أصحاب اللسان المعسول لا يدخلون سجن غوانتانامو. وشرب كأس في شارع واردور لا يُخيف طالبان. بعيداً عن الأسعار، طبعاً».

«لكن جعل ريك المتحدث بلسان لجنة الكرّاس يُخيف».

«صديقك القديم ريك؟».

«فجأة بدؤوا يتكهنون الربح. ثم يتكهنون كيف سينفقونه. وكلّ ما تبقّى كان أنْ يأخذوا مني الكرّاس الذي يلائم أهدافهم - وهذا ما قرروا

فعله، متظاهرين بأنهم يفعلون ذلك حبّاً بالكرّاسات. وفجأة أُجريتِ الاتصالات. أصبح كلّ اجتماع رقصة حول المسكوت عنه. واتّخذوا من الأسواق قدوة وقسّموا الواقع إلى قسمين - الحقيقة التي يُضمِّنونها إياها بسخرية، والحقيقة كما هي. وفجأة صرت أشعر كأنَّ كلّ ذِكر لكرّاس بمثابة مداعبة لي».

«لكنهم كانوا يُحاولون تعزيز القضية!».

«وليست لديَّ مشكلة في هذا. كنتُ مستعدّاً إلى بذل كلّ شيء في الكرّاس من أجلهم - لو لم يعزلوني. وهذا يحدث، يا ألان، لأنَّ العامل يُنتج مئة في المئة من العمل بينما هم يجلسون في سردينيا يشربون ويتحدثون. والمؤسسات النفسية، مثلها كمثل العديد من الأنظمة، ولكي تبدو أنها منهمكة في العمل، تغطي عمليات الاستغلال. وليس الاستغلال ما يُسبب لي المهانة، بل غرفة العزل الزجاجية. وما كان ليكون استغلالاً لو أننا كنا جميعاً خلف الحاجز الزجاجي معاً».

«وكيف كانوا سيُنفقون كلّ تلك الأرباح - أعلى الوجبات الجاهزة؟ أم في قوارب تقديم أطباق السوشي؟».

«بل على جولة العثور على الحقائق في كوبا. وعلى اللجنة المُخادعة. وأول ما عرفت الأمر كانت سارة في إجازة يوم لتنزل إلى السوق وتشتري ثوب استحمام بكيني».

«في رأيي لم تكن فكرة ارتداء ثوب استحمام بكيني حكيمة. ليس بالنسبة إلى سارة. كانت في حاجة إلى ثوب بقطعة واحدة، أسود اللون، مكشوف، مع -».

«كفى! إذن رُقّيَ ريك ليُصبح مدير الاتصالات. كان آخر تواصل لي مع جذورنا. وهبّت عليه عاصفة جديدة. وفجأة لم يعد في استطاعتي أنْ أقبل دعوة لشرب كأس من البيرة من دون تحديد موعد نهائي للكرّاس. وعُزِل. وأصبح كأس البيرة هو الشرك. ثم، بعد بعض الوقت - بدأ يُضيئني».

«يُضيئك؟».

«ألم تسمع بهذا التعبير؟ إنه تقنية نفسية. تُستخدَم في غسيل الدماغ وفي التعذيب، وهي الخطوة الأولى في ذلك. وتتألّف من تناقضات أو إنكار تصدرُ بثقة وقحة في النفس إلى أنْ ينتهي بك الأمر إلى الشك في تصورك الخاص وحُكمك، وفي تذكّرك للأحداث؛ إلى أنْ تتصادم شكوكك مع غرائزك وتبدأ بالتلاشي. وتبدأ بالتفكير. «ألم أسمعه يقول -؟»، «ألم أكن مُخطئاً في الاعتقاد -؟». إنَّ الإضاءة تُذيب معتقداتك، تجعلك ضئيلاً، وضعيفاً. تُمارَس داخل خواء من المعلومات، حيث لا شيء يظهر ليُناقض المُضيء. في جوٍّ من التهذيب، والكلمات المُنتقاة بعناية، والمديح، والسرور، بين جدران من الزجاج. لقد عزلتني جماعتي داخل جدران من الزجاج، يا ألان. ثم أرسلتْ صديقي القديم لكي يُضيئني».

«إكراماً لله، يا غابرييل -».

«أنا لا أقول إنَّه شيء مُتعمَّد. إنَّ ردّة فعلي سببها أنني تعاملت مع الأمر كأنني طفل. إنَّ له رائحة مُميَّزة. هكذا يتصرّف من يحمل مسدساً؛ مَن قرر أنه يجب «ترويضك». مَن يريد منكَ أنْ تعلم أنكَ ضمن حيّز مُغلق من الصمت. مَن يريد منكَ أنْ تعلم أنَّ كتّاب الكراريس لا يُساوون شيئاً. والإضاءة هي من عمل شخص يحمل مسدساً في جيبه. وذلك المسدس هو المال. الحيوية. هذا ما يفعله الربح بالبشر، يا ألان. هذه هي دوائره المسكوت عنها. وهكذا كما ترى، عندما تركت النشاط بالأمس لم أترك اليسار وأنتقل إلى اليمين. لم أترك العمل لكي ألجأ إلى الكسل؛ لقد انتقلتُ من حاجز زجاجي إلى آخر. من إضاءة إلى أخرى. لأننا جميعاً فاسدون، يا ألان. لقد انتهى كلّ شيء».

«اطلب منه ببساطة أنْ يغرب عن وجهك!».

«لا أستطيع. إن ما يقوله ليس كلامه، إنَّ عمليات الإضاءة تقف وراءه. وأنا أحبّه كأخ لي. إنه قادم من مكان يُعتبَر فيه النجاح أمراً هامّاً. إنه لا يُدرك الأمور عند هذا المستوى. لا أستطيع أنْ أنتزع منه مسدسه».

«إذن انسَ الأمر!».

التفتُّ نحو ألان وحدَّقت: «إذن أنت نسيتَ كيفين».

انكمشَ، طرفَ بعينيه. «لكنَّ هذا أمر مختلف. هذه خيانة. تحطيم قلب. إنني أشعر بجلدي يحترق بكلّ معنى الكلمة!».

«إذن فالأمر ليس مختلفاً. إذن الحالتان متطابقتان. كثير من الناس قد يعتقدون أنَّ من الحمق أنْ نتألّم على كيفين. وكثير من الناس لا يفهمون ذلك. ولكن هكذا يتمّ التواصُل مع القلب. بأنْ تكون ذاتك. وهكذا يحترق جلدي أيضاً. شخصان فقط أضاءاني، يا ألان - والدي وصديقي الحميم. وكلاهما حصراً بسبب المال». أحدِّقُ إلى وجه ألان فأرى ومض فهم، أنَّ كلّ روح تتواصل بصورة ما بالعالم؛ وأنّه عندما يُقطَع آخر سلك، عندما يُهجر الشاطئ - تفقد الروح تواصُلها.

مثلي.

وأخيراً يقول: «حسن على الأقل لديك كوبا تصبو إليها. مكان صغير مريح».

«إنني لستُ مدعوّاً. إنها مجرد اللجنة الممتدّة».

«إذن فكيف تتعامل سارة مع الأمر؟ ما كنتُ لأتصور -».

«لأنَّ العضو الوحيد الآخر هو نايجل».

«المُخنّث، من كلافام؟».

«هذا صحيح. الذي يُفضِّل البكيني».

فجأة يرنُّ جرس هاتف الشقّة. يُفرقع ألان بلسانه. «هذا الاتصال اللعين الثاني اليوم. تلك الاتصالات المُسجّلة تحاول أنْ تبيع خدمات مالية، أو تدفعنا إلى مُقاضاة شخص ما بسبب بعض الأضرار. لا بُدَّ أننا موجودون على إحدى القوائم. لا أظنكَ أعطيتَ هذا الرقم إلى المصرف؟»، يمدُّ يده ليتناول سماعة الهاتف.

أقبض على ذراعه، ولكن بعد فوات الأوان - «كلّا»، ويرفع السماعة بحركة سريعة: «نعم، موجود» ويتنهّد، ويسلّمني السماعة.

يصلني صوت والدي الأجش عبر الخطّ «غابرييل؟».

ثم يُسمع قرعٌ على الباب الأمامي.

يهتف ألان: «إنَّ الأمر أشبه بمسلسل تلفزيوني! إيفلين - كيف حال السرطان معك؟ كيف تجري عملية الإجهاض؟».

يُفتَح باب إيفلين «ماذا *تقول*؟».

أُعيد السماعة إلى مكانها برفق بينما إيفلين تخرج بخطى بطيئة بملابس داخلية وتعتمر قبعة صغيرة، وتضعُ شالاً، وتنتعل خُفّاً غريب الشكل من جلد الأرانب أو الفئران. والعقصة الملتصقة المعتادة ترتفع عن جبينها بالتفاف قبيح. ولدى مرورها تُخلِّفُ رائحتها - رائحة خفيفة حلوة من بصل السوق الموسمية، ودفعة قوية من العرق الحميم العتيق.

وسط هذا كلّه يُسمع قرع قويّ على الباب: «بروكويل!».

يتوجه ألان نحو الدَّرَج «شيء لا يُصدَّق».

أسحبه إلى الخلف «لا تفعل. دعني أنتظر حتى يرحلوا».

تلتفت إيفلين حولها «ماذا يحدث؟ ألان - هل أنت جادّ فيما يخص التخلُّص من أغراض كيفين؟».

«يا إلهي»- يستدير ألان مبتعداً - «أيجب أنْ تتجولي في المكان بملابسك الداخلية!».

«أنتَ الذي استدعيتني. ثم لا يبدو عليك الاهتمام. فقط أخبرني إنْ كنتَ حقّاً تتخلَّص من كلّ شيء كما قلت».

«خذيها، خُذيها كلّها، لعلها تعجُّ بالقذارة. ولكن انتبهي، هناك بعض البنطلونات القصيرة التي تخصّني أيضاً - اعرضيها عليَّ قبل أنْ تأخذي أيّ شيء». وغاص ألان من جديد في الأريكة مُغطّياً وجهه بيديه.

«بروكويل!». تعرَّفتُ على صوت هيميش عند الباب. «اخرج!».

بينما هذا كلّه يضطرب من حولنا، يُباعد ألان بين إصبعَين فوق إحدى عينيه، ويُدقّقُ النظر فيَّ قليلاً، ثم يوجِّه الإصبع نحوي. يقول بنعومة: «في

غضون أقلّ من أربعٍ وعشرين ساعة، أطلقتَ، يا صديقي، قِوى العماء والجحيم كلّها».

«روكويل! لن نرحل!».

يرنّ جرس الهاتف من جديد. أقفُ بين رنين الجرس من جهة والقرع على الباب من الجهة المقابلة. وأمام مثل هذه المجزرة ينكمش اليمبوس. إنه يُسلّط الضوء على مجازفة بإرجاء لحظة الموت: على اضطرارنا على طول الطريق إلى مواجهة الأمور التي تدفعنا إلى السعي وراء الموت بالدرجة الأولى. لأنه تذكَّر أنَّ المواجهة هي من طبع الحياة، والطبيعة تُحدِثها لتتسلّى؛ في حين إنَّ من طبع الموت أنْ يتجنّبها. يجب أنْ أجد طريقة لأصون هذا اليمبوس، ومن ثم أُبعِده عن هذا المكان، بعيداً جدّاً. مَنْ يدري إلى أين أو كيف، إنَّ الإجابة عن هذين السؤالين يجب أنْ توجد حولنا، ولكن تحت وطأة مثل ذلك القرع الشديد لا أستطيع أنْ أعثر عليها. أما الآن فأُرسل نبض إنذار إلى فورات الحماس، نداء نجدة ينطلق من بين شفتي بما يُشبه الصفير.

التفتت إيفلين إليَّ: «مَنِ الذي يقرع الباب بقوة؟».

«مجموعة العمل».

«حسبتُ أنكَ من ضمن مجموعة العمل؟».

أخذ ألان يفرك وجهه من أعلى إلى أسفل، دافعاً موجة مُحدّبة من اللحم. «ألم تريه في حركة الاحتجاج؟ رمز عصرنا. في الأيام الغابرة كان الناس يتخذون من الكنيسة ملاذاً – لكنَّ غابرييل احتجزه مصرف، انتقل إلى الجانب المُظلم».

«أوه»، وطرفت بعينيها، وهي تحسب مزايا ذلك. «أكنتَ تضمر أيّ سوء حينئذٍ؟ كالحصول على مخدرات؟ أو ربما على شمّة كوكايين؟».

أقول: «لم يكن هناك غير إعادة التأهيل»- ولكن بقولي هذا، أُدرك أنها تُجيب عن الجزء الأول من مناشدتي. المُسكرات. طبعاً! وقود اليمبوس المضمون.

تباعد إصبعا ألان فوق العينِ الأخرى. «إنَّ المخدرات، كما أحاول دائماً أنْ أشرح لكِ، يا إيفلين، يُكلِّف الغرام الواحد منها خمسين جنيهاً[28]. وعندما تنجح في العثور ولو على قسم ضئيل من الغرام، فسأسمح لك بتناول بعض المخدر».

اندفعت إيفلين تهبط إلى منبسط الدَّرج وولجت غرفة ألان، ثم خرجت بعد ذلك بلحظات حاملة بين ذراعيها بعض الغسيل والعلب.

يُشير ألان – «لا تغسلي البنطلونات القصيرة السود، أو الشال». وسكت برهة ليخنق الارتعاش: «ولكن يمكنك أنْ تمسحي طيزك بالباقي. ما عدا، انتظري لحظة – أحضري لنا ذلك العِطر»، ثم التفت نحوي: «يمكنك الاحتفاظ بهذا. إنه قوي. يمكنك به أنْ تصدّ حشد أعدائك».

تُسقِط إيفلين علبة ذهبية على الأريكة. «عطر جيكي، أعظم إبداعات إيميه غرلان لعام 1889، باريس، ذروة الانحطاط».

أفكّر في الهرب. لقد تضاءلت فرص الاختيار بالنسبة إليَّ – الدَّرَج الخلفي. وأنا أعي أيضاً أنَّ عدّاد سيارة الأجرة يحصي عند الزاوية – نير آخر أهرب منه إذا ما حُجِزتُ هنا أطول مما ينبغي.

من الخطأ العودة إلى المنزل.

تغرّد إيفلين: «جيكي، جيكيبي، ليس مُخصصاً حصراً للنساء، إنه عطر للرجال أيضاً، وهو علامة تجارية فريدة من نوعها».

28- آه، الكوكايين: هذه المادة الكربونية- المُحايدة شبه القلوية تُقاسِم العائلة القهوة والبندورة، وهي مشهورة بأنها تشحذ الحواس حتى اليمبوس الحادّ والهادف. وهي تساعد في أداء المهام، لا أعني السُكر العشوائي، على الرغم من قدرتها على إنقاذ حفلات العربدة التي تصل إلى ذروتها قبل الأوان. ومع ذلك، حذار: من رضوخك للأسواق، فالكوكايين ليس متوفراً كثيراً في شوارعنا. تفحّصه: الكوكايين يتميَّز بلمعانه، يتلألأ بزُرقة مائلة إلى الوردي، ويجب أنْ تكون له رائحة الكيروسين أو الإثير. فإذا كانت بضاعتك على شكل مسحوق ناعم وذات رائحة حادة، إذا كانت معدومة البريق، أو برّاقة أكثر مما ينبغي، كالزجاج، فيمكن أنْ تكون سُمّاً. فإذا انتابك الشك فاسأل عن ألان في نواحي محطة بيليز بارك في أيام الجمعة. – المؤلّف

أعود بذاكرتي إلى اللحظة التي أخرجتْ فيها زجاجة صغيرة، تذكّر بقارورة الدواء في القرن التاسع عشر. كان عنقها مربوطاً بعقدة من الحرير، ولها سدّادة من الكريستال كسدادة زجاجة الشمبانيا. «ثمنها في المحال التجارية، هذا إذا عثرتَ على واحدة، مئتا جنيه».

قرع قويّ على الباب: «إنك تزيد الأمور سوءاً!».

«حقّاً». أقبل الزجاجة الأنيقة المُترفة.

«أنا أشتريها بخمسين».

«إيفلين، اغربي عن وجهي»، وينتزع ألان الزجاجة. «كيفين هاتها، والآن أنا أعطيها لغابز».

تنتزعها من جديد. «في الواقع كلّا، ألان. أنت أعطيتنيها *الآن*. أتذكُر؟».

أسأل: «ألان، هل لديك بعض الكوكايين؟».

يرفع بصره إليَّ بعينين مزمومتين: «ماذا؟ كوكايين؟».

«همم - وأقراص للهضم؟».

«كوكايين؟ أتقصد - مخدرات؟ وأقراص؟». أخذ يفتش داخل حقيبته ويرمي بعضها إلى الطاولة بجوار الأريكة. «خذها كلّها إذا أردت، لا أستطيع أنْ ألمسها». في جيب جانبي يعثر على بعض أقراص النشوة. «قدِّم لي معروفاً وارحل. أعني - انظر إلى حالتي المزرية».

«شكراً لك»، وأجمع العقاقير، وأرمي ببعضها إلى إيفلين.

تمرّ بضع لحظات لازمة قبل أنْ أعتبر أنَّ تلك اللحظة سخيّة؛ ثم يطرف جفنا ألان: «يمكنني الآن أنْ أقوم بالعمل كلّه مقابل أربع مئة. لم أتمكن من الحصول على السِّعر الكامل من الأصدقاء - حتى الرأسماليين منهم».

تقول إيفلين: «ولكن يمكنك أنْ تأخذه مني».

«قلت من *الأصدقاء*، يا إيفلين».

أرسمُ خطّاً على الطاولة وأجعله يقطع ورقة نقدية بعشرين جنيهاً. وفي الحال تتجمّد فقاعة اليمبوس. وتعبيراً عن شكرها لي على ورقة البرنامج، تفتح إيفلين زجاجة العطر وتضمِّخ به رسغيها وصدغيها بالسدّادة. وينتشر عبقٌ عُلويّ، مزيج من الليمون والفانيليا، مُثيراً حولي ذكرى، هالةً أشبه بصندوق من زجاج.

إنه هالة نورانية متوهجة.

ولم يعُد أيّ شيء يهمّ.

بعد التسلُّح بدرع الانحطاط هذا أذهب إلى المطبخ وأُحضِر المطرقة من تحت المغسلة. أحملها إلى غرفتي التي بقيَ فيها جوّ الطفولة سائداً كما هو منذ سنين، وبينما حاسوبي المحمول يُقلِع أضعُ الـ iPod على الأرض وأُهشِّمه قِطعاً صغيرة. لا اتفاقيات قانونية بعد الآن لأوقّعها، لا ترخيص بعد الآن لأشياء اشتريتها توّاً. في أول الأمر قاوم كجرذ ضخم، وهو يصرّ وينتفض.

ثم، بقعقعة ختامية، لم يعُد قابلاً للتحديث.

قرع هيميش بقوة على الباب. «روكويل، اخرج! إذا لم تكن قد استوليت على التمويل فلن نؤذيك!».

يهتف ياسين «أكثر».

«*هسسسس - اجعله يخرج أولاً*».

أتناول هاتفي المحمول وأضعه تحت المطرقة، وأفكّر في مدى حمق هيميش[29] - لكنَّ ضوء الإنذار يومض وأرى أنها رسالة خطّية. إنها

29- لقد عوقِبنا لأننا اغتبنا الآخرين، على الرغم من أننا وُلِدنا ونحن نعلم أنَّ العديدين بلهاء. طبعاً إنه التسلسل الهرميّ للحماقة، نشغل فيه أيضاً موقعاً أحمق، ولكن له حدود، وهي النقطة التي لا يعود عندها الأحمق متواضعاً. إنَّ الذي يُبرر جهله، ويبقى مُهذَّباً، هو نمط الارستقراطي الفطري. ولكن خلف الحدود يكمن الحمقى الحقيقيون، الذين يشعرون أيضاً بأنهم مؤهلون لذلك. والأسوأ من هذا أنهم لا يشكّون في أنهم حمقى، ولا يستطيعون أن يتصوروا وجود ذكاء أكبر من ذكائهم. هؤلاء هم الجماهير الخطرة التي قوّتها الرأسمالية وأطلقتها، الغنم الذي يستجيب

تحذير بشأن الرصيد. وفجأة يتبيَّن لي - لعلَّ سميتس لم يعلِّق السماعة. لعلَّ رصيدي انتهى ببساطة، مع انتهاء نهارنا، وقام مزوِّد الخدمة ببساطة، على الرغم من أنني تركتهم ينهبون مني مبلغاً طائلاً على مدى السنين، بإنهاء تلك المكالمة الأخيرة الحرجة التي توقفت عليها حياتي.

اتّسعت فسحة الانفتاح داخلي، بين قرع هيميش الهادر والهاتف مصّاص الدماء. وبعد ذلك بلحظة، وبما يُشبه الوحي الغامر، جاء جواب الليل.

كتبتُ على عجل رقم سميتس على خلفية علبة ثقاب ورقيّة، ثم رميت الهاتف وهشّمته تماماً. وأصدر صوت سحق مُرضياً أكثر من غيره، كأنه حلزون ضخم، وبقي ظلّ خفيف من شِعار فودافون ظاهراً على رقعة الشاشة.

إنه قِناع الموت.

أُشغِّل الحاسوب المحمول وألج حساب مجموعة العمل، وأجد هناك ما يُقارب خمسة آلاف جنيه كنتُ قد أرسلتها إلى حسابي الخاص. إنني خائن في عيون المجموعة، لذلك من العقلانية أنْ أعتقد أنَّ المال أُنفِقَ على تدميري. وإذا صادفتُ قِوى غامضة في الليل، يمكنني مقابل خمسة آلاف أنْ أوسعهم ضرباً.

بعد ذلك بحثت عن الخطوط الجوّية اليابانية.

نزعت قميصي الرياضي الذي يحمل لوحة *(الصرخة)* لمونش ومعطفي العسكري الضخم وأخذتُ العطر، وجواز سفري وبعض الملابس الإضافية الخفيفة، مُصمماً على الاستمتاع باليمبوس في المطار سحابة الليل - ليس في المحطة الأخيرة المعروفة للجميع، بل في تلك الأقلّ شهرة.

مضرب لعبة الكريكت يقف في ركن الغرفة. أرفعه بعناية وأزنه بكلتي يديّ، وأرفعه فوق رأسي، ثم أنهال به بقوة على الحاسوب المحمول - تلك

للأشياء كلّها بثغاء واحد - وينبغي أنْ نُسمّيهم بأسمائهم في كلّ مناسبة. - المؤلّف

الحياة الخاوية، ذلك العالِم المعتوه، تلك الخادم اللاتينية السارقة، الخنوع والشاكية، ورشة المُستمني الواقية. ورحت أهشّمه مراراً وتكراراً إلى أنْ شعرت بقبضة ألان.

أدارني نحوه. «آآه – إذن زال الإحساس بالإحباط».

«انتهيت»، ورفستُ الحطام عبر أرضية الغرفة، «قُل لمُساعدي الشريف إنه تآكل من الصدأ».

دقَّق ألان في وجهي. «كوكايين. (أقراص الهضم)- طبعاً، كان يجب أنْ أعلم. عندما أتيتَ إلى هنا دخلتَ بوصفك مُسبقاً الشاعر الملحمي، التروبادور المُعلِّم، المُتنازل، ذا التقاسيم المتأمّلة. متى نمتَ آخر مرة؟ أتدري ما أنت فاعل؟ أهو أمر عابر؟».

لا يسعني إلّا أنْ أبتسم لألان.

«ألا تستطيع أنْ تحرس محلّات ماكدونالد؟ أو تنضم إلى عبادة معيَّنة؟».

أبرزتْ إيفلين رأسها إلى داخل الغرفة وشاهدتِ الحطام: «أوه، يا إلهي -*أجُننت*؟».

يقول ألان: «اغربي. أنتِ أسوأ من عَلَقَة. على الأقلّ العَلَقات لا تتجول بملابس داخلية قذرة».

«إنها ليست قذرة».

يُقاطعهما القرع الهادر على الباب، وهذه المرة مع قعقعة توحي بأنه صادر من الباب الخلفي.

ينطلق ألان قافزاً كدجاجة، مادّاً يده لكي يحكّ نفسه من خلال إحدى ساقي البنطلون. وبعد برهة يصرخ من الخلف: «ارحلا عن ممتلكاتي وإلّا استدعيتُ الشرطة – أصبحتما الآن متعدِّيين، ارحلا!».

أسمع هيميش يُجيب من دَرَج الحديقة. يزداد صوته وضوحاً وأدركُ أنه جلس القرفصاء إلى مستوى باب القطة السفلي القديم. وبانغ، يتلقّى الباب رفسة قوية من ألان. يصرخ هيميش، ثم تبادلٌ للكلمات الخشنة. وسرعان ما أسمع ياسين يُضيف التهديد من الحديقة الخلفية.

أراهن على أنَّ هيميش جلب معه فقط شخصاً واحداً، وأترك إيفلين تتعثّر وتنزلق على الدَّرَج الأمامي متوجهة إلى الشارع. ثم يبتعد الصراخ، إلى أنْ أتمكن في أسفل الدَّرَج من سماع ضجيج التلفاز من جديد: تقول طفلة أجنبية: «لكي أدرس وأجتهد وأصبح ممرضة وأساعد أهل القرية». وبينما أغلق الباب، يتلاشى الصوت تحت زعيق طفلة صغيرة على الجانب المقابل من الطريق:

«سوف أضربك بشدة يا ماندي! أعيدي إليَّ ولّاعتي أيتها العاهرة القذرة!».

ألج سيارة الأجرة المنتظرة وأستكين في المقعد الخلفي بينما تنطلق مدمدمة مارّة من أمام منزلي، وتنفثُ بخاراً إلى الليل. الأضواء تتوهج في النوافذ حيث كنتُ أسكن ذات يوم. وعلى الرغم من أنه منزل إنكليزي في أوائل القرن الحادي والعشرين - بمعنى منزل يحتوي الأجناس الثلاثة من النرجسيين بلا أهل حيث تمَّتْ فيه، خلال الدقائق العشرين التي أمضيتُها هناك، عمليات تبادل النقود والبضائع بأربع طُرق مقابل مبلغ أربع مئة جنيه، وخُرِقَتْ في أثنائها ما لا يقلّ عن أربعة قوانين - ويجعلني اختفاء المشهد أتحرك بعصبية. أحدّق من خلال نافذة السيارة وأدرك أنه لم يتبقَّ أيّ أثر لي هنا. في نهاية المطاف، إنني حتى لم أُصمِّم تمثال جائزة ترنر، الذي سيُصبح عربةَ تسوُّقٍ عملاقة منقلبة على جانبها عبر نهر التيمس. أطلّ على عالم لن يعرف أنني مررتُ من هنا. مناديل قهوة ستارْبكس تقع وتذروها الرياح. متأنقون يختالون، ورجال يتهادون، وعشاق يتسكعون منكسي الرؤوس، يبتسمون وكأنما لوجه طفل هولندي مُشرق، وأمرّ من أمام حانات يُدوِّمُ فيها ضباب البيرة مخترقاً روائح البيتزا، ومريض الأمس وقد أضحى أفضل حالاً؛ وأينما تكون الأضواء أشد إبهاراً، هناك مجموعة من مراهقي أوروبا كأكوام من الجوارب، طول كلّ منها مئة وخمسة وستون سنتيمتراً، يُثيرون إعجاب بروكسل، ولا يعرفهم المشردون، والمدمنون والخِسّة في الزوايا المظلمة.

لا أحد رآني لدى مروري. إنَّ انبهارهم ليس لمشاهدتي. الآن أنا أعيش خارج الذهول والأوهام، أتجول كشبح من أرض اليمبوس. إنَّ قَرقعة سيارة الأجرة وقعقعتها، وتقدّمها وصوتها، وسوادها الانسيابي في قلب الليل يجعل منها شبحاً، أو عربة موتى تجرها أحصنة صاخبة عليها ريش أسود، تطفر وتنخر على درب يمرّ من بين مُعزّين مجهولين. الوداع، إذن، يا آثار الأقدام الكربونية، ووداعاً يا عربة البريد الملكي، adieu أيها البلهاء الضخام، ويا محلّ إيغ وكريس، وبوش وبيكس. تشيريو يا بيتي الحبيب والعزيز. فلتأتِ حيوات أقصر من حياتك وترحل، ولتزدهر مواسم بينها وتذبُل.

أما هذه الليلة فأشبه بفناء كنيسة يُنيره ضوء القمر – هذه ليلتي أنا.

طوكيو

-7-

شَعري يُتوّجُ رأسي كموجة الرأسمالية التي تحتضر، يتّخذ شكلَ زاويةٍ مقعد الطائرة. وبما أنَّ كلفة الرحلة بالطائرة استهلكت جزءاً كبيراً من نقود مجموعة العمل، أُقرر أنْ أترك أمر تصفيف شعري إلى آخر يوم لي في الحياة، والذي شكّلته الفورات الحماسية المُكلِفة.

في أمور أخرى لم أُحقق نجاحاً مُعادلاً. لكنني نجحتُ في تحمُّل رحلة الطيران بأقلّ من غرام من الكوكايين، فقد سبَّب لي الهواء الجاف اختناقاً في حنجرتي وتشكّلت كتلٌ سدّت أنفي من الخلف. ولم يكن في درجة رجال الأعمال حليب بالشوكولاه، فضيحة ثمنها حوالي ثلاثة آلاف جنيه. وبدل ذلك سحب الإنكليس والشمبانيا الدم إلى أحشائي وترك جلدي شبه شفّاف. وتحولت تحت إضاءة الزينة في الطائرة - إضاءة الحقيقة، معيار المذلّة والخضوع - إلى علبة عدّة عاملة: إلى رأسمالي مرئيّ.

وبعبارة أكثر إشراقاً: وصل وقودي الذي في جيب بنطلوني بسلام. ولأنني خمّنتُ أنَّ العالم الخارجي سيتصرّف بطريقة مختلفة عن أسلوب منطقتنا اللاعقلانية، حملته في أشد الأماكن وضوحاً - حتماً لا أحد سيعتقد أنني بهذه الدرجة من البلاهة.

وهكذا وصل موكبي الجنائزي إلى طوكيو، المدينة العظمى المُطلّة على البحر، المطبوعة كما البيجاما برسوم القطط الصغيرة والوحوش.

مكانٌ أنا فيه طويل القامة وغريب.

الدنيا نهار والآلهة تصحبني. معي نقود ووقود اليمبوس، وسميتس هو دائماً حيث الطعام والنبيذ الفاخران. آخر مشروب أتناوله سيكون أروع ما شربت قاطبة. وبعد تلك الفترة الوجيزة من الانحطاط المحض، النموذج المُصغّر المثالي لعصرنا الآفل، بحلول الفجر على أبعد تقدير - سأكون قد رحلت، ولم أعد أشعر بقَدَري. كانت فكرة مجيئي جيدة، لأنَّ الأجوبة على حياتي الجسدية أصبحت خلفي. اليمبوس نقي. إنَّ وقوفي هنا عارياً عند النافذة يجعل المشهد من تلك النافذة التي في مركز إعادة التأهيل يبدو أشبه بحياة سابقة كئيبة.

هذه النافذة تطل من غرفتي على فندق بنينسولا. أُحدِّقُ من فوق كلّ تلك الأشكال الناتئة، والحواف الحادة المتعانقة، وعالياً إلى السماء اللؤلئية، وأقول لنفسي:

«مركز التأهيل - فندق بنينسولا».

«وووش».

بعد التلذُّذ بطعم هذا التحوُّل المُمتع لمسار الأحداث، أتصل بسميتس هاتفيّاً:

نخر: «ماذا تقول؟ أنت موجود *هنا*؟».

«جئت لأتناول مشروباً».

«كُن واقعيّاً، إنهم يستغلونني ككلب».

«سميتس - أنت تعلم أنكَ راغب في هذا».

«لن أرحل حتى يوم الأربعاء».

«في أيّ يوم نحن؟».

«السبت».

«أقترحُ حفلة عربدة تجعل الأمر مستبعداً».

«ماذا *قلت*؟»، ويسكت سميتس. «أوه، اللعنة عليَّ - أنت تمرّ بإحدى

مراحل تطور زهرة كزبرة[30] الثعلب القرمزية المتقلّبة. انتبه - كزبرة الثعلب في طوكيو».

«أنت متأخر مئة عام. جرِّب القرن التاسع عشر».

زمجرَ: «أيها العاهر، ولماذا؟».

«لقد مرّوا بفترة انحطاط أفضل من التي نمرّ بها».

«اللعنة عليَّ. وهل هي وووش؟ هل أنا مُضطرّ إلى إطلاق سراحك بكفالة مالية؟».

«لقد أتيتُ كرأسمالي، يا صديقي. لقد ولجت ذلك الضوء المتلاشي».

«عاهر. كزبرة ثعلب رأسمالي في طوكيو. إذن سوف تعلم لِمَ لا أستطيع أنْ آتي وألعب، إنَّ الأسواق كاسدة، والرئيس يلاحقني. كان ينبغي أنْ تُعلِمني».

«حسبتُ أنك لا تتعامل مع الرؤساء».

«*ليتني* لم أفعل. *ليتني* لم أفعل. إنَّه متجهّم، أحد أولئك الكئيبين. وبالأمس كان من البؤس حتى كدتُ أتصل بزوجته العاهرة لكي تُرسِل سيفه بسيارة أجرة».

أقول: «أنا لديَّ العلاج. أنت تعلم أنكَ تريده».

«يا صديقي - إنني مضمون في هذا المجال. القصة طويلة، لكنني لا أستطيع أنْ أُفشيها. إنَّ الأوضاع متوترة أصلاً».

«متى تنتهي؟».

«لن أقتل أحداً هذا المساء، أنا جادّ. تعالَ لتناول الطعام إنْ كنت قادراً على التصرف بتهذيب. لكنَّ السهرة لن تطول، سوف يأتينا مفتشون. إنَّ يوشيدا - سان يمارس الضغط من أجل إعداد خزّان لنقل السمكة إليه».

«حسبتُ أنك لا تتعامل مع الأسماك».

30 - كزبرة الثعلب: زهرة يتغيَّر لونها مع تبدل حالة الطقس. - المترجم

«وليست أية سمكة - إنها *الفوغو*[31]. أفضل الأنواع في اليابان، أه. إنها الشيء الهام التالي، السموم. لم تعُد النكهات تكفي. تعالَ في السادسة. سوف أشرح لك. ويا صاحبي - يمكن لكزبرة الثعلب أنْ يرحل - هه؟».

«أنت متخلف بمقدار قرن».

«عا-هر».

يُعطيني سميتس عنواناً لأذهب إليه بعد هبوط الليل. المكالمة الهاتفية تُثبِط همّتي؛ بل وأتساءل من أين نبع ذلك الإلحاح الذي يُطالب الشركة بموتي. لكنني أقرر أنها ليست بحاجة إلى شهود، أو أيّ من علم النفس الكامن ذاك. بل فقط إلى مشروب جيد أخير. وسوف يتحمّس سميتس حتماً لفكرة تناول مشروب، في نهاية المطاف. أما فيما يتعلّق بنهايتي، فأترك أمرها في الوقت الحالي إلى فورات الحماس. وفي الليلة المثالية أحمل مسدساً، أداة الانتحار المثالية، prêt-a-tuer (جاهزة للقتل). أما الآن، فسوف نرى ما هي الأدوات القادمة.

أعترف بأنني أُشدِّد على كلمة «سموم».

آه، يا لفورات الحماس وأساليبها الملتوية. سوف نلاحظها دون أدنى شك في لحظات ذروة الأمسية، ونحن نشرب النبيذ. أما الآن، لكي أُخفف من التعب والإرهاق أسدل الستائر المُعتمة على نافذتي وأتمدد على السرير وأدخن سيجارة، بينما يُعرَض على شاشة التلفزيون فيلمٌ كرتونيٌّ لأنثى أرنب يغتصبها تلميذ مدرسة. وعندما تبكي تستطيع أنْ ترى ما تحت أثواب الفتيات الأخريات على انعكاس دموعها. اليابانيون يُحبّون الدموع. وفي أثناء غوصي بين الوسائد، تتوارد عليَّ الأحلام سريعة ومحمومة. في أحدها يتراءى لي أنني على خشبة مسرح أؤدي عرضاً. تُرفَع الستارة على صمت مُطبِق، ويتجمّع الكلّ بهدوء كالجرذان، يدورون حول أنفسهم في الظلام. يُسلَّط على

31 - الفوغو: سمكة شديدة السُّمّيّة، منفوخة الشكل، تُقدَّم طبقاً في المطاعم الفاخرة بعد تخفيف سُمّها - خاصة في المطاعم اليابانيّة - المترجم

رؤوسهم ضوء برتقالي. أجلس واضعاً ساقاً على ساق وفي حجري كيس ورقيّ. وأقول:

«لقد خطرت لي فكرة بيع أشياء لا نحتاج إليها».

يتصاعد الشهيق بين المشاهدين.

أقول: «إنَّ كلّ مادة استهلاكية يشتريها الزبون تجعله يشعر بأهميته».

شهيق آخر، ثم صمت.

«لأنكم تستحقونها»، هذا ما يقوله البائعون. بل إنهم لا يُلاحظون أنه آخر تصريح يمكن أنْ يصدر عن أية حضارة – شراء مشدّات لأنواع الشدّ كافة، اعترافٌ بأنه لم يعُد هناك ما يمكن أنْ نكون، أو نفعل. وانظروا - لأنَّ اللاوعي يُسيطر بصورة مُطلقة على السلوك الإنساني، يقتنع المُستهلكون. إنهم ***حقّاً*** يستحقونها. لقد استحقوا المزيد ***فعلاً***.

تصاعد شهيق وحيد، ثم (هسسس!)، وعلى الأثر أبدأ بإدراك أنَّ العرض هو جزء من ظاهرة نسميها (الحياة تومض أمام عينيك)- الجزء من المقالة الذي في حالتي هو تاريخ عصري.

أقول: «في الأجزاء المكشوفة من الغابة حيث يتجمّع عادة حُكّام العالم الفعليون بين حين وآخر ليشربوا ويتكلموا بلا حماس بحضور النار، تظهر التكشيرات كجراح أحدثها الفأس. هذا التفاعُل بين البائعين والمُستهلكين كان شيئاً هامّاً جدّاً. إنه آلة مُحرِّكة وأكثر. كانوا يقولون، رائع، لأنَّ المُستهلكين يفتقرون إلى التفكير السديد، إنهم مخلوقات مُكرهة تُصدق كلّ ما يُقال لها. والأفضل من ذلك، أنهم يزدادون بلادة مع مرور الوقت.

وتزداد المبيعات باطّراد.

لطالما شكّلتِ الجماهير الغفيرة مشكلة بالنسبة إلى الحكومة. ونحن في الغالب إلى جانب بلادتنا جعجاعون وعنيفون. لقد كانت فكرة كوننا نستحق أكثر وسيلة ممتازة لإبقائنا منشغلين. كانت الديموقراطية القائدة

هي الطريق إلى الأمام؛ وكلّ ما كان على الحكّام أنْ يفعلوه هو إسقاط كلمة *القائدة*. وبهذا انطلقوا في مغامرتهم، مُسقِطين برفق مسألة متوسط الذكاء، لكي يتمكن الجميع من الشعور بالألفة. وأطلقوا أيدي البائعين، بل وساعدوهم على تسوية المعاني الشرعية للحقيقة والكذب. فإذا أدّى شيء ما إلى الشعور بالأهمية، فهو مفيد حتماً.

وإذا كان مفيداً، فلا بُدَّ أنه صحيح.

وانتقل الاستهلاك من كونه امتيازاً، إلى كونه حقّاً، واجباً. أصبح سبب وجودنا هنا. أصبح مسرح الأسواق الخياليّ هو لغتنا الدارجة، إلى أنْ عمد الحاكمون إلى دفع القصص الخيالية الأكثر إبهاراً إلى خدمتهم، بل إنهم يعرضون أحداث العالم التي تدعم أكثر من أيّ شيء مطالبتهم بالمنصِب».

أتوقف برهة لأسمح لهمهمة بأنْ تسري بين الحشد.

«استمرَّ هذا بمرح لبعض الوقت، ولكننا نحن معشر الحشود الغفيرة تعوّدنا في النهاية على الشعور بأهميتنا. لقد أردنا أنْ نشعر بأننا أكثر أهمية. ولأنْ ما نشتري لم يكن إحساساً حقيقيّاً بالأهمية، اكتشفَ البائعون فجأة أنهم في وضع سيئ جدّاً. وبدا أنَّه لا أمل يلوح في الأفق. في الحقيقة لقد جلبت أشدّ المسرّات الواعدة الإحباط والغضب. وأخذ يقلّ عدد الذين يكتسبون الجمال، والقوة والأمان كما وُعِدوا. حتى عندما انضمَّ التلفزيون إلى الحملة، مُبيّناً عيّنات من أشدّ الأشخاص بلادة وتفاهة يُحققون السلطة والشُّهرة – استمررنا نحن الجماهير الغفيرة في نشاطنا المسعور.

وعُدنا، بلا إحساس بالامتنان كعادتنا، ودون أنْ نقع فريسة للفِطنة على امتداد الأجيال التي تُطبَّق هذه التجربة عليها، إلى أصواتنا العالية وعنفنا. حتى التعاطُف الأساسي ضعف، مع ازدياد مُضطرد في الجرائم ذات الطابع الوحشي الواضح؛ لأنَّ الإعلانات لم تقُل أبداً إنَّ أحداً آخر يستحق.

لكنَّ الحكومة كانت في موقع ثابت، وانضمت بسذاجة إلى البائعين في التوكيد على أننا نستحق. وفجأةً أردنا من الأشياء أنْ تُشعِرنا بأننا نستحق. لقد أردناها *في الحال اللعين*.

كان الأمر يتعلّق ***بالحقوق اللعينة الإنسانية الأساسية***.

في نحو ذلك الوقت توقّف الاقتصاد عن تنفيذ ما كان مُفترَضاً أنْ يقوم به. بدأتْ بِدعه الرائعة، حتى النكات القديمة عن اليد الخفيّة التي تخترق التقنية،[32] ونكات أخرى عن سائرين في نومهم من القرن الثامن عشر، وسُذَّج مَنحوا الاقتصاد اسمه، تُظهِر أخطاءها الفادحة. وكذلك فعلتِ الحكومة المخدوعة بنزواتهم. كنا نتسوَّق وكأنَّ القيامة توشك أنْ تقوم.

وفي الحال – قامت القيامة.

لم تعُد أساليب الموت الشريرة الجديدة كلّها، ولا الإرهابيون الأشرار كلّهم، قادرين معاً على إخافتنا من جديد. وهكذا بدأت عملية تفكيك عظيمة. وانفلقت أسطورة التنافُس أمام عيوننا، مع انهيار الأعمال الكبرى لتفسح المجال لأخرى أرخص. أفسحت محلّات بيع القطعة بجنيه الطريق لمحلّات بيع القطعة بـ 99 بنساً، وأفسحت محلّات بيع القطعة بـ 99 بنساً الطريق لتلك التي تبيعه بخمسين بنساً، إلى أنْ تحولت محلّات البيع بخمسين بنساً إلى أخرى تشتري المعادن الثمينة والأحجار الكريمة وتستولي على العِظام العارية لخزانة ملابسنا سعياً وراء الربح. وبينما تُباع كتب تاريخنا صفحة بعد صفحة عبر الإنترنت، تُرمى جانباً النوعية والجمال، بعد إثبات أنهما وهميان، وبالتالي لا قيمة لهما ديموقراطيّاً. وتُحلّ القيم، وتذهب الوعود أدراج الرياح، وتُمارَس أنواع الجنس كافة، ويسود الضحك الزائف، وتُلفَّق الحكايات كلّها، وتُشوَّه الحقيقة. إلى أنْ أصبحت سيارات نقل البضائع ناقلات جنود ومعدات حربية، وأصبح القصف بالقنابل يعني الحرية، ورقائق البطاطا أصبحت

32– حسن – تلك اليد كانت حتماً خفيّة، ها ها. – المؤلّف

وجبة تجلب السعادة، والعقود خدعاً - حتى كلمة كس أضحت مُستهلكة لا تُثير.

كان الأمر قد انتهى.

إنَّ الدعم الإنساني ببساطة ليس مُربحاً.

في النهاية لم يبقَ بطلٌ أعظم من الرجل الوطواط.

ولم نعُد أبداً إلى القمر.

وماتت طائرة الكونكورد.

وبقيَ ألفيس ميتاً.

كلّ ما تبقّى في الحياة هو التسكع في الشوارع في أثناء إطلاق سراح مؤقّت، تراقَب وكأنك من القرود. لأنَّ هذا، يا أحبّائي - ما نساوي بكلّ وضوح».

أتوقف برهة لتخمد تأثيرات خطابي. الآن كلّ كشف يُحدِثُ موجةً خفيفة من الشهيق تتعاظم لتغدو أمواجاً جبارة مع هسيس، وتتراجع مع غمغمة كحصى يمتص المدّ.

عندما أتابع يُصبح صوتي أرقّ، بل ويبدأ بالانكسار: «لقد تمَّ إنجاز كلّ شيء. ما يتبقّى، يا آخر الأصدقاء - هو أنْ نتحطّم».

كيس الورق يحتوي مسدساً. وبحركة واحدة سريعة أُخرِجه وأُطلقُ النار على نفسي من الأُذن.

يا لها من فوضى. بينما أرتمي وأتخبّط أكتشف أنَّ هذه الظاهرة من الحياة التي تومض أمام عينيَّ هي وهم. أدركُ أنَّ سببها نقاط تشابُك إرعاب الذكريات وإطلاقها ما يشبه الأبواغ عبر مرجٍ مُعتِم. أكتشفُ هذا عندما تتكرر مشاهد معيَّنة في عرض حياتي، وتومض أخرى من ملفات مُدمَّرة. ثمة مشهد بعينه أظهرُ فيه وأنا أطلب مثلجات من سيارة متنقلة، لكنني أتلقّى نكهة أخرى غير التي طلبتُ بكلّ وضوح. إنها إشارة مُبكِّرة إلى أنَّ ليس كلّ إنسان سوف يفهمني.

بعيداً عن خشبة المسرح أرى وكيل أعمال يُحاول أنْ يُحدد مزيداً من المواعيد لتقديم عرضي، بينما فتاة جديّة إلى جواري تحاول أنْ تشرح لي أنني ميّت.

ثم أمشي مع نجم. يتغلغلُ في كياني حسٌّ بالمعرفة: بأنني أنام نومي الأخير، حُلمي الأخير. في الغرفة تهمّهم مروحة التهوية. في الخارج حلَّ أول الليل. الهموم تأتي أفواجاً: كيف سأموت؟ كيف سأنقل الخبر إلى سميتس؟ الثمالة هي الحلّ. يجب أنْ تكون الهالة النورانية التي تُحيط بنا شديدة الوميض وعالية لكي تكون منيعة ضد العقل الخارجي[33].

لا شك في أنه سيلائم ذائقة سميتس.

أحفرُ طريقي بالآليّة الديناميكية، وشعري مُصفَّف على شكل زعنفة سمكة قرش في أثناء الإغفاء، خلال البهو ومنه إلى سيارة الأجرة المنتظرة، لأسترخي على المقعد وأبقيه سليماً.

هكذا تبدأ ليلتنا الكبرى، يا صديقي.

مطعم سان تروبيه يشغل ثُلث الطابق الثالث من مبنى للمكاتب في شينجوكو، وهي منطقة لتوظيف الأموال تضجّ بالنشاط في طوكيو. عندما أترجل من المصعد أجد صالة الطعام فسيحة ومفتوحة، مُزيَّنة بالمناظر الطبيعية أكثر من الأثاث، والأضواء مُسلَّطة من الأعلى إلى الطاولات: مساحة فخمة، صغيرة، خالية وصامتة. يا لها من مهد نوراني مهيب. يبدو أنني أول الواصلين من الضيوف. وعندما أتلفّتُ حولي أرى حوضاً مائيّاً يمتدّ على طول الجدار الخلفي مع منظر بحريّ يحتوي

33- هذه الهالة التي تُحيط بالقديسين هي الحل الحاسم لمهمّة الإنسانية. تذكّر اللحظات التي كان خلالها الشراب، والموسيقى، والصُحبة الطيبة تملؤك بضياء الحبّ الأخوي، وبالغفران وبالفرح، ثم قُل لنفسك: وَفقاً للمذاهب كلّها هذه هي الحالات الأرقى التي نستطيع أنْ نبلغ ككائنات بشرية. والأديان كلّها مُكرّسة حصراً لتحقيقها. إنها صِفات يسوع والغالبية العُظمى التي لا حصر لها من الأنبياء والآلهة. لذلك، ليس هناك من طقس دينيّ يعلو فوق الخلاف أكثر من الثمالة بغرض رفع الهالة النورانية. - المؤلف

رمالاً وحصى، وعلى أحد جوانبه معبد باغودا من الحجارة. إنه حوض يمكنك أنْ تغوص فيه حتى عنقك وتمشي عشر خطوات واسعة داخله. وتومض أمواج من الضوء بلون الشاي الأخضر، ترقّطُ الستائر الورقية للغرفة بينما أسماك ذات أشواك، وأسماك قصيرة وبدينة وأسماك تشبه مظلات تالفة تحوم في الداخل بعيونها الصغيرة، وأخطبوط يكمن في الباغودا. بينما أقف وأراقب، يلتقط طبّاخ سمكة بالشبكة فتنتفخ كبالون، تكسوها أشواك صغيرة.

سرعان ما يبرز سميتس من الخلف، وينعطف نحوي مُبتسماً باطمئنان، هازّاً ذراعيه، يرتدي سمّاق ماو أسود مرفوع الكُمَّين إلى الأعلى. أرى تحديقه كما سبق أنْ رأيته في يوم الباب الزجاجي، وكأنَّه يضع مجموعة من أضواء الرأس تحت جبينه. إنه أشد نحولاً مما كان، مع سالفَين أكثر سُمكاً، وعضلات يبرز فيها المزيد من العروق، وكأنَّ عِظامه امتصّتْ جلده حتى اقترب منه. ومع ذلك ليس هناك نحّات روماني توقَّعَ حيواناً عاملاً أشد من سميتس صرامة.

«عا-هِر»- يتراجع - «هل أنت قادم من ماخور؟». يُلوّح بيده مُشكلاً نفقاً خلال رائحتي، ويرمي نظرة من فوق شَعري ويومئ برأسه نحو كأس النبيذ الذي أحمله بيدي. «وتُحضِر مشروباً، إلى المطعم؟ هل أحضرتَ طعاماً أيضاً؟ أهي نزهة خلوية؟».

«إنها هدية»، وأناوله الزجاجة في أثناء عناقنا.

«لعنني الله»، ويتفحّص ما كُتِبَ على الرقعة. «إنه من النوع الذي تشربه مع رقائق البطاطا المقلية. لا أصدّق أنَّ الناس لا زالوا يشترون مثل هذه القذارة ذات الفلين».

ألاحظُ أنَّ لكنته لم تعُد تجمع بين الجنوب إفريقية والإنكليزية، وقد استقرّتْ أخيراً على الجانب الإنكليزي، مع نبرة عابرة كذكرى.

«إنها من الفندق» وأعبسُ في وجه النبيذ.

«يا صاحبي، الزمن تغيَّر». يجرّني خلال مطبخ منفصل عن صالة الطعام بار، حيث يفتح الزجاجة مع فرقعة. يُرحّب بنا ثلاثة من الطبّاخين اليابانيين همساً. بينما أومئ برأسي كردّ على التحية، يرنّ هاتف سميتس في جيبه. «لن أردّ» ويتلمّسه ويُخرجه ويُخرِس المكالمة: «إنه يُشبه البطة».

«مَنْ هذا؟».

«لا عليك. اتبعني. سأُريك النبيذ الحقيقي. إنه نبيذ القرن الحادي والعشرين. إنه امتياز خاص لأجلك هذه الليلة، هه، يا عاهر. بعد ذلك تستطيع أنْ تُخبرني عن سبب وجودك هنا».

«لقد عرفتَ توّاً. كنتُ أعلم أنك لن تخذلني».

«أخذلك؟ سوف ينبت لك جناحان. عصر الانحطاط يستدعي نبيذاً مُنحطّاً. ولكن إياك أنْ تتعوَّد عليه، إنه من مخزن الرئيس السري. أنت حتماً نينجا صغير»، ويسقط الضحك من فم سميتس كنباح رقيق، ويحني رأسه لكي يُخرجه. «إنني فقط أتمنى لو نشترك معاً - هل ستبقى حتى الأربعاء؟».

«كلّا. ولكن بعد أنْ تنتهي -؟».

«لا شيء حتماً، إننا نتعامل مع سموم قاتلة. أنا جادّ، الأمر أصعب من قيادة طائرة. ثم نعود في السابعة صباحاً من أجل المفتشين. ولكن، أنا أحسدك - هذا نبيذ من نوع نادر، وقد لا تقابله من جديد طوال حياتك».

«ولكن حتماً -».

«اغرب عن وجهي، يا كزبرة الثعلب، أنت تشرب وحدك».

«همم». أصبح الموضوع بين يديَّ الآن.

بعد برهة من الصمت، يرميني سميتس بنظرة جانبية: «ألم تسمع مرة بالسفر؟».

«أهذه نكتة؟».

«أنا أتكلَّم عن الذائقة، يا أبله. الأمور تغيَّرت بالنسبة إلى النبيذ، آه.

لقد تعرّفنا على عنصر آخر في المذاق - اسمه السفر. لم يفهمه أحد بعد. يتسم بما يشبه الطول الدفعيّ، والتأثير الشامل. يكاد يكون تغيُّراً في الأبعاد. سوف تسمع أنماطاً عِلميّة حول إعادة تمثُّل الإيثانول، وطرح الألديهايد وانبعاث الغازات من الغشاء المخاطي الأنفيّ. لكنَّ أفكارك الرومانسية تهمس كلاماً حول الهورمونات. تقول إنَّ الانفعالات العنيفة يمكن أنْ تؤثّر على الهورمونات - وكما نعلم، يمكن للهورمونات أنْ تطير. يمكن للعنب أنْ يستقبلها. الغضب، الشبق، اليأس. الحبّ. وتُصبح لُقاحاً. ولهذا ترى صانع النبيذ يعيش على مسافة سبعين متراً من الكرمة المتسلّقة. السرّ يكمن في الكيمياء، في الروح، في التوق الذي يمكن للعنب أنْ يترجمه. إنه مبيض مُخصَّب بالأحلام». يُفاجئ سميتس نفسه يصيغ كلمات أغنية: «لعنني الله - كزبرة الثعلب تنمو، هه؟».

ثمة مخزن للأطعمة مُدجج بأرفف قائم على الطرف النائي من المطبخ حيث صناديق وحزم كرسوم الغرافيك مزودة بشرائط وبكتابة واضحة، ومؤرخة بدقّة وعليها رُقعٌ تحمل اسم المطعم. تومض الأضواء لدى دخولنا، ويلتفت سميتس إليَّ:

«هل سمعتَ مرة عن توك- مسنل؟».

هززتُ رأسي نفياً. على الرغم من إحساسي كأنني مئة ين، نال منه التعب والحركة الفلسفية، والآن أوشك على أنْ أشرب وحدي - أستمتع أيّما استمتاع بمراقبة سميتس منغمساً في عالمه بأشيائه الفريدة. لا أفهم كيف يمكن لثرثرته الفخمة حول النبيذ أنْ تقود إلّا إلى الهالة النورانية. ويأخذني إلى ركام من صناديق الزَّبَد الأبيض خلف خزانة الأطعمة، ويُمرِّر يده عبر قمّتها.

يقول: «أولاً، انزع من رأسك أنَّ النبيذ مجرد مشروب. في كلّ عام تُضخ كميات هائلة من العنب المُخمَّر إلى السوق - لكنها ليست نبيذاً. النبيذ الحقّ هو الجينة المفقودة في الحيوان الإنساني. ثانياً: دعكَ من عاهراتك من متذوقي النبيذ بأحذيتهم المطاطية وسط الحديقة. فبينما هم

يستمنون في الفناء، ظهرت نخبة جديدة تتمتع بأحاسيس عالية الحساسية. أناسٌ لا يتسكعون ويُخمّنون النكهات يتذوقون الجبن كفئران لعينة، ولا ينتظرون أربعين عاماً ليكتشفوا أنَّ سدّادة الفلّين، التي ليست أكثر من قطعة من الخشب، أفسدتْ أمسيتهم؛ أناسٌ شاهدوا أشياء وقاموا بأمور لا أحد يفهمها». يسكت سميتس برهة لكي يتمطّى، ويُداعب وجهه. ثم يُشير إليّ: «إنهم يريدون أنْ يتلقّوا دعوة إلى مكان ما لا يُلبيها البشر، مكان ينغمسون فيه، مكان مُضطرون إلى الانغماس فيه. يريدون نبيذاً لا يتغيَّر مذاقه بسبب قطعة فلّين، نبيذاً بغطاء يبدو أقرب شَبَهاً بالطرف المُدبَّب لصاروخ». تسقط ذراعه إلى الصناديق. «أولئك الناس يشربون توك. وثمة دليل على أنَّ ثلاثاً من كلّ عشر زجاجات سافرتْ. إنتاجها مُقتصِر على عشرة أكرات من تربة حوض البحر المتوسط البركانية، والرماد والزجاج البركاني، وفي منتصفها مقبرة – يقول السكان المحلّيون: إنَّ دموع الأرامل تسبب السفر في كلّ حبّة عنب. ويقول آخرون: إنّ ما يفعل ذلك هو انفطار قلوب العشّاق. وكائناً ما كان السبب، فإنَّ الغِلال الخمس التالية كلّها بيعَتْ – ولا أحد يعلم مَن اشتراها».

أحدِّقُ بالتناوب إلى سميتس وإلى صناديق المدفعية.

«ثم»- ويتراجع وكأنَّ أحداً قد ينفجر – «هناك عالم ***فوق ذلك***. حفنة من الذوّاقة يعرفون بوجود نبيذ منحطّ تحتوي كلّ زجاجة منه سفراً. إنتاجه مُقتصِر على أربعة أكرات من التربة النادرة – بل نادرة جدّاً، يحدث مُصادفة كلّ مليون عام ونصف، يعود أصلها إلى الجد الإنساني الأول. والبعض يقولون إنها أربعة أكرات لأنها عدد المرات التي تقذف بها العذراء. ربما هذا صحيح. وربما لا. ولكن أترى إلى ما أرمي؟ الجد الإنساني الأول، التربة المعدنية نفسها – الجينة المفقودة. إنه تصحيح الطبيعة. كرمة نادرة، حيث يعيش صانع النبيذ في الكروم».

يرفع الغطاء عن الصندوق العلوي. وها هي، جلية كقذائف متلألئة، مُغرية ومُهدِّدة، ثلاث زجاجات سود.

«هذا النبيذ، يا صديقي – اسمه *ماريوس*».

أحدّقُ وكأنها يمكن أنْ تندفع. على كلٍّ منها رقعة بيضاء بسيطة يعلوها السواد، وبأحرف كبيرة ذهبية: ماريوس. والجزء الأبيض من كلّ رقعة يحمل عنواناً مختلفاً مكتوباً بخطّ اليد: ***سيمفوني*، *سيمباتيكو*، *سيمبوزيوم*.**

تتحرك فيَّ منابع الحماس.

يُشير سميتس، «خُذ أنت *سيمفوني*. الرئيس سيغيب فترة، ولدينا عشر دقائق قبل تقديم الخدمة – سوف أُريك شيئاً سيجعل عينيك تجحظان».

يُخبِّئ الصندوق المُستعمَل تحت الركام ونغادر خزانة الأطعمة، وفي طريقنا في أثناء اجتياز البار نأخذ وعاءً يُشبه البالون من النبيذ. ثم نجتاز قاعة الطعام، ونرتقي الدَّرَج، إلى رواق تحفُّ به مراحيض حيث يركع خادم يُلمِّع مقابض الأبواب. ينهضُ واقفاً لينحني في أثناء مرورنا حتى آخره. يفتح سميتس آخر باب بالمفتاح، ويفتحه ليؤدي إلى غرفة صغيرة خالية من النوافذ. السقف أبيض اللون، والجدران بيض والأرضية بيضاء، لا هي لامعة ولا كليلة. مقبض الباب أبيض، والباب أبيض. ثمة طاولة بيضاء مع كرسيين أبيضين في منتصف الغرفة، حيث إضاءة لا ترمي إلّا ظلّاً باهتاً بلون حليب يميل إلى الرمادي.

يهمس سميتس: «الغرفة البيضاء».

وووش. يتحول بياض رقعة الزجاجة إلى حفرة، وتعلق الكتابة في الفضاء؛ وبينما النبيذ الداكن ينبجس منتشراً، يرمي حواشياً قرمزية حول الكأس تتوهج بألوان برّاقة عبر الطاولة. يضغط سميتس البالون على أنفه:

«إذن ماذا تفعل هنا؟».

«أقوم بزيارة».

ينخفض جبينه.

«شاركني الشراب، يا سميتس».

«هل ورثتَ المطعم؟».

«كلّا».

«إذن لا أستطيع. لقد حان الوقت، أيها العاهر، لكي تكون جديّاً. لكي نُعيد شيئاً إلى مكانه. لقد انتهى عهد الطفولة».

أعاين النبيذ برهة. «أتريد شمّة؟».

تغضَّنَ جبينه. «*ماذا*؟ من أين لك بالمخدرات؟».

«أحضرتها من الوطن».

يتراجع. «يا صاحبي، اللعنة. لقد تجاوزنا عصر كزبرة الثعلب الآن، لعنني الله. أحضرتَ مخدرات مُهرّبة عبر مطار ناريتا؟ في اليابان يقتلونك من دون توجيه تهمة، سوف تختفي». يهزّ رأسه نفياً، ويهمس ببعض التجديف، وأخيراً يميل نحوي، قابضاً على الكأس. «كزبرة الثعلب، يا كزبرة الثعلب – ما الذي تفعله هنا حقّاً؟».

ما زال الوقت مبكّراً لإفشاء السرّ. السرّ مُزعج، ولكن لكي تنجح خطّتي يجب أنْ يكون لها برج يبثُّ أعلى هالة النور. أهزّ كتفيَّ، وأومئ برأسي نحو البالون: «هل أستطيع أنْ أتذوّقه؟».

يتحرّك فكَّه يميناً ويساراً. ويبقى متجهماً.

«على أية حال، هناك الكثير من الكلام حول النبيذ الأسترالي». أُدقق في الرقعة. «إنَّ عمره لم يبلغ حتى خمسة أعوام».

«اخرس. أنت لا تعرف أيّ شيء. هل سبق أنْ ذكرت أمامك اسم ديدييه الباسكيّ؟ إنه كفيلي. هو الذي يُصدّر النبيذ. سوف يُخبرك عن صانع النبيذ. قصة لا تُصدَّق، عن رجلٍ تخلّى عن الانحطاط لكي يُجرّب زراعة العنب استجابة لما فيه من حياة. رجل لعله اكتشفَ سرّ الحياة».

«أوه، أحقّاً؟ وما هو؟ أيديولوجيا أم مُنتَج؟».

«لا أعلم. أعتقد أنه أقرب إلى النكتة».

«همم. وهل تعرفها؟».

«كلّا. يعتقد ديدييه أنَّ عليك أنْ تسأل الرجل نفسه. والقصة التي تقود إليها رائعة، حول اللحظة التي فهم فيها ما يجري. أنا أعرف ما يلي: في أواخر القرن الثامن عشر عُثِرَ على سيارة مازيراتي غيبلي سبايدر مركونة عند أحد المنعطفات بالقرب من مونتي كارلو. ليس بعيداً عن الموقع الذي ماتت فيه الأميرة غريس. أنا متأكّد من أنَّ الباسكيّ قال إنها من نوع سبايدر. أدى اقتفاء أثرها إلى أختين تعملان عارضتي ملابس سباحة بيكيني، من باريس - وإلى رجل إنكليزي اسمه بايك، رجل جامح شوهد يقود سيارة مثلها. بدا بايك رجلاً مُثيراً للاهتمام، فأصغيتُ إليه. اسمع هذا: إنَّ النبيذ دائماً يُحكَم عليه عبر رشفات صغيرة. لطالما كان النبيذ مسألة تتعلّق ***بالتذوُّق***. إنَّ باقة الزهر سرّها في طريقة وضعها في المزهرية. بل إنهم يبصقونه بعد ذلك. يبصقونه! ولكن ماذا يحدث بعد شرب مقدار ليتر؟ ما تأثيره على امتداد ليلة؟ وحسب تعبير بايك: يمكنك الحكم على المحيط من الشاطئ - ولكن لكي تُحبّه عليك أنْ تسبح فيه. كان بايك يعلم ذلك. ظل يشرب الغلال الأوروبية حتى النسيان، وسجل تأثيراته، والتقى مع آلهتها».

ارتفعت من النبيذ القاتم أصابع من الأبخرة لكي تغويني.

«على أية حال، تلك السيارة تُرِكَتْ. أنا واثق تماماً من أنَّ ديدي قال سبايدر. لا أحد عرفَ حقيقة ما حدث. ولم يُرَ بايك في أوروبا بعد ذلك. اختفى. ولكن بعد ذلك بسنوات، دُعِيَ أحد معاونيه، من سباق فورميولا ون، إلى قصر يقع خلف كاب ديل. كان هناك مخزون من نبيذ الاختبار عليه رُقع كُتبَ عليها بخطّ اليد. وتعرَّفَ على خطّ يد بايك. وعندما تذوق النبيذ عرفَ أنَّ الأحوال تغيَّرتْ. وتابع عملية اقتفاء أثر بايك حتى أرضه المُستترة. فوجده مُلتحياً، يعيش بين الكروم، ويقود شاحنة عتيقة. إحدى ناقلات التبن الأوروبية الضخمة. إنه لغز لعين غامض - إلّا إذا عرفت ما اكتشفَ في ذلك اليوم خلف مونتي كارلو. واليوم هو هناك بين كرومه. يحاول أنْ يضع سرّه في العنب. الإنتاج ضئيل لكنه مُطابِق للأنظمة، ويمكن المتاجرة به علناً، خلاف توك. وكأنه يُحاول أنْ يموِّه عمله».

«سوف تتعرف عليه من ثماره». وأخيراً انتزعتُ البالون منه. «هل يقطف الناس عنباً أو تيناً ذا أشواك؟».

«ماذا – هل قابلت الباسكيّ؟».

«هذا من سِفر متّى. الكتاب المقدّس».

«أه»، تطرف عين سميتس، «في الواقع، سيقول لك ديدييه إنَّ بايك لديه لحظة تجلٍّ. ذهب للبحث عن تربة نادرة لكي يعمل في إنتاج النبيذ. استغرق ذلك منه سنين، لكنه نجح. ووصل الخبر إلى عدد قليل من الناس. وتقول الشائعة إنَّ العذارى يذهبن إلى الكروم في أثناء الدورة الشهرية، وإنها بمثابة رحلة حج لفتيات دير التحمُّل وللأستقراطيين. وقد قابلتُ رجلاً في كمبنسكي قال إنَّ الكونتيسة أوسون أنجبت طفلاً تحت ظلال كروم ماريوس، وإنه منذ ذلك الحين وصرير الجداجد يجعلها تقذف. لكنني لا أثق به، كان يعبّ نبيذ ليوفيل-بارتون وكأنه بيرة. ومع ذلك، هناك أكثر من خبير خمور يدخر من أجل أنْ يمرح تحت العنب. بل إنَّ ديدييه نصحهم بأنْ يفعلوا ذلك تحت عنب شيراز[34]. يقول إنَّ شيراز ينمو على الشغف لكنَّ الغريناش[35] يُفضِّل الندم».

«إذن بعد قضاء ليلة تحت كرمة شيراز يمكنك أنْ تتقلَّب».

«اسمع، يا عاهر»، ينتصب سميتس واقفاً، «هذا النوع من العصير هو نِتاج ضربة حظ جيولوجية يعود تاريخها إلى السلف الإنساني الأول. إنه تصحيح للطبيعة؛ يتغذّى على معادن قبل-تاريخية، وشغف وإفراز العذراء. فاشربه واخرس».

مع أول رشفة من ماريوس يمتدّ أمامي منظر طبيعيّ، من أشجار شوكولاته سوداء وسماء من تبغ، من مروج كرز حيث تتك سيقان العشب في وجه النسيم. وبعد شرب جرعة عميقة يمتدّ المشهد

34- الشيراز: أحد أنواع العنب الأحمر، يُقال إنَّ أصله من شيراز، في إيران. - المترجم
35- الغريناش: أحد أكثر أنواع النبيذ الأحمر شيوعاً في العالم. - المترجم

البانورامي إلى أعلى التل، ويتغيَّر إحساسي بثقل جسمي وأبعاده برهافة، وينتاب عضلاتي وأعضائي توثُّبٌ هادئ. أرفعُ بصري لأرى سميتس يرسم ابتسامة عريضة.

يقول: «أغمض عينيك، ألم تبلغ قمة التل بعد؟».

هناك ارتفاع بمسار منحنٍ للدفء، وصعود مرهف في الجسم كلّه يتزامن مع المذاق المتنقّل. التل. أقول: «نعم. نعم».

«عظيم. أترى المدة الطويلة التي يمكن أنْ تبقى فيها – تناول رشفة أصغر، ثم أخرى بسرعة. أتشعر بالنسيم؟ أتشعر بانتشار الحرّ؟».

ها هو، مشهد طبيعي أنا فيه وحدي، خريطة حيّة أعبرها.

«قد يستغرق الأمر زجاجة أو اثنتين، ديدييه يُقسِم بأنه يستطيع أنْ يُعيدك من خلال كروم النبيذ إلى شرفةٍ حيث دائماً الليل صيفيّ، حيث يعيش تصحيح السلف الإنساني الأول. والخدعة هي أنْ تبقى هناك وتتصحَّح».

وووش. هالة نورانية معبّأة في زجاجات. أطرف بعيني، وأتلفّت حولي، وأتخيَّل هذا الرجل يكتشف كيف يعيش. لأنّني، وإنْ تأخّر الوقت بالنسبة إليَّ، أدركت أنَّ السرّ يكمن في قلب فشلي في الحياة. عرّفتُ (الجيد) في أخلاقي بأنه البحث عن هالة نورانية أرقى باستمرار، وأنا أشدِّد على هذا. كما تدعمه ثقافتي، وأبحث ببساطة عن الأضخم والأفضل في كلّ شيء. ولكن أنا وثقافتي معاً سوف نموت – في حين يبدو أنَّ هذا الرجل عثر على آليّة للتراجع. في الواقع، ليتراجع إلى ذروته.

التفتُّ نحو سميتس: «إذن هذا السرّ، ذروة النكتة هذه كما سمّيتها – هل هو تحقيق الأحلام، أم فقط كون المرء قانعاً بما لديه؟ لأنه يبدو أنَّ الرجل كان يعيش حياةً عظيمة قبل أنْ يرحل».

«مَنْ يدري، أيها العاهر، يجب أنْ تسأله، حتى ديدييه يرفض الإجابة. على أية حال، لا تفكِّر كثيراً في هذه الفكرة، لأنها سوف تجرفك إلى

الجنون. استمتع بالنبيذ، انظر حولك، وتساءل - أيمكن أنْ تصبح الأحوال أفضل من هذا؟ هه؟».

«إنها لا تتحسّن كثيراً».

يواصل سميتس النظر بفخر شديد. «قُل لي إنَّ هذا ليس تسلُّحاً استعداداً للعصر الحديث. وما يوشيدا إلّا الناحية الجيدة - إنَّ له ذوقاً راقياً. لقد بنى غرفة من أجل توك، ولكنه اضطر إلى اختبار كلّ زجاجة إذا لم تطِر. يا له من صداع شديد - لم يتمكّن من تحمُّل الزجاجة كلّها، وفي المعتاد لا تسافر حتى الكأس الثالثة أو الرابعة. وإنْ كان هناك أكثر من حفل غرفة بيضاء واحد في الليلة ينتهي به الأمر إلى الهلاك. وقد حلّ ماريوس هذه المشكلة، على الرغم من أنه لم يعُد يفعل ذلك كثيراً. إنَّ اليابانيين لا يحملون جينة السُّكر. في الشهر الفائت عمد أحد أفراد عصابة ياكوزا القذرين إلى تلويث الجدران، واضطررت إلى ترميم الغرفة كلّها».

أقول: «إنها معبد. معبد الهالة النورانية».

«هذا لا شيء، كان يجب أنْ ترى أحد أحداث ديدييه الكبرى - وهذا لا يعني أنك تستطيع. لا أحد حتى يُسمح له بالحديث عنها. لكنها وضعت ذلك القذر في الظلام. لقد سمعت عن ينابيع ماريوس. ينابيعه. لهذا يجب أنْ أُحسِن التصرُّف - مع بعض تجربة سمك *الفوغو* يمكن لديدي أنْ يجرّني إلى عمليته الأوروبية. بعد ذلك لا تعود هناك ذُرى يمكن بلوغها. إنَّ ديدييه (الباسكيّ) لاكسال هو عرّاب التزويد بالكثافة».

«أتساءل ما الذي جعلك تهتم بالسمك».

«غموض السمك. هل سبق أنْ أكلتَ سمك *التورافوغو*؟».

«لا أستطيع أنْ أقول إنني فعلت».

«سمك منفوخ سامّ. لذيذ جدّاً. والخدعة هي في أنْ تقطّعه شرائح تاركاً قدراً من السُّمّ كافياً لجعل شفتيك تطن. إنها قبلة صغيرة من

الموت. لكنه فنّ راقٍ - إذا تخدّرتْ شفتاك فقد قُضي عليك. لا ينفع أيّ ترياق. وبعدها تمرّ سنون قبل أنْ تحصل على رخصة».

«أهذا كلّ ما تقدمون؟».

«مع بعض التغيير: أصبح سمك الفوغو يُربّى في مزارع، من دون سُمّ - لكنَّ سمكنا هو من نوع سمك النمر المنفوخ البري، يُصاد بالصنارة في بحر اليابان. وسُمّيته عالية. وهو غير قانونه، قبل نظام الحصص، يُصدَّر بهدوء عبر الباسكيّ - وهكذا علينا أنْ ننقل السمك إلى الصهريج غداً، ونضعه في صهاريج نظامية من أجل المفتشين. ويوشيدا مهتم بالأمر».

«أفهم منك أنه ليس ابنك غير الشرعيّ».

«أيها الحقير، إنه مجرد رجل أعمال، الأمر كلّه يتعلَّق بالنقود. لو كان في استطاعته أنْ يحصل على نقود أكثر من بيع سوبرماركت سمك *الفوغو* لباعه - لكنَّ الناس يدفعون كثيراً مقابل مادة تنطوي على مجازفة. إنه يكسب الكثير من النقود. في الشهر المقبل سوف يفتتح محلّه الثاني، الأكبر حجماً، حيث الجدران كلّها مؤلفة من حاويات مياه مالحة، وكأنكَ تتناول الطعام في أعماق المحيط».

أتفكَّر بعض الوقت، أحوِّم فوق حافة تأثير ماريوس. لقد ولجت قاعة اليمبوس، مكاناً يأتي إليه الزبائن الدائمون ليلمسوا ظل الموت. رأسي يتخبّط. الموت على يد خبير بالسمك المنفوخ، أية زخرفة غنية بفورات الحماس، يفوق كلّ ما حلمت به. إنني أتناول الطعام مع زملاء في اليمبوس. ووش. طبعاً كان الخوض في كلّ تلك العوامل دون إزعاج سميتس بالنسبة إليَّ أيضاً أشبه بلعبة شطرنج. ولكن انتبه، لقد اتّضح أنَّ دفقات الحماس تساهم في لعبة النهاية. مع تغلغل ماريوس في عروقي أشعر بأنَّ في استطاعتي أنْ أوكل إليها أمر إعدادات الليلة. أما الآن فسوف أستقرّ وأُرخي حواسي.

لاحظتُ أنَّ سميتس يُراقبني. قلت في نفسي: «همم، إذا سمّمتَ زبوناً فهل ستضطر إلى قتل نفسك؟».

«كان يا ما كان في قديم الزمان، هه. ولكن اللعنة على هذا، هذا لا صِلة له بي - إنَّ توموهيرو، الطويل، هو الطبّاخ. إنه الوحيد هذه الليلة الذي يحمل رخصة».

«ولكن هل يرصدون كم تأكل؟ هل تستطيع أنْ تبالغ في الأكل؟».

«سوف ترى كيف هو الحال. إنَّ معظم الأطباق ليست سامة، وسُمّ ساشيمي خفيف إلى درجة أن تستطيع مشاهدة فيلم داعر تحت تأثيره. والخطر هو في حَدّه الأدنى. المخيف هو الفضلات. الكبد، وخاصة المبيضات. لكنَّ الفضلات ليست على قائمة الطعام، إنها ممنوعة منعاً باتّاً. في اليابان من غيرِ القانوني بيع السمك كاملاً. ولا نستطيع أنْ نتخلَّص من الفضلات، لأنَّ المُشرّدين ماتوا في الشوارع. لا أعتقد أنك لا تستطيع حتى أنْ تحرقها. يمكن لمبيض واحد أنْ يقتل ثلاثين شخصاً، أه. ومع ذلك لا يزالون يحبّون العبث به. على سبيل استعراض الرجولة، ما يُشبه لعبة الروليت الروسية. إنَّ تذوق الأعضاء هو أقصى ما يمكن أنْ تفعل. في كلّ عام تقع بضع حالات وفاة».

«إذن كيف تتخلّص من الفضلات؟».

«اللعنة على مَنْ يعلم. أجعل أحداً يأخذها. ربما يدفنها في أعماق البحر أو ما شابه، أو يُسقطها على كوريا الشمالية اللعينة. لدينا ثلاجة مُخصصة لها، وكأنها فضلات نووية. إنني لم أرها إلّا مرتين. على أية حال، هيا نحجز طاولة»، ينهض سميتس عن كرسيه، أتمنى، أيها العاهر القرمزي - ألّا تكون تتناول أيّ نوع من الأدوية».

«همم - ولماذا؟».

«لأنني سأتولى طلب الطعام لك».

-8-

قامت على خدمتي مُضيفة ترتدي الكيمونو بالرهافة المترددة لطائر لقلق، مجتازة ممرات مع ظلها وتتنقّل تحت الأضواء. يصل الزبائن الدائمون، وتدبّ الحياة في قماش الكنفا في القاعة فيتغضَّن، وتلطخه الألوان والدخان وتحرّكه. ويراقب السمكُ المنفوخ في الأوعية الممتدّة على طول الجدار، وأحياناً يُسافر إلى المطبخ في صندوق على شكل معبد الباغودا، وتبرز رؤوسه وأذياله، لاهثاً ومتخبطاً. هذا هو المشهد، ودائماً يبتسم سميتس عبر النضد حيث ينهمك في إعداد طعام نادر.

أتجاوز سُمّ ساشيمي لسمك *التورافوغو* الجميل وأراقب المطبخ سعياً وراء إجابات حول السُّمّ. تمرّ بضع دقائق وأنا أفعل ذلك، إلى أن انتبهت إلى أنني أتخيّل طبّاخين يرمون بالفضلات خلفهم ويفقدون المبيضات كما يرمون كرات البلية على الأرض. اضطررتُ إلى الضحك. إنَّ التخطيط للموت في أثناء وليمة يدل على خبث، وعدم ثقة في فورات الحماس. وتصبح الانتهازية لازمة. أترك الأمر إلى لحظات نورانية لاحقة، ستأتي حتماً. المهم الآن هو الاستفادة أقصى ما يمكن من اليمبوس. وبينما يجعل أحاسيسي مُرهفة إلى أقصى مدى، أستمتع بما يجري، وبالتدخين، وبالشرب، وبالشعور بحسّية القاعة من حولي وكأنها معطف من حرير. يا لها من قاعة مملوءة بالإثارة، بتدريب على اليمبوس مع طبق شهيّ قاتل. يا لها من ثقافة متحضرة بصورة رائعة.

عند نقطة معيّنة يُحضِر لي سميتس طبقاً من السمك يحمله على

أطراف أصابعه، كنوع من الـ *amuse-morte* (الموت المُسلّي)، ويومئ إليَّ كي أتناوله بالعيدان. ويراقبني كقط وأنا آكله، وينتفخ من فرط الافتخار عندما أُبدي ردَّة فعلي. يا له من تعبير وجه أنيق لكلب يجمع الطرائد. من بين الأحداث الفرعية اللحظة الفجائية التي تشق في أثنائها سمكةٌ سطحَ ماء الحاوية. وعندما تغوص من جديد من طرطشة، يُشير الآكلون كلٌّ إلى الآخر عبر القاعة، مومئين، مبتسمين وشاهقين. ويستغلون المناسبة ليتفحَّص كلّ منهم الآخر، كما يفعل الآكلون عادة، ولكي يخلقوا جوّاً من الألفة. أنضمُّ إليهم وأرتبط بهم، بل وأفتح فمي وأُشير إلى الحوض، وهذه مبالغة، أعترف. ولكن في مكانٍ تسوده السكينة يُعتبَر قفز سمكة حَدَثاً بارزاً، والأحداث البارزة هي التي تصنع الحياة. نحن جميعاً شهودٌ على قفز السمكة، ولا أحد غيرنا في العالم. الحدث نفسه يُضاف إلى أحداث أخرى في حياتنا، ونُصبح أشدّ ارتياحاً الآن لأننا نجونا معاً من حادث تحطُّم طائرة، أو من جنح طوف تائه. مَنِ القائد؟ مَنِ الأشد ذُعراً؟ الخبيث؟ الشهيد؟ هذا أقصى ما يحدث عندما تقفز سمكة. هذه هي الإنسانية، بأساليبها الصغيرة، وأشعر بحنين عابر. لاحِظْ كيف أنه في أشدّ كوابيسنا جموحاً ليس من الضروري أنْ نشاهد صديقاً عند نافذة، ولا طبيباً، ولا رجلاً ثريّاً – بل مجرد شخص آخر. عندما ننظر إلى محاولة التواصُل هذه، نرى أنها ليست سلوكاً خاطئاً. لعلها تعوِّض عن خطأ وجودنا هنا أصلاً. بل لعلها إحساس بأننا معاً يجب أنْ نتمكن من شغل قارب الحياة المنجرف هذا.

مثل هذه التأملات هي تزجية ممتعة للوقت إلى أنْ بدأتُ أتأمّل في فعل التأمُّل نفسه. ثم أُدركُ أنَّ الطعام والزمن يجعلان تأثير نبيذ ماريوس يختفي من أعضاء جسمي، وأنَّ مقدار شراب الساكي ضئيل جدّاً بالنسبة إلى منحدر نورانيّ حادّ.

أُخرِجُ بعض الزجاجات من الحجم المُصغَّر من معطفي وأذهب إلى المراحيض.

في أثناء وجودي هناك يدخل سميتس: «يقول توموهيرو إنَّ الرئيس لن يأتي. يا لفرحتي اللعينة. وكما تعلم، أخبرتهم أنك كاتب عالمي كبير متخصص في الطعام. حاول أنْ تبدو متمرّساً. سوف أضعك على لائحتي».

«في صحتك»، وأُخرِجُ زجاجتين صغيرتين من الرَّمْ الأبيض، وأُفرِّق بينهما بين أصابعي، مُشيراً لسميتس ليأخذ واحدة منهما. إنه يحبّ الرَّمْ.

يُشيح بوجهه، «ابعد عني. فقط فكِّر في الأمر - يجب أنْ أعمل جنباً إلى جنب مع رجل يُقطِّع الساشيمي بسرعة كبيرة تجعل الطبق يتلوّى».

أهزُّ كتفيَّ استخفافاً، وأقفُ أتأمّل الزجاجتين، ببلادة، في اعتقادي. إنهما تُصبحان لامعتين تحت الضوء.

يدعك سميتس وجهه بيده. ويكظم تثاؤباً. وأخيراً يتراخى كتفاه، يقرران أنْ يكونا أشبه بمشجب داخلي للمعاطف، وينتزع الزجاجة. ونشرب النخب بيدنا اليُسرى، كما نفعل دائماً - لأنها موصولة بالقلب.

«أين تلك المخدرات؟» وأخيراً يربِّت على جيبي.

ووووش.

لستُ في حاجة إلى قول الكثير عن حُرمة حُجيرة المرحاض حيث يتمّ تبادل جرعات المخدرات[36]. وبينما سميتس يقطع خطوط المخدرات على الحوض، ويُنظّمها ويفرمها بسرعة طبّاخ، تَرِدُ على ذهني رسوم بيانيّة لصداقتنا: أرى كتلتين من الألوان المختلفة جدّاً، حياتينا المنفردة جنباً إلى جنب - وعند نقطة تلاقيهما الرفيعة يظهر لونٌ ثالث، حيث نتلاقى. هناك لا يمكن أنْ نُطلق أحكاماً فظّة - لأنَّ كلّ منا أضاف لونه عليه، وسوف نحكم على نفسينا جزئيّاً.

36- الناس في مرحاض مزود بالمواد الضرورية يحتلون أعلى مراتب الصُّحبة الحميمة. وفي عصرنا ليس هناك أعظم من معاهدة حرية التصرّف، لم تعد هناك شِفرة شرف تُتبادل همساً، مع أنصار أكثر من الجريمة المُنظَّمة، والسياسة أو الجيش، وإظهار السلوك الراقي الذي ينسبه أقراننا إلى أنفسهم، لكنهم في الواقع لا يمارسونه. نعم، إنَّ مزايا إنسانية راقية: كالمشاركة، وحفظ الأسرار، والعناية المتبادلة، لا زالت حيّة وعلى أشدّها في المراحض. - المؤلف

أستنشق خطوطي من الأسفل إلى أعلى، بينما سميتس يستنشقها إلى أسفل. ويتناول كلّ منا جرعة أخرى من الشراب، وقليلاً من مسحوق النشوة. وأخيراً يستقيم سميتس، مستنشقاً ملء رئتيه من الهواء: «عا-هر!»، ثم يخطو برشاقة إلى الخارج ويتركني وحدي ألعق الغبار عن فاتورتي - أستعيد نشاطي بمشروب تشيسر مُرّ، وبعده أنطلق عائداً إلى طاولتي كسحابة.

يكون مزيد من الأرز والنبيذ المُثلَّج قد وصل، والآن ينتابني إحساس بغسل قدميَّ بعد الدوس على مرج في الشتاء. أودّ أنْ أدوِّن هنا وصفة الهالة النورانية التي يُحدِثها هذا كلّه؛ ولكن كما في أفضل الأشياء، تأتي من منابع حدسيّة وغير متوقَّعة. سوف أدوّن وصفات معيَّنة، طبعاً، في لحظة أشدّ هدوءاً، مع شرب كأس من النبيذ. أما الآن، إذا تبعتني، هناك وصفة كبرى للحصول على اليمبوس:

أشرب المزيد.

ويُصبح للأمسية إيقاع، تتقدم بأبيات من الشِّعر من السمك ***والساكي*** وبينهما جوقة من المخدرات. وهذه قدحها سميتس بإيماء إلى المراحيض. ***والساكي*** الحارّ، بوصفه مادة بحث، يعمل عمل البلسم المُهدِّئ بين مادة حادة وأخرى ناعمة، فيمزجهما كما يمزج الرسّام السماء والبحر. والساكي والمخدرات يُشكلان سماءً رائعة بالنسبة للمشروب والكوكايين بهذه الطريقة، تحفة فنيّة من الهالة النورانية، كمشهد مرفأ ألماني، يضجُّ بالحركة لكنَّ سكينة من الضوء تلفّه. بينما أفكّر في هذا، يُصبح كلّ شيء في الحياة بهذه الطريقة، مسألة اندماج، كما عبير العِطر؛ حتى تجاربنا تبدو أنَّ لها ثلاثة أنغام من النكهة: النغمة العالية، التي هي صفعة فوريّة من حدث؛ والنغمة الوسطى، التي هي الأثر المعتدل في أثناء حدوثه: والنغمة المنخفضة التي تلوّثك بعد مرور التجربة، وتحجب ذكراها وحقيقتها[37].

37- لاحِظْ أنه بالتخطيط للفسوق المثالي، أو لحفل بريء، أو حتى لغداء، أو حياة، ينبغي الانتباه لتلك النغمات الثلاث كلٍّ على حِدة. ولو أنني أدركتُ هذا في مرحلة مبكّرة لأضحت حياتي سمفونية عطِرة حقاً. آه لا بأس. - المؤلف

بعد عدد من هذه الأناشيد والتأملات، دوّنتُ بعضها، يبدأ المكان يخلو من الآكلين. وبتناسُبٍ عكسي مع هالتي النورانية المُحلِّقة، يهدأ السمك في الحوض ويسبح إلى الأسفل، ربما امتناناً لبقائه حيّاً مع سمومه. ويمسح رفاق سميتس العرق عن وجوههم، بينما يتنقّل سميتس جيئة وذهاباً في المطبخ لإنجاز مهامَّ تافهة.

وينسحب انتباهي عائداً إلى السموم.

من الواضح أنني يجب أنْ أُهرِّب بعضها إلى الفندق، لأنه في مثل هذه الأماكن الأنيقة يُصبح جليّاً أنَّها ستكون خدعة وحشية ألعبها على سميتس، مهما كانت هالتنا مُضيئة. إنني في الحقيقة همجيّ، ونشوتي تخفّ قليلاً من الإحساس بالخجل. إنها تسلط الأضواء على مشكلة اليمبوس: إنَّ العقل الطليق يمكن أنْ يفقد تحضّره. يُصبح منغمساً في ذاته ومُبلبلاً. إذن، من الغريب أنَّ بعض الأشياء تهمّ *حقّاً*. إنَّ اليمبوس يحتاج إلى دستور. في الواقع إنه أحجية، لأنه إنْ كان اتخاذ قرار الموت يعني أنّه لا يعود لأيّ شيء أهمية - إذن الموت نفسه لا يهمّ.

وووش - إنَّ بعض الأشياء تهمّ *فعلاً*.

يغوص ما تبقّى من *الساكي* إلى داخل جوفي، وأستنشق بعض الكوكايين وأنا هناك إلى الطاولة، لأرى إنْ كان في استطاعتيّ أنْ أتجنّب التورُّط في السؤال التالي: ما الذي يهمّ؟ حمداً لله لديَّ الانتحار ألجأ إليه. نعم، والفندق هو الإجابة الواضحة. سُم إلى الفندق. تخلَّص من جواز السفر ومحفظة النقود. تُصبح ميتاً مجهول الهوية. ويتمّ العثور عليك في الشارع، أو جالساً على الشاطئ. في بحر اليابان بوصفك أجنبيّاً متجنساً، أو كأنكَ عشب بحريّ جُرِفَ إلى البرّ. حتى تسريحة شَعري الشبيهة بزعنفة سمك القرش تشير إلى البحر. ولما كانت ثمار البحر تسبّب الموت، فمَنْ سيقول إنني لم أقابل السمك في بحر اليابان؟ إنَّ هذا يستثني مُستخدمي سميتس من المعادلة وإذا لم يظهر الخبر على الصفحة الأولى للصحف، فحتى سميتس لن يكتشف الأمر قبل مرور وقت طويل.

آه، سميتس. كانت هذه الفكرة في بدايتها عندما يرتفع ضجيج السادة الجالسين إلى الطاولة الأخيرة، على مسافة قصيرة عبر القاعة. ويتناهى الهمس والنخر من طاولتهم، وأصوات يتوقّع المرء أنْ يسمعها مع ضرب السيوف. عندما أمدّ نظري أرى أنَّ أحد السادة يرتدي بنطلون طرطان، ولاثنين منهم تسريحة ذيل الفرس لامعة كأنها من البلاستيك. الأكبر سنّاً بينهم يجلس وحيداً على رأس المائدة، ويبدو أنه المُحرِّض. وكلهم سكارى. والدخان المتصاعد يبتلع توهّج الحاوية، جاعلاً القاعة مسرحاً لملحمة من الحيوانات والنار.

إنني مشلول - لكنَّ زملاء سميتس في العمل يتجنبون النظر إلى طاولتي. أراقب طاقم العمل يتهيأ للمغادرة وأرى أنه عندما يرتفع ضجيج قد يُلفِتُ انتباههم، يلتفتُ كلٌّ إلى الآخر بدل ذلك. توموهيرو، الطبّاخ المُجاز - الأطول قامة، والأرقّ مظهراً - يرتدي معطفاً ويأتي لكي يتمنى لأولئك الزبائن الأخيرين ليلة هانئة.

يُجيب أكبر السادة عمراً بصفعة آمرة على الطاولة. البذلة الرمادية اللامعة تنزلق عنه، ويبدو فمه في وضعية التعبير عن الصدمة. ليس كإيماء؛ إنَّ فمه هو كذلك بطبيعته. إنَّ الإنسان يولَد وهو على حافة الصدمة.

بانغ: يصفع من جديد. يقفُ الطبّاخ مُطرق الرأس.

أخيراً يبصق الضائع العجوز بعض الكلمات، ما يخرج من المرء عادة إذا ما تلقّى طعناً. يتفجَّر الأنين من أتباعه، لكنَّ العجوز يصرفهم بحركة عصبية من يده، كما يفعل طفل. إنه سيد المائدة. سيدٌ طفل على حافة الصدمة. يُحدّق إلى الطبّاخ. يُخاطب توموهيرو الأرض. وردّاً على همس السيد، يتراجع إلى الخلف وكأنّما يتملّكه حنقٌ قاتل. ومن جديد يصفع الطاولة.

تقفز عيدان الطعام.

في وسط هذه الدراما، في أثناء بحثه عن العالم أجمع كما في مسرح الكابوكي، تأتي لحظة يرميني فيها الرجل ذو بنطلون الطرطان بنظرة

جانبية ويبتسم. فجأة ينكسر توتُّر تلصّصي. أصبح بيننا رابط الآن، في نادٍ، وأسترخي في جلستي وأنا أدخن سيجارة أراقب تكشّف الأمور. يبدو أنَّ المُنتشي يطلب شيئاً يخجل توموهيرو من رفض تنفيذه. وعلى الرغم من أنَّ هالتي النورانية تجعلني أرغب في أنْ أعانقهم جميعاً وأعترف، أنجح ببذل بعض الجهد في الاسترخاء وسط هدوء تأمل الآكل الوحيد الاستبطاني، مُتلمساً المشهد خِفية.

سرعان ما يأتي سميتس متبختراً. «أمر غريب»، ويضع طبقاً آخر أمامي «في المعتاد يتعامل يوشيدا معهم شخصيّاً. عندما دخلوا كان أشبه بعروس عذراء. الآن يُسببون الإزعاج لتومو».

«ماذا يقولون؟».

«مَنْ يدري. ربما (لماذا يبدو هذا السمك شبيهاً بنا؟). كيف وضعت عائلاتنا في الحوض؟» ويضحك سميتس من كلّ قلبه.

يسمع السادة ما قال، فيلتفتون.

يُسرع سميتس بتصحيح غلطته، فيُعلن لي: «الصنف الأول كان ***فوغوكاوا يوبيكي*** - وهذه سلطة جلد سمك الفوغو مع البونزو والفلفل الأحمر».

أبتسمُ للسادة. ينظرون إليَّ شزراً في المقابل، وفي الوقت الذي ينصرف انتباههم عنا، ينحني لهم توموهيرو كتذكار ويخرج من ناحية اليسار.

يقول سميتس: «في الختام أوصيك بتناول هيره-زاكه. إنَّ زعنفة الفوغو تُعزز النبيذ، تجعله يغلي في كأسه. هلاّ أخذته إلى الغرفة البيضاء؟» ويقودني متبختراً على طول الرواق ويُنادي على آخر النادلات من أجل إحضار نبيذ *الفوغو*.

في الغرفة البيضاء يجلس متراخياً على الكرسي. «حفنة من العاهرات. يكاد الليل ينتصف».

«ألا يمكننا أنْ نبقى في الخارج؟ أنا مُستمتع».

«أولاً أحضر بعض خطوط الكوكايين. سوف يكون الأمر جليّاً إذا انتقلنا معاً إلى المراحيض. على أية حال، لعل العجائز ينتبهون ويرحلون».

وبالهيئة النيّقة لمَنْ ينزع فتيل قنبلة، هيئة السكارى كلّهم وهم يؤدون مهامَّ بارعة، نقسِّم ما تبقّى من الغرام على ظهر محفظة النقود، لكي لا نخسره في الغرفة البيضاء. وأُبقي عيني منتبهة على سميتس. إنَّ هالته النورانية قد ثُبِّتت عند مستوى فاسد. ثمة أمر واحد نسيته – بعد نقطة معيّنة يمكن لسميتس أنْ يتحرر من عقاله.

«عا-هر»، ويستنشق خطّاً بأنفه.

على الجانب الآخر من الباب علا صخب المنتشين، على الرغم من أنه لا يمكن أنْ يكونوا قد سمعوا وصفه. ويُقرر سميتس أنْ ينتظرهم في الخارج، ولكن بين ثلاث جولات من الهيره-زاكي - قويّ النكهة والكثيف بتأثيره النورانيّ، وتبرز منه زعنفة محروقة - احمرّتْ عيناه وبدأتا تومضان. وعند نقطة معيَّنة يرنّ جرس هاتفه في جيبه، فيُخرجه انتزاعاً ويُطيح به عبر القاعة.

أخيراً قرعت النادلة الباب حاملة رسالة تطلب منا الانضمام إلى السادة لشرب نخب تحية المساء. وسرّني أنْ أعود إلى القاعة. إنَّ هالتي النورانيّة عالية وجسمي خَدِر – لقد حان وقت الاستعداد للختام. أغادر المكان وأُرسلُ نبضاً إلى منابع الحماس عن السُّمّ، التي هي حتماً عرضهم الختامي، بما أنَّ جمع العناصر هذا عضويّ ولا يمكن أنْ يكون مُصادفة. ولكن عندما حاولت أنْ أُصفِّر على إيقاع الإشارة، غطى بُصاقي سميتس.

«ما هذا؟» وأخذ يمسح نفسه بكُمّه. «تمالك نفسك. دعنا نشرب نخباً سريعاً مع أولئك الشباب، ثم نطردهم. لا تقلق بشأن اللغة. هل في حوزتك بطاقات زيارة؟ اليابانيون يُحبّون بطاقات الزيارة».

يسكت سميتس ليمضغ شفته. «هذا صحيح. ثم قُم بالكثير من الانحناء».

وصلنا إلى الطاولة بعد اقتحام أكثف كمية من الدخان المتصاعِد. الرئيس الطفل يجلس مومئاً برأسه ونحن نقترب من المجموعة، وعن قُرب أرى ومضاً خلف حافة الصدمة. في الحقيقة عندما وصلنا إلى الطاولة انتابني شعور بأنَّ هناك أفضل مما توقعت. الهالة النورانية تتصاعد، بطريقتها الخاصة، مع روائح هلام الشَّعر والأرز. بين تبادل الإيماء بالرأس والانحناء أفكِّر بمدى روعة الباحثين عن الهالة النورانية. نتبادل النظرات كمنارتين عن بُعد. نحن من الطبقة الأرستقراطية، ونستطيع أنْ نخترق كلّ طبقات الثقافة ونتواصل فقط بالأرواح. نعم - لا أقلّ من أرستقراطية الطبيعية[38].

يُنادي سميتس على النادلة لتجلب الويسكي. فتجلب زجاجة من صنطوري، وبينما ذو البنطلون الطرطان يُغيِّر الكؤوس يلكزني سميتس بحركة واضحة ويرفع الكأس لشرب نخب الرجل العجوز: يقول: « لقد خرقت زوجتك يوم الثلاثاء. كانت جافة كالقرميد».

يتلعثم الرجل، وينظر إلى جماعته طلباً لتفسير.

«ولاحظتُ أنها تستخدم أسنانها أكثر مما ينبغي. أنصحك بتفحُّصها بنفسك عندما تعود إلى المنزل، ربما لم يتبقَّ منها الآن إلّا الجدعة».

ساد التوتُّر الجالسين إلى الطاولة. وهممتُ بلكز سميتس عندما أنزل أحد أصحاب ذيل الحصان كأسه وقال بإنكليزية مهذّبة: «في اليابان، عندما نشرب النخب نقول - *كامبيه*».

38- هذه الليلة الأمر واضح: الإنسانية لا تنقسم حسب العرق، أو الدين، أو اللون أو الثروة؛ شيء واحد يجعل البشر غير متساوين، الطاقة. موهبة الحماسة. وأصحاب هذه الموهبة يُشكّلون طبقة أرستقراطية، يتعرّف كلّ منهم على الآخر على الفور. وطاقتهم قد تكون بطيئة أو سريعة، لكنها تمكِّن الآخرين من حولهم من البروز - ولهذا السبب نُسميهم صالحين. أما باقي البشر، فعلى الرغم من أنه من الممكن التخلُّص منا بالمعنى المفيد بطريقة ديموقراطية للكلمة، يمكن أيضاً للبعض من غير الديموقراطيين أنْ ينالوا الشرف: غير الآمنين المجرَّدين من وسائل الدفاع أو من الثقة الزائفة في النفس؛ المتواضعون والصريحون الذين يستحقون الاحترام؛ والمرحون والقاصفون الذين وهم في ذروة العربدة يبقون مخلصين لروح الهالة النورانية. - المؤلّف

إنها فرصة لتصحيح اللحظة. أبتسمُ بصورة مناسِبة، وأرفع كأسي، ملقياً عبارة ذات نبرة مُرعبة لا يمكن إلّا أنْ تصف أطفالاً يلعبون بمنشار شريطيّ.

نَجْفُل.

ووقع التحدي. يومئ الأعوان برؤوسهم كما يفعل اليابانيون، سواء أكان ذلك يعني نعم أمٍ لا. وبعد فترة من الصمت يلتفت المتكلِّم بالإنكليزية إلى سميتس: «إنَّ يوشيدا- سان دائماً يسمح بهذا. طبعاً، بما أنَّك المتحدّي - سوف تنضم إلينا».

يجرع سميتس مشروبه ويلكزني: «راقبني وأنا أسجل نقاطاً مع الرئيس. لقد كان تومو جباناً إلى درجة أنه لم يقدم طبقه المُفضَّل إليهم. هذا هو سبب الضجيج».

أسأل، «ما الأمر؟».

يقول سميتس: «إنها الفضلات. إنهم يتحدونني لأكل الكبد».

توثّبتْ أحاسيسي.

كانت أنفاس سميتس مزيجاً من السمك والكوكايين. يقف متوازناً عند الطاولة ثم ينطلق بخطّ متعرِّج إلى المطبخ. في أثناء غيابه يؤدي الرجال طقس إعادة ملء كأسي، مستأنفين ثرثرتهم المؤلَّفة من الشهق والنخر، يتبادلون التقريظ واللوم، مما جعلهم سُكرهم رائعين كحفنة من السيدات العجائز يلعبن الورق. كان الأعوان الثلاثة ينتمون إلى طبقة أدنى من أكبرهم سنّاً، الذي حاول أنْ يُبرِز براعته طوال الوقت؛ وسرعان ما أصبح توبيخه شرساً بصورة هزلية، وقبل كلّ توبيخ كان ينظر إليَّ كي أنضمَّ إليه في إلقاء نكتة اتهامات أعوانه. وعلى الرغم من أنَّه كان جليّاً أنَّ الرجال هم رجال عصابات من نوع ما، إلّا أنَّ الكحول حوّلهم إلى أطفال - يا لها من هالة نورانية رائعة. وأتقرّب منهم، وأرفع كأسي:

أقول: «في صحتنا، وصحة أمثالنا، على الرغم من أنهم جميعاً ماتوا».

ينظر الأكبر سنّاً إليَّ شزراً، مُدقِقاً في كلّ كلمة تُنطَق. ثم يضحك،

ويومئ كلّ مَنْ إلى الطاولة برؤوسهم ويضحكون معه. وترتفع الهالة النورانية إلى ذرى جديدة، وأتساءل: أهي خدعة أم هدية من فورات الحماس، جذبٌ أم شدّ، أنْ تلقى هذه الساعات ترحيباً من الغرباء؟ هنا في الطرف المقابل للعالم أنا مع أرواح لا تقلّ عني مزاجيّة، نتفاهم في الهالة النورانية، ونحن إخوة سحابة الليل - وهذه الليلة يعني إلى الأبد.

هل أُغويتُ بالتراجُع أم بالمغادرة؟

ذلك أنَّه نادراً ما تتحسَّن الأمور أكثر من هذا.

كلّ ما في استطاعتي أنْ أفعل هو أنْ أركع وأؤدي طقس شرب الكأس التالية. أعتقد أنني أرى تردُّداً في وجه العجوز وأنا أصبّ. إنه يضطرب قليلاً، وهذا أسوأ ما يحدث في جولة الشراب الأخيرة.

ثم يعود سميتس. إنه يحمل صينية عليها طاس وعيدان جديدة للأكل. بينما يضع الطاس أمام العجوز أرى أنه يحتوي صفّاً من الكريات اللزجة.

يرين الصمت. يجلس سميتس والعجوز وجهاً لوجه، مُسلَّحين بالعيدان المرفوعة. يتبادلان التحديق عبر كتل لا يزيد حجمها عن حبوب فلفل كبيرة. العجوز يُكافح للبقاء يقظاً، بجفنين مرتخيين، ورأس يترنَّح. يأخذ نفَساً، ينعم النظر في وجه سميتس، ويرفع الكتلة إلى أسنانه، ويقضمها حتى آخرها مع ضجيج.

يشهق التابعون.

يمتص سميتس كتلته داخل لسانه، ويُديرها حيث يمكننا أنْ نراها. ثم يقضمها كلّها ويبتلعها.

بعد هذا، لا تندّ عنهما أية حركة.

تنتهي المبارزة. أنضم إلى الأصحاب بمراقبة وجوههم، التي تبقى خالية من التعبير، منكّسة، تطرف، بألسنة تدور داخل أفواههم، وتمرّ على الشفتين. ثم، عندما يصل التوتّر إلى أقصاه - يرفع كلّ منهما رأسه، ويُكشِّر. وتنفجر موجة من التصفيق. يتركان في الأثناء العصاوين،

وينحنيان انحناءة عميقة ويتصافحان. وبفيض من تلك المواد الكيميائية التي تُذيب الأدرينالين نرتقي إلى أعذب هالة نورانية عرفتها في حياتي، ثمالة، خطر، ارتياح ورابطة أُخوّة جديدة تحلّق في سماوات صافية من منتهى النعيم. وبسرعة صُبّ مشروب آخر، ومع هذا تبادلنا كلّنا الحديث والنخر والشهق، دون فهم ولكن بوعي تامّ.

طبعاً لحظات ذروة بهذا الحجم تُرهق الجسد. ومع انتهاء المشروب، كان العجوز الغائب عن الوعي يغوصُ بهدوء في نوم عميق.

طفق أعوانه يُساعدونه على النهوض. وتشكيلهم على هيئة كتلة واحدة مترنحة يجعل الأخطبوط ينساب عبر الحوض التي خلفنا، مُحدِثاً تموجات من الضوء عبر المكان. وأخيراً، ترفع المجموعة العجوزَ المُبتسم بين أكتافها وتتحرك مبتعدة كأنها مخلوق واحد نحو المصعد، ونتبعهم لنتمنى لهم ليلة هانئة.

يفتح سميتس باب الردهة: «*أوياسوميناسيه!* ويا شباب – لا تدعوه يلج مرحاضاً يابانيّاً، وإلّا فلن نراه بعد ذلك».

تمتدّ ذراعان خارجيتان من الكتلة لكي تلوحا مودعتين.

مع انغلاق باب المصعد، يلتفت سميتس إليَّ. «لقد أمضوا ليلة رائعة. أليس كذلك؟ سوف أضع الرئيس في جيبي، إنهم أشبه بزبائنه المُفضَّلين».

قال هذا وتوجّه نحو الطاولة وبصقَ كتلة الكبد.

لحقتُ به وحدّقت إلى الطاس. «ألم تأكله؟».

«كُنْ واقعيّاً، لستُ مُضطرّاً إلى فعل هذا. لعل أولئك الرجال لديهم مناعة. ولو أنَّ سمكة *تورا* عضّتهم، فمن المُحتَمَل أنْ تموت السمكة».

وقفتُ أنظر في الطاس. وكانت الطاولة تحتوي أيضاً أطباقاً صغيرة، وميَّزتُ وعاءين من أجل الفضلات المُهرَّبة. وأستسلم للتحديق الطويل إليها حتى إنَّ سميتس يتناول عيدان أكل ويلتقط بها كتلة من الطاس.

«افتح»، ويرميها إلى فمي، «كبد *تورافوغو*. للمرة الوحيدة في حياتك. افتح».

«هل لي بكأس أخيرة؟».

«لا تأكله، فقط تذوّقه. افتح، يا عاهر».

أفتح فمي. لا يرمي سميتس الكبد بل يدسّه تحت شفتي، ويُمرره يميناً ويساراً. ثم يُخرجه، ويُراقبني. أشعر بوخز في لثّتي. بسرعة. شيء مثير. كانت فورات الحماس قد سبقتْ مذاق موتي.

آمل أنْ تكون قد لاحظت هذا، يا آخر صديق - انظر إلى طبيعة الحظ، أشعر بآلياته وهي تعمل. انظر إلى البراعة التي تحتل بها عناصر الليل أماكنها. إنَّ هذا أيضاً يرسم حتماً خطّاً هادياً قيِّماً للحياة، في حال كنتَ تنوي البقاء[39].

يعيد سميتس الكبد إلى الطاس. «تشعر بطنين فظيع، أليس كذلك؟ لقد صدم فمي بلسعة كهربائية، حين وضعته فيه. تستطيع أنْ تفهم لماذا قبِلَ يوشيدا التحدي - إنَّ عميلي يزوّدني بسمك *التورا* البري. هل ذكرت أمامك اسم ديدييه الباسكي؟».

إشارة سيئة من سميتس. لقد نسيَ أنَّ المواعظ المبكرة تعني أنه أصبح خارج الهالة النورانية، كنسر يسقط من أنبوب حراري. وعلى الرغم من أنه يُشير إلى أنَّ الوقت جيد للانقضاض على طاس الكبد، إلّا أنني أُصمم أيضاً على جعله يشرب آخر جولة خاصة من المشروب.

نجلس إلى الطاولة وأُقرِّب الطاس وأعبث به. أقول: «غريب كيف أنَّ اسم ديدييه الباسكي لا يُذكّرني ببحر اليابان».

يدخل سميتس متمايلاً، «أه؟ في هذا المجال هو يُذكِّر بكلّ نتاج

39- اجهر برغبتك، راقب الإشارات، ثم انتهز الفُرَص عندما تسنح - هذا هو الدليل الواضح والعمليّ من فورات الحماس إلى الإبحار من حياة، أو موت، عبر عالم الطبيعة. - المترجم

نادر. لو أتمكن من العمل معه فسوف أُحقق النجاح. خاصة على إحدى ولائمه. فبعد إحدى مناسبات الباسكي تُفتَح الأبواب في كلّ مكان. وهو يراقبني، أنا أشعر بهذا. إنه يختبرني ليرى وضعي. وما أحتاج إليه الآن هو حفل ضخم يُقام في أوروبا لكي أحظى بإعجابه الحقيقي. لو أنني كنتُ هناك لاستدعاني».

أخرجتُ زجاجتي فودكا صغيرتين من معطفي، ومع ويسكي من الطاولة أُعدُّ كأسين من المشروب القوي - طبقات رقيقة من الويسكي تطفو فوق الفودكا، معروف بأنها تُرمم أشد الهالات النورانية تلفاً. ثم خطّ من الكوكايين، يتبعه درامبوي[40] مع الثلج، يدعمه ويُضفي عليه المتعة. بهذه الطريقة سرعان ما جلسنا من جديد في ثمالة جليّة، في حالة شفافة من السُّكر المتأخّر ينتهي بها المطاف فوق نجد عالٍ، وأعشاب السافانا كلّها سكرى تحاول أنْ تعود إليه. هذه الليلة أنا أصبو إلى الهالة النورانية، هالة بلا خوف أو تفكير، إلى مكانة تحقّقَت بعد إفراط صعب ولكن محظوظ، حيث لا يتمّ بلوغ الذُّرى قبل الأوان، أو إذا حصل ذلك، فإنَّ جرعة من مواد مُساعدة، أو تقيُّؤاً تكتيكيّاً، تفتح من جديد درباً إلى الأعلى؛ مكانة تتحقّق غالباً بعد محاولتين أو ثلاث من الحالة التي اعتقدتَ أنها الأخيرة؛ مكانة تُساعدك على الارتقاء إليها الرقص وليس الطعام؛ مكانة تُصادفها دون سابق إنذار، بعد أنْ تنهار تحت وطأتها.

هنا نزجي الوقت كالمتنزهين، نشرب وندخن دون توقف، بما أنَّ النجد هو تلك الحالة التقريبية الختامية حيث لا يهمّ أيّ شيء بصورة أو بأخرى. إنه هضبة تيبت من الغليسرين تدور فيها تحت النجوم، بذراعين ممدودتين، وأنت متحرِّر من نفسك.

الفرق هو أنَّ الفقاعة الخفيفة في الحوض هي هنا معنا.

وأنا في هذه الحالة أحوز على طاس الفضلات. ومع كلّ قطعة صغيرة

40- درامبوي: مزيج استثنائي من الويسكي المُعتّق وعسل الخلنج والبهارات والأعشاب، والنتيجة مشروب ذو لون ذهبي صافٍ. - المترجم

من الكبد أنقلها إلى طبق من البهار، يقترب مذاق إحساسي باليمبوس من البحر، من البرد، من الماء الرمادي والملح، من هدير الأمواج في الأذن. ومع تعاظم المذاقات لتغدو شهوات تلحّ عليَّ الحِكمة كي أعترفَ لسميتس، كي أترك رسالة قصيرة في ذهنه، من أجل المستقبل. فليعلم أنَّ موتي ليس أكثر من مغامرة أخرى من مغامراتنا – وليست الأخيرة، على حدّ عِلمنا.

ولكن عندما التفتُّ نحوه، يقعقع المصعد ويهدر في الردهة.

يُسمع حفيف أقدام. يُقفَل باب المُصعد.

بعد برهة يدخل توموهيرو جارّاً معه حافظة رغوة الثلج. ويترنّح مارّاً دون أنْ يرانا، ولكن بينما يتناول شبكة صيد السمك من جانب الحوض يَجْفُل سميتس ويلتفت. ينظر الطبّاخ بعيداً.

يقف سميتس ويقول: «أه؟ أصبحت الساعة السابعة بهذه السرعة؟».

أقول: «أعتقد أنها بالكاد بلغت الثالثة».

يُخفض توموهيرو بصره. وعندما يرى الطاس وأطباق الفضلات أمامنا يقترب ليأخذها. يُطرِق وجهه أكثر من ذي قبل ويمضي نحو المطبخ، وبعد برهة يعود مع قارورة أمان صغيرة، كالتي تُستخدَم للعيّنات الطبيّة. في داخلها بعض الأعضاء الأكبر حجماً – وعندما تصبح جليّة، يبدأ سميتس بالتجهُّم.

يتناول توموهيرو عيدان أكل ويلتقط كتلة من طاسي، ويحملها بجوار القارورة للمقارنة.

يختطف سميتس الطاس: «اللعنة، أكانت هذه مبيضات؟».

-9-

يهمس سميتس: «العجوز موصول بجهاز التنفُّس. إنَّ التترودوتوكسين يشلّ العضلات. إنه يسدّ قناة الصوديوم: يبقى المرء صافي الذهن ولكن مقيَّد في داخله. وقد أخبرني الرئيس ذات مرة أنه استغرق منه ثمانٍ وأربعين ساعة ليعرف أنَّ أحد الزبائن قد تسمَّمَ. أما هذا العجوز القذر فسقط قبل مرور ثلاث ساعات».

توقف الهواء عن الدوران في المطعم.

لا يقول تومو هيرو أيّ شيء آخر. وبعد أنْ قام بعملية تبديل السمك، أطفأ الأنوار وخرج مع حافظة الثلج، وهو يجرّ قدميه كالميت الحيّ ليتجنّب إراقة الماء. وتغادر الفضلات المبنى معه، بالإضافة إلى عيّناتي عن الطاولة. نُصغي إلى ضجيج انغلاق باب المصعد وكأنَّ هديره وقعقعته تصف طحن القدر الأبدي. ويهبط المصعد. وتخفق هالتنا النورانية - ثم تخبو. ينحني ظهر سميتس إلى الأمام وهو يتنهد. ويدور رأسه داخل يديه. ينعق: «أنا في أسوأ حال».

ثمة حافز يحدوني ببساطة إلى الارتماء داخل الحوض. لكنني متجمد هنا. إنَّ بعض الأشياء تهمّ حقّاً. أقول: «اسمع، لقد كان الرجل منتعشاً تماماً عندما غادر هذا المكان. ولعله مستغرق في النوم. لعل الآخرين أخبروا المستشفى أنه أكل سمكة فوغو، وافترضوا ببساطة -».

قال منتعشاً: «هلا تكلَّمتَ بصورة طبيعية لعينة ولو لدقيقة؟ اللعنة! وكأنني مُحتَجَز في جناح الموت[41] مع إينيد بلايتون[42]!».

«آسف. لقد كان فاقداً الوعي عندما غادر -».

«أنت لا تفهم - أنا لم أتمكن من التمييز بين المبيض والكبد! كم كنتُ شديد السُّكر! لقد قدَّمتُ له مبيضاً من إحدى أسماك ديدييه الطروادية. واليابان ليست المكان المناسب لتلقّي اللوم على أيّ شيء. إنه الوعي العالي، ليس كالوضع عندنا في الوطن. إنني في أسوأ حال».

«لكنه لم يكن قادراً على فتح عينيه ليأكله».

«الآن تومو يعلم. ويعلم أنني لستُ في وعيي».

«همم. حسن، أنا أيضاً تذوّقت بعضه. أكان ذاك مبيضاً؟ إنك حتى ابتلعت بعضه».

نخر سميتس. بقيت يداه تغطيان وجهه، وكأنَّ بقاءه أعمى مدة أطول سوف يجلب بعده واقعاً أكثر إشراقاً. «لم أعُد أعرف أيّ شيء. الأفضل أنْ أتناول بعض الخطوط، لعل ذلك يفتح منافذ هواء. الأفضل أنْ نبقى مع الخطوط هذه الليلة ونرى ماذا سيحصل. لا أعلم هل أسكر أم أنتحر، إه».

نجلس قليلاً دون أنْ نتكلَّم، وندخّن. حتى دخاننا يبدو ضعيفاً ولا يُشكّل ريشاً، إنه يتحطَّم على الأرض. أما فورات الحماس، حسن - ما معنى هذا؟ وداعاً، كبحاً - أم مجرد خدعة ممجوجة؟ لقد التهمت مواضيعُ الموت السهرةَ. وكأنَّ مواضيع الموت تركب هنا على ظهري، ثم تلتقي بمجموعة أخرى وتضلّ طريقها. السهرة كلّها موت، موت، موت، موت. لقد أصبحت مغناطيساً.

أتأمّل في المفارقات بينما حنك سميتس يسحق ويُقعقع.

41- جناح الموت: السجن الذي يُحتَجَز فيه المحكومون بالإعدام ريثما يُنفَّذ فيهم الحكم. - المترجم

42- إينيد بلايتون (1897 - 1971): كاتبة إنكليزية تؤلف روايات ألغاز للأطفال والفتيان. - المترجم

يقول: «ولكن أعود فأقول، هو الذي طلب السُّمّ. طلبه!».

«بالضبط! وتحت التهديد».

«في مؤسسة راقية متخصصة في السُّمّ المُميت، حيث الزبون دائماً على حقّ. مكان يقدِّم المخاطِر. ماذا أفعل - ألا أخدمه؟ إذا كان قد جاء إلى مكان يُقدِّم المخاطر، وطلب مخاطِر - طبعاً ســـأقدم له مخاطر. فهل ذنبي إنْ كان سيئ الحظ؟».

«لا جِدال في ذلك».

يُكافح سميتس للإبقاء على بصيص أمل. ولكن بعد برهة يتدلّى رأسه على صدره.

«نعم، وكأنهم جميعاً سوف ينظرون إلى الأمر من هذه الزاوية».

حدَّقت إلى صديقي. الآن فقط يتضِّح لماذا سعيتُ وراءه: لأنه أمضى مُعظم حياته في اليمبوس. لطالما تكلَّم والدي عن لامبالاة سميتس، لأنه يتيم، لأنه يفتقر إلى المُرتكَز الذي يحمي من الوقوع في الهاوية، إلى المرتكز لأول أساس متين. لكنَّ ما رآه أبي لم يكن لامبالاة، بل استقلالاً. كان على الطفل سميتس، قبل أنْ يتمكن من التفكير عبر الصور، أنْ يُقرر ما إذا كان وحيداً في العالم أم تحت رعاية شاملة.

لقد كان وحيداً. وفي الحياة دائماً نندفع عائدين إلى الحالة التي عرفناها أولاً.

يقول: «لقد انتهى أمري الآن. وإذا تلوّث اسم الباسكي في هذا الأمر - يعلم الله ماذا سيحدث. لن يكفي كلّ ما في البحر من مبيضات». شدَّ على فكّيه وهو يفكّر. وعندما يرى معطفي الثقيل مُعلّقاً على كرسيٍ إلى جوارنا، يميل ويفتش فيه عن زجاجات مشروب صغيرة. لم يتبقّ منها أيّ شيء، كلّ ما يعثر عليه زجاجة عطر جيكي النسائي. ومع ذلك، يفتحها، ويشمّها، ويحملها إلى البار حيث يفتح زجاجة من الفودكا المُثلّجة، ويصبّ مقدار جرعتين، ويسقط قطرة من عطر جيكي في كلّ

منهما. أشمّ الجرعتين وهما يقتربان مني، وأكاد أراهما يجرّان وراءهما ضياء النجوم.

يقول سميتس: «إنها دموع الملائكة».

نحملهما بيدينا اليساريتين ونلمسهما من خلال أبخرتهما. يبهران أنفاسنا، يستبدلانها برائحة منحطّة. عندما أستعيد أخيراً قدرتي على الكلام، يخطر في بالي أنْ أقول: «آسف إنْ كنتُ قد فككتُ عقدة لسانك هذه الليلة».

يومئ سميتس برأسه، رافعاً بصره إلى الحوض حيث تعلق السمكة الجديدة في اليمبوس «أنت عاهر، كزبرة ثعلب. نحن لا نبحث عنك هنا، ولا نبحث عنك هناك. ولكن أنا أيضاً صاحب إرادة حرّة. شيء نموذجي، لقد تفاقم الوضع كثيراً. ليس فقط كفلني ديدي، وكلّ شيء يتعلّق على هذا - بل لقد أخبرته بأنني وجدتُ الأمر سهلاً قليلاً. في الواقع سهلاً جدّاً. وأقول الصِّدق، إنني أزداد اشمئزازاً من نفسي. لم أعلم أنَّ الحصول على رخصة بيع سمك *الفوغو* يمكن أنْ يستغرق عشرة أعوام لعينة. حسِبتُ أنَّ الأمر سينتهي في غضون ستة أشهر - وهذا كان قبل ستة أشهر! وكنتُ أقول كلاماً كبيراً لديدي، وكأنني أبدأ من خطّ النهاية، وكأنه إجراء رسمي. وأنت تعلم أنني حتى لا أحبّ السمك. إنني أكره السمك، لذلك جئت إلى مكان يبدو فيه حتى الرئيس أقرب شَبَهاً بسمكة. ومن ثم بدأتْ تلك المسألة الأخرى تحدث. عقدتي الصغيرة النموذجية. يا لي أحمق لعين. ولا زالت خيوطها تتجمَّع».

«عمَّ تتحدث؟».

«إنني حتى لا أريد أنْ أسمع نفسي أقوله. على أية حال، إه. تلك كانت مُحاولتي الأخيرة. أنا في السادسة والعشرين. لقد كبرتُ على الحماقة».

ويُدلّي رأسه كثيراً حتى يكاد يلمس حجره. وأرى عاصفة من المشاعر تتغلغل فيه، جاعلة ظهره يتوتّر، مُكوّنة غصّة في حنجرته يبتلعها. «إنني في آخر مراحل تحمّلي. بعد ذلك لا أعلم ماذا سيحدث».

«ما رأيك لو تجمع بين الرئيس وذلك الرجل ديدييه؟ وهل أُذكِّركَ بأنك طرفٌ في مجموعة من المستفيدين؟».

«أصغِ إليَّ: إنَّ ديدي خارج هذا كلّه. إنه فقط يُحرك الخيوط، يعلم الله أين هو في الواقع. في فرنسا، أو في مكان ما. في استطاعتي أنْ أحكي لك إشاعات عن الباسكيّ تجعل قلبك يتوقف. إنَّ في استطاعته أنْ يُغلق مطبخاً راقياً في أقل من ساعة، بمكالمة هاتفية. يُغلقه. يستطيع أنْ يترك يختاً طوله مئة متر يصدأ في المرسى بسبب الافتقار إلى الطاقم والمؤن. إنَّ ديدييه يزوِّد المُمولين الذين يمدّون العالم بأشياء خاصة. ويضع أفضل الطباخين في جيبه. يمكنه أنْ يملأ ملعباً لكرة القدم بنجوم ميشلان[43] ويجد مع ذلك مكاناً أفضل لتناول الطعام. وأنا أعرف طباخين عملوا في مناسبات تخصّه كانوا يستديرون ويرحلون عندما تسألهم عن هذا الأمر. إنهم لا يبتسمون ويُغيّرون الموضوع. ولا يقولون: «لا أستطيع أنْ أخبرك». بل يكتفون بالاستدارة والرحيل بشكل لعين.

«إذن أليس هو فوق الاهتمام بسمكة مطعم واحدة؟».

«إلّا إذا كان اسمه متضمّناً فيه. إنَّ سمك *التورافوغو* البري يتمّ التحكُّم فيه هنا. إنهم يقتفون أثره. إنها مجازفة كبرى».

«همم. لكنها مع ذلك مجرد سمكة، أعني -».

«يا كزبرة الذئب اللعين، لستُ في مزاج يسمح لي لأعلِّمك آليّة العمل هنا، إه. استيقظ. إنها ليست مجرد سمكة. هذه الليلة كان العجوز سينفق مئتي ألف ين هباءً. أترى كيف يأكل أصحابك الأفارقة قروداً من النوع النادر لاكتساب مكانة؟ أترى كيف يأكل أصحابك الآسيويين لحم النمر والكركدن. إنَّ ما نضع في الجسم ليس مجرد كالوري، بل دواءً، وروحاً، ورمزاً. إنها الألوهيّة. إنَّ المليونيرات، والأمراء والشيوخ يأكلون أصنافاً

43- شركة ميشلان الضخمة التي صاحباها الفرنسيان أندرية وإدوارد ميشلان، مُنتجة إطارات السيارت الأشهر في العالم، تُخصص مع ذلك جائزة تقديرية لأفضل الأطعمة، حدّها الأقصى ثلاث نجوم. - المترجم

غريبة من الهراء. ويتعاملون مع الأمر بجديّة صارمة. تخيَّل الضربة القوية التي تتلقاها من تقديمك معروفاً على ذلك المستوى. هذا هو ديدييه. إنَّ الرجل ليس في حاجة إلى جواز سفر. على أية حال لم يعد لهذا الكلام أية أهمية. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليَّ».

أومئ برأسي، وأمضغ خدّي من الداخل. يرنّ هاتف سميتس بصوت خافت في الغرفة البيضاء، لكنه يتجاهله.

«يُستحسن أنْ نرحل قبل أنْ يتحول المكان إلى مسرح جريمة». نهضَ مترنحاً، مُبعثراً عيدان الأكل على الطاولة. «سوف أحمل حقيبة الغسيل وأُخبئ بعض نبيذ ماريوس. قد لا نراه بعد الآن. لا أتحمّل أنْ أتلقى المزيد من الضربات. سمٍّ ذلك ثمن الانقطاع. ثم دعنا نهرع إلى مكان ما لا يمكن بلوغه، كالفندق الذي تنزل فيه. وربما أتصل بالباسكي، قبل أنْ يسمع عن الأمر كلّه من شخص آخر».

نتسلل عائدَين إلى مخزن اللحوم حيث يستردّ سميتس زجاجة ماريوس التي كنا قد فتحناها آنفاً. يتناول منها جرعة طويلة ويُعطينيها. وبينما أشرب يتجول هو مالئاً حقيبة الكنفا بالزجاجات، وواضعاً صناديقها الفارغة في أسفل المجموعة. وكاد ينتهي عندما تناهى إلى سمعنا ونحن في مخزن اللحوم صوت.

ثمة قرع خفيف على زجاج الردهة. قرع ينمّ عن خوف.

«أه؟» يتجمَّد في مكانه.؟ ثم تتدلى قسمات وجهه: «أه، اللعنة عليَّ – ليس الآن».

أنعمُ النظر من خلال ظلام المطبخ فأرى قامة قميئة عند الزجاج. قاعة الطعام مبهمة من هنا، يطغى عليها وهج ضبابيّ، وأشرقَ الصمت بفعل بقبقة الحوض.

ثم ربتٌ آخر على الباب.

يهمس سميتس: «ماغرو[44] لعين».

«ماذا؟».

«سمك التونا. سمكة ميتة»، ويدفع الباب ويفتحه مقدار بوصة أخرى. «أتذكر تلك الفتاة الناعمة الأخرى التي أتيتُ على ذِكرها؟».

«مَنْ تعني؟».

«ابنة الرئيس الصغيرة. أه يا يا صاحِ، اللعنة. هات الزجاجة».

«ماذا – كم عمرها؟».

«مَن يدري. أعني – لا بُدَّ أنها في الثامنة عشرة، انظر إليها. لا بُدَّ أنْ تكون في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة». وينتزع الزجاجة ويجرع منها، ويُحدق من خلال الباب.

«همم»، أُدقق النظر إلى الشكل. «إذا كان من الممكن الحكم من خلال الحجم».

«إنها يابانية، تذكّر هذا».

«حتى إذا أخذنا هذا بعين الاعتبار، فإنها تبدو في نحو –».

«هناك الكثير من البالغات يبدين أصغر سنّاً من هذه، أه».

«العاشرة».

«كفى هراءً، إنها في الجامعة! في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، على الأقلّ. لقد رأيتُ ما يُثبت ذلك». بعد قرع آخر، يجرني سميتس إلى خلفية المخزن حيث في وسعه أنْ يهمس بحرية أكبر: «كان من المُفترَض أنْ تتناول طعامها في المطبخ بعد خروجها من المدرسة. أعني الجامعة، كما تعلم. وأيضاً – كما تعلم. بدأتْ تتردد على المكان. ومن ثم. الأمر على هذا الشكل. الآن لن تتوقف عن المشاجرة».

44– ماغرو: كلمة يابانية، في الأصل تعني السوشي المصنوع من لحم التونا، أو سمكة ميتة. ولكنها أيضاً تصف المرأة التي لا تُبدي أية ردّة فعل في أثناء الممارسة الجنسية. امرأة باردة. – المترجم

«اسمها ماغورو؟».

«كلّا - بل كيكو. ماغورو هو اللقب الذي يخلعونه على فتياتك التقليديات - اللواتي يكتفين بالاستلقاء، اللواتي لا تعلم هل تنكحهن أم تنعشهن».

يُفرغ محتوى الزجاجة مباشرة في فمه.

«هل لدى الرئيس شك؟».

«لا زال لديَّ عشرة أصابع، لذلك ربما كلّا».

قرعٌ آخر على الباب.

«لا أستطيع أنْ أتعامل معها هذه الليلة»، ويباشر سميتس بشرب زجاجة أخرى. أراقبه وهو يُسيء تقدير المسافة ويكاد يتعثَّر ويقع.

أهمس: «فقط انتظر بهدوء. سوف ترحل - أليس كذلك؟».

«آه، اللعنة، هذه هي النقطة. إنها تنتظر أكثر فأكثر. وكأنها في حالة حبّ أو ما شابه. إنها مطبوعة كرسم بطة». يهزّ سميتس رأسه نفياً. «لهذا السبب كنتُ أتطوع لأداء العمل اليومي الصباحي، وأخرج باكراً. أعني، إنها فتاة طيبة، أه. أنا لا أقول إنها ليست كذلك. إنها فتاة ذكيّة. وذات كفاءة. ولكن - أه اللعنة. إنني أشمئز من نفسي، كان ينبغي أنْ أعلم».

نقرّر أنْ ننتظر بهدوء. وسط العتمة المبقبقة تأتيني الرؤيا: إنَّ حياة المرء ليستْ أكثر من سيرك من الفئران حسن الإدارة، ودائماً على حافة أزمة ما. ليس بقلّة عدد الفئران المؤدية، بل بجعل العماء يقيناً إذا ما أخطأ أحدها بخطوة. لعلّ لدى سميتس فئران أكثر من غالبية الناس - وهذه الليلة فتحتُ بابه واسعاً ودخلتُ باندفاع، مُستبشراً. ويغوص قلبي. لا أقول أيّ شيء، لكنَّ هذا كلّه يتغلغل خلالي. ولا زالت الفتاة تنتظر عند الباب، تقرع قرعاً متواصلاً.

يبدأ سميتس بالخطو. عندما يُدرك أنه لا يستطيع أنْ يمشي من دون أنْ يُثير ضجيجاً، يظل متردداً في مكانه، يندفع في هذه الناحية وتلك. ومنعته مرتين من الصرّ على أسنانه. إنَّ سميتس مُستنزَف تماماً.

أخيراً يهمس: «قلت لك إنني لن أرحل حتى يوم الأربعاء اللعين. والآن انظر إلى ما نحن فيه. يجب أنْ نخرج من هنا».

الهمس أعلى مما ينبغي.

يتناهى إليهما صوت خافت، «نيرو- سان؟».

عندما أراه يهتزّ بطاقة مُحبَطة، أقبض على كتفيه وأحاول أنْ أهدِّئه. أهمس: «سميتس، اسمع -».

لكنَّ الأوان يفوت. فجأة يقول بصوت عالٍ من المطبخ: «أنت أشبه بمتسللة لعينة منشورة نصفين، يا كيكو! ما الأمر، إه! نيروسان، نيروسان، نيروسان!».

تنكص كيكو متراجعة حالما يندفع إلى الردهة. أراقب الاثنين يُثيران الجلبة داخل قاعة الطعام، سميتس يهذي، والفتاة تحاول أنْ تُسدد له اللكمات عن بُعد، وتخرِّش الهواء بأظافرها، مُطلقة صراخاً حادّاً كقطيطة. يعبث الضوء المنبعث من الحوض عليهما. تبدو الفتاة بثُلث حجمه، وعلى الرغم من النظر إليها من الأبعاد الثلاثة ألاحظ أنها بقامة امرأة شابة، نسخة مُصغَّرة كاملة الأوصاف.

يواجهها سميتس بجراءة عبر الطاولة، مُنتزعاً تنورتها من الخلف. تُقهقه وتضرب بيديها. ويطير حذاءها عالي الرقبة في الهواء.

أشعر بالتجمَّد عند باب المخزن، وتتسارع المشاعر لتتابعهما، متعثّراً خلال يوم لم أفهم كنهه بعد، من القِوى المُحرَّرة، ورسائل الحظ الغامضة. وأدرك مع ارتعاش أنَّ هذه الرؤى لن تنسجم على الإطلاق، لا وقت لديَّ للصرير، ولا للتحليل، في حياتي. أما المشهد الذي يجري أمامي، في الواقع، تستطيع بعقلك المتوقّد أنْ تتخيَّل الدمار الذي تُنزِله بأحاسيس أبي هول شاب يراقب.

«أهذا ما تريدين! نيروسان، نيروسان، نيروسان! بملاحقتك لي في كلّ مكان كسمكة على المد اللعين!» ويمزّق قميصه ويُصبح شكله

عجيباً تحت الضوء، خطوط على البطن تنتفخ كالسواعد، وذراعان تزحفان كحبل.

أخرج إلى البار، متوتراً. وفي الحال تلتهب انفعالات سميتس كلّها. يزعق: «سمكة، سمكة، سمكة! سمكة سامة لعينة!».

أتسلل خلف البار، وأجثم. من هناك يُشرق الحوض أخضر كبحر الشتاء، مُكتنفاً الاثنين، مُزيناً ما يحدث بسمكة منفوخة، يُجمّدها بمعرفةِ أخطبوطٍ مُختبئ في معبد. ينتزع سميتس إحدى ساقي الفتاة عن الأرض، ويجذبها من رسغها ويرفعها على كتفه. وبينما كيكو ترفس وتتلوّى أرى قطناً أبيض محشوراً في عورتها والشَّعر الشبيه بأطراف عنكبوت يبرز من الجانبين، وأخيراً بشرة أشدّ قتامة. يلتفت سميتس إلى الحوض. فيطفر السمك مبتعداً.

أحبسُ أنفاسي.

وبدفعة واحدة مُدمِّرة، وبأصابعه المجردة القوية، يُلقيها عبر الحافة.

يتحول صراخها إلى رنين متواصل عندما ترتطم بالماء. تتطاير الأمواج عالياً حتى تتجاوز الحافة وتصفع الأرض. ولكن بينما هي تتخبّط لتصل إلى السطح، تزدهر حياة ثانية، أكثر فتنة، تحت الماء، حيث ترتفع ملابسها عنها بهدوء بارد، وتُشرق بشرتها وتنطفئ وتُصبح ملابسها الداخلية شفّافة كالنُّطف المنوية، تلتصق بها حتى تُبرِز أسرارها كلّها، متآلفة مع الأعماق.

يثب سميتس داخل الحوض.

أتراجع عندما ترتفع أمواج ممتدّة عن الحافة وتسقط، مرتطمة بالأرض، ومنتشرة على الطاولات القريبة. وتتفجَّر انعكاسات الضوء عبر القاعة بارتعاشات وكسرات. يُصاب السمك بالرعب ويسبح شاهراً أشواكه، وبينما الماء المتخبِّط يدوِّم نحو القاع ويبدأ بإثارة الرمل ينطلق الأخطبوط عالياً، مُهدِّداً عبر جلده بومضٍ من اللون.

ينتزعه سميتس من جزئه المنتفخ ويضرب به بقوة الجزء السفلي من

الفتاة، حيث يتشبَّث بها. فتقهقه وتصرخ. يسدّ فمها بإحكام بيده ويجرّها نحوه، متكلماً بصوت أجشّ في أُذنها، مُقرِّباً إياها بقوة منه من أسفل ظهرها. في أثناء تحريك ساقيها يظهر فرجها برهة، بأهدابه وتضاعيفه الخضر والرمادية، بدقائقها، ممتزجة مع المجسّات.

ثم يغيب المشهد. سميتس يلجها. يرفع ساقيها حول خصره ويُقحمه، متشبثاً وناخراً إلى أنْ يسيطر الإيقاع، أولاً سرعة وجيب القلب المرتاح، ثم يتراكم ببطء مع انغراز قدميه بثبات في الرمل. يُرسِل رأسها رشاشاً من الماء إلى أسفل الحوض، وتتطاير كتلة شعرها في الهواء. يصرّ سميتس على أسنانه ويضخ. وطبعاً يُعيد الإيقاع الأخطبوط إلى مأواه، ومع هذه الخطوة المُريحة تفتح كيكو عينيها واسعاً وتُثبّتهما على سميتس. أولاً بتأثير الصدمة، ثم ترفرفان إلى أنْ يستسلم جفناهما وينسدلان. وبينما البرودة تُقسِّي بشرتيهما ويتراخى التوتُّر تدريجيّاً، تنهار صرخات الفتاة، ويرتفع الأنين عالياً يُرجِّع سميتس أصداءه. ويتبادل الاثنان المداعبة، وعندما يتبادلان القُبل يحدث ذلك بالحركة البطيئة نفسها التي يتلامس جسداهما بها من تحت الماء، مُقتفياً كلٌّ منهما أثر الآخر بأطراف الأصابع. وأخيراً ومن دون نطق أية كلمة يستنشقان الهواء ويجرّ كلٌّ منهما الآخر ويغوصان، متضافران على طوليهما، يمتص كلّ منهما فم الآخر ليتقاسما الهواء. يدور تشكيلهما غائصاً إلى القاع، وهناك ينشطان، برقّة، ويتلاطفان وسط سحابة من الشَّعر الأسود. وبعد برهة أرى، أو أتخيَّل أنني أرى، السوائل تتدفق من جنسيهما، وترتفع لطخٌ والتواءات وخُصل.

إنَّ هذا المشهد مُذهل، وعرضٌ من الطبيعة يسلب اللبّ، بين غرانق البحر سميتس ***وفوغو*** السقوبة[45] – حتى إنني أبقي باب الردهة مفتوحاً.

ردّ الفعل الأول هو إحساس بأنني لست وحدي. ألتفتُ فأجد رجلاً كئيباً إلى يساري. متجهم الوجه، ويرتدي بذلة سوداء. وخلفه تقترب ثلاثة أشباح بزيّ رسمي، ثم شبح حاملاً حقيبة رجل أعمال ومُصنَّفاً للأوراق.

45– السقوبة: في الأساطير؛ هي الشيطانة التي يُزعم أنها تُضاجع الرجال في أثناء نومهم.

ينزلقون عبر أرضيّة القاعة، وأذرعهم متراجعة إلى الخلف في خوف.

كان سميتس وكيكو قد أنهكَ كلٌّ منهما الآخر. يطفوان على السطح وكأنهما شخص واحد، بعيون مُغمضة كوليد ميت. يَصدر رنين لدى ظهور رأسيهما فوق السطح. ثم شهيق، وزفير.

يعلو الماء ويقطر في الهدوء.

بعد دقيقة - تسود سكينة كنسيّة

ثم تُنار الأضواء.

وووش.

-10-

ثمة ضابط شرطة يدخّن وهو متكّئ خارج مركز للشرطة. يعصر سيجارة بجوار خدّه ويراقبنا نهبط كسيرك هائل، سميتس اللوياثان[46]، وأبو الهول ذو زعنفة الحوت وفريقهما من المتشاجرين. عيّنات السمك أول ما يدخل، محمولة داخل صندوق مُضاد للقنابل، يحفّ به ضباط شرطة.

ماريوس يتك إيقاع الوقت في المؤخرة.

نُسِبَت حقيبة النبيذ إليَّ، وعُيِّن ضابط لحملها. إنني أستمتع بالتسلية التي أستمدها من خشخشتها وهو يحاول أنْ يتفادى مسار أثر الماء الذي يخلّفه سميتس، مُحدداً مساراً إلى يساره، ثم إلى اليمين، وكأنَّ الصندوق مُعْدٍ. وأستغرق في هذا كما نستغرق في أوقات عطلتنا من المنصّة التي نغادرها منها، ربما لأنَّ المحطة التالية هي جيبي المملوء بالزجاجات الصغيرة.

لدى ولوجنا المبنى يربط رجل شرطة يدي سميتس ويدي المُكبلتين بالأصفاد معاً بحبل، ويُجلسنا على صف من المقاعد إلى جدار غرفة المُتّهمين. هناك رجلان محلّيان يغفوان في المؤخرة، مسحوقان مثلنا تحت ضربات مطرقة يوم السبت. وبينما أفكّر في مدى خشونة عمل الشرطة في أنحاء العالم كلّه، بمُثبتاته المتهرئة وزينة الخرائط

46- اللوياثان: في الكتاب المقدس، وحش يرمز إلى الشر. أي شيء ضخم بصورة مُهدِّدة. - المترجم

والمنشورات، يُشكّل فم سميتس بوز السلحفاة الذي يلجأ إليه عندما يفكّر بتركيز عميق. أمر عاديّ أنْ نتخيَّل الدماغ كلوحة دارة تومض بالأفكار والأجوبة، أما مع سميتس فالفكرة أشبه بكرة بلياردو خشبية: تسمع صداها حتى تصل إلى الشق، حيث تتك وتبقى إلى الأبد. هذا ما يحدث الآن داخل دماغه.

ينعق، «إنني في أسوأ حال».

تبعَتْ ذلك فترة صمت طويلة، كان الضباط في أثنائها يتبخترون في المكان يُشيرون إلى الأشياء ويعبسون. يبدو أنَّ مترجماً سيصل، وشاهد الأمسية الأول. حتى ذلك الحين أسمع جواب سميتس عن السؤال التقليدي باليابانية. وكأنه يتكلَّم فرنسيّة المطبخ، كأنه ينزلق ويتعثّر وهو يركض.

عندما ننفرد معاً يهمس لي: «أعتقد أنَّ الأخطبوط عضَّ كيكو. إنَّ له منقاراً، كما تعلم. ولهذا السبب لم يحضر الرئيس. لا بُدَّ أنها في المستشفى. انظر إلى التناسُق: إنَّ الجميع إما في المستشفى أو في السجن. يا لها من ليلة، إه. يا لها من معمعة. هل لا زلت مستعدّاً؟».

أُطرقُ وأحكّ رأسي.

«أنت في أسوأ حال».

طاولة الرقيب، أو النظير المحلّي له، تواجهنا وتجذب أنظارنا لعدم وجود أيّ شيء أكثر إشاعة للأمل. وبعد فترة صمت طويلة أخرى يقول سميتس دون أنْ يلتفت: «آمل أنْ تتمكن من دفع تكاليف محاميك وثمن طعامك في السجن. سوف أكافح لأعتني بنفسي».

«هممم. وكفيلك هو -؟».

«كن واقعيّاً - لقد قدَّمَ لي معروفاً. هذا لا يعني أنه يرسل إليَّ مصروف جيب. ولا يعني أنه سيقوم على تربيتي، ويخيط رقعاً داخل ملابسي المدرسية. يا كزبرة الثعلب يا أبله. استيقظ!».

لا داعي إلى القول إنَّ هالتنا النورانية انهارت[47]. وبهذه الطريقة جدَّدت الروح، باختبار الأحوال الخارجية من وقت إلى آخر، ذخيرتها من الاستعارات، هذا اليمبوس الذي بدأ بإلقاء نظرة من أسرّة التعرُّض للأشعة الشمسية[48] تحوَّلَ إلى ممارسة جنسية رديئة في ساحة الطرف الأغرّ. يبدو أنَّ الأشياء كلّها تتصف طوال حياتها ببراءة تتحول باندفاع إلى رعب. إنَّ الخليقة كلّها هي مزهرية من الطمي صُنِعت في المدرسة بشكل بدائي. آه، الطبيعة، ذلك الروث الشرير.

أعود بذاكرتي باكتئاب إلى أوقات سابقة.

أقول: «لا شك في أنَّ وضعي هو الأسوأ. إنَّ جرائمي لا زالت في جيبي، وبما أنني سائح فمن المُستبعَد أنْ أخرج بكفالة. في حين إنَّ الإهانة الوحيدة المُثبتة عليك هي القصف داخل حوض الأسماك. في الوطن كنتَ ستنجو مع دهشة وإعجاب وتُصبح أسطورة مدى الحياة».

«هذا غير هامّ. هنا يمكنهم أنْ يحتجزوك على مدى أسابيع طويلة دون توجيه تهمة. في تلك الأثناء سوف يتهمني ذوو وجوه السردين بالتسميم، وبأيّ شيء آخر. وبسبب كيكو سوف أحصل على سيف يخترف عيني في السجن». يوجّه سميتس إليَّ نظرة قذرة: «أتمنى أنْ تُخبرني فقط ما الذي تفعله هنا. في صباح هذا اليوم كنتُ أتحكّم في الأمور».

الجوّ كئيب. لم أعرف يوماً صاحباً استحق احترام الحقيقة أكثر منه. ولكن في الفجر الكئيب بدتْ خطّتي حمقاء. إنني أواجه أصعب خيار من صديق: إما أنْ أكون متوحشاً أو أساير. وأنْ أكون متوحشاً يعني فضح حالة اليمبوس، الذي سيكشِف عن عبثه في هذا السياق، ويدفع

47- إنَّ أدوية الاكتئاب الكيميائية تقتل الهالة النورانية. لا بُدَّ أنها أشبه بوحل يلج مجرى الدم. وأحد تأثيراتها أنها تحطِّم الشجاعة التي تجذب الحظ الحسَن، في أشد اللحظات حاجة إليه. ولا شك في أنَّ عالم الوحل ذاك، بإدارته وتنظيمه، يقع في قلب المهمَّة الإنسانية للاكتشاف. - المؤلِّف.

48- سرير الأشعة الشمسية: ما يشبه السرير يستلقي عليه المرء وتُسلَّط عليه أشعة فوق بنفسجية يُستخدَم خاصة في علاج الأمراض. - المترجم

بعقل سميتس العنيد إلى تبديده. يجب أنْ أحميه من العبث، من كلّ ما من شأنه أن يمحوه - هذا كلّ ما تبقّى لي، وزخمه يتعاظم مع مرور كلّ ساعة. وتمنّي الموت هذا قد يكون حتى بدافع ذاتيّ، قد يوجّه ضربة إلى البداية، مُحرِّراً قوة الحظ الحسن الهائلة، ويمنعك من المناورة أو من تغيير رأيك.

استدعيت التأمُّل. وانخفضَ خطّ حظّي البياني. ولكنني في الوقت الحالي أُدركُ أنَّ سميتس يُراقبني، في انتظار أنْ أُجيب عن سؤاله عن سبب وجودي هنا.

أخيراً أقول: «أتيتُ فقط لأتناول مشروباً».

يفغر فاه. «**مشروب**؟ كنتَ تنوي أنْ تترك طائرة في طوكيو لتتناول مشروباً؟ يا صاحبي -يُطرق رأسه - يا صاحبي، يا عاهر».

يقترب أحد الضباط ويفكّ وِثاقنا، ويقود سميتس على طول الرواق إلى جانب طاولة توجيه التُّهم. لا يلتفت سميتس إليَّ. وأراقبه يبتعد بمشيته البغيضة، مُشرقاً ببنطلونه الرطب. أسمعه يتمتم على طول الرواق: «**مشروب**، هراء».

ينكمش جسمي إلى حجم جنين. يكفي فورات الحماس. واليمبوس جامح بحيث لا يمكن إطلاقه على الآخرين، أو حتى تقريبه منهم. إنه طاغٍ إلى حدٍّ بعيد، فوضى من التشويه والموت. وكانت خاتمة مُحكمة لمصيري، لأنَّ اليمبوس، مع ما يمنح من إحساس بأنه ليس لديَّ ما أخسر، أخرجَ أشياء لا زال عليَّ أنْ أخسرها.

وخسرتها.

بعد قليل جاء ضابط في طلبي، تمشي خلفه سيدة عجوز نحيلة، هي المترجمة. نظرتها تنزلق فيما حولها من خلف النظارة. تشرح قائلة إنه سيتمّ تفتيشي وإنَّ إفاداتي ستؤخذ في مكان آخر من أجل توضيح أحداث الليلة السابقة. وأمشي على طول الرواق، مُلاحظاً أنَّ لليمبوس شكلاً في

الواقع – كان ممرّاً يُفضي إلى هدف، على شكل مخروط يضيق يؤدي إليه، ولأنَّ الهدف بعيد عن مرمى البصر، فإنَّ الشكل نفسه يزول. لم يعد يجذب فورات الحماس، ولا الحظ، لأنَّ الموت أضحى في الوقت الحالي أمراً مستحيلاً[49].

وبسرعة. زال.

نلج غرفة استجواب صغيرة. على الرغم من احتوائها طاولة وكراسيّاً، إلّا أنهم يطلبون مني أنْ أبقى واقفاً. تُدهشني غرابة اجتماعنا – أبو الهول، والسيدة والضابط، اجتمعوا بصورة ما في اليابان. يُشير إليَّ الضابط كي أمدّ أطرافي.

ثمة يدٌ تدخل جيبي، وتلمس الأصابع ساقي من خلال القماش. يُخرجون محفظة نقودي ويرمون بها إلى الطاولة. ثم، بعد أنْ تظهر سجائري من جيب معطفي، ثمة برهة انتظار ريثما يتفحّص ويشم كلّ سيجارة قبل أنْ يضعها جنباً إلى جنب. وبعد إخراج جواز سفري ودفتر الملاحظات من داخل المعطف، ومُقارنة وجهي بصورة جواز السفر، واستعراض ملاحظاتي – ينتقل إلى جهتي اليُمنى.

حالما أشعر بيده على ساقي، يُفتَح الباب. يطلّ رأسٌ منه. أُدركُ من شحوبه، وشبهه بالضفدع وقصَّة الشَّعر غير المناسبة، أنه يخصّ رجل شرطة بملابس بسيطة. «نيروسان سماتوسو؟» وينظر إليَّ من رأسي إلى أخمصي بينما أفهم أنه يقصد «نلسون سميتس».

خلفه في الظل يكمن شكل آخر، وبينما الرؤية تتضح بيننا أرى أنه توموهيرو. يرى أولاً دفتر ملاحظاتي على الطاولة، ثم يتعرَّف عليَّ، ويميل نحو الداخل لكي يُشير ويهمس للضباط.

49- إنَّ الأشياء الفعّالة كلّها تبدو ذات شكل مخروطيّ. ومهما كانت النقطة التي تبدأ منها محاولة ما، أو مهما كانت طبيعتها، فإنها تنطلق من فجوة فاغرة وإما أنْ تنحل عند حافتها، أو تسكنك إلى نقطة تضيق. حتى المساحة نفسها قد تكون ضيّقة. الحياة قد تكون مخروطيّة الشكل. استعد للمخاريط. – المؤلف

«آه!» يهتف الضابط ذو الملابس البسيطة.

«أوه!» ويتراجع رجل الشرطة الذي بصحبتي.

يقفُ الجميع برهة ليتفحصوني. يسود بينهم تواصُل تبعه إيماء بالرؤوس بينما يشقُّ توموهيرو طريقه إلى الغرفة. وبهذا تبدأ سحناتهم المكفهرّة بالانبساط. وتطرف المترجمة بعينيها، وتقول: «أنت ضيف – على المطعم؟».

تتراخى فروة رأسي وتستريح عندما يلوح الأمل في الأفق. أمل كبير، نسيم يهبّ من فوق شكله السامق الصافي، تواكبه الوطاويط.

تشرح قائلة: «وهذا رئيس المطبخ».

أقول: «نعم، أعلم».

«إنه يطلب غفرانك عن الأحداث التي وقعت هذه الليلة. إنَّ الرجل المسؤول لا يشكّل جزءاً من الفريق المعتاد. إنه يأمل في أنَّ وجبتك كانت مثالاً قويّاً عن عملهم، الذي يُعتبَر الأرقى في طوكيو. إنْ كان الجواب بالنفي، فإنه يتوسل إليك كي تعود وتسمح له بأنْ يُعاملك كما تستحق».

«طمئنيه بأنني سوف أتذكّر الوجبة بأرفع العبارات».

يبتسم توموهيرو لهذا الجواب، الذي هو صحيح على أية حال.

في الرواق خلفه يمرّ ضابط حاملاً حقيبة الكنفا، متوقفاً ليطرح سؤالاً. يمدّ توموهيرو يده ليتناول الحقيبة وينظر إلى داخلها. في اعتقادي، يُطيل النظر أكثر مما ينبغي، وأبدأ بالتوتّر. لكنه في النهاية يُعطينيها.

ترجمت السيدة: «لعلَّ هذا يعوِّض جزئيّاً عن إزعاجك. إنَّ الرئيس يتساءل، لعل هذا يُساعدك على تذكُّر بعض الأشياء الطيبة».

ينظر الطبّاخ في عينيَّ مباشرة، وبينما نتبادل الانحناء يتحطّم أملي – لقد أنقذني للتوّ اليمبوس الإمبريالي المُوازي. وسّعَ مساراً، لدى مروره كسفينة في مياهي الإقليمية، لكي تُبعدني عن الغرور إلى داخله الهادر. إنَّ يمبوس السوق الحرّة – ليس يمبوسي البسيط وحيد الخليّة، بل مخلوق

ضخم تكسو كلّ بوصة منه أشواك وريش مع جادات وبروتوكولات الهروب والمكافأة - يحمل على متنه أبا هول، على الرغم من أنني أمثل كتيبة من المُشتبه بهم، وعلى الأقلّ مُشترك في جريمة أحداث الليل.

لقد أفادني هذا الاعتقاد بأنني ناقد للأطعمة.

وقادر بالتالي على التحكُّم في الأرباح.

وووش - اختطفني اليمبوس الرئيس.

لا أدري كم من الوقت وقفتُ منغمساً في هذه التأملات، ولكن لا بُدَّ أنني أبدو مذهولاً لأنني بعد أنْ أضعُ بعناية سجائري، وجواز سفري ودفتر ملاحظاتي من جديد كلّاً في مكانه، يربّت الشرطيّ على كتفي ويومئ باتجاه الباب.

تبتسم المترجمة قائلة: «أنت حرّ طليق».

في الحال يتجدَّد يمبوسي، ويتشكّل مخروطه من جديد، ويعود دفق فورات الحماس. أخرج من الغرفة مع حليفي الرائع - اليمبوس الوفيّ أصيغ على نمطِهِ خاصتي.

وهو ليس أقلّ قيمة من يمبوس الإمبريالية الرئيس.

بحجة الإفصاح عن اسم الفندق الذي أنزل فيه، أطلب رؤية سميتس، ويوافقون على ذلك، باقتضاب، بمُصاحبة ضابط. وأدون رقم هاتف المترجمة قبل رحيلها، لكي أتصل بمركز الشرطة عبرها - ثم أنتظر في الرواق في أثناء تفتيش سميتس في الغرفة المجاورة.

أنتظر وأستمتع بمذاق الألم.

ليس من شيمي أنْ أتخلى عن الناس.

ثمة سرّ في استطاعتي أنْ أتقاسمه معك يمكنه أنْ يفسِّر قوة هذا الشعور وهو: عندما كنتُ صغيراً مكثَ جدّي عندنا بضعة أسابيع. وكان في جعبة تومي دائماً، كما كنا نُطلق على جدّي بروكويل، نكات يُلقيها على مسمعنا، وإحداها كانت تتردد على لسانه إلى درجة خبيثة وتبرز

كعصفور الكوكو من ساعة الحائط. ولكن عندما أصبح عجوزاً بدأ جسمه يخذله، وأضحى وجهه متردداً، ومن ثم يسوده الفزع.

وذات يوم انهار في بيتنا.

كان جيل والدي هو أول جيل يمتنع عن العناية بكبار السن. فقد قرّر والدي أنَّ من سِمات الحياة الحديثة الاعتناء بأنفسنا، وألّا نُثقِل كاهلنا بمشاكل جدّي، لأنَّ جدّي ما كان ليرغب في ذلك، حسب منظوره الخاص إلى الحياة الحديثة. لكنَّ تومي رغبَ في تلقّي العناية. فقد وقع على جنبه، وأخذ يرتعش كحشرة. ورفع نظره إلينا. لكنَّ والدي، بدافعه النفسي الصحي الجديد، كان قد حجز لنا مقاعد لحضور فيلم سينمائيّ. وكانت صديقةٌ لعمتي ماي تعمل ممرضة تعرِّج لتعتني بتومي في أثناء غيابنا.

عندما وقع لم تكن قد حضرتْ.

نظر والدي في ساعة يده، وسأل تومي إنْ كان على ما يُرام، وأسنده إلى السرير وتركه هناك لكي تعثر السيدة عليه، وإلّا بدأ الفيلم من دوننا - وتومي لم يكن يرغب في ذلك. أتذكّر أنه التفت إلينا من باب غرفته، وأخذتْ عيناه تتابع خروجنا. صحيحٌ أنه في أيام امتلاء جعبته بالنكات لم يكن يرغب في أنْ نُثير جلبة. لكنَّ تلك الأيام مضتْ وانقضتْ.

إذن، لديَّ سؤال لك: هل نحترم رغبات تمَّ إبداؤها في ذروة عنفوان الحياة - أم تلك التي هي وليدة اللحظة، حتى في أوقات الإحباط عندما تنحسر مبادئنا؟

في وقت لاحق من تلك الليلة تبعنا سيارة إسعاف تسير بهدوء على طول شارعنا حتى المنزل. كانت تسلّط أضواءها على حافة الطريق، تتفقّد أرقام المنازل. كنتُ متيقناً من أنها من أجل تومي. ولم يفتح عينيه بعد ذلك. وبقي فمه مفتوحاً، لكنَّ لسانه كان ميتاً.

كان فيلم «*البيانو*» فيلماً رديئاً ومزعجاً بالنسبة إليَّ. هذا ما تخلّينا عن تومي من أجله. كلّ لقطاته كانت رطبة وتفوح برائحة التراب ودماء الحيض، ثم بعد ذلك جاءت سيارة إسعاف هادئة تجوس شارعنا. هذا

هو المذاق الذي خلَّفته حياة تومي في نهاية المطاف. إنه يُثير رؤيا: مفادها أنَّ الأرواح الأشدّ انضباطاً وحدها سوف تتذكرك من أيامك الجميلة. ولذلك أعدّ موتك كأنه وليمة للآلهة، أبدِ من الاهتمام به أكثر مما تفعل لزفافك. ذلك أنه سوف يستهلك على الأقلّ نصف الكلمات التي ستُقال عنك - وإنْ كنتَ عاثر الحظ، فسوف يستهلكها كلّها.

ألمٌ ساحق. لا أستطيع أنْ أخلّف روحاً أخرى ورائي. يجب أنْ أكون جديّاً. في أثناء وقوفي هنا أُصمِّم على الاعتراف بكلّ شيء لسميتس، الآن، وأُكرِّس نفسي بلا شروط لأية مهمة يشعر بأنها تخدم قضيته.

يجب مدّ منطقة الضياع أكثر قليلاً.

عندما يقودني أحد الضباط أخيراً إلى فرقة سميتس أجده جالساً حافياً، جاثماً على مقعد تحت ملاءة مُضادة للحريق.

أجلس بجواره. الصمت ثقيل.

أقول: «لقد أطلقوا سراحي. أصبحت في موقع أفضل لمساعدتك».

يزمجر: «نعم، مساعدة كبرى».

«إنْ كنتَ في حاجة إلى تصريح قَسَم - أيّ شيء تحتاج، فقط أخبرني - مهما كان، أنا تحت أمرك».

«أخبرني أنت - ما الذي تفعله هنا أصلاً».

أتنهّد. «حسن، كنتُ في إعادة التأهيل. في الواقع إنَّ هذا كلّه حدث قبل ذلك - لكنَّ الأمر انتهى بي إلى إعادة التأهيل، وكان لا بُدَّ من أنْ أهرب».

«حسن، وشركة برغر كينغ تدفع ما يكفي لتسديد فاتورة فندق بنينسولا».

«لم تكن برغر كينغ، بل كانت غلاف -».

«لقد خرجتَ حديثاً من إعادة التأهيل، وتُبدد أموال شخص آخر. كلّ ما أستطيع أنْ أقول هو: إنَّ طوكيو مكان جيد للانطلاق. ومكان عملي في طوكيو مؤهّل للانطلاق والنجاح».

«حسن، لقد فكّرت في برلين أولاً. خطر لي أنَّ في استطاعتنا أنْ نذهب معاً».

«لكنك لا تعرف أحداً هناك لتفسده بالقدر الكافي».

«إنني مُكتئب يا سميتس. أنا آسف».

يُجيب منقار سميتس المُفكِّر: «لا يهم، طوكيو أم برلين».

«برلين تهمّني، أنت تعرف تاريخي. أتذكر كيف كان والدي يُدير نادياً؟».

«إذن الخيار كان – إما ارتياد النوادي أو إفساد حياة سميتس».

«كلّا، كلّا – برلين كانت –».

«النادي – أو سميتس». تبدأ الكرة تتدحرج في دماغه. «النادي أو –».

«المسألة لا صِلة لها بالنادي».

«إذن لماذا تذكر النادي؟ أنا لم أقُل نادياً، أنت قلت نادياً».

«كلّا، كلّا، كلّ ما في الأمر أنَّ والدي –».

«برلين، النادي، والدك». يطرف سميتس بجفنيه.

تقترب الكرة من صف من الثقوب. سوف تُقرر الآليّة الصارمة شيئاً لا بُدَّ منه، وأجد نفسي أهرع لألحق بالكرة، مُحاولاً أنْ أوجّهها: «كان والدي مستغرقاً في ذكرياته، لا أكثر – قال إنَّه لا بدّ أنه لا زال موجوداً، أي النادي، ويُديره شريكه القديم. إنه مزدهر، في هذه الأيام. المهم في الأمر، هو أنه لا يريدني أنْ أذهب إلى هناك لأنَّ الشريك من النوع الشديد الانحطاط. أنا لا أتذكّره. على أية حال، لقد كنتُ في مركز إعادة التأهيل –».

يرفع سميتس يده: «الآن أصبح لكلامك معنى. أكان هذا أمراً صعباً جدّاً؟ نادٍ كبير، ورجل منحطّ – إنه يقدّم طعاماً – هه؟».

«ليس حسب عِلمي».

يتجهّم سميتس. تنطلق سلسلة من الكرات خلف جبينه: «نادٍ منحطّ، لا طعام، سميتس، برلين – أنت ستبدأ بتقديم الطعام!».

«كلّا، اسمع –».

«نادٍ مزدهر منحطّ – سميتس – طعام».

أهزّه من كتفيه، «سميتس، سميتس»، لكنَّ نبرة صوتي تستدعي الضابط الواقف عند الباب. ينظر في ساعة يده ويُشير إليَّ كي أخرج.

يتابعني تحديق سميتس من مجلسه على الكرسي. «سأفعلها. هذا هو الهدف من الأمر، أليس كذلك؟ عودتي إلى أوروبا؟ يا صاحبي – إلى برلين، كطبّاخ مُنفِّذ. اللعنة، إنَّ ذلك سيرفع من وتيرة اللعب مع الباسكي قليلاً، وسيزيد الضغط. يا للتناسق المثالي! لِمَ لم تقُل شيئاً؟».

«سميتس، نحن لم نسمع عن هذا الرجل منذ عشرين عاماً. اسمع –».

«صاحبي – ماذا تقول؟ أيها العاهر؟ أنتَ لا تُصدِّق».

يحتدم الصراع داخلي كأنما بين النمل الأسود والنمل الأحمر – بين روحي، التي تأذّت كثيراً من طموحات سميتس الجامحة لسحقه، وعقلي، الذي صُعِقَ بمدى وهم التغاضي عنه. يتلعثمُ صوتي وهو يحاول أنْ يباشر لعب البلياردو.

تنتقل نظرة سميتس بسرعة هنا وهناك. «لا أسئلة، سأفعل. سأقنعه بالولائم، سأقنعه بالانحطاط. أنا أعرف نوعه. أقنعه بنجوميّة ميشلان. بحفلات تنكريّة، بأذيال الكركند. أقنعه، أقنعه، أقنعه، يا صاحبي؟ اذكُر اسم ديدييه إذا لزم الأمر. وإذا أقمتُ حفلاً موسيقيّاً في أوروبا، يمكنه أنْ يتدخّل هنا، أنْ يلعب دوراً ما».

«ولكن اسمع –».

«اللعنة عليَّ، ها قد عدتُ إلى اللعبة. لا أصدِّق أنكَ تركتَ الأمور تصل إلى هذا المدى! إنَّ هذا يضع كلّ شيء في منظور جديد تماماً. حسن، إذن مرَّت الليلة بشكل سيئ في مطعم السمك – لكنَّ السبب هو أنَّ شخصاً جاء ليورّطني في صفقة أكبر بكثير. بحفل موسيقي ضخم في أوروبا! طبعاً حدثت فوضى، نحن لا نتحدث عن أيّ شخص – إنه ابن المُؤسس! سوف يتفهَّم ديدييه ذلك!».

قبل أنْ أتمكن من بلوغ نقطة توافق، يُمسك الضابط بذراعي ويقودني إلى الخارج، ويُغلق الباب خلفنا.

يهتف سميتس من خلفي: «يا عاهر، صحِّح الأمور».

«سميتس –».

«بالأمس كنتُ أسيطر على مجريات الأمور. أليس كذلك؟».

يُشير الضابط إلى حقيبة زجاجات ماريوس ويواكبني إلى قسم الاستقبال. يقفُ توموهيرو في ممرّ الباب، يُراقب. أنظر إليه. التعليق الوحيد الذي يصدر عني هو شدّ شفتيَّ معاً برفق. يردّ على ذلك بالمثل، وينحني.

بهذا، أغادر المشهد.

يغمر الضوء النافذة في فندق بنينسولا. أمعن النظر من خلالها قدر استطاعتي، متفقّداً، كما تفعل المخلوقات كلّها، مسافة السقوط. يتراخى رأسي على الزجاج الذي يتجمد بأنفاسي.

يقترب وقت مغادرة الفندق والمكانس الكهربائية تعمل في الأروقة. الهالة النورانية تحولتْ إلى غثيان، يُلقى القبض على سميتس، ورجل عجوز يُكافح للبقاء حيّاً، وأنا لم أمُتْ.

وأنا في حاجة إلى نادٍ.

برلين

-11-

في حين تُضفي السناجب سحراً على متنزهات لندن، وتنشر طيور *كاراسو* صراخها في أرجاء طوكيو - تهدِّد الخنازير البريّة المهرولين في برلين. هذا هو معيار الوووش الذي نتعامل به، يا صديقي.

إذا قرأتَ تاريخ القرن العشرين فسوف ترى أنَّ هتلر نفسه لم يكن مولعاً بمدينة برلين. فعندما وجدها قذرة ومملوءة بالشيوعيين انطلق ليسكن تحت الأرض، في حين أنَّه قبل ذلك بقرن ونصف كان نابوليون راضياً بدخولها والخروج منها كما تفعل عندما تدخل مُصادفة مخدع قريبة لك. حتى في تسعينيات القرن الماضي، بعد عودتي من إنكلترا مع أبي، كرهت أنْ تُقايضَ حكومةُ إعادة توحيد ألمانيا منفاها على الراين مقابل شرق العاصمة القديمة، على الرغم من أنها في نهاية المطاف فعلتْ، جارّة معها حانة مُفضّلة من أجل الدعم المعنوي. هنا يمكن للموظفين الفيدراليين أنْ يستمروا في عبّ بيرة راينلاند، وقراءة صحف راينلاند، وتناول طعام راينلاند - وأنْ يتظاهروا بأنَّ سياراتهم الفارهة لم تتعرَّض للتخريب على أيدي اليساريين.

لأنَّه لا يمكن لأية كمية من بيرة كولش أنْ تغيِّر حقيقة واحدة:

لقد ولج التاريخُ برلين متشامخاً.

لم يكن لدى بورجوازية كولونيا ما تعلّمه لها.

إذا طرحت ثلاثة قرون كانت خلالها مُستقرّاً لمملكة، وإقليم، وإمبراطورية، وجمهورية، ورايخ فاشستي وكوميون ماركسي-لينيني،

متجاهلاً حقيقة أنَّ شوارعها كانت مسقط رأس الشيوعية، وهندسة العمارة الحديثة، والفاشية، ونظرية النسبيّة والقنبلة النووية - ترى أنَّ برلين استقبلتْ في ردهاتها خلال فترة لا تتجاوز عشرين عاماً، ممارسي جنس منحرف عُراة مع قردة مُدجّنة وأحجار كريمة مملوءة بالكوكايين، بأمر من أدولف هتلر، واغتصاب روسي جماعيّ، وطبقة متوسطة أميركية، ودولة سوفييتية مستعدة لإطلاق النار عليك لمجرد عبورك المدينة.

ليس لدى أحد ما يُعلِّمه لبرلين.

من خلال كلّ ما قرأت وشاهدت في أعوامِ مكوثي هناك، وأنا أشمُّ الأخبار كجرو، عرفت ما يلي عن وضعها: أنه إنْ كانت لندن اليوم سكّيرة وعلى شفا أنْ تفقد مفاتيحها، فإنَّ برلين استيقظت توّاً لتجد أنها لا زالت على قيد الحياة، وفي يوم أحد؛ أنَّه في حين إنَّ أعلى تلالها سوف يبقى دائماً زائفاً، مكوَّناً من حطام 400000 بناء مقصوف بالقنابل، فإنَّ المرحلة الجديدة التي نشأتْ من الثقوب التي أحدثتها طلقات الرصاص وأشراك لعبة الغولف، حقيقية. أشعر بأنه حيث لا تنمو الأشجار والأعشاب، ينمو مكانها الفن والأفكار، إلى أنْ تصرخ رسوماتها وعباراتها الجدارية الأيقونيّة، وتُرسِل زخرفتها الحديثة لإعلانات سيارات بورش وهجها على حافة الطريق، وتمنع نواديها التي دخول النجوم، وتهتف ثقافاتها المُقابلة المضطربة، والثقافات المُضادة والبشر العاديون المتبلدو الإحساس بعبارة واحدة:

إنَّ برلين ليست للنُّخبة - إنها للعامة.

وينتهي يمبوسهم.

تتجمَّع دولة-مدينة مارلين ديتريش[50] خارج الغابات والبحيرات تحتي بينما يهبط سربٌ من الطيور مرتعشاً من خلال سحابة الغسق.

50- مارلين ديتريش (1901 - 1992): ممثلة ومغنية كاباريه ألمانية شهيرة، مثّلت في هوليوود. ظلت تحمل لقب صاحبة أجمل ساقين حتى بعد أنْ تقدّمت في السن. - المترجم

أشعر بوخز في داخلي. لدى الاقتراب منها تُصبح متاهة منتظمة كأفضل شبكة قطارات أجنبية، نموذجاً مُصغَّراً من الأبنية، والعلب، والحاويات والتجهيزات تتلألأ عبر أراض نائية من المستنقعات تمتدّ نحو الحدود البولندية، لا زالت تُشرف عليها قمة برج التلفزيون المتلألئة عند ساحة ألكسندر، وثمة مُقلة عين عملاقة على خِلال أسنان، ارتفعت مرة لتوبِّخ الغرب عبر الجدار. بينما أراقب ووجهي مضغوط على النافذة أفكّر في الأحداث الملحمية التي جرت حتى الآن. في الواقع، إنَّ الغامض في الأمر هو أنه حالما وصفتُها بالملحمية أصبحت كذلك، مُكتملة بمنافسات ضخمة وطلاسم منحطة، أمثال عِطر جيكي ونبيذ ماريوس.

أتساءل عما ستجلبه خشبة المسرح هذه. وبينما هواء برلين يملأ الكابين ينتابني مزيج من الرعب والأمل.

كان سميتس قد اتصل من هاتفه الرأسي بفندق بنينسولا قبل أنْ أغادر. كنتُ أعلم أنه من هاتفه الرأسي، كانت المكالمة من طرف واحد، تبدو مفعمة بالأمل كما يبدو المجانين مُفعمين بالأمل في مشهد للحريق. إنها تُملي البرنامج التالي: سوف أتوجه مباشرة من الطائرة إلى نادي المغولي المنحط، ومن هناك سوف أتصل بسميتس وأقدِّم إليه عروضاً يمكنه أنْ ينقلها إلى ديدييه الباسكيّ. ويُعطى مدة ساعتين، متضمّنة المدة التي يشرح فيها مزايا النبيذ للزبائن ويُتيح للمغولي أنْ يُقهقه حول كوني أصبحتُ راشداً.

رئيس سميتس، يوشيدا، لم يكن قد استُجوبَ عندما غادرتْ. وهذا يعني أنه يمكن إطلاق سراح سميتس إذا قُدِّمَت الإغواءات المناسبة للرئيس، من ديدييه الباسكيّ على سبيل المثال. وعلى الرغم من ذلك الضغط فرحتُ بالمهمة في الساعة الأولى خارج طوكيو. وتخيّلتُ نفسي وسميتس نضحك في أزقة شرق برلين المتداعية. ثم استنشقتُ خطّاً من الكوكايين في المرحاض فتلاشت رؤاي. وحدث مفعول مُسكِر مُضاد. فجأة سطع الواقع أكثر من الأمل.

مع هذه الصدمة أباشر بتفحُّص الواقع والأمل، ضفّتي نهر الوجود الخادعتين[51]. ذلك أنه على أرض الواقع يكاد وفاضي يخلو من النقود اللازمة لأعثر على رجل قابلته وأنا طفل، وأتحدث معه لأقنعه بافتتاح مطعم لصالح صديق موجود في السجن. في حين إنه في الأمل، تنتظرُ إمبراطوريةٌ مترامية الأطراف حيث يتذكّرني بحبّ رجل مُسنّ مرح يعقد صفقات برمي قطعة نقد في الهواء.

ظلال الأمل هذه ملأتْ فراغ رحلة الطيران الطويلة إلى ميونيخ، ومُعظم فترة الرحلة الأقصر إلى برلين. وبين تلك الإمكانات يكمن الاحتمال، لكنني أواجه صعوبة في اتخاذ قرار حول المكان، وهذا التردُّد، ذلك الافتقار إلى الوقاحة، نقلني من عالم الأشباح إلى التصنيف البسيط لشخص مُشوَّش يُسافر عشوائيّاً بنقود شخص آخر مع غيار ملابس واحد. هاتان هما عينا الواقع: انتبه، يا صديقي، إنني أحذّرك. لقد أصبحتُ من النوع الذي يُشاهَد عادة بعد ذلك بوقت طويل مرتدياً قميصاً مُرصّعاً بالأزهار ومُخلّفاً ورائي أكثر من زوجه في تايلاند.

هذا كلّه استغرق بعض الوقت ليتلاشى. استهلك الأمر بعضاً من كونياك كورفوازييه والصودا، وبضع مباريات تافهة من الصراخ في ذهني على النقود، مع شخص اسمه ثونغ، قبل أنْ أشعر بأنَّ في استطاعتي أنْ أتحمّل تكاليف الأمل. وعلى أرض الواقع أشعر بأنَّ هناك دلائل على الأمل. وفي حين إنَّ وصف والدي للنادي بأنه ضخم قد يكون

51- إنَّ الواقع هو حظ الرعب السعيد الذي يقود عماؤه البشر ليخلقوا عالماً بديلًا من الآمال والخُطط. وما الوجود الإنساني إلّا ما نفعل في الفجوة الفاصلة بين ذينك العالمَين، وكلّ مسرّة وفشل ينشأ من التعامُل مع هذه الثنائية الهشّة - ومن التعاسة الناجمة عن محاولة العيش فوق الرعب أكثر مما ينبغي. إنَّ الحياة تكون في أشد وفرتها عندما نبقى متواضعين ولا نتوقّع إلّا القليل. أما مع الضياع: قرِّر أنْ تموت - ثم عِش. ولكن صُنْ فجوتك، بما أنَّ أنظمة الحكم سوف تنتهز الفرصة لتملأها بأفكارها، وتتحكَّم في مخاوفك لفائدتها - وليس هناك إلّا التجارة، التي تُطمئننا بأننا مختلفون، وبأنَّ علينا أنْ نتوقع المزيد. إذن رسالة هذا المساء الحيوية هي: انتبه إلى فجوتك. - المؤلف

أو لا يكون دقيقاً بعد مرور كلّ تلك السنين، فإنَّ تردده في السماح لي بالمجيء بسبب انحطاط أحوال شريكه - واضح جدّاً. وإلّا لِمَ يتردد؟ إنَّ هذا يدلُّ على إفراط حقيقيّ. يدل على رجل فاسق ثريّ ومُغامر، هو بالضبط ما نحتاج إليه، شخص متعاطف على الأقلّ مع وضعنا. ولعله ليس بالوضع الجنوني. لعله ضمن سياق حالة الضياع مبتذل جدّاً. لأنه أليست أعظم منابع الإلهام تخرج إلى الحياة بنزوة؟ أليست هي انتهاز فرصة من الهواء؟ إنَّ هذه الساحة هي أرض وطن سميتس. لعل فسقنا شحذ غريزته أكثر، ورأى هذه الاحتمالات التي تكتنفنا. فقبل أيّ شيء، إنَّ تعرُّج مسار مسيرته المهنية هذا سببه مثل هذه النزوات. فلِمَ ليس برلين؟ لن يكون ذلك أشد ما وقع له من الأمور إعجازاً.

كان ينبغي أنْ يتفاعل هذا داخلي قبل أنْ أتمكن من العودة إلى قضية موتي. ثم جلبت هذه معها مخاوف جديدة. إنني حتماً لا أستطيع أنْ أموت وأترك سميتس في السجن. على الأقلّ، أنا لم أَقُده قسراً إلى الدمار، ولا إلى ما هو أسوأ، كما شاهدت - لكنني لم أرُق لطبيعته الراقية. إنني شريك في الجرم، وهو يعلم ذلك.

وسط صمت الكابين عالياً فوق الليل، تحت الشعاع الوحيد لضوء القراءة، كنتُ أستعد لقبول هزيمتي المنكرة. ثم، وكأنما في حلم - تخلَّتِ الأسواق الاستهلاكية، أعدائي القُدامى، عن أداة قوية؛ تقنية في التفكير، نوع من التحوُّل الأخلاقي، مما جلب أملاً جديداً. وبينما كنتُ أراقب اليمبوس الأكبر للإمبريالية الحديثة يقوم بعمله من خلال صفحات مجلة الخطوط الجوية، لمحت إعلاناً عن بطاقة ائتمانية. بدا عاديّاً في كلّ النواحي ما عدا في شيء واحد: أنه لا يعِدُ بأيّ خير يأتي من تلك البطاقة، بل يعِدُ بالأحرى بالشر، على هيئة صعوبة وإزعاج إذا لم تمتلك واحدة. لقد عُكِسَ مفهوم (خير) البطاقة، دون أدنى شك من أجل تشتيت الانتباه عن فقر في الفوائد.

وذُهِلت.

إنَّ موتي يتطابق مع النمط نفسه. إنني ببساطة مُضطر إلى عكس مفهوم (الخير)... أه، اليمبوس الأكبر وصندوق عدّته! ذلك أنَّ موتي، من وِجهة نظر سميتس، خالٍ أيضاً من الفوائد. وفي أسلوب التفكير الطبيعي من المستحيل أنْ أموت وأترك صديقاً في السجن. ولكن في ظل أخلاق معكوسة سيكون أمراً مرغوباً - ذلك أنه إنْ كانت حياتي تُسبب مثل ذلك الأذى للآخرين، وقد تودي بهم إلى السجن، فإنَّ موتي يمنع وقوع المزيد من الأذى.

إنها لحظة الاكتشاف. وبقوة عنيفة، وبعد أنْ عثرت على طريقة للتقدّم إلى الأمام، استعدتُ أدوات الضياع المتهورة، والأفضل لمساعدة سميتس[52].

إنه - على حدّ تعبير السوق نفسه - انتصار كليّ.

وبسرعة قمتُ بتطبيق توصيل أسلاك الأخلاق على يمبوسي الخاص. وفجأة يُصبح ضياعاً بطيء الحركة، مع أولى مراحل تطوره الضئيل.

وبعد وضع هذا في نِصابه أترجلُ من الطائرة مُسيطراً على الأمر.

أه، يا لدفق الحماس. ولِمَ ليس برلين؟ إكراماً لسميتس سوف أقدِّم عرض حياتي. سوف أستخدم حالة الضياع لفوائدها. وعندما أفكر في الأمر، أجد أنَّه يجب المقايضة حتى بحصّة والدي. لقد قال إنه تخلّى

---

52 - *لماذا أضحت الحياة أشدّ تعقيداً من ذي قبل؟* لاحظ كم أصبح الحصول على ممسك على الأشياء هذه الأيام أمراً معقّداً. إنَّ السبب يعود إلى أنه ليس هناك مبدأ أخلاقي صارم واحد يناسب التجارة. والمساران اللذان يشكلان الحياة تباعدا إلى درجة أنه لم يعُد في استطاعتنا أنْ ننتقل بينهما في سياق التبادل التجاري - وهكذا لم نعد نفعل. هذان المساران - الواقع الوجودي والمثل الأعلى - لم يعد يرى أحدهما الآخر، وأصبحنا نتخذ قراراتنا دون تدبُّر، مُصدقين كلام السوق حول أنَّ أخلاقاً مُبررة تلازم قرارنا، إنْ كان غير مرئيّ. ولكن إذا نظرتَ إلى عمق الفكر التجاري، في أعالي أجواء العقل المتموجة، فسوف تعثر على العديد من الحلول، كذاك الذي عثرت عليه توّاً، ويمكن أنْ نُطبّقه على مشاكلنا على الأرض. - المترجم

عن حصّةٍ في التجارة، هذا مؤكَّد. نعم! سوف أغتصب حصّته - لا شك في أنَّ غيرد شبيخت هذا سوف يشعر بثقل وطأة الدَّين، وسوف يتبع أية خطّة. مآدب في برلين - ولِمَ لا يوافق؟ وتلبيةً لأغراض سميتس ليس من الضروري أنْ يكون هناك جدول أعمال، تكفي الموافقة، وبضعة تفاصيل، وشجرة نسب موجزة لإثارة إعجاب راعي الحفل.

ما كان أشدّ غباء مخاوفي على ضوء الواقع!

أترجّلِ من الطائرة وأتململ، في انتظار أمتعتي. لا يستغرق الأمر طويلاً. إنَّ مطار برلين ضخم المساحة على شكل كعكة مُحلّاة، وكلّ بوابة فيه مُخصصة لدائرة منفصلة للهجرة والجوازات، وتفحّص الأمتعة والجمارك، ولا تبعد أكثر من بضعِ خطوات عن رصيف الشارع، ودون أيّ أثر لتهديد أو سوء معاملة أو تبضّع.

كأنَّ أحدهم أراد مني ببساطة أنْ أعبر.

وهكذا في غضون خمس دقائق كنتُ أقف على الرصيف داخل الكعكة المُحلّاة تحت سماء المساء، مُفرِداً زجاجة من نبيذ ماريوس لأُثير إعجاب شبيخت الشهواني. بل إنني فكّرت وأنا أدخن سيجارة في أنْ أُحضِر ورق جدران لكي أُقيم غرفة بيضاء مؤقتة. وهذا سيُبيِّن له طبيعة عملنا. وبينما أنا أفكر أين يمكن أنْ أعثر على ورق جدران في مثل هذه الساعة، أطاح سائق سيارة أجرة بحقيبتي إلى داخل سيارته. استقللتها، وأنا أراقبه بذلك الرعب الذي يمكن أنْ ينتاب السكان الأوائل لمكان أسطوري.

دقّقت في الفكّين البروسيين. «*Pego Klub, bitte* إلى نادي بيغو، من فضلك».

توقف قبل أنْ يجلس وراء المقود، «أين؟ بيكو؟».

«بيـ - غو. *في شارع النافورة*؟».

يبقى الرجل عند الباب محدودباً، وكأنّ من الأفضل لنا أنْ نتخلّى عن المهمة. لم أنفر كثيراً من الفكرة؛ إنه ينتمي إلى جيلٍ تقاعَدَ عن التردُّد

على النوادي، ومن الناحية الواقعية، في مدينة مملوءة بمواقع العمل، أسلِّم بأنَّ نادي بيغو انتقل منذ أوائل التسعينيات، بل وبأنْ يكون قد غيَّر اسمه. تلك اللحظات الصعبة لا تُحبِط الأمل، ولا الرعب المتأصل من أول برليني أصيل أقابله. بالإضافة إلى أنه يمكن أنْ يكون برليني شرقي؛ وأذكر أنَّ إحدى صِفات الألمان الشرقيين أنهم صارمون واستثنائيون. لم يكن عطر *جوا دو فيفر* شائعاً بين الشيوعيين، لأنه يعني ضمناً أنكَ أفضل من أيّ رجل آخر. أما صفة الاستثنائي، فأذكر من عهد الطفولة أنَّ برليني غربي انتقل للسكن مع جيرانه الشرقيين. فإذا رنّ جرس الهاتف وأجاب أحدهم، تجري المكالمة على الشكل التالي:

المتّصل: «ألو، هل كلاوس ويسترنر هنا؟».

الشرقي: «نعم».

ثم يضع السماعة ويعود إلى عمله، بعد أنْ فعل ما طُلِبَ منه. من الواضح أنَّ الهواتف كانت أجهزة مُثيرة للشبهات في الشرق القديم، وغالباً ما يتجسس عليها البوليس السرّي؛ وعلى أية حال كان التفوق في الإنجاز صِفة أنانيّة، ويسيء إلى صورة رفاقك.

أما الآن فأوجّه السائق إلى مرتعي القديم، برينتزلاور برغ، مقرّ نادي بيغو الأصلي. هذه المنطقة المتداعية تماماً، التي جاورتْ ذات يوم حائط برلين، أصبحتْ منارة تستجلب أفواج المغامرين بعد انهيار جمهورية ألمانيا الديمقراطية في عام 1990، في الفترة التي أتيتُ خلالها إلى المدينة. وأصبحتْ موجة موسيقى الروك في الثمانينيات مهداً للنوادي التي لا زالت مشهورة حتى اليوم، ولا زالت تُدين بروحها وأسلوبها إلى المنطقة المُحرّمة بين الشرق والغرب، بين الماضي والمستقبل. عندما أفكر في تلك الفترة أرى أنها كانت متهورة؛ تمنيتُ في أثنائها لو أكون أكبر سنّاً. وما أعرفه الآن هو أنَّ التاريخ لم يسمح لبرلين بالتقاط أنفاسها بين الفترتين. ولهذا السبب بدت المنطقة على تلك الحالة. لم يتمّ ترميم معظم الدمار الذي سببته المعارك بعد انتهاء الحرب، وعندما أغلقها

الشيوعيون في وجه امتلاك الغرب للأبنية غاصت في عالم النسيان بما أنَّ مالكيها وساكنيها لم يرغبوا أو لم يتمكنوا من العودة إليها. وأولئك الذين عادوا وجدوا أنَّ عليهم أنْ يختاروا قبل أنْ يضعوا الإبريق على النار – بين الرأسمالية والشيوعية، هذا الجانب من الطريق أو ذاك. ولا عجب أنه بعد انهيار الجدار أصبحت أحياء برنتزلاور برغ ومِتْ المُحاذية للحدود ملعباً لأمثال والدي، بقمصانه المصنوعة من نسيج الأكريليك وأسنانه النخرة. في ذلك الوقت كان يمكنك أنْ تفتتح نادياً بتحطيم نافذة مصنع والاتصال هاتفيّاً بأصدقائك ليجلبوا البيرة.

شعرتُ بغصّة في حنجرتي لدى ولوجنا الشرق القديم. رأيتُ وأنا أتابع سيري أنَّ البروليتاريين المُختلسي النظر استُبدِلوا بالبوهيميين الأنيقين، وعربات البضائع استُبدلت بعربات يد تحتاج جهداً عضليّاً، والأطلال في أسواق الطعام البيولوجي. في حين إنه في زمني لم يكن غريباً أنْ تنهار الشرفات عن الأبنية وتتحطَّم في الشارع وعليها القاصفون، والمشهد الأفقي أمام صفحة السماء في هذه الأيام تحسّنَ وأصبح في الغالب صحيّاً، والمتاجر والمقاهي تقوم حيث كانت الأشباح تكمن. فكّرتُ، يا لها من صورة لعصرنا العاصف، وعصر برلين، بحيث إنني حتى وأنا في الخامسة والعشرين أستطيع أنْ أصرِّح بأشياء كان من الصعب التفوّه بها في أيامي.

ومع ذلك، يبدو مكاناً يصلُح لفريدريك الفأر[53]؛ على الرغم من أنه الآن راضٍ بآلة تحضير الإسبريسو. هذه المشاهد كلّها حثّتني على التفكير في مدى خطأ انطباعنا عن ألمانيا – على الرغم من أنني أُسلِّم بأنَّ أيّ ألمانيّ سوف يعتبر ألمانيا حالة خاصة. ومع ذلك يبدو أنَّ من مصلحة البريطاني أنْ يعتبرها مكاناً قاسياً، ميكانيكيّاً وغير رومانسي، سكّانها مُجرّدون من أيّ حسّ فكاهي ورُقيّ. ومع ذلك أضحت اللغة الألمانية اليوم أكثر رقّة، ومدهشة، رحبة ومرنة، بل ومزاجية، والناس فيها حلماء

53 – شخصية كرتونية من تصميم الرسام ليو ليوني (1910–1999).

ومُراعون للآخرين، وأبعد ما يمكن عن الهمجيين كما نفترضهم. ربما، بينما آخر ظل لإمبراطوريتنا يغوص خلف الأمواج، تبقى علامة الحرب صِلتنا الوحيدة بالانتصار، بالهوية. وبينما أوروبا تعيد اكتشاف نفسها نهمهم نحن بلحن فيلم «*الهروب الكبير*»، في انتظار أنْ يُخبرنا أحد ما الذي سيلي. لأنَّ أيّ غزو يحدث اليوم يأتي من قبائل همجية جديدة: أي نحن.

كانت جادة الكستناء هي أقرب طريق عامة وأنا طفل، طويلة ومستقيمة تنعطف أخيراً لتغوص باتجاه مركز شرق برلين، حيث ينهض برج ألكس الوامض. الآن هو صاخب وبرّاق ولا يلاحظه أحد. يُبطئ السائق وهو يرتقي نحوه، وتتقابل عيوننا عبر المرآة طالباً التعليمات. وتذكّرتُ أنَّ النادي كان في موقع ما في شارع النافورة، لكنه يُخبرني بأنه شارع كبير جدّاً، وأنه بدل تبديد نقودي يُستحسن أنْ أتأكّد من العنوان وأتابع سيراً على قدميَّ. الفكرة جيدة. وبما أنه لم يمرّ أكثر من ثلاثين دقيقة على ترجّلي من الطائرة، وألمح فندق كاستانييوف أمامي، أَطلب منه أنْ يُنزِلني هناك. من الأفضل أنْ أحجز غرفة، وأسأل عن الاتجاهات وأُجدِّد نشاطي قبل أنْ أقابل شبيخت الـ uber-sybarite. (الفحش الطاغي)

وابتهلتُ كي يفتح النادي أبوابه أيام الاثنين.

يزمجر أول ساكن محلّيّ أصيل، وهو يرفع زجاجة ماريوس ثقيلة الوزن. «إذن، في هذه المنطقة سوف يعرفون المزيد عن النوادي».

أقول: «*Danke* شكراً».

«على الأقل يعرفون أكثر مني. أنا من هانوفر».

وهكذا ألج الفندق-النُّزُل القديم ومدينتي الفاضلة المحلّية تالفة قليلاً. طبعاً شتان ما بينه وبين فندق بنينسولا، لكنه نظيف، وحديث ومُريح بصورة غير عادية بطريقة توحي بأنَّ طاقم الإدارة موجود هنا منذ سنوات. وهذا يعني أنهم متآلفون مع المكان، وحُسن ضيافتهم اختُبِرَ في ليالي شتاء عديدة عبر السنين. أعلمُ، على سبيل المثال، أنَّ في

استطاعتي أنْ أستعير رقعة شطرنج من الاستقبال، وأنْ أُلِمِّع حذائي في أثناء انتظار المصعد، وحتى أنْ أدخّن على مائدة الإفطار في غرفة الإفطار المُخصصة لذلك.

إنه تحضُّرٌ صِرف.

لكنهم لا يعرفون أيّ شيء عن بيغو.

وينتابني الخوف عندما أجد أنَّ دليل الهاتف لا يحتوي رقمه أيضاً. على الأقلّ ليس تحت اسم بيغو. ثم تلوح لي بارقة أمل صغيرة، حاملة أنباءً طيبة وأخرى سيئة. أتوقفُ لكي أستوعبها عند الاستقبال بينما رجل محلّيّ آخر يدخل ولم يسمع عن النادي. النبأ الطيب هو أنَّ هذه برلين - وكلما كان النادي فاخراً، لا يسعى إلى الإعلان عن نفسه. في الحقيقة وأنا أتذكّر هذا، يقول الرجل المحلّيّ إنه لا زال هناك نوادٍ في المنطقة لا يُسمح بدخولها إلّا لحاملي بطاقة خاصة كانت توزَّع في التسعينيات. لكنَّ النبأ السيئ، الذي يشكل ذروة المفاجأة، يأتي من الحقيقة نفسها: الأشياء الأفضل لا تعلن عن نفسها، والأشياء الأكثر نُدرة لا تسعى إلى ضمّ أعضاء. إنَّ سائقي سيارات الأجرة لا يريدون مني أنْ أُبدد نقودي.

إنَّ شرق برلين لا يخضع للسيد يمبوس.

وأنا بلا حليف.

تنتابني غصّة واقعية. في مشهد النادي في شرق برلين، يمكن لكلمة ضخم أنْ تعني كئيباً. والأفضل أنْ يعني الأسوأ، بوجود القبو الصغير، وأضيق مجال للخيار بين المشروبات. هنا تعمل الأخلاق المعاكسة عملها. يمكن لـشبيخت أنْ يكون صفائيّاً[54]. وعلى الرغم من أنني أعتبر هذا ذروة التقدم - إلّا أنه لا يساعد سميتس.

أمامي أكثر من ساعة بقليل لأتصل به، والآن تتبدّى لي فكرة كبرى. وتبدأ أيام اليمبوس تلك بالتجسّد، بتناغم، حسب تعبير سميتس، كما يلي، فقط انظر: إنَّ السقوط من غيابي المنحط يتطلَّب حلّاً منحطّاً

54- الصفائيّة: مذهب في الرسم يتسم بالبساطة والوضوح. - المترجم

بالكامل. حلّاً رأسماليّاً. لن تساعدنا أية كمية من الصفائيّة أو الروح الصاخبة؛ نحن في حاجة إلى مغامرة كبرى من حُسن الضيافة، نحتاج إلى رأسماليّ يفتتح مطاعم في الحال. نحتاج فقط إلى نخر الأسواق. لقد سبق أنْ ساعدتْني في طوكيو لكي أصل إلى هنا - لكنني الآن أحتاج إلى المزيد، والمزيد.

انظر إلى التناسُق.

أه، الأسواق. فجأة يُصبح العثور على النادي مُحبِطاً أكثر من عدم العثور عليه. ماذا لو أنه مجرد حانة رخيصة صفائيّة؟ أترك حقيبتي في الغرفة وأنزل إلى جادة الكستناء، وأُحضر معي زجاجة من ماريوس، إما من أجل شبيخت الصفائيّ أو المنغوليّ. تستقر أعصابي قليلاً مع وخز هواء الليل. على أية حال، سواء أكان منغوليّاً أم لا، بعد عشرين عاماً من العمل في المجال لا بُدَّ أنَّه أصبح للرجل على الأقلّ علاقات عامة طيبة. وكلّ ما نحتاج إليه هو دليل جيد. هذه الأفكار أعادت إليَّ توازني وأنا أتفادى إحدى الحافلات وأعبر الطريق. ولكن في أثناء بحثي في المكان جيئة وذهاباً تنتابني مشاعر مختلطة عندما لا أرى محلّات تقدم قهوة ستاربكس أو شطائر ماكدونالد. نحن لسنا في حاجة إلى الفأر فريدريك، ولسنا في حاجة إلى نظام ليعتني بميزانيتنا. نحن في حاجة إلى تفشي الاستهلاك، نحتاج إلى فائض.

نحتاج إلى السيد يمبوس الخاصّ بالرأسمالية الحديثة.

في جادة الكستناء الناس المتجولون على وشك أنْ يذوبوا بين ساكني المساء والليل، وأستعرضهم بحثاً عن آثار من الجانب الشرقي القديم - سترة بلاستيكية ضيّقة، بنطلون شديد القِصَر - وعلى الرغم من وجود دلائل على الأناقة الشرقية، فإنَّ الرياح غالباً تهمهم بمشاريع تصاميم على ألواح الرسم. لحية المُصمم القصيرة ترتعش معها في المقاهي والبارات - ليست مشاريع استحواذية، متّقدة، مسفوعة بالجنون وباللحام، بل مشاريع تصلح للنقاش مع فنجان كابوتشينو.

مشاريع تتناغم مع الموسيقى التصويرية للحن برينتزلاور برغ[55]، وإعادة عزف حزين لا ينتهي لغولغار أوركيستار، وغنوسيين[56]، وغيمنوبيدي[57] - أو أية تهويدة كئيبة تساعد الطبقة البورجوازية الأحيائية الجديدة على تخيُّل عربات الأطفال وسط الحطام وأزهار الربيع.

هناك إحساس بأنني وحيد في القسم الشرقي الجديد المُحسَّن. إنني محروم من جناحَي الإنسانية الفعّالين، اليسار الطفل واليمين الشيطان، حليفي الجديد. إنه الآن يبدو المرتكز المعقول، بلا ثورة، حيث لا شيء يثور المرء عليه، لا مخزن للأرائك، ولا سمسار رهن العقارات أو تاجر سيارات هيونداي في الأفق. إنه نوع مكثف من أرض اللبن المُصفّى، تؤلمني رؤيتها لأنها ما كنتُ أصبو إليه - والآن بعد أنْ عثرتُ عليها، مفارقة المفارقات، أرى أنها لا تلبّي احتياجاتي.

الاكتفاء لا يدعم الإسراف.

أه لا علينا. أمرُّ برجلٍ مُلتحٍ يُذكّرني بوالدي في شبابه. أدخل باراً عند زاوية شارع النافورة وساحة زيونسكيرش. تتسرَّب نغمات من القداس الجنائزي الألماني[58] من الكنيسة عبر الساحة المرصوفة بالحصى.

في البار أطلب بيرة، مُستعيناً بالجرعات الأولى المنعشة منها لأستعدّ لطرح السؤال عن نادي بيغو. لا أندفع في أداء المهمة في حال كان شبيخت أشهر من نار على علم. قد يُبلغّه الجواسيس أنني أبدو شديد الحماس. هذا هو مستوى تركيزي - لاحِظْ هذا، من فضلك - بعد اضطرابه السابق. بل إنه يتمادى إلى درجة تقرير أنني عندما أعثر على

55- برينتزلاور برغ: عنوان لحن من ألبوم Gulag Orkestar لفرقة بيروت الأميركية لموسيقى الروك. - المترجم

56- غنوسيين: عنوان لثلاث مقطوعات على البيانو من تأليف الموسيقار الفرنسي إريك ساتي (1866-1925). - المترجم

57- غيمنوبيدي: ثلاث مقطوعات على البيانو لإريك ساتي. - المترجم

58- القداس الجنائزي الألماني من تأليف الموسيقار يوهانس براهمز (1833 - 1897). - المترجم

النادي، سوف أمضي خمس دقائق في استعراضه بهدوء، محاولاً أنْ ألمح شبيخت. أستطيع، وأنا أحمل صورته في ذهني، وبعد أنْ شاهدتُ المكان الذي تكمن فيه آمالنا، أنْ أنسحب لأدخّن سيجارة وأحشد موقفي إلى درجة جديّة. في هذه الأثناء سوف يندفن داخلي زبائنه، وطبيعة عارضة الباب، والموسيقى والديكور، سوف تستقرّ فيَّ، كالهورمونات في عنب ماريوس. إنَّ فورات الحماس تمثّل قوة تجذب المتشابهين، وهكذا سوف يساعدني حمل جرعة من بيغو.

أفكّر، يمكن لموجات الحماس أنْ تكون مُثيرة. كلبس رداء. أشرب البيرة وأطلب شنابس، وعندما تعود النادلة مع المشروب، أبدأ استجوابي بالألمانية:

«*Entschuldigung* – عفواً – »

تردّ بحدّة بالإنكليزية: «ماذا تريد؟».

«أنا أبحث عن نادي بيغو».

تقول: «بيغغو؟ نادي بيغغو؟».

«بل بيغو. بيـ – غو».

تهزّ كتفيها استخفافاً، وترمي بالسؤال إلى نادلة أخرى التي تبادلها التحديق بنظرة جوفاء.

يهتف رجل أشعث الشَّعر عبر البار: «لا زال هناك بعض النوادي الرائجة في المنطقة. ولكن كان ينبغي أنْ تأتي في حقبة التســـــعينيات. هل هذا يومك الأول هنا؟».

أنظر إلى الرجل. على الرغم من أنَّه ألمانيّ بجلاء إلّا أنه يتكلَّم الإنكليزية الأميركية التي يسمعها عبر برامج التلفزيون، وشكله لا بأس به، ومظهره الأشعث جدير بسكّير مدمن على التردّد على الحانات، ويمتهن غواية السياح الأثرياء.

أقول: «لقد كنتُ هنا في التسعينيات. أتعرف البيغو؟».

يضحك. «يا صاحِ، أنت لم تكن ترتاد النوادي في التسعينيات. كم عمرك؟ أنت كنتَ في السرير مع دبّ دمية في التسعينيات».

ينتابني شعور عدوانيّ، وألزم الصمت. ما أغرب هذا – ها أنا أتصرّف بأنانية ولم أكد أصل إلى برلين. كيف يجرؤ على ادّعاء معرفته بها أكثر مني. وبحقبة التسعينيات، أيضاً. أضطربُ قليلاً، متعجباً من هذه المراوغة المكانيّة. أخيراً أتبيَّن مع شيء من الانزعاج أنها غرابة أطوار إنكليزية تماماً. إنها الغيرة من آل جونز[59] وهم يقضون العطلة، عندما تولي عائلة سمراء جديدة الكثير من عنايتها لنادلها ميغيل. هنا أعدّوه بعناية على مدى أسبوع بين يومي سبت، وشاركوه فرحه، وفجأة:

إذا بعائلة جديدة من السُّمر البدناء الفظيعين يُخاطبونه بمانويل.

أُحدِّقُ إلى مشروب الشنابس. «هل ما زال نادي بيغو موجوداً؟ في موقع ما من شارع النافورة، حيث أعتقد أنه كان قائماً».

«واو، يبدو أنك تحفظ الخريطة، هه. برونشتراسه (شارع النافورة). لكننا ننطقه مع التشديد حرف النون، برونّ–ن–ش–تراسه»، ويتقدَّم على طول البار لينضمّ إليَّ. «يا صاح، إنْ كنتَ تبحث عن فتيات –».

«كلّا، شكراً» وأدفعُ ثمن المشروبات وأمشي مبتعداً.

يهتف من خلفي: «هيه يا صديقي! يا صديقي!».

لكنني أنزل إلى برلين التي أعرفها، رحبة وهادئة، تئنُّ تحت وطأة الحافلات. إنها يوم أحدي الممتدّ على طول العمر، حبيبتي الحميمة الصارمة.

إنها صديقي ميغيل السرّي.

باران آخران وكشك لبيع الكباب لم يسمعوا بالبيغو، أو بغيرد شبيخت العظيم. وأستوقفُ أربعة من طلاب المدارس لم يسمعوا

---

59 – الإشارة هنا إلى الفيلم الأميركي the Jonses (عام2009) من بطولة ديمي مور وديفيد دوشامبي. – المترجم

بهما. وفي منتصف مسافة الشارع أجد أنَّ عربة لبيع الأطعمة ما زالت تعمل، ولا بُدَّ أنَّ السبب في أنَّ هذا النوع من العربات الصغيرة، التي تبيع الحلويات، والسجائر والمشروبات، سببٌ وجيه كسبب وجود مكتب البوّاب بالنسبة إلى المنطقة، ولا بُدَّ أنَّ الأخبار تتجمَّع هنا أكواماً.

لكنَّ الرجل الذي في الداخل لا يعرف شيئاً.

أه حسن. لا بُدَّ للمحاولات أنْ تُثمر، كما يحدث في الإيمان بالله، عندما يعلق عالمك ولا يجد دعماً حقيقيّاً من أيّ نوع. أعي هذا مع انتهاء مهلة الساعتين. في طوكيو الوقت الآن هو الصباح الباكر، وسوف يكون سميتس منتظراً. يبيعني حارسٍ عربة بيع الأطعمة بطاقة هاتف. يبدو أنه يومئ برأسه متعاطِفاً وهو يسلِّمني إياها عبر النضد، لعله يشعر بأنها لن تكون مصدر سعادة. والغريب هو أنه ليست لديَّ الرغبة في استنشاق خطّ من الكوكايين قبل أنْ أُجري اتصالاً. لعل الأخبار غير المؤكَّدة لا تُنقَل بوضوح أبداً. في الحقيقة لم أشعر بالرغبة في النسيان منذ أنْ وصلت. مع أنّ اليمبوس لا يُبلبلني هنا.

مع ذلك أشعر بصلابة الواقع على جلدي.

عندما أعثر على كشك هاتف قريب أتصل بمركز الشرطة في طوكيو، عازماً من باب الأمان على أنْ أشرب أكثر من الآن فصاعداً. يُجيب الرقيب المناوب، وبعد بعض النخر يتردد صدى صوت سميتس عبر الهاتف وكأنه قادم من ماضٍ سحيق:

«العاهر؟».

«سميتس – لقد وصلتُ. كيف حالك؟».

«فقط أخبرني عن الصفقة – اسم المكان، كم سيغطي من النفقات، إلى آخره. الأمور تزداد سوءاً هنا».

«ما الذي يحدث؟».

«إنَّ أصدقاء العجوز يقولون إنه لم يطلب الفضلات. يقولون إنه

كان من فرط السُّكر بحيث لم يطلب أيّ شيء. ويوشيدا لم يُدلِ بإفادته بعد، لا زال المختبر يقوم بفحص السمك. لقد أخبرتُ المحامي بأنكَ شاهدتَ الرجل يطلب الطعام، لكنه يقول إنك لا تتحدث اليابانية ولذلك لا يُعتدّ بشهادتك. اللعنة على مَنْ يعلم ماذا يحدث. إنَّ المشاكل تلوح في الأفق. والأمور تبدو سيئة جدّاً. إنني فقط أحافظ على هدوئي، وأضع قوائم طعام من أجل برلين. لقد نجحنا في إيصال رسالة إلى الباسكيّ، وسوف يتصل بنا غداً».

«متى بالضبط؟».

«فقط أخبرني عن المشروع! يا عاهر! ما أهمية هذا!».

«في الواقع يا سميتس - لم أتمكن بعد من مقابلة الرجل».

«ماذا؟ لا تقُل هذا. لا تقُل لي هذا الآن».

«المشكلة هي -».

«أتوسل إليك».

«سميتس، أنا أعمل على الموضوع - نحن في مساء يوم الاثنين، وبالكاد ترجّلت من الطائرة».

«يجب أنْ تدبِّر الأمر. وأنا أعني ما أقول. ووفقاً لكلام المحامي إنَّ الإقامة المهنية في أوروبا مسألة حرجة. الأمور مختلفة بالنسبة إلى مُتخصص زائر أكثر مما هي بالنسبة إلى مُساعد في المطبخ متنقّل. لقد أخبرته عن برلين. وهو يوافق على أننا إذا كنا نستطيع أنْ نضم إلينا الباسكيّ فسوف نكون على ما يرام - فهو الذي أمدّنا بالسمك، وسوف يهتم بإخراجي من الورطة. ولكن في كلا الحالين نحن في حاجة إلى موقع بحلول الغد. وأيها العاهر -».

«همم؟».

«يجب أنْ يكون فخماً لعيناً».

-12-

صباح يوم الاثنين بغيض. أجد غطاء السرير مجعّداً ومكوّماً على الأرض.

عندما أخرج إلى الشارع، تهبّ أوراق النبات الصفر في الشارع. ويخطر لي أنّ نادي بيغو لم يعُد له وجود. وغيرد شبيخت مات واندفن منذ أمد بعيد. وجاءت الحقيقة كما تحبّ غالباً، على متن الريح. وطبعاً هناك فرصة لاحتمال أنَّ النادي لا زال موجوداً في مكان ما – هذه هي طبيعة برلين. أنا أعلم أنها تضم، إلى جانب هذه الناحية الشرقية، أحياء لا تقلّ فتنة عن باريس، وأراضي يباباً جرداء كسيبيريا، وبضائع باذخة كما في نيويورك. يبدو سكانها كأنهم يعيشون في مدنٍ عديدة، في مزيج من مناطق اجتماعية ومعمارية تضم بحدّ ذاتها عوالم وتواريخ خاصة بها، مع نوعين كاملَين من البُنى التحتية تغطي كلّ شيء، من مستشفيات، وجامعات، ومحطات سفر برية ومطارات كانت ذات يوم تخدم برلين المُقسّمة شرقاً وغرباً. لكنني أجهلها كلّها. وفي أثناء سؤالي عن النادي قيل لي إنَّ محط أنظار المجتمع الراقي ذاك انتقل عبر المناطق مع مرور الزمن، جارّاً وراءه المثقفين اليساريين إلى حاناته وعلّياته. وذات يوم كانت ناحية كروتزبرغ راقية، ثم حظيتْ برينتزلاور برغ بأيام عزّها. الآن حشود من عربات اليد تُعيد الاتجاه الرائج إلى كروتزبرغ، لكنه لا يبلغ نصف ما كان رائجاً آخر مرة – الآن النصف الآخر من كروتزبرغ تسوده نغمة الانحطاط الصحيحة، وتقدِّم أفضل عروض سيارات البورش المتوقفة في الشوارع.

هذا هو الوضع في برلين. ربما يمكن لنادٍ أنْ ينتقل ولا يسمع به أحد بعد ذلك.

أو يمكن ببساطة أنْ يموت وهو في مكانه.

لدى تجاوزي طاولة في الخلاء في جادة الكستناء أرى لوح كتابة أسود يُقدِّم وجبة إفطار دسمة ووجبة إفطار صغيرة. تُجبرني معدتي على التوقّف. أختار وجبة الإفطار الدسمة، آملاً في أنْ أدعم نفسي لمواجهة النهار، ولكن عندما تصل أجلس وأحدِّقُ إلى الطبق. إنها تتألّف من عنب، وبرتقال، وملفوف، وخبز، وزبد، وجبن، ولحم خنزير، وبيض، وزهرة معاً، لا هي متلامسة ولا متباعدة. سعرها غير معروف، يبدو أنك تدفع ما تشعر بأنه السِّعر المناسب. إنه تذكير حتى قبل أنْ أبدأ يومي بأنني في شرق برلين، حيث أُعيدَ اختراع الدواليب.

حيث يكافح السيد يمبوس كي يجد له موطئ قدم.

أطعنُ الأشياء المتجمعة بشوكة، متسائلاً بتردُّد أية لقمة أخرى يجب أنْ تحتوي عنباً، وما إذا كان ينبغي أنْ آكل الزهرة. في مكان قريب يقع شارع شورينر، حيث كنتُ أقيم وأنا صبيّ. إنني لا أقوى على البحث عن منزلي القديم. يجب أنْ أشعر بالنشوة لأنني رجعت إلى شرق برلين من جديد، وأسمع أجراس الدراجات في الشارع. لكنني لا أتمتع برفاهية الافتتان. في ظلّ هذا الصباح البارد تبدو رغبتي في الموت أشبه بالاستمناء. وكأنني في مدينةٍ إذا رغبتَ في الموت وأنت فيها يكفي أنْ تتخلى عن إعادة تدوير المواد، والماء والأعشاب، وتُلغي اشتراكك في مجلة *سودويتش تزايتونغ* وتموت.

في الأحوال كافة، أقضي النهار وأنا أقوم بالتصيُّد. تبقى السماء مكفهرة. وبعد أنْ أتقصى عن كلّ مَنْ يحمل اسم شبيخت في دليل الهاتف، أقوم بالإغارة على شارع النافورة، وساحة روزنتالر وشارع تورشتراس، أذرعها جيئة وذهاباً مرتدياً معطفي، أشرب القهوة وأدخّن، ذلك أنه يمكنك أنْ تدخّن في برلين. وبعد وقت طويل جدّاً قيل لي

إنَّ أهالي برلين لا يتجاهلون الحظر الأوروبي لأنهم المدخنون الأكثر شراهة؛ بل لأنه بعد ذلك لن يسألهم أحد ماذا يفعلون.

ومع ذلك، بعد تدخين عشرين سيجارة ***جيتان بلوند*** لم أقترب قيد أنملة من بيغو.

عثرتُ على دكان فائض من أيام الجيش السوفييتي في الموقع الذي توقعت أنْ أعثر عليه.

بعد ذلك مرَّ النهار سريعاً وحلَّ الليل.

أخيراً تجتاح الرياح العاتية شارع الكستناء. أتسلل كغازٍ منبعث، وأعود مارّاً بفندق كاستانيينهوف، وقد خيَّم عليه الصمت والظلام، وأنتقل إلى الأرض المرصوفة بالحصى حول ساحة كنيسة صهيون. الكنيسة تنهضُ ضخمة وقاتمة وسط سرير من أوراق الأشجار الذهبية. أتوقف وأحدّق إلى برجها السامق نحو سماء منتفخة. وفجأة أجدني من جديد إبنيزر سكروج[60]، تمرّ زيارتي بسلسلة من مشاهد الحياة بعد أنْ باءت الجهود التي بذلتها بالفشل. لأنَّ مجرد صرير الأغصاء الجرداء، ورطوبة الهواء، والنسيم المعقوف - هذا كلّه، كالمفاتيح السود على البيانو بأنغامها الرصينة، لا يتحدث عن الحاضر، وعن الحياة المُحيطة بي، بأناسها المستكينين بدفء في أسرَّتهم، بل يُذكّرنا بأنه مات واندثر. إنها ليلة الأطياف، لمحة عن المستقبل البعيد عندما ستبقى الكنيسة، والأشجار وأغصانها قائمة، لكنَّ ذكرياتنا يكون قد محاها الزمن، وروائحنا خلا منها الهواء، وظلالنا غادرت بلاط الرصيف إلى الأبد.

إنها تعِدُ بتربة خاوية وبعبق تخمُّر الخمر.

أرتعش. يجتاحني العقم بإحدى أمواجه العاتية التي تُعكّر المزاج. بين الشوارع السكنية القصيرة التي تنبثق كأشعة الدولاب من الساحة شارع

60- إبنيزر سكروج: شخصية البخيل في رواية تشارلز ديكنز «**ترنيمة عيد الميلاد**». - المترجم

سوينموندر، وأسير فيه. أترجم كلمة سوينموندر في ذهني إلى (عالم الخنازير)، وبدافع من هذا الفأل المشؤوم وحده أسلك الطريق. وبعد مئة خطوة يلتقي بشارع غرانسير - غراند سنير[61] (السخرية الكبرى)، أترجمه باللغة الساخرة نفسها، التي تصفُ ولا شك شفتَي الطبيعة بأنهما تشبهان لحم العجل. يمتدّ الشارع بمُحاذاة متنزه صغير، جميل ولكن لا يميِّزه شيء، ويمرّ بأبنية نموذجية من خمسة طوابق ينهض واحد خلف الآخر تفصل بين كلّ اثنين حديقة، ***الفردرهاوزر والهنترهوفه*** حيث يُقيم أهالي برلين غالباً.

ثم بعد مسافة إلى الأمام أميِّز انتشار ضوء وضجيجاً. إنها إحدى مباهج برلين: مقهى وبار يستكين دون أيّ سبب تجاريّ وجيه في الطابق الأرضي من مبنى سكني هادئ. وفي حين إنَّ مثل هذا في بريطانيا يُعتبَر مُشيناً لسُمعة العمل، وضربة قاتلة للهدف وللتوزُّع السكاني، فإنَّ الفكرة السائدة في برلين هي ببساطة ما يلي:

إذا رغبتَ في شرب القهوة، يمكننا أنْ نصنع لك كوباً منها.

مع اقترابي من الضوء أدركُ أنني كنتُ مرتاحاً بصورة غريبة في عاصمة ثالث أكبر اقتصاد في العالم، على الرغم من طبيعة مهمتي. وعلى الرغم من أنه اقتصاد أكبر وصحيّ أكثر من اقتصاد بريطانيا، أجد أنَّ مستوى حذري انخفض، وطنين الإحباط والخوف المتواصل قد توقّف. ربما لأنني لم أنخرط في عمل كان قائماً على أساس الحاجة إلى الانتشار إلى خمسين سوقاً فرعيّاً بحلول العام التالي. ولم يُهيِّأ أيّ فرد من طاقم العمل للتحايُل للحصول على مبيعات أكثر مما كنتُ أنوي أنْ أعطي. ولم توحِ أية آلة تصوير إلى إمكانية أنْ أهرب دون أنْ أدفع. ولا إشارات تُحذِّر من أنني أوشك أنْ أتلقّى إهانة بحيث تدفعني إلى اللجوء إلى التهديد، أو العنف أو اللغة المُسيئة. لم تُهيمن على أقلّ قدر

61- لفظ اسم الشارع غرانسير يُشبه لفظ عبارة Grand Sneer التي تعني السخرية الكبرى . - المترجم

من مكاني أو زماني فلسفة تقول إنَّ عدداً ضئيلاً من الناس يستجيبون بإبداء الضعف أو بالخطأ على خدعة يشكلون مجموعة مُستهدَفة ثمينة. إنَّ عمل البكتيريا التي ترتدي بذلات، ولا تهتمّ إلّا بنفسها وبالانحطاط الإنساني، يبدو غائباً إلى أقصى مدى هنا.

أنا لستُ جزءاً من منحنى المبيعات.

أنا لست لصّاً أو أحمق مُفترَضاً.

والقهوة ليست خيار أسلوب حياة.

إنها مجرد قهوة.

ثلاثة أشخاص جالسون يدخّنون أمام البار الصغير. يُراقبونني وأنا أقترب، أنجذب كانجذاب ذبابة صغيرة إلى الضوء. ورجل من أميركا اللاتينية يبتسم وينهضُ واقفاً ليُحيِّيني.

يستمرّ حديثه مع رجلَين بشعر شائب: «كلّا، ولكن هذا المكان كان كبيراً شاسعاً. إنه أحد أكبر المصارف دون أدنى شك». الرجلان محلّيان من عمر والدي تقريباً، لكنهما ما زالا يتمتعان بالمرونة وبالقوة. يرتديان ملابس متواضعة، ليست ملوّنة ولا خالية من الألوان، ولا تعبِّر عن أيّ شيء فيهما.

يفسح الأشدّ قُبحاً بينهما حيزاً لي إلى الطاولة. «والآن كلّ شيء ينهار. انظر كيف يفرّ الجميع كالجرذان. وانظر إلى المصرف الآخر - إنه يعمل منذ مئة وخمسين عاماً ومع ذلك لم ينجُ أمام الشهر الأول من الانكماش التجاري. فماذا تفهم من هذا كلّه؟».

يقول زميله مُستهجناً: «نعم، لكنَّ الأمر لا يتعلَّق بالعمل؛ إنها جريمة».

«قد تكون جريمة أو لا تكون، لكنني أؤكد لك - هذه نهاية اللعبة. الآن كلّ شيء ينهار. إنه يحدث أمام عينيك».

«هناك ربما. أما هنا - مَنْ ممّن تعرفهم لديه رهن؟ إنَّ تلك الأماكن تعيش على الدَّين، المصارف فقط تعطيه. نحن من فرط الفقر بحيث لا يمكن أنْ نشترك في مثل تلك الألعاب».

«تقصد أننا أذكى منهم، لأنَّ هذا هو لبّ المسألة. لِمَ في اعتقادك نحتاج إلى ستين في المئة من الوديعة لكي نحصل على التمويل؟ هناك يُعاملون توقيع أية عاهرة وكأنه من ذهب، ثم يبيعونه تحت اسم مختلف، ويُلوّثون العالم بقيمة زائفة. وفجأة تُعدي الجميع. راقبْ، وعلِّمْ على كلامي. قد يختفي الأمر من نشرة الأخبار، ولكن في الخفاء يستمرّ حتى النهاية. انظر إليهم جميعاً كيف ينهارون. لقد عثروا على العيب في نظريتهم، وتذكَّر أنني رأيتُ كيف تتصرف وسائل الإعلام. سواء أكانت مصارف، أم قوى الشرطة، أم الحكومات. إنَّ لديهم أنماطهم. وبعد تلك الانهيارات الأولى لا نسمع أية أخبار أخرى. بعد ذلك يُلفّقون أدوات مُحاسبة لكي يُهمّشوا المشكلة. وبعد عامين سوف يبدو كأنَّ الأمور عادت إلى نِصابها. بالمحاسبة سوف يمنعون الفقاقيع من الظهور، أما البخار فيغوص عميقاً. إنَّ التجربة تعتمد على حرارة عالية. لم يفهموا ذلك إلّا الآن. أرى من سلوكهم أنَّ الأمر انتهى. إنهم يبتكرون الأدوات اللازمة للنجاة».

يجلب لنا مُضيفنا ثلاث كؤوس من البيسكو البيروفي، مجاملة من المحلّ. أطلب بيرة قبل أنْ يذهب إلى الداخل لكي يرتّب هندامه، وتركني مع الاثنين ذوي الوجهين المسفوعين بالرمال. ندخّن ونحن محنيِّي الظهور، نراقب الأشباح تعبث بين الأشجار.

أخيراً أسأل: «أما زلنا في برينتزلاور برغ؟».

يقول صاحب الوجه المُحفّر: «كلّا، بل في مِتْ. على الرغم من أنَّ الأمر يعتمد على ما تعتقد، لأنه إنْ كنتَ تقصد برينتزلاور برغ القريبة من جدار برلين الشهير، فهذه هي». يرفع كأس البيرة ويُشير عبر المتنزه: «الجدار يقع قريباً من هنا. وتلك الأبنية عند الحافة كانت مُخصصة لأفراد البوليس السرّي ولموظفين رسميين موثوقين آخرين. كان في وسعهم أنْ يشاهدوا الجهة الغربية من شُققهم».

يقول الزميل: «ولكن إنْ كان ما تبحث عنه هو برينتزلاور برغ

القديمة، فقد تأخرت بضع سنوات. في الحقيقة كان ينبغي أنْ تأتي إلى هنا في حقبة التسعينيات. أأنت أميركيّ؟ إنَّ لغتك الألمانية جيدة جدّاً».

أه، يا صاحبي السرّي ميغيل. أعتقد أنْ وجود أبي هول أجنبي يرتدي جلد ماعز هنا لا يقلّ غرابة عن وجود سجق، إنه مجرد مُعربد في نهاية أسبوع في جيبه أربعون يورو مع صديقين جديدين اسمهما أندرياس.

أقول: «أنا إنكليزي، وكنتُ حاضراً هنا في التسعينيات»، وأتساءل أيضاً منذ متى وأهالي برلين يقولون هذا، أم إنهم كانوا قبل ذلك يقولون الثمانينيات.

يقول الرفيق: «أحقّاً؟ لكنك حينئذٍ كنتَ طفلاً رضيعاً».

«في التسعينيات افتتح والدي نادياً هنا. أعتقد أنه كان في شارع النافورة».

«أحقّاً؟ بار كيم؟».

«*Nein* كلّا». يصفعه ذو الوجه المُحفّر على المعصم. ويمضغ داخل فمه برهة، ثم يرفع عينيه إلى الأعلى، مفكّراً – وأخيراً يهزّ رأسه نفياً: «Kim *Bar hat nach den Neunzigern geoffnet. Wenn du die Neunziger meinst, zumindest an diesem Ende der Brunnenstrasse – dann muss das der Pego Klub gewesen sein*».

يضربني حذاؤه البروغ الشرقي حتى يفقدني وعيي، ولا أستجمع قواي إلّا بعد قليل من التأخير.

ثم أترنّح عائداً إلى الكرسي.

ينكص الرجلان، مُعتقدَين أنَّ اللغة أربكتني. وبعد برهة يُلوِّح المتكلّم بيده مُعتذراً، ويترجم بالإنكليزية:

«إنْ كنتَ تعني التسعينيات، في هذه الناحية من شارع النافورة – فلا بُدَّ أنه نادي بيغو».

-13-

ينطلق بوق سيارة الإسعاف *Notarzt* المتبدل عن بُعد. إنه صوت بالأبيض والأسود، سيارة إسعاف من نشرة الأخبار، يتردد صداه بين جنبات شوارع من الماضي.

بالنسبة إليَّ يصفُ صفيره البغيض انتقالاً من الخوف إلى الأمل. أدعُ الهدوء يعمّ، تندفع سيارة الإسعاف مبتعدة، إلى أنْ يرفع الرجال وجوههم المرتخية إلى الليل. ثم أميل، وأنزع الشرائط عن مُلصَق زجاجة البيرة، فتتدحرج على شكل أقماع[62] في يدي.

«وبعد ذلك – ماذا حدث للنادي؟».

يلتفت ذو الوجه المُحفّر إلى صديقه: «حســن، ألم يكن ذلك الطويل، من لايبزيغ؟».

«كان هناك اثنان، كما تذكر. أحدهما كان برند – برند شبيخت».

أعجّل بالقول: «بل غيرد شبيخت».

يقول الرفيق: «نعم، هذا هو. غيرد شبيخت». يُحدِّق الاثنان نحو الأعلى قليلاً، نافخَين الدخان نحو ضوء المصباح.

«إذن – ماذا حدث؟».

يقول ذو الوجه المُحفّر: «أُغلِقَ المكان. أعتقد أنه رحل بعد ذلك إلى كروتزبرغ».

التفت صديقه إليَّ. «نعم، إلى تمبلهوف. هل سبَقَ لك أنْ شاهدتَ

62- أقماع: جمع قمع. - المترجم

مطار تمبلهوف؟ إنه أكبر مبنى مفرد في العالم. أحد مشاريع هتلر من حقبة الثلاثينيات».

يهزّ ذو الوجه المُحفَّر رأسه نفياً *Nein*. «إنه ثاني أكبر مبنى في العالم بعد البنتاغون. أو الثالث. ضمن الثلاثة الأوَل، على أيّ حال».

«نعم، في الواقع – يجب أنْ تراه. إنه تحفة في فن العمارة من الرايخ الثالث. صرح رائع، طوله يفوق الكيلو متر. يحتل ثلاثة ملايين ونصف متر مربع من وسط برلين. أصبح خالياً تقريباً الآن. المطار يشغل جزءاً صغيراً منه، لكنني أعتقد أنه سيُغلق أبوابه قريباً. إنَّ بلدية المدينة تتساءل إنْ كانت ستحوله إلى شُقق أم إلى فندق. ولكن في استطاعتهم أنْ يبنوا عشرين فندقاً وتبقى منه مساحة خالية».

أحاول أنْ لا أتذمَّر: «وهل انتقلَ شبيخت إلى هناك، مع النادي؟».

«نعم، لا بُدَّ أنه نقل عمله إلى هناك، ومَنْ يدري ماذا أيضاً. لا أحد يعلم حقّاً ماذا يجري في الداخل. أعتقد أنَّ هناك مدرسة للرقص في مكان ما، وأيضاً مضمار للعب البولينغ أنشأته القوات الأميركية. وقد تكون هناك أجزاء لم تُلمَس منذ الحرب».

يومئ ذو الوجه المُحفّر برأسه موافقاً: «بل أعتقد أنَّ هناك مزرعة للأسماك. يبدو هذا أشبه بنكتة لكنَّ هذه إحدى سِمات برلين، لكننا لا نعلم ماذا نفعل بتلك الأماكن. لقد قام شبيخت بنقلةٍ بارعة، مع ذلك، بذهابه إلى هناك باكراً. هل تتخيل أنْ تسكن في مثل ذلك المبنى؟».

بينما الرجلان يتحدثان أشعر بالدفء يُغادر أطراف أصابعي.

يقول الرفيق: «إنَّ الجدران بسُمك حوالي خمسة أمتار. من الحجارة الصلبة والإسمنت. يمكنك أنْ تقف بجواره ولا تسمع أيّ صوت يصدر عن النادي».

يُصحح ذو الوجه المُحفَّر: « (*Nein*) بل سُمكه ثلاثة أمتار. لقد أبدى الملياردير الجميل، لاودر، من نيويورك، رغبته في شرائه وتحويله إلى عيادة رائدة، حيث تصل الطائرات النفاثة حتى الباب. ولكن في الواقع،

لقد رأت حكومة برلين في ذلك، وهذا سلوك نموذجيّ منها، استغلالاً من فاحشي الثراء للصرح. لم ترَ كلّ الوظائف التي يمكن أنْ توجَد. وبرلين في حاجة إلى وظائف، نحن لم نبرأ بعد من آثار إعادة الاتحاد».

يقول صديقه مُستهجناً: «الآن أصبحت تتكلَّم كرأسماليّ. إنَّ برلين لا تريد أنْ تُصبح مرتعاً لفاحشي الثراء».

«لكنَّ اللجوء إلى المستشفى ليس مرتعاً. ولاودر كان أيضاً سيُنشئ مركزاً للأبحاث. تخيَّل - أنك تستطيع أنْ تصل بطائرتك حتى الباب. على أية حال، هذه هي تمبلهوف. كان في الإمكان وضع هذا كلّه في الداخل وتبقى منه مساحة خالية».

يقول الرفيق: «نعم، إنه أحد أحلام هتلر الكبرى. لقد أراد أنْ يجعل أفواه الزوار تفغر دهشة عندما يهبطون في برلين، تلك كانت الفكرة. يترجلون من الطائرة، فيفغرون أفواههم. من الجوّ يبدو على شكل نسر، حتى الجزء المكشوف له سطح، بحيث تحط الطائرات تحته وكأنه مرآب عملاق».

يقول ذو الوجه المُحفّر متأملاً: «أحلام كبرى، أحلام كبرى. لكنَّ تمبلهوف حظيتْ بالشهرة حقّاً بعد انتهاء الحرب، خلال مدّ الجسر الجويّ. فعندما قطع الروس الطريق إلى برلين الغربية كانت الطائرات تدخل وتخرج من تمبلهوف في كلّ دقيقة من النهار وتمدّها بالمعونات. كانوا يُسمونها قنابل الحلوى، لأنَّ ربابنة الطائرات كانوا يُسقِطون الحلوى من النوافذ عندما يطيرون فوق الحاجز إلى تمبلهوف. وكان الأطفال يقفون هناك في انتظار وصول الطائرات. لذلك حقّاً، على الرغم من أنه مشروع هتلر وألبرت شبير[63]، والمبنى يترك تأثيراً هائلًا، إلّا أنَّ التاريخ أنصع من أنْ يأتي على ذكرهما».

63- ألبرت شبير (1905 - 1981): مهندس معماري ألماني. كان خلال الحرب الكونية الثانية وزيراً للتسليح والإنتاج الحربي. اعترف بضلوعه في المجازر التي مارسها النازيون ضد اليهود. - المترجم

ترتسم على وجهي ابتسامة هادئة. لم يعُد النسيم عليلاً، إنه يبدأ الآن بالصفع. وألاحظ أيضاً أنني أبدأ بالشعور بمقدار ضئيل وغريب من الافتخار بهذا التاريخ، ها هو سيدي غيابي يُسقِطُ الحلوى. إنه يجعلني أتساءل إنْ كان هو نفسه الغياب الذي ينتابنا اليوم - إنْ كان قد أصبح عِدائيّاً ربما، كالورم الخبيث.

أعود إلى اللحظة الحاضرة: «يا إلهي. وهل رأيتَ شبيخت هناك؟».

يومئ الرفيق برأسه إيجاباً: «أوه، **نعم**. في العام الفائت تعرفت إلى طيران بروكسل، وهو آخر الخدمات العالمية في تمبلهوف. كان شبيخت في المقدمة يستلم حمولة من المشروبات».

أجلس لأستوعب هذا كلّه إلى أنْ تجعل الصور المتلاحقة والمتدافعة الحديث يختلط ومن ثم يتلاشى. إحدى تلك الصور تُصبح بوجه خاص هدفاً: شكلاً يُشبه أبا الهول جالساً وحده على رأس مأدبة، وسط صالة ذات أبعاد هائلة - ميِّت بأناقة.

نعم: إنَّ أثاث موتي متجمع هنا. قد تعتقد أنَّ هذا الاستنهاض للآمال ليس في صالح الانتحار. كلّا. أؤكد لك من هنا أنَّ تأثيره هو عكس ذلك - إنه يُشكّل حافزاً للإقدام عليه. لقد قطعتُ صِلاتي كلّها، أنا طيف ينتظر. ذلك أنه، على الرغم من أنه يمكن أنْ يكون قد فاتك هذا، بعد كلّ كلامي عن قطع هذه الصِّلة أو تلك، يبقى شيء واحد يشكّل أساس الموت.

وهو غياب الحبّ.

غيابٌ لديَّ منه الكثير.

وبعد أنْ قال الرجلان كلماتهما الأخيرة، تبادلنا عبارات الوداع وتفرّقنا في الليل. ولدى عودتي من حيث أتيت، ألاحظ أنَّ (السخرية) الكبرى أضحتِ الآن (العرّاف العظيم)، و(عالم الخنازير) أصبح (جبال النبيذ). عندما تظهر سيارة أجرة عند المنعطف في ساحة كنيسة صهيون، أقاوم إلحاحاً لاستدعائه ليوصلني إلى تمبلهوف وأجلس لأشاهد المبنى حتى طلوع الفجر.

لأنَّه بات ممكناً الآن أنَّ شبيخت لديه أفضل مكان في العالم، لا مثيل له في التاريخ. صرحٌ بطول كيلو متر يمكن للطائرات أنْ تصل إليه حتى الباب.

أرتعش وأنا أتخيل ذلك.

في ظل هذا الاختراق - لأنَّ الاحتمال الذي يرفع طرف ثوبه يبقى اختراقاً، خاصة عندما يخدم أملاً يائساً - لم أستنشق أيّ خطّ كوكايين ولم أشرب خمراً، بل اكتفيت بالمشي بحذر حتى جهاز الهاتف، وأنا أنظر إلى جهتَي الطريق بحثاً عن حافلة.

ولكن في طوكيو هناك مشكلة. سميتس لم يأتِ ليردّ على مكالمتي. الرقيب المناوب لديه الكثير ليقول، لكنني لا أفهم ما هو. وعندما أُكرر اسم سميتس يُجيب بإلحاح أكبر، وعندما أحاول أنْ أقرأ بصوت عالٍ رقم كاستانيينهوف يُعطيني الجواب نفسه بصوت أعلى.

في النهاية، بعد تبادل النخر بيننا، يُغلق الخطّ.

لا أعلم ماذا أظن. لعلّ الأوان قد فات - على الرغم من أنَّ سميتس قال إنه في اليابان يمكن أنْ تمرّ أسابيع قبل أنْ يصدر أيّ حكم، وأفترضُ أنَّ صدور الاتّهام هي الضربة القاضية التالية الممكنة. وعندما أحاول أنْ أتصل برقم المترجم يُجيبني البريد الصوتي، بحيث إنني في نهاية المطاف، ولكي أُريح بالي، أُضطر إلى أنْ أُقرر أنَّ سميتس ببساطة استهلك امتيازه في الاتصال الصباحي. يجب أنْ أنال قسطاً من النوم، وأنطلق باكراً إلى تمبلهوف وأتصل من هناك طلباً لمزيد من الأخبار المؤكّدة. سوف نكون في اليوم نفسه مع اليابان. ولعل الرقيب يكون قد بلَّغ أنني قمت بالاتصال.

فقط انظر إلى خُططي الحيويّة. راقب العقل البشري ينسج من العماء والفشل حسّاً مثاليّاً، مُحولاً الألغاز إلى بدع حيث يقود أمرٌ بشكل مُثمر إلى آخر، إلى أنْ تُحلّ المشكلة. هذا هو وهم التحكم في الأمور. ذلك لأنه كذبة مأخوذة من أدب الأطفال، يُخلدّها آباء مرهقون، يمكن للنوم

أنْ يُنشّطهم. لأنه لا يفعل. وفي وضعي يُفضّل الطفل أنْ يستمتع بشرب النبيذ وتدخين سيجارة، ولعب الورق مع والده، على أنْ ينام.

من الواضح أنَّ ذلك الوالد سيكون بريطانيّاً.

بالنسبة إليَّ يمرّ الليل القصير بلمح البصر، إلى أنْ أُضطر إلى إحداث هالة نورانية صلبة. وبينما لا يزال الظلام يسود في الخارج أتناول وجبة إفطار دسمة تليق بشاعِر تتألّف من سبع سجائر، وثلاثة خطوط من الكوكايين ونصف زجاجة من نبيذ ماريوس. وبما أنه كان يوماً مشهوداً غسلت شَعري الصدِئ أيضاً بالشامبو، جاعلاً رذاذ الدش يضرب عمودي الفقري. أُجفّف رأسي بدفق الهواء، وأرشّ نفسي برذاذ عطر جيكي. ثم أرشّ نفسي من جديد لكي أوسِّع دائرة الهالة النورانية لتغدو كالشبكة، لكي يقع في نسيجها الذي لا يعرف الرحمة شبيخت المتهتّك الأكبر عاجزاً.

بينما الطيور تنجز برنامجها الصارم، أدثِّر زجاجة من (**سيمفوني**) وأضعها داخل سلّة غسيل وأيمّم وجهي شطر المطار الغامض، أكافحُ كي أُبدِّد من ذهني صورة سميتس مشنوقاً من السقف بحزامه. وأخيراً لا أنجح في فعل ذلك. وتُبلبلني أفكارٌ أخرى، حشودٌ منها، وكما يحدث للقطار النفقي بالقرب من تمبلهوف، أُضطر إلى التوقُّف باكراً، خشية أنْ تنفتح الأبواب على غرفة مكتب شبيخت[64].

أعود بخُطى متعثّرة إلى سطح الأرض وأجد نفسي في كروتزبرغ، عند أسفل صرح طويل. وهذا يبدو الجزء الواقعي في المدينة. الجزء العامل، لا زال يحتفظ بمناظره، وبغرائبه وبحاناته، ولكنْ أيضاً بعجائزه،

64- إنَّ لنضوب النوم تأثيراً مُجزَّءاً على الأفكار. انظر كيف يمكن أنْ تتجزّأ إلى حشود من الأفكار الصغيرة، إلى أنْ أتوقف في النهاية عن التعامل مع صورة سميتس المشنوق في محاولة لنبذ إلحاح اكتشاف الكلمة اليابانية التي تعني حزاماً، في حال ميّزتُها من بين كلام الرقيب. إنّ هذه طريقة درامية ومُداورة بصورة مُفرطة لاختبار القلق على سميتس. إذا واجهتَ هذا: اذهب إلى السرير. - المؤلّف

مع مزيد من الأتراك وأقلّ من الأطفال. أبنيته المهيبة ليست جديدة كأبنية برينتزلاور برغ، ومحلّاته التجارية أقلّ ازدحاماً بالتصورات وبالنزوات، ومُكرّسٌ أكثر لليوميّ.

بينما أُنهي تدخين سيجارة عند تقاطع جادتين عريضتين، شارعَي يورك ومهرينغدام، تمنحني فورات الحماس الخَيار. على أحد جانبَي شارع يورك يقوم محلّ لبيع شطائر برغر كينغ وعلى هذا الجانب من شارع مهرينغدام، بعد بابين، محلّ لبيع ملابس مستعملة. ولكلّ منهما آثاره.

إنَّ فورات الحماس تعمل كما يلي:

قد يعدّني برغر كينغ لمواجهة اليوم الحاسم القادم، ولكن ربما بلا عنب أو أزهار، بوصفي قنصل السيد يمبوس، وبسِعر ثابت، إلّا إذا كانوا يصنعون برغر برينتزلاور. ولكن بعد برهة من التفكير أشعر بأنَّ محلّ المعونات هو ربما الخيار الأفضل، وبينما أتقدَّم من الواجهة يتفتّح العقل عن هذا السؤال: أيّ من تلك الملابس جدير بشبيخت أنْ يرتدي؟ أيّ نوع من المنحطّين هو؟ أهو بيتر بان مهزار؟ أم دكتور نو[65] مكتئب؟ ألج المحلّ، أكبر محلّ للمعونات رأته عيناي، وأستعرض صفوف الملابس العتيقة الطراز، بما فيها أزياء رسمية، وثوب جميل، من الجلد واللاتكس. لأنه مهما كانت طبيعة شبيخت، فلا بُدَّ أنَّ من الصحيح أنَّ أيّ منغولي لن يتأثّر بمنظر ابن عرس سابق يرتدي معطفاً عسكريّاً. إنها مسألة جديّة، ويحدث أمر ما مثير للاهتمام يتركني متجمداً تحت تأثير رؤيا: أتساءل ماذا أرتدي، أدرك أنني أسأل مَنْ أنا. مَنْ هذا الأبو هول في اليمبوس؟ ماذا يرتدي شبح من أجل عمله؟ ذلك أنه وسط هذه الملابس كلّها أجد أنَّ ملابسي من النوع الخطأ، وهذه أزمة. إنها تنتمي إلى شخص لم يعُد أنا. في زمان ومكان لم أعُد أنتمي إليهما.

تأتي الرؤى على شكل أمواج، الرؤية التالية تُعيد أفكاري إلى المركز:

65- الدكتور نو: شخصية في أحد أفلام جيمس بوند. - المترجم

بينما أستطيع أنْ أتساءل عمَّن أكون، وأُجازف كما ينبغي بأنْ أفعل وأكون هو، يجب أنْ أركِّز في الغالب على أنْ أُثير إعجاب شبيخت. إنْ كان مُعاصِراً لوالدي، على سبيل المثال، وصديقاً له إلى درجة مشاركته في إدارة نادٍ، فينبغي أيضاً أنْ يكون ذا لحية وذوق سيئ. ولكن: الانحطاط يأتي من فيض الوفرة. ونادٍ بمستوى أكبر مبنى في العالم، أو حتى في المرتبة الثانية أو الثالثة، يوحي بالتوهج أو بحبّ الذات، وبالفطنة وبحبّ المخاطرة.

ويتمّ إخضاع قُدراتي على الحكم كلّها للاختبار. أقفُ عابساً بين مناصب الملابس إلى أنْ لا يبقَى لي ملاذ إلّا في عملية إلغاء بسيطة:

أولاً والأسهل على الإقصاء – ملابس ارتياد النوادي. لأنه كما أنَّ تاجر المخدرات الجيد لا يتعاطاها، فإنَّ صاحب النادي لا يرتاد النوادي، بل إنه حتى يحتقر زبائنه. وعليه أفكرُ في استحضار جذور شبيخت في ألمانيا الشرقية، أي ملابس عادية وغير مناسبة. وهذا خطأ فادح، لأنَّ ارتقاءه إلى مكانته العالية يوحي بأنه لن يتذكّر جذوره بحبّ غامر، بل قد يحتقرها. ملابس العمل اليومية – كلّا، لأنَّ هذا ما سيرتدي ممولوه، ويمكنه بسهوله أنْ يحتقرهم. ملابس سود لشخصية بارزة – ربما، على الرغم من أنَّ مثل هذا الرجل إما مُعتدٌّ بنفسه أو صاحب آليّة مُعوِّضة لقلّة احترام الذات، وفي كلا الحالتين يمكن أنْ يحتقر مظهره. إنَّ ملابس رجل العصابات تعِدُ بشيء، على الرغم من أنني يجب أنْ أتذكَّر أنني أعودُ طفلاً يعرفه أصلاً، لذلك فإنَّ أية محاولة للتهديد مُجهَضة منذ البداية.

أشعر بالإرهاق جرّاء ذلك.

تتقدَّم فترة الصباح إلى أنْ أُلغي الخيارات كلّها ما عدا واحد – خيار جامح لا أجد مُبرراً لصالحه، ناهيك عن ضده.

أخيراً أغادر المحلّ كـ*Die Sphinx* (كأبي الهول).

Die Sphinx يرتدي معطف *Miesbacher* بافاريّاً – قصيراً، رمادي اللون، بأزرار على شكل قرن الأيل – فوق قميص مزركش بأزهار أيدلفايس وجبال الألب. وووش من أجل شبيخت. إنه تطابُق مكشوف

مع عالمه المُضاء بأشعة ليزر، تعليق شعبي، إيماء، مفارقة، الإبحار بجوار النسيم من دون الإغارة على العبث، حدوده، في هذا المِثال، أرى أنها بنطلون من الجلد[66].

أنجح في تفادي قبعة الـ*Miesbacher* بزخرفتها بالريش إلى أنْ يشرح صاحب الدكان أنَّ القبعة في بافاريا هي رمز الرجل الحرّ. وبوصفي رجلاً حرّاً حقيقيّاً يجب أنْ أشتري القبعة، على الرغم من أنها تبقى في حقيبة الغسيل مع ملابسي القديمة - لأنَّ حريتي حرية سريّة.

أه، اتفاقيات الغياب. هذه التحرّكات تحثّ خطاي وأنا مُصاب بدوار وأتصبب عرقاً نحو بار في أعلى شارع مهرينغدام، حيث البيرة تُعيد بناء القوة. والغريب أنني لم أشعر بحاجة إلى خطّ من الكوكايين. بعد ذلك يتجه الطريق إلى تمبلهوف إلى الأعلى، ليس بانحدار شديد لكنه طويل، كالارتقاء إلى قلعة دراكولا. يبدو مستحيلاً تصوُّر مطار هنا في وسط البلدة، وحتماً ليس أمام أحد أعظم الأبنية في العالم؛ ولكن مع ازدياد انحدار الجادة، يتنامى في مساحة المبنى إحساس بغياب غريب، حيث الغيوم تدوِّم منخفضة ورمادية أكثر، والأبنية تنكمش متراجعة عن الطريق، والأعمال التي تقدم أنواع التسلية كافة تتلاشى، مُشكّلة مدناً ككروتزبرغ وتمبلهوف مع مقدار أقلّ من الكابوتشينو تفصل بينها مساحات قاحلة لا يجتمع فيها أناس فاتنون، ولا عربات أطفال، ولا عصافير.

أكاد أتوقّع وطاويط تحوّم.

على مسافة مبنى إلى الأمام لا أزال لا أرى أثراً لصرح، وأشعر برغبة متزايدة في الاتصال بسميتس. لقد جاء الصباح ورحل. التفادي يتسلل إلى روتين الاتصال، على الرغم من أفضل نواياي. لأنَّ الاتصالات وقعت ضحية الواقع البغيض. والهاتف الرأسي وقع ضحيته، ودقّة موقف سميتس يعني أنني لا أستخدم القوة كما ينبغي لجعله ينسجم مع الحقيقة

66- المقصود هنا بنطلون من الجلد المزركش يرتديه الرجال خاصة في النمسا وفي منطقة بافاريا في ألمانيا. - المترجم

الكئيبة. على سبيل المثال، سوف يغمرني السرور أنْ أتصل حاملاً أخباراً عن أيّ نوع من النوادي؛ في حين سوف يشعر سميتس بأنني تأخرت مع العقد. وخلفيتانا تُعللان جزئيّاً هذا - فهو رجل مرتبط بشبكات من العلاقات الدولية يتنقّل بينها كالقرد، شبكات من الممرات خلف مطابخ تُعدُّ فيها متطلبات العبقرية. إنه يفترض أنني سأوجِد الفُرص كما يفعل هو، سأنتزعه من ممرّ وأضعه في آخر عبر العالم.

في حين إنني بلا أية شبكات من العلاقات، أو متطلبات. أو عبقرية.

حسن: ذات يوم كان لديَّ ممرّ.

وافترقنا أيضاً بيانيّاً - انظر إليه: هو اضطر إلى العيش عالياً فوق العماء في طبقات الأمل والحلم العليا، بينما أنا هنا على الأرض، أواصل العمل على انتصارات صغيرة، صعبة الإنجاز. وضعنا بيننا خريطة للوجود كلّه. كلّ يوم من اليمبوس يُصبح فجأةً يوم عمل نموذجيّاً في الحياة.

أتوقفُ لأعدِّل من شأن قرون الأيل، وأدركُ أننا توصلنا حتى إلى رسم آلة السيد يمبوس: انظر كيف تستخدم آليّة الحلب فيه أحلام اليقظة لإغوائنا بالتخلُّص من قبضة الرعب. والآن يجب أنْ أمشي على خطاه. يجب أن أحلب شبيخت العابث. وبدل أنْ أُوائم بين سميتس والحقائق، يجب أن أرفع الواقع لكي يُلبي حاجاته. قد لا تتطلّب الموازنة بين الواقع والوهم أكثر من عرض ضخم واحد.

أُلملم شتات نفسي وأمشي الأمتار القليلة المتبقية من المنحدر لأصل أخيراً إلى منبسط الأرض، وأتوقف لا آتي بحركة.

أنفاسي تُبطئ، وتُصبح أعمق.

تصفعُ ناظريَّ كتلةُ المطار القديم عبر حديقةٍ تذكاريّة صغيرة. لا تتكشّف أمامي بأكملها، بل تعبث معي من فوق الأشجار. لا تُحيط به أرض شاسعة، ولا مساحة لتوقف السيارات؛ إنه ينهض بجانب الطريق كسلسلة فجائيّة من الجبال. أمشي مسافة مبنى في كلّ اتجاه مع تساؤلٍ

متزايد، أكافحُ لأكتسبَ الإحساس بكتلته. يُعانقُ نُصُب هتلر أرض مطار ضمن مساحة جناحين نصف دائريين على شكل قوس متناسق من ألواح الحجارة الرملية الشاهقة وشرائط زجاجية منهمرة تمتدّ حتى تغيب عن الأنظار من الجهتين، ويعلم الله أين تنتهي، ربما في بولندا، وفي كلّ الأحوال أبعد مما يمكن لإنسان عاقل أنْ يمشي ليكتشف. شيء نظيف، راسخ، متناسق؛ كتلة ضخمة مهيبة، جميلة، لا تُمسّ، وحتماً لا يمكن محوها من المشهد العام. ومن أسفل القوس، عند تقاطع تمبلهوفر دام وكولومبيا دام، يبرز باتجاهي بناءان مُربّعان بلون الرمل، وكلّ منهما بحجم مستشفى عام، كأنهما مخلباه؛ صغيران ضمن المنظومة الكليّة، لكنهما يضمان فيما بينهما مساحة لموقف السيارات ومدخلاً يجثم فوق الأبواب الرئيسة للـ*Zentral Flughafen* (المطار المركزي) الأسطوري.

ليلة أمس كان المحلّيون على خطأ؛ إنه يتّسع لآلاف النوادي.

من هنا لا أرى أيّ أثر لحركة حول البناءين، وكأنَّ قوة جاذبيتهما تنبذ أيّ شيء أصغر من كنيسة. وعندما أعبر موقف السيارات الصغير ألمح أخيراً رجلين يتسكعان عند المخرج. ملابسهما تُذكّر بعمال الشحن وزوارق السحب عجائز، منفوخة بأناقة، بسبب الجاذبية دون أدنى شك. راقباني مع النسرين الحجريين المتجهّمين البارزين من الجدران وأنا أرتقي الدرجات القليلة المتبقية وألج إلى الداخل. قعقع الباب الزجاجي ليوازن الضغط خلفي. ثم يسود السكون. يمتدّ بهو ضيق حجريّ إلى يساري ويميني، خالياً من أيّ نفس. أُلصِقَتْ نشرتان على الجدار (*مطلوب إرهابيّ*). وإلى الأمام تظهر قاعة بحجم كاتدرائية، ومساحة عملاقة تمتدّ إلى أسفل بضع درجات أخر، وثمة قوارب شراعية تتدلى من السقف. وإلى يسارها يجلس محلّيون مع كؤوس فارغة، وعلى طول جهة اليمين صف أنيق من طاولات الحجز، تبدو كنماذج مُصغَّرة من هنا، وكلها خالية إلّا واحدة، حيث تتراخى فتاة متكئة على مرفقها. ولولا الكأس المُقحَمة بين الأضلع الأنيقة، والضوء الذي يغمر المختليات من

الأعلى، لصلُح الملتقى أنْ يكون قبراً لشخص تخدمه كليوباترا وهي راكعة على رُكبتيها.

بعد برهة سُمِعَ صوت خافت كليك-كليك-كليك: تظهر امرأة عجوز من أعلى الدَّرَج مع كلب صغير مربوط بلجام، وكأنها في نزهة يوم أحد. الكلب يرتدي معطفاً أحمر، ويخبّ إلى جوارها.

تقول في أثناء مرورها: «*Tag* نهار».

أومئ برأسي: «*Guten Tag* نهارك سعيد».

على الطرف النائي من الملتقى ثمة جنتلمن ضخم يبكي، وعندما يعطس - ***كاف، كاف*** - يتردد صدى الصوت بارتخاء في الجوّ متجهاً نحوي. أقفُ منبهراً بتأثير المكان؛ وهذه فقط غرفة واحدة في المبنى الذي ينعطف لأكثر من كيلومتر إلى يساري ويميني. ثمة مسطبة من الكاتدرائيات في مبنى واحد خالٍ ويغمره السكون إلى درجة أنك تسمع خربشة مخالب كلب على الأرضية.

يتخذ شبيخت أبعاداً جديدة.

أرتعش.

بدل أنْ أمشي المسافة التي تفصلني عن الجنتلمن أو عن فتاة الحجز، أستدير لأسأل الرجلين في الخارج عن النادي. ثم في أثناء اجتيازي البهو ألمح إلى اليمين عدداً من طاولات البار الخالية. إنها تواجه نافذة كشك تبدو مفتوحة. مع اقترابي يتناهى إليَّ صوت امرأة رتيب:

«انظر إلى هذا القادم إذا أردتَ أنْ تضحك».

ثم صوت آخر: «بفف[67] - لودفيغ الصغير. ضائع من تيرول».

عند اقترابي من النافذة أرى أنها عربة صغيرة لبيع الوجبات السريعة، تقدِّم أشدّ أنواع الكعك واللفافات جفافاً وأقلّ الحلويات ألواناً. وعلى كلا جانبَي الشباك الضيق هناك حُجيرة من الزجاج لعرض المشروبات الغازية، والبيرة والتذكارات الدبقة المتجعدة.

67- لفظ ينمّ عن السخرية والاستخفاف.

ثمة امرأة تتكئ بكلّ ثقلها في الخلفية، معقودة الذراعين؛ شعرها أسود، في منتصف العمر الكئيب، وقسمات وجهها حفرتها الظروف السيئة والقدر المرير. وبعد لحظة تمرّ امرأة أصغر سنّاً، وأضأل حجماً إلى غرفة خلفية.

أسأل الآنسة: «*Entschuldigung* (عُذراً)، هل نادي بيغو قريب من هنا؟».

تتأملني من رأسي إلى أخمصي دون أنْ تحرِّك وجهها.

«قيل لي إنه ربما يكون هنا. أو شخص يُدعى السيد شبيخت – هل يعرفه أحد؟».

تنخر: «هانف، لو أننا نسجل اسم كلّ شخص معروف هنا فلن نصل إلى حرف الباء قبل عيد الميلاد. الأفضل: أنْ تنظر حولك وتُخبرني إنْ كنتَ ترى أيّ سيد حولك».

«في الواقع»- أتلفّت حولي في أرجاء البهو - «ليس في الوقت الحالي، كلّا».

«إذن».

«همم». بقرة بائسة. أتذكّر أنه يمكن أنْ يوجد في برلين قدْرٌ من المزاح الفظ، أنتظر هنيهات قليلة، ثم أُجرّب مساراً آخر: «هل لديكم قهوة؟».

تدير ظهرها لي.

«إذا لم تتوفر القهوة، يمكن أنْ أتناول –».

تقول مباشرة: «واحد؟».

«واحد ماذا؟».

«قهوة».

«آه – نعم، نعم. *Bitte* من فضلك».

«إذن عليك أنْ تطلبها من الخادم»، وتختفي داخل الغرفة الخلفية.

أرى منافض موزعة على الطاولات، فأجرّ كرسيّاً بلا ظهر وأُشعِل

سيجارة، لقد فتنتني وقاحة المرأة، ذات المستوى الفخم على غرار المبنى نفسه. أسمعُ ضحكاً مكبوتاً من الغرفة الخلفية، وبعد برهة تظهر الفتاة الأخرى، أيضاً شعرها أسود، ووجهها صارم.

«*Mit Milch ?* مع الحليب؟».

«كلّا، شكراً جزيلاً».

تسخر: «بفف».

الآن شيء مُرهف آخر في شخصي ينقر على الوتر الخطأ. أتبعها عابساً: «عفواً – هل قلتُ شيئاً مُسيئاً؟».

«أنا لم أُقدم لك أيّ شيء بعد».

«ماذا؟».

«لم أقدِّم لك شيئاً وتشكرني. هل هكذا تتصرفون في النمسا؟».

«أنا إنكليزي». أنتقل إلى النضد.

«يورو وأربعين».

هنا أشعر بالغيظ من المرأتين، اللتين لا بُدَّ أنهما معتوهتان، أضع القطع النقدية بقوة وأحمل القهوة إلى الطاولة. وبعد قليل تظهر المرأة الأكبر سنّاً من أحد الأبواب على الجدار، تقعقع مارة من أمامي نحو المخرج. من خلال النافذة أتابع رأسها يظهر ويختفي وهي تهبط الدَّرَج في الخارج. عندما أنظر من جديد إلى عربة بيع الأطعمة أرى أنَّ الفتاة تراقبني. تُخفض بصرها وتُدير مفتاح راديو ترانزيستور صغير. يتردد صدى الموسيقى منبعثاً من موجة البثّ التي لا تشيخ ولا يعثر عليها إلّا السائقون الأكبر سنّاً.

بعد أنْ تجلس بضع لحظات بأناقة خلف الزجاج، ترفع بصرها أخيراً: «ما صِلتك بالهر شبيخت؟».

أجرع قهوتي: «أتعرفينه؟ أنا صديق قديم».

«صديق؟» تتفحّصني. «لا أعتقد».

«اسمعي، هل يمكنك فقط أنْ تُخبريني -».

«أنا لم أره أبداً. لعله لن يأتي إلّا بعد الرابعة».

«الرابعة؟ بعد ظهيرة هذا اليوم؟».

«بفف - هل قلتُ شيئاً آخر؟».

وبسرعة. تختفي في الخلفية.

عكس كلّ منطق يُرسلني الخبرُ إلى المرحاض لأستنشق خطّاً. أصرّ على أسناني بتوتّر إيجابي قبل أنْ أتوجّه إلى حجيرة هاتف في الشارع. بما أنَّ الوقت مبكر جدّاً على إرسال تقرير مفصّل عن الوضع إلى سميتس، أحرص على سريّة الأمور، ومع ذلك لا أزال متحمساً لأعلِمه بما اكتشفت عن صاحبنا.

أجاب ضابط آخر على الهاتف في طوكيو. ثم تناهى صوت رتيب بلا حياة:

«الوقت متأخّر، يا عاهر».

«سميتس - لقد عثرتُ عليه».

«نعم، اسمع، لقد عادت اختبارات السمك، أه. كمية السم لا تستحق الذِّكر. يقولون إنني لا بُدَّ أمضيتُ أسابيع طويلة في استخلاص السم من الأحشاء لأحصل على ما يكفي لتسبيب الأذى للرجل».

«إه؟ أكان ذلك السمك مُميتاً. لقد تذوّقناه بأنفسنا».

«ولكن ليس تلك التي استبدلها تومو. أترى إلى أين قادتنا الأمور؟ يقولون إنَّ الأمر مُتعمَّد. لقد كان المحامي حاضراً هنا طوال النهار. وفي صباح هذا اليوم كان يُعدّني بهدوء لتلقّي حكم بالاعتداء. والآن هو يتحدث عن محاولة اغتيال ويطلب قيمة أتعابه».

«ولكن انتظر - أنا كنتُ شاهداً على عملية التبديل».

«وأعتقد أنَّ لديك سمكة تبرهن بها على ذلك. من دون السمكة الأصلية لا فائدة من كلامك، إننا اثنان من السياح السكارى في مواجهة

مؤسسة محلّية. لن تُصدّق التحركات التي تجري هنا الآن. فجأة أصبح تومو في أوكيناوا ولا يمكن الوصول إليه، والرئيس سوف يُسمّي المطعم باسم المُحافِظ، والباسكيّ غيَّر اسم تجارته في اليابان. إنها لعبة شطرنج ضخمة لعينة تجري هنا».

«ولكن يا سميتس –».

«الباسكيّ يتشاور هاتفيّاً مع الرئيس، وبعد ذلك سوف يتصل بي. وهل تعلم ماذا اكتشفت، وأنتَ هناك، أيها العاهر، أيها المملوء بالكوكا لأنني أسمعك وأنت تمتصها في حنجرتك؟ اكتشفت ما يلي: إنه يُفكّر فيمَنْ سيضحِّي. إنه يتكلّم معنا نحن الاثنين، ومن ثم إما أنْ يدعمني ويترك يوشيدا في الورطة. أو يذهب مع يوشيدا ويُضحّي بي. وهل تعلم؟ إنَّ يوشيدا يشتري منه في كلّ أسبوع مئة غطاء لمُنتَج. وأنا لا أشتري واحداً».

«ولكن انتظر – مَنْ يقول إنه لن يمولك هنا؟ لقد عثرتُ على المكان، وعلى الرجل. قد ينتهي الأمر بعرضٍ أفضل من اليابان. اسمع، في غضون بضع ساعات سأكون –».

«استيقظ! لقد قلتُ توّاً إنَّ الأمر يحدث الآن! ولا أحد يبتعد عن الطريق! يا عاهر! العاهرات يركضن!».

ترتعش يداي. يتسلل الخدر إليهما وإلى أنفي وقلبي مع برودة تنبعث من الداخل. إنها سِمة مُميِّزة تنبجس من السيد يمبوس. بعد برهة أشعر بآمال محروسة جيداً تندفع من حنجرتي:

«سميتس – إنَّ طول المكان يتجاوز الكيلومتر».

«أه؟»، بقية الجملة تلاشت حتى أضحت طقطقة. «كفاك – أنت ذهبت إلى أحد المطارات خطأً».

«إنه مطار. مطار هتلر من حقبة الثلاثينيات. ذات مرة كان أكبر مبنى في العالم. أضخم مبنى ستراه عيناك. هو خالٍ فعليّاً. يتجاوز ثلاثة ملايين متر مربّع في قلب برلين. الطائرات تصل فيه حتى الباب».

تبع ذلك صمت لم يكسره في ذهني إلّا صوت سقوط كرات.

أضيف: «أنت أردتَ شيئاً ضخماً»، وبينما أقول الكلمات يتردد صداها داخلي كالألعاب النارية - لأنَّ كلّ ما قلت حتى الآن صحيح في أساسه، وكله يصفُ موقعاً أشدّ روعة من أيّ موقع منذ سقوط روما.

هنا، يا صديقي، موقع مَوتي».

أخيراً يهمس سميتس: «اللعنة. أخبرني من جديد، وسوف أدوّن كلامك من أجل ديدي». ويُكرر كلّ تفصيل همساً، ويُدوّن باجتهاد حتى إنني في الحقيقة أسمع صرير قلم الرصاص على الورق: «الطول كيلو متر، ألف نادٍ، منطقة الـ - لا أستطيع أنْ أهجّئ هذه الكلمة، لا أستطيع أنْ أهجئ هذه الكلمة - جسر برلين الجويّ، ملايين الأمتار، طائرة نفّاثة عند الباب».

مع كلّ أمل مُدوَّن أشعر بأنَّ السيد يمبوس يرمي سِحراً على كلينا، على سميتس لخلاصه وعليَّ من أجل موتي.

يقول: «يا صاحبي، يبدو الأمر رائعاً على الورق. غابرييل، أيها العاهر، هل أنت واثق من هذا كلّه؟ فكِّر في الأمر بلغة تقديم الطعام - كم طاولة تتسع لها مساحة كيلومتر؟ يا يسوع المسيح. سوف يقتل الباسكيّ نفسه. اسمع، سوف أترك الهاتف، حان وقت اتّصاله. ولكن أعطني أولاً الرقم الذي تتصل منه، وسوف أعتبرك صِلة وصل. اتصل بي من جديد لاحقاً إه؟ ويا عاهر - شكراً لك، حقّاً».

أسمعه يُصفِّر بنعومة مع اختفاء الاتصال. ثم أقفُ بعض الوقت وسمّاعة الهاتف مُلتصقة بأذني، متردداً تحت سماءٍ من الصوّان، أزعج نفسي بإلقاء نظرات سريعة على المبنى الماثل على مسافة مني بين الأشجار.

يبدو أنَّ قمة هذه المحاولة هي طرفها المُدبب. نهاية اللعبة.

إنَّ اللحظة تستدعي إشعال العديد من السجائر واحدة من الأخرى.

لأنني يجب أنْ أستحضر حشوداً غفيرة من قِوى الهالة النورانية.

يجب أنْ أستنزف الفاسق شبيخت.

وووش بسرعة.

همم.

-14-

كوكايين، وتبغ وضوء النهار هو مزيج بسيط، ثلاثة من أشياء قليلة بسيطة في الطبيعة[68]، ومعروف عنها أنها تُعيد ترتيب الأولويات بطريقة واقعية.

أولاً، إنَّ ملابسي ليست مناسِبة. ومظهري سوف يجعل شبيخت يأمل في أنْ يكون المصرف لا يزال يفتح أبوابه، لا أنْ يتساءل كيف تؤدي كلمات الأغنية إلى أغنية *(إيدلفايس)*. أسرعُ عائداً على طول جادة مهرينغدام إلى محلّ بيع الملابس، حيث أعثر على بذلة عتيقة الطراز، سوداء تجعلني أبدو أكبر سنّاً؛ وكَلمسة ازدهار منحط أُضيفُ معطف فرو زائف رمادي اللون، ويعمل أيضاً عمل ضربة تُسدَّد لعالم المادة. وبما أنني بهذا أنأى بنفسي عن الرعب أروح أجوب شوارع كروتزبرغ حتى الساعة الرابعة، وأنطلق في شارع يوركشتراسه مع حقيبة الغسيل المنتفخة. أفكر في الأكل، وفي الواقع أدخل ثلاثة أماكن لكي آكل؛ لكنني في النهاية لا أتناول إلّا القهوة وأشم خطوطاً من الكوكايين، محاولاً أنْ أستعد للحظة القاتلة. إنني أحاول أنْ أكون عبقريّاً من الطراز الأول، مِشعل لحام للتصميم العاقل؛ والغريب في الأمر، أنني على الرغم من الارتعاش وصرير الأسنان المرافق له، سرعان ما أكتسب فِطنة متقلبة وأجد نفسي أُصدِر القرارات بسهولة.

68- قد تكون لديك حجّة ضد هذا، ولكن كلّا. النمر يُغري بالعناق وسوف يقتلك. والحيّة خُلِقَتْ لكي تكون مُستترة إلى أنْ تضرب ضربتها. هذه هي الطبيعة. - المؤلّف

الأول يصدر في شارع يوركشتراسه، لدى اجتيازي محلّ بيع فيديو لا تحتلُّ واجهته أشرطة فيديو بل يحتلّها كلب لابرادور ذهبي يأخذ غفوة على كيس من القماش مملوء بالفول. لا يمكن أنْ تكون سفارة للسيد غياب. يبدو الكلب غائباً عن حسابات الربح والخسارة. أُقرر أنْ أفتش عن أماكن للسكنى أشد هدوءاً أتجول بينها، حيث يمكن أنْ تكون الروح الرأسمالية أقلّ تعرُّضاً للازدراء الوحشي.

في الوقت المناسب أنحدر عند المنعطف التالي لأجد نفسي في شارع غروسبيرنشتراسه، شارع جميل تخرج فيه القرارات غزيرة كسقوط الأوراق اليابسة على حافة رصيف. هنا أقرر أنْ أستبعد فكرة أحمق الواقع، لأنه على أرض الواقع لدينا مكان طوله كيلومتر. ولدينا الفاسق شبيخت. لذلك الأمور برّاقة. في أسوأ الأحوال سوف أسامح والدي على دوره في إقامة شهر اختبار لولائم ذات مستوى منحطّ، جدير بسميتس أنْ يتفحّصها. يمكن لديدييه الباسكيّ أنْ يزودهم بمؤنتها، وأنا أُعنى بأمر الدعاية وبواجهة المحلّ. ولا يمكن لشبيخت أنْ يرفض. بالنسبة إليه إنها ضربة حظّ، وسوف يكون توفير الزبائن أمر سهل كتوزيع المنشورات على الزبائن الدائمين لدى مغادرتهم النادي في آخر الليل. ويمكن إضافة بعض المُغريات إلى لوائح الطعام، فتيات في غرفة المعاطف وما شابه. حفلات تنكرية، وأطباق ذيل الكركند، ومسابقات ميشلان.

أتوقف حالما تظهر الحقيقة فجأة: لقد تحقّقت أمنياتي.

إنَّ أول ولائمي ستكون وداعي.

وووش بسرعة - دفقات الحماس. أترى كيف يسمو مخروطهم عالياً إلى نقطة في مدينة طفولتي الحرة، منزل البراءة الأخيرة. يا لها من نهاية للعبة. ويا لها من نبرة عالية أغادر على إيقاعها، وأنا أرى سميتس وشبيخت يباشران مغامرة جديدة كبرى.

انظر إلى كلّ ذلك التناسق.

إنَّ غروسبيرنشتراسه هو شارع يطرقه المرء في كلّ يوم، وبعض أبنيته

التي يعود تاريخ بنائها إلى أواخر القرن التاسع عشر لم يُجدَّد. على أحدها تقام السقالات، وبعده بقليل يوجد بار: بار بايرتنبرغ. ثمة لافتة في الواجهة تقول: «يُسمح بالتدخين»، وفي الحال ألجه، وفي الداخل يصبُّ لي برلينيّ غربيّ دمث كأساً من البراندي والقهوة ويُشعِل لي سيجارة عبر البار. إلى جواري يجلس زوجٌ من العجائز المحلّيين مُنحنيين، وبعد أنْ أومئ لهما برأسي أعود إلى تركيز ذهني الشديد الذكاء على مسألة وليمة الوداع.

والآن، حسن: فلنتّفق على أنَّ حياتي التي صنعتها بيدي بائسة. إنها كئيبة، مُثيرة للسخرية ولا يمكن الاحتفاء بها. حياة مُبدَّدة. ومع ذلك، وها هنا الجزء المُحيِّر من رسالتي إليك عبر هذه الأيام الغريبة، هذه الصفحات الجديّة، والنقطة الأساسية من ضياعي نفسه:

كانت في داخلي طاقات مكبوتة.

لأنَّ احترام الذات الثابت لا ينبع مما نعمل، بل مما **نشعر *بأنَّ في استطاعتنا أنْ نعمل***. إنَّ هذه الطاقة المحفوظة، هذه القِوى المُستترة هي التي سأشرب نخب وداعها. قِوى في داخلنا تشبه الغازات التي تتألّف منها الشمس، التي نشعر باحتراقها بين حين وآخر، ونرى أحياناً حوافّها المثالية والهمجية تلهو في هالة نورانيّة؛ وكان يمكن لإطلاق العنان لبيعها بالجملة أنْ يقودنا إلى أيّ مكان ما عدا إلى المكان الذي نحن فيه.

قِوى تُدعى بفتور كامن عندما يموت الطفل.

قِوى هي الجزء الوحيد مني الذي سأشتاق إليه.

ذلك أنه، انظر إليه، يا صديقي: إنَّ كلّ ما سُمّيَ بحبّ الحياة، هو حبّ الأمور التي لن تحدث.

حبّ الأحلام.

وهكذا سوف أشرب نخب القِوى المحفوظة في كلينا. سوف أشرب نخب ذرف دمعة على كلّ ما لم نكُن. ولهذا السبب، وليس من أجل مجرد فيض الحيوية، ينبغي لحفل عشاء وداعنا أنْ يكون رائعاً كأيّ شيء

منذ سقوط روما. إنها وليمة تريمالاخيو[69]. ليلة من ***ساتايركون***. حالة من اليمبوس تعمّ كلّ كبح، قمعٌ من الهالة النورانية عالٍ وصافٍ إلى درجة أنّه يمتصّ النجوم. وهناك، نحن الرفاق المُقرَّبون، سوف نعيش. هنالك سوف نرتفع ونُشرق، متحررون للمرة الأولى من قفصنا، على شرف كلّ ما لم نكن.

ولكن يمكن أنْ نكون.

أكبحُ دمعة. الساعة تقترب من الرابعة. على الرغم من أنَّ المُضيف لا ينظر ناحيتي، إلّا أنَّ شيئاً ما يدفعه إلى الاقتراب مني ليسألني إنْ كنتُ أريد المزيد من البراندي. أطلب كأساً سريعة من البراندي وأجد أنَّ له تأثير الباراشوت، يُلطِّف سقوطي إلى حالة التماسُك. ثم، ربما لإحساسي بأنني لم آتِ من مكانٍ معيَّن، وقد لا أتوجّه إلى أيّ مكان قريب، يعيد الرجل إلى ذهني ذكرى حقيبة الغسيل التي أحملها في أثناء تجوالي. أشكره، وأُخرِجُ زجاجة من **سيمفوني** وأضعها في جيبي.

أشرح: «من أجل صديق».

يقول: «صديق محظوظ».

في الخارج تُنير شمس بعد الظهيرة البلدة، وأمشي حتى آخر الشارع حيث ينهمر مسقط للمياه أسفل تل في متنزه يُشبه ما يرِد في كتاب للحكايات. حيث مجتمع باهت يظهر على شكل نقاط تملأ المسافات بين الأشجار، يُسقسق ويُصفّق عازفاً تلك الموسيقى التصويرية النائية التي تميِّز المتنزهات جميعاً، حيث كلاب هجينة مزيّنة بمناديل مزركشة تقابل كلاب الشقق تحاول جاهدة أنْ تهرب من سيدات يلهثن، وشاب

69- تريمالاخيو: هو بطل القصة المذكورة «**ساتايركون**» التي ألَّفها بترونيوس في القرن الأول الميلادي، وفيه يصف بترونيوس حياة المجون والانحلال التي كانت تعيشها روما خلال فترة انحطاطها وسقوطها، وذلك من خلال وليمة يُقيمها تريمالاخيو. والرواية ليست كاملة، والمتوفر منها فقط مقاطع من الكتاب الأصلي. - المترجم

هيبي وحيد مع طبل بانغو[70] يشرح للعالم لماذا هو وحيد. وعلى قمة التل ينهض نصبٌ تذكاريّ يُشبه برج كنيسة، فأرتقي إليه، غير راغب في مقابلة شبيخت في وقت مبكّر جدّاً يبدو عليَّ الحماس الشديد. وفي أثناء الارتقاء أتساءل لماذا أصبِحُ فجأة مُترعاً بالمشاعر المُغذّية، مُترعاً، ربما، بالحياة. إنَّ لديَّ كلّ سبب لأغضب، وأمامي مهامّ حاسمة ينبغي أداؤها، ولكن بدل ذلك أتجول أمامها تائهاً، أعلم أنها لا تستطيع أنْ تؤذيني بعد. نعم – إنها أرض اليمبوس تمتدّ أمامها. أقفُ لحظة أمامها.

ما أحلى الحياة لو أنَّ لحظاتها كلّها مثل هذه اللحظة.

أعزو ذلك كلّه إلى البراندي وأشعة الشمس، وأتجول بين مهرينغدام وبرغمانشتراسه، حيث تنزف برلين، التي يخترقها التاريخ بصورة اعتيادية، بالآثار القديمة من طوابق تحت أرضيّة معيَّنة كنزف الدم من ثقوبٍ في لحمها. قرونٌ من الأثاث، والسجاد، والفرو، والثريات، وتماثيل البرونز، والصينيّ، والكتب، والموسيقى والمجوهرات تتدفق على طول الشارع من الأبواب، سوق دائمة للسلع الرخيصة ترميني وسط دوامة من الاحتمالات من أجل الوليمة. يبدو السير إلى تمبلهوف، وأنا أتلذَّذ بهذه الأشياء، أسرع مما كان هذا الصباح، والحيّ أكثر ألفة ووداً، ومترعاً بالإمكانات الجديدة.

أُغرِقُ نفسي بعطر جيكيٍ عندما يلوح المطار من بعيد، وأُقرر ألّا أفتش عن نادي بيغو وحدي، لأنَّ التسكّع في كيلومتر من المساحة الشاسعة الخالية قد يبدو مُريباً. بدل ذلك سوف أشرب بعض القهوة مع السيدة ذات القسمات القاسية أو مع الفتاة، وربما إذا تلطّفت إحداهما، كما قد يفعل أهالي برلين فجأة، يمكنهما أنْ تدلاني على الموقع.

عندما أصل تكون السيدة موجودة هناك تتفحَّصُ أظافر يديها. ثمة زبون جالسٌ يقرأ صحيفة، والراديو يقعقع بتقارير الحالة الجوية على ساحل البلطيق.

70- طبل بانغو: طبل على شكل دلو يُنقر عليه بالأصابع. - المترجم

أسأل عند النضد: «*Ein Kaffe, bitte* واحد قهوة، من فضلك».

ترفع السيدة بصرها ببطء، مُثبّتة نظرتها على بذلتي. مع أيّ شخص آخر كان ذلك سيُرافَق بتعليق، ورفع الحاجبين. أما هي فتتوقف وتُحدِّق. إنه بمثابة تقريع مُرهف. إنني أصلاً أنفرُ من السيدة صاحبة القسمات القاسية.

أخيراً تمشي بارتخاء نحو آلة صنع القهوة: «*Mit Milch ?* مع الحليب؟».

«*Nein, Danke* كلّا، شكراً».

أحتلّ طاولة خالية وأشعر بهزّة مفاجئة في أعصابي. لقد وصلتِ المهمة إلى نهايتها. *Milch Specht*. يسعدني أنْ أتوقف بضع لحظات، لكي أتماسك قبل القتل. حتى السيدة الساخرة لا تشكّل إلّا ارتياحاً ضئيلاً، نوعاً من مخيَّم قاعدة إنسانية قبل ارتقائي إلى غيرد شبيخت. أدخن سيجارة وأفرح لعلمي أنني لستُ مفضّلاً لديها، ويجعلها اقتراب أحد السكان المحلّيين منها تنخر وتختفي لدى رؤيتها له. أشعر بالأسف للرجل، وهو رجل ريفي، يبدو رثّاً قليلاً من النوع الذي يشعر بتآلف أكثر مع ضوء شمعة، وهو يحفر دُمى.

يلتفت لكي يُفرقع بلسانه لي. فأردّ عليه بالمثل تعاطفاً. نحن الآن في نادٍ، يضم ضحايا السيدة الساخرة. ومع ذلك، ينتظر بصبر عند النافذة، وهو في أواخر أواسط عمره، ومتقاعد، وكأنَّ عربة بيع الأطعمة بحدّ ذاتها استنزفت شبابه.

غامرت بالقول: «إنْ كنتَ محظوظاً فهناك فتاة أخرى في الداخل».

يقول: «آمل ذلك، وإلّا فسوف نُضطر نحن أيضاً أنْ نذهب إلى المنزل».

تمرّ لحظة، وأفكر في الأشياء التي تستنزف الحياة، المُجسَّدة هنا في هذا الرجل ذي السترة الصوفية بلون الخردل والوجه الطويل، والأذنين

الغريبتين والشارب الشبيه بفرشاة الكشط. طبقات الجلد التي تُظلل عينيه كأنها تزداد وزناً مع كلّ دقيقة تمرّ، إلى أنْ تظهر السيدة من جديد، وتمدّ يدها عبر النضد بمغلّف. تفعل هذا وتقبض على معطفها وتغادر عربة الطعام، تُقعقع أثناء مرورها وسط دوامة من العطر.

وهكذا تحين لحظتي. عندما ألاحظ أنها لم ترقّ، وقبل أنْ يبتعد زميلي في النادي، أُنهي شرب قهوتي وألتفت إليه كي يدلني على وجهتي:

«عُذراً - هل يتصادف أنك تعلم شيئاً عن نادي بيغو؟».

يَجْفُل. «هه؟ *ماذا؟*».

«بيـ - غو. نادي بيغو».

يتجمد الرجل، مائلاً ومُدققاً النظر إلى وجهي: «مَنْ هذا؟ *Mein Gott!* (يا إلهي!) - لا يمكن أنْ يكون غابرييل الصغير؟».

ووُوش بسرعة. أتجمّد في مكاني.«هر شبيخت؟».

تلوِّح يداه كممثل كوميدي. «آنّا! آنّا!»، ينادي. «أهذا هو الذي جاء هذا الصباح؟ كيف تقولين إنه يبدو نمساويّاً؟ أحضري قهوة!».

تظهر الفتاة عند النضد. أعاني وأنا أغيب داخل العدم، داخل الاضطراب، بينما شبيخت يُمسك بذراعي ويُجلسني من جديد إلى الطاولة، ويجلس قبالتي.

يُفلت من حنجرته أنين واهن وقصير: «هاا. *Kleiner Dicher* - شاعر صغير! أتذكُر؟ وماذا كان اسم ذلك الجرذ؟».

سمعتُ صوتاً يقول: «فريدريك، الفأر».

«فريدريك، فريدريك. هاا! وماذا تفعل في برلين؟ كم ستمكث؟».

«هامم. ليس طويلاً، أعتقد».

«*Mein Gott*. كلّ تلك السنين. لا بُدَّ أنك -».

«في الخامسة والعشرين».

«الخامسة والعشرين. هاا. *Mein Gott*. وما زلت تفهم الألمانية!».

وهكذا مع إيماءات وأنين، تتحرك أسنان شبيخت الطويلة، والصفر، والنخرة إلى أنْ تصل أول فترة صمت حرجة: ذلك الانكماش في إعادة التعارُف، عندما يُصبح جليّاً بعد دقيقة أنَّ كلّ شيء قد قيل.

أعبث بفنجاني، أُهدهد في ذهني بعض الأمل. ما زال قُطباً – انظر إلى شبيه وارن بوفت[71]، إنه إنسان عادي على الرغم من بلايينه. ربما ما زال هناك نادٍ، لعله سلَّمه للجيل التالي من الفاسقين، ربما إلى ابن له، أو مهما يكن. سيكون ذلك متناغماً مع برلين، ومع التواضع، ومع جذوره الشرقية. ربما ما زال يعيش حالة ولاء لمَنْ بقوا على قيد الحياة، حالة خَرَف مألوفة بعد حياته الفاسقة الجامحة.

ولكن بعد ذلك: هبّت من جهة غيرد شبيخت نفحة غسيل لم يكتمل غسله.

يومئ برأسه نحو الخارج من خلال النافذة: «أترى التغييرات التي طرأتْ. إنَّ كلّ شيء نظيف وتجاريّ. لكنَّ برلين ما زالت بائسة. (بائسة لكنها مُثيرة)، كما يقول عمدتنا، *هاا*. طبعاً لا شيء بقيَ كما كان قبل إعادة الاتحاد. لقد كان ذلك إنجازاً عظيماً، أعتقد أنك لا تتذكّر. أتصدِّق أنَّ والدكَ كان أول غربيّ تحدثتُ معه؟ وبعد ذلك بأسبوع أصبح بيننا عمل. هكذا بدأ الأمر. طبعاً كان في حاجة إلى شخص من السكان المحلّيين من أجل التوقيع على الأوراق القانونية في تلك الأيام».

يميل غيرد إلى الخلف بينما الفتاة تقدِّم القهوة. ولما عثر على موضوع يمحو به الصمت المُحرِج، أخذ يُثرثر بتلك الحيوية الكئيبة التي يتصف بها في الغالب العجائز الذين يستغرقون مع أنفسهم في الذكريات.

71– وارن بوفت (ولد عام 1930): قطب من أقطاب رجال الأعمال، ومُستثمر، ومُحبّ لأعمال الخير. أميركي. يُعتبر أشهر المُستثمرين في القرن العشرين. في 2008 كان أشد الأثرياء ثراء في العالم. بعد ذلك أصبح في المرتبة الثانية. تعهّد بتكريس 99٪ من ثروته للأعمال الخيرية. – المترجم

يتجهم. «باه، حسن، عندما انهار الجدار، لم يكن الجميع يتوقعون أنْ يتمّ إنقاذهم. في الحقيقة لقد أُهنَّا تماماً. لقد آمنا بفكرة جمهورية ألمانيا الديموقراطية. وما زال الكثيرون يفعلون. طبعاً، كانت، كأية حكومة، تعاني من مشاكل. إنَّ الشيوعية تطمح إلى تحقيق مجتمع، أكثر بكثير مما تفعل الرأسمالية، ولا يوجد نظام سريع لإنجاز ذلك. ولكن لا تصدِّق كلّ ما تسمع عن قصص حول هيمنة البوليس السري، لم يكن الأمر سيئاً جدّاً. لقد آمنا بدولتنا، وكنا مجتمعين معاً على ذلك. كان في إمكانك الحصول على مئة صنف من الجبن عبر الجدار، في حين لم يكن في إمكاننا الحصول إلّا على ثلاثة - ولكن لم يكن في استطاعتنا أنْ نحصل عليها إلّا ونحن معاً، هذا هو الأمر الرئيس. وهذا ما لم يفهمه أهل القسم الغربي. لقد عاملونا وكأننا لاجئون، وهذا ليس صحيحاً. لقد أثبتَ انهيار الجدار لنا أنهم بالضبط كما اعتقدناهم - فرديون وعِدائيون. بالنسبة إليهم كان الأمر مجرد فرصة سانحة لممارسة التعالي ولنشر الرأسمالية العالمية. أما الآن فانظر. لم تكن إعادة التوحيد بالأمر الجيد بالنسبة إلينا. ولا تظن أنَّ الألمان الشرقيين اندفعوا إلى الوظائف وإلى التسوّق. وحتى اليوم نحن نتصرَّف بأسلوبين مختلفين.

«حتى اليوم؟ لم ألاحظ ذلك».

«لا توجد *وظائف*، كان الألمان الشرقيون في الغالب هم الذين يبقون عاطلين عن العمل».

يُثير الموضوع في غيرد رواسب من الماضي. يتوقف لكي يستمتع بها مع التلمُّظ بشفتيه، ثم يصفع الطاولة بيديه السميكتين. «إذن - كيف استطعتَ العثور عليَّ؟ عندما ذكرت اسم بيغو كدتُ أقع!».

في بعض الكوابيس تأتي لحظة يُصبح من الأفضل عندها أنْ تعثر على النهاية وتجعلها تقتلك. واللحظة الراهنة هي مثلها. آخذ نفساً وأقول جُملتي الوحيدة: «حسن - لقد قال والدي إنه خلَّفَ وراءه عملاً لم يُنجَز».

ظلّت الكلمات عالقة بيننا.

بعد فترة صمت وجيزة، يومئ غيرد برأسه موافقاً. «هكذا إذن، وهذا صحيح. لم يخطر في بالي أبداً أنني سأراك من جديد. لكنَّ وقتاً طويلاً قد مرّ، وهذا كلامٌ قديم. أخبر والدك أنْ يحتفظ بنقوده، لا أستطيع أنْ آخذها الآن. باه».

أنظر في فنجاني الفارغ.

«مع ذلك أعترف بأنّه تركني في وضع سيئ. وما أخذه لم يكن ربحاً، كان مبلغاً مُشغَّلاً أخذه من إيراد العمل. وبعد مرور أسبوع أصبح الوضع ميئوساً منه. لم يقُل إلى أين ذهب. كان النادي مُسجلاً باسمي، ولكن لم يكن في حوزتي مال أُسدد به ما للممولين. واضطررتُ إلى إغلاق أبواب النادي. وبعد ذلك لم أتمكن من افتتاح أيّ شيء في بريتزلاور برغ أو مِتْ، لم يقبل أحد التعاون معي. وعندما تزوجت، ساعدنا والد جيزيل من جديد في البداية، وسجلنا العمل التالي باسمها».

«إنني آسف حقّاً. لم أكن أعلم ذلك».

«آه، لا عليك. لا صِلة لك بالأمر. ما كنتُ لأذكر القصة لو لم تُثرها أنت نفسك. مغامرون شبان من زمن غابر».

«حسن»- تلفّتُّ حولي - «لقد عثرتَ على موقع رائع للنادي».

«*ها* -» تلوَّى أنينه خارجاً بعيداً عن مرمى السمع. «أعني العمل الصغير التالي». بينما يقول هذا، تتقابل عيناه مع عينَي الفتاة في شباك عربة بيع الأطعمة، وهي تحمل لفافة.

يسألها: «كم اليوم؟».

تقول «اثنان».

«إذن اتركي الباقي هنا، لا بأس بها. كانت أمي تأكلها بعد مرور أسبوع، لذلك لا بأس بأربعة أيام. وكم عدد الـ *Wurstchen* (سجق صغير)؟».

«ثلاثة - وواحد إضافي من أجل غونار».

«هه؟ ولكن ألم تُعطِه سجق الـ *Bockwurst*؟ لقد اضطررنا إلى الحصول عليه من محلّ كايزر، أتذكرين، كان الواحد منها بستين سنتاً».

تقول الفتاة: «لا شيء آخر».

«كلّا، نعم ثمة شيء آخر، هناك سجق فيينا على الصينية، انظري من جديد. وكأنكِ، يا آنّا، تتخلين عن ستين سنتاً! في المرة التالية سيحصل على سجق فيينا. أبعدي سجق الـصغير عن وجهه عندما ترينه يقترب منك». يتجهّم غيرد قبل أنْ يلتفت نحوي: «آسف - هذه هي آنّا، التي تساعدنا قبل أنْ تبدأ عطلتها - أين ستقضينها يا آنّا؟ في أميركا؟ أم إنّ الأمر يتعلق بالأدب؟».

«بف»، تبتسم الفتاة بلا استمتاع. «إلى جزر غالاباغوس، في رحلة استكشاف بيئية. لكي أشاهد السلاحف العملاقة، لقد أخبرتك بهذا عشر مرات. ألا تذكر الفيديو، عن جورج المتوحد؟ هل بدا لك أشبه بشخصية أدبية؟».

«آه نعم، السلحفاة الشهيرة»، يومئ برأسه، مُلتفتاً نحوي، «إذن هذه آنّا، وها نحن هنا. لم يعُد للنادي وجود. الآن لدينا عربة مقهانا الصغيرة. حسن، أعني في الواقع عربة بيع الأطعمة. ولكن قريباً سوف يُغلق المطار أبوابه. وسوف نُضطر إلى البحث عن مكان آخر. جيزيل تريد محلّ بيع زهور. ولعلّي أنا أيضاً أرغب في ذلك. الأزهار بدل القهوة - ***ها!***».

أُحدِّق كالمُخدَّر إلى عربة الأطعمة.

يقول على الفور: «هذه جيزيل، زوجتي - التي كانت هنا من قبل».

أومئ برأسي: «آه، أحقّاً؟ أنا آسف إنْ كنتُ تصرفت بفظاظة».

«آه، هي أيضاً تكون كذلك أحياناً».

«يبدو مؤسفاً إغلاق المطار».

«نعم، أليس كذلك؟ عندما وصلنا كان هناك الكثير من الآمال تنتظر بلدة تمبلهوف. كانت الأعمال الخَدَمية تزدهر. وظلت كذلك على مدى

سنين – هل شاهدتَ أفلام بيلي وايلدر[72] القديمة؟ تلك كانت تمبلهوف أيام زمان. باه، أما الآن فيكلّف البلدة تسعة ملايين في العام فقط لتُحافظ على بقاء حركة العمران. لم تكن العملية مُربحة. ثم إنَّ حزب الخضر لا يريد ذلك. أجرينا تصويتاً في برلين، حتى أنخيلا ميركل أرادت الحفاظ على تلك الحركة – لكنَّ عدد المُقترعين كان قليلاً. لهذا سيُغلق أبوابه الآن. *Kapput* انتهى».

أومئ برأسي ناحية كوبي، متصيداً الكلمات لأردم الفجوة التي خلّفها تثبيت الحظّ.

«نعم، هو كذلك»، يربّت غيرد بأصابعه، «تمبلهوف. عربة بيع الأطعمة. غيرد شبيخت. إذا رغب والدك في زيارتنا، يستطيع ذلك. فلننسَ الماضي. ماذا يفعل هذه الأيام؟».

«همم. سؤال وجيه. هو أيضاً كان لديه مقهى ذات يوم، لكنه لم يدُم».

«هراء، طعام. هل أخبرك أننا جرّبنا هذا في النادي؟ بعد مضيّ أسبوع كدنا نجنّ. تغطّت الأرض كلّها بالمستردة. يا للهراء، انسَ الأمر».

أه، حسن. هنا، يا صديقي المولود بعد وفاة والده، نهبط إلى عُمق قبو الحظ الأشدّ مرارة، وإثارة للسخرية، الأشدّ انخفاضاً، عميقاً تحت الفالهالا[73] حيث لا يطأ إلّا المنكوبون. حالما نبلغ ذلك الدرك، يتمدَّد قلبي ويموت. وانتبه: على الرغم من أنه يَدين بهبوطه إلى فقدان الأمل، إلّا أنَّ خطّ نهايته هو أسوأ مكان – إنه خجلي من جلوسي هنا مُجبَراً على مشاركة هذا العجوز الحزين اللطيف كآبته.

أه، يا لغيرد شبيخت. وعربة طعامه وزوجته. ومذياعه الترانزيستور الذي يبثّ الأغاني القديمة. إنّها صورة خالدة لكلّ ما يُرمم سترة صوفية

72- بيلي وايلدر (1906 – 2002): مخرج وكاتب سيناريو ومنتج أميركي من أصل نمساوي. من أشهر أفلامه «**البعض يحبّونها حارة**» 1959، «**الشقة**» 1960، «**العطلة الضائعة**» 1945، و«**صنست بوليفار**» 1950. – المترجم

73- الفالهالا: في الأساطير الشمالية، مدفن الشهداء من المحاربين الأبطال. – المترجم

ويجعلها مُفجعة.

أشكّ في أنني شعرت بمثل تلك الكآبة في حياتي.

ينهض مع نخر. «إذن، حان وقت تنظيف عربة الطعام الجبارة، فهي لن تنظّف نفسها بنفسها – *ها!*».

أنهض بعده، وأهمُّ بالرحيل. تراودني صور جديدة عن سميتس مُعلّقاً من السقف بحزامه. ووسط هذه الرقصة الخانقة، يتوقف غيرد، ينظر إليَّ، ويقول مع ومض في عينيه: «أوه، ولكن يا غابرييل – إنْ بقيتَ حتى يوم الجمعة، فإنني أدعوك إلى حفل خاص. شيء لا يمكن أنْ تصدّقه. ومع طعام حقيقي. هنا في تمبلهوف، في المساء. ربما تكون مشغولاً – ولكن أهلاً بك إذا قررت أنْ تحضر».

«شكراً لك»، وأدفع بضع قطع نقدية عبر الطاولة من أجل القهوة.

يدفعها بعيداً. «باه، إنها مساهمتي من أجل الفنون. هل ما زلت تؤلف الشِّعر؟ وأخبِرْ والدك أنْ يتصل إذا شاء. على رقم بيغو المقهى – وعربة الطعام – إنني حتى احتفظت بالاسم، إكراماً للأيام الماضية».

أبتسمُ لغيرد بحزن. «أنا لم أسأل والدي يوماً عن معنى كلمة بيغو».

«هكذا كان بول غوغان يوقّع على لوحاته أحياناً»، ويستقصي عن مكان آنّا قبل أنْ يُخفض صوته. « إنها الكلمة التي كان بحار عجوز يستخدمها بدل كلمة قضيب – *ها!*».

أراقب سترته الصوفية وهي ترفرف فوق عربة بيع الأطعمة. أتساءل إنْ كان الشباب، كما نفهمه، قد وُجِدَ يوماً في حياة غيرد شبيخت. فهل ستسلِّط «حفلته الخاصة» ضوءاً جديداً؟

مَنْ يدري. لم يعد يهمّ الآن.

أكاد أخرج من الباب عندما أتذكّر زجاجة ماريوس، فأستدير لأقدّمها إليه من خلال شباك البيع.

يأخذها غيرد، مُشرِقاً كجَدّ: «*Nein!*، لأجلي؟ هذا كثير!».

في تلك اللحظة يصدح صوت الراديو بأغنية لجون دنفر. (أغنية آني). يتجمّد غيرد في مكانه، وينظر إلى الزجاجة. أراقبُ وجهه يُصبح متوتراً من شدة التأثّر، فأستدير وأبتعد، زاخراً بالعواطف من تلك الأغنية المُتخَمة بها.

تتبعني سحابة من الإحساس بالشفقة والخجل من المبنى. ألتفتُ، ببذلتي السخيفة، وفروي، لأرى يد غيرد الرخوة تلوّح مودّعة من عربة الطعام، فتهزّني كموجة يُثيرها طابور من الأطفال يهربون من الحرب.

ثم أنزلقُ مبتعداً عن الصرح الضخم.

في الخارج، كلّ شيء ذو أبعاد ضخمة ومبنيٌّ من الحجارة. لا شيء منه سيتحرك بعد الآن. السماء ساكنة، غطتها السحب حديثاً. في وجهها أشجارٌ بلا أوراق لا تقلّ عنها سواداً. هي أيضاً لا تحرك ساكناً. وتحتها، في مساحة بحجم غرفة استحمام، يمتدّ عالم غيرد شبيخت.

العالم الحقيقيّ.

أطرقُ شارع مهرينغدام وأعلم ما ينبغي أنْ أفعل. سواء تحت دواليب قطار، أم من حافة جسر، بالسُّمّ أم بالغرق. لا يهمّ. بعد إحضار حقيبتي من بيراتنبرغ، أعثر على مقهى إنترنت وأنغمس في فيض من المعلومات المُساعدة، لأشدّ من عزم مزاجي، وأُنزِل البيانات الصحيحة. الإنترنت مفيد في هذا المجال، حتى استخراج أوراق أكاديمية من أطروحة بعنوان: «*الموت، والتفسُّخ والتدمير بعد ما بعد الحداثة*». وبين تلك الأوراق بعض الدُّرر النضرة قرأتها وكأنها كتاب مقدَّس، بل ونطقتُ الكلمات لنفسي، مواضيع مثل: «ولادة الجنين ميتاً: مناظرة داعمة يُديرها الشيوخ والمُحتضرون (و) ما بعد العادات الصحية: المحرقة وإحراق الموتى كتصاريح بعد الانتحار». أتخبّط مع هذه وغيرها من الأطباق الشهية وأنا آلة نظيفة، خالية من النزوة والرغبة.

لا أعلم ماذا أقول لسميتس. ربما الأفضل ألّا أتصل به. ربما ينبغي أنْ أتصل بوالدي وأخاطبه بالعاهرة. لأنَّ مستقبلي يقوم من جديد على

أساس حُطام ماضيه الأناني. ووضعي يفوح بعفن وجوده هنا أمامي، هو وجيل الأطفال الذين يميلون إلى السرقة ولا يكبرون أبداً.

إنها حالة تصاحب العجز التي تقضي على الرغبة المُلحّة حتى في تناول مشروب. أعتقد أنه يُشبه مفتاح إدارة الموت. أتجاوز البارات في مهرينغدام دون أنْ أتوقف، وأتجاوز كشك بيع السجق بالكري في شارع يوركشتراسه حيث الزبائن يحدودبون في وجه الصقيع مع البطاطا والسجق والبيرة. ومن هنا أستقل سيارة أجرة إلى كاستانينهوف، حيث أستلقي على سريري بوجه خالٍ من التعبير، أراقب السماء التي لا يحدث فيها شيء من خلال النافذة. لقد أبرزت دفقات النشاط يدها. إنها حقّاً لعبة النهاية. إنّها تزيل العوائق من أمام الموت، وتُفجِّر الآمال التي تبدو مضحكة جدّاً عند التفكير فيها؛ التي هي دائماً آخر الآمال. أُخرِجُ دفتري وأتظاهر بأنني أدوّن بعض الأفكار الأخيرة والحكايات من عالم اليمبوس. إنّها، في الواقع، هذه الملاحظات نفسها. ولكن عندما أفكر فيها، أرى أنها ربما ليست ذات أهمية. سوف تكون أنتَ الحكَم الوحيد، إلّا إذا سُحِقَتْ تحت دواليب القطار، أو أُغرقَتْ في نهر سبري.

في الخارج يسود الظلام. وعند لحظة ما يرنّ جرس الهاتف في غرفتي. يستغرق مني التعرُّف على الرنين بضع لحظات، وعندما أرفع السماعة أجد سميتس على الخطّ:

يهمس: «غابرييل».

أنهضُ واقفاً. نادراً ما يكون سماع اسمي المُعطى لي إشارة طيبة.

«اسمع بانتباه – إنني أتحدث مع المحامي على الموبايل. خُذ عندك رقم الهاتف هذا، لن نتمكن من تبادل الحديث بعد الآن».

«ماذا؟».

«اسمه ساتو، اكتب الرقم».

أمدّ يدي تحت الأغطية بحثاً عن دفتري.

«إنَّ القضية تنتقل من سيئ إلى أسوأ - ولكن اسمع، إنَّ الباسكيّ متمسّك بمكانك، متمسك كالسمكة. ليس بخطّتي الأصلية بل بحَدثٍ خاص به، ربما بإحدى صفقاته الكبرى، بل ربما حتى بوليمة. لقد أصاخ سمعه بانتباه شديد، أه. وطبعاً أخبرته أننا أصحاب النادي، وعليه أنْ يعمل من خلالنا - كما تعلم، ابن المؤسِّس، والوضع المتردّي، إلى آخره».

«همم - في الواقع لديَّ أخبار سيئة في هذا المجال».

«إنه دائماً يبحث عن مواقع نادرة، كمن يتصيَّد وحيد القرن، وأخبرته بكلّ ما أخبرتني، عن الموقع الذي طوله كيلومتر، والطائرات التي تصل إلى الطاولات، إلى آخره. لم أرَه في حياتي هادئاً هكذا، شيء لا يُصدَّق، كان فقط يُصغي، و -».

«سميتس -».

«كلّا، اسمع، اسمع - إذا اتَّضح أن الأمر يتعلق بإحدى ولائمه، فسوف يُضحي بيوشيدا في الحال. إنَّ حياته متعلّقة بتلك الأحداث، أؤكد لك. توسَّم خيراً. إنني أمر هنا بأسوأ سنوات عمري. وكأنني مُثبَّت إلى دولاب الحظّ اللعين. ورأسي يتألّم من ذلك الشيء الصغير المطاطي المقعقع!».

«لماذا؟».

«كما تعلم - الذي على دولاب الحظّ. الشيء الذي يُقعقع بمروره على الأوتاد. المال، وبذلة الاستراحة، ومُجمّدة الثلاجة».

«لستُ متأكّداً أنَّ دولاب الحظّ فيه ذلك الشيء المُقعقع. ليس حسب الوصف التقليدي».

«ششش، على أيّ حال، اسمع - بقي أمر واحد ونعود إلى منازلنا سالمين: إنَّ الباسكيّ يريد منك أنْ تُقابل رجلاً هناك. وسيطاً ألمانيّاً موثوقاً من طرفه، لكي يتيقّن مما في حوزتك».

«سميتس - ليس هناك أيّ نادٍ».

«إنه ليس استجواباً، لا شيء من هذا. فقط لتناول شراب والتحدث

مع الرجل، وهو من السكان المحلّيين، ويمكنه أنْ يمنح ديدي موافقته. لقد أعطيته موافقتك، لذلك ابقَ بجوار الهاتف، أولئك الشبان سوف يتحركون بسرعة».

«ليس هناك موقع. لقد تحول إلى عربة بيع أطعمة».

«إنه صِلة الوصل الأولى، هذا كلّ ما في الأمر. فقط من الإنصاف الاطلاع على رأي شخص من المحلّيين. وسوف تتناول مشروباً ممتازاً. وقوم ديدي دائماً طموحون. معظمهم أثرياء، ومنحطون بصورة خطرة. ولكن اسمع: يجب أنْ تتلاعب به كأنه سمكة. تلبَّس الدور، والعبه بهدوء».

«النادي اندثر. لم يعد هناك إلّا عربة لبيع الأطعمة».

أخيراً تتدحرج الكرة على مسار العقل: «هه؟».

«عربة بيع الأطعمة».

«ماذا؟ بطول كيلومتر؟».

«إنها تتسع لثلاثة أشخاص، وقوفاً».

«*ماذا*؟ ماذا تقول؟ يا عاهر؟».

«أنا آسف».

«كلّا، كلّا اسمع - لا تتلاعب بي، هه؟ كلّ ما عليك فعله هو أنْ تُخبر الرجل ما قلته لي. لا عليك من الناس - أخبره بما أخبرتني، بالضبط، هه؟».

«المشكلة هي -».

«كلّا! لا مشاكل! هل أنت مَنْ شيّد المكان؟».

«كلّا، ولكن -».

«إذن قابل الرجل اللعين! أخبره بما أخبرتني! انقل اللعبة إلى المستوى التالي. يجب أنْ تفعل. واعثُر على الموقع اللعين، استعِر واحداً لمدة يوم، افعل شيئاً يا غابرييل!».

«ولكن هل تخلَّوا عن إجراء البحث من أصله؟».

يرين صمت على خطّ الهاتف. «يا عاهر - العجوز لم ينجُ من الموت. لقد مات أثناء الليل. سوف ينقلونني إلى السجن. أصبح الأمر حقيقيّاً الآن».

-15-

أتململ في الصباح الباكر ولا أزال أمسك بدفتري. صراخ الطيور يضرب النافذة بالنيابة عن الطبيعة، وهي التي خُلِقت هكذا لكي تُعلن قانونها. الأطفال أيضاً يجب أنْ يستيقظوا داخل توابيتهم، ويُشنقوا مع رجال الأعمال وأصحاب البنوك لكي يُشدّدوا على سطوتهم الاستبدادية[74]. وأتساءل، كيف حدث أنْ كانت هذه المخلوقات موهوبة جدّاً في نفخ صدورها والتبجُّح بتوقيرها الجدير بالاحترام للصباح الباكر؟ لا شك في أنَّ هذا السلوك لا يدلّ على ارتقاء بل على انحدار، من الحضارة إلى عِلم الحيوان الفجّ، وهناك تنضم إلى الديوك الصغيرة المتبخترة والغوريلات التي تضرب صدورها.

في الحقيقة هي لا تختلف عن تلك الغوريلات إلّا بالبذلة وبربطة العنق.

أنهضُ متكئاً على مِرفقي وأتوجَّه إلى مركز عملي على متن عربة نقل

74- ليس من دليل أفضل على خداع الطبيعة من مولد طفل. لاحظ تنامي عنجهية الأمهات الحديثات من أجل الحصول على برهان على أنَّ الطبيعة تستخدم عقاقير مثل رويبول من أجل تحقيق غاياتها. راقبهن يُحررن حلمة في مقهى، ويسيطرن على عرض رصيف مزدحم بعربة أطفال – لأنه في عقولهن المشوَّشة بفعل العقاقير لا يحملن أشباه قرود، بل متفوقين صغاراً ذوي أهلية لا حدود لها، وبروزهم يغمرهم بتداعي الأفكار. فإذا لم تكن ظاهرة تدل على الخرف، لماذا تخدعنا الطبيعة بها؟ لِمَ لا نبحث عن وادي العائلة الذي تغمره السعادة بعملية التفكير؟ لأنه لا وجود لوادٍ تغمره السعادة؛ هناك فقط القبضة المُحكَمة للطبيعة القاسية القلب. – المؤلف

صغيرة تفوح منها روائح كريهة. وبعد تكبّد مشقّة الحفر أنجح في إخراج كساء منسوج على شكل تعريشة يُشبه حجراً كريماً، قالب صغير مُطابِق تماماً لشكل منخريّ، وما زال ملوّثاً بالكوكايين ومزوّداً بياقوت صغير بلون الدم.

أرميها في فمي وأندفعُ إلى النهار.

مشاعر وخُطط تتراكم داخلي، لكنني أجدها خليطاً مُضطرباً، يستدعي اتخاذ قرارات وشجاعةً. من جديد نجد تناسباً عكسيّاً يعمل عمله، يتطلّب أقصى تظاهرٍ بالشجاعة عند أدنى حالات الأمل. آه، يا لتلك الأقماع البائسة. والجليّ هو أنني يجب أنْ أموت قبل أنْ يتعمّق ثقب القمع الدوديّ ويُصبح أشدّ ظُلمة. قبل أنْ يطلع فجر يوم آخر ساخراً. أرتمي بظهري على وسادتي، مُرهقاً من الأمر كلّه، ولسبب ما بينما أنا أغفو تزورني صورة أمي، كأفضل ما أتذكّر نعومتها الخرقاء وعينيها الخنوعتين، سريعتي الحركة. ها هي، تكشّر من خلال حشدٍ من الأسنان، في الأيام التي سبقت علمها أنَّ نزوات زوجها أهمّ منها، وأهمّ منا، قبل أنْ تعلم أنَّ مسألة ملحة، لم تكتمل، سوف تُبعده، وأنَّ المسألة التي لم تتمّ هي ببساطة طفولته. ها هي ذي أمام الأشياء كلّها التي نشأتْ على الاهتمام بها ولم تعُد رائجة، قبل أنْ تُزدرى لأنَّ الازدراء يبيع منتجات أكثر، قبل أنْ تتعرَّض هي نفسها للازدراء لأنَّ طموحها لا يملأ أكثر من منزل بالحبّ. ها هي ذي، تلك الروح الجميلة، تبتسم.

في اللحظة التي سبقت تحوُّلها إلى غبار.

في اللحظة التي سبقت الرعب.

في اللحظة التي سبقت.

ليتني أعانقها. أستطيع أنْ أهب أيّ شيء الآن، مقابل أنْ أعانقها، تلك الصورة المشوشة، المبتسمة. ما أحوجنا إلى العناقات التي لم نحصل عليها. لأنَّ بعض الأشياء هامة. بعض الأشياء تهمّ حقّاً.

بينما أشياء أخرى ليس لها أدنى أهمية.

ازدادت حرارة عينيّ، وأجبرت نفسي على العودة إلى اللحظة الراهنة. يجب أنْ أتحدث مع وسيط سميتس. قد يرضى ببضع كلمات مبهمة، بوعد بشيء في طور الإنجاز. على أية حال، الموت وشيك إذ ازدادت صعوبة الأمور بصورة لا تُطاق. يمكنني أنْ أترك قَسَماً مكتوباً بشأن السمكة. يمكنني أنْ أعزو موتي إلى الجور الذي ينطوي عليه الأمر، أو حتى أنْ أتكلّم بالنيابة عن سميتس، أنْ أنتقم للرجل العجوز على الطريقة اليابانية. أجعل التافه نبيلاً، أقايض الانتحار بالهارا-كيري. هذه الأدوات العديدة كلّها تحت تصرفي. هذه الأدوات التي لا تُحصى كلّها تساوي شيئاً واحداً، هو الموت.

ومع ذلك، نسمات الأمل هذه لا تُطيح باهتمامي الأول: بأنَّ الاتصال سوف يكون لقاءً مع السيد يمبوس. وعلى الرغم من أنَّ هذا ما صبوت إليه منذ أنْ وصلتُ إلى برلين - فإن السيد يريد مني الآن شيئاً ليس في حوزتي؛ وأستطيع أنْ أتخيَّل كيف يتعامل مع مَنْ لا يُلبي رغباته.

أمدّ يدي من السرير لأتناول حقيبة الأدوات[75] وأُخرج منها زجاجة من النبيذ. إنه علاج مُسكّن. أختار ***سيمباتيكو***، لأنَّ الاسم يبدو مناسباً لِما قبل الإفطار. ولكن لم أكد أُفرِغ منها مقداراً قليلاً حتى رنَّ جرس الهاتف. قبل أنْ أُجيب أُشعل سيجارة.

يقول رجل بالألمانية: «نهارك سعيد». صوته ناعم، حادّ، حسن التنغيم «يبدو أنَّ لدينا أصدقاء مُشتركين».

أنتظر بهدوء على الخطّ إلى أنْ يُضيف: «ووفقاً لأحدهم ينبغي أنْ أتجنّب شرب الخمر معك، إلّا إذا كنتُ أتمنى الموت. أيمكن أنْ يكون هذا صحيحاً؟ يُعجبني رنين هذا الكلام. هل يمكن أنْ أقلّك في غضون، فلنقُل، ساعة؟».

75- حقيبة الأدوات: حقيبة تكون عادة من قماش الكنفا، يضع فيها الحرفيّ أدواته الخاصة التي يستخدمها في عمله. - المترجم

أجيب: «آآآه - مرحباً. ولكن أخشى أنني مرتبط الآن. ما رأيك في أنْ نلتقي في وقت آخر؟ أو يمكنني أنْ أتصل بك؟».

«هذا غير مناسب. لأنني أفهم أنَّ لدينا اهتماماً مُشتركاً - ويجب أنْ نتأكد خلال فترة وجيزة من الوقت إنْ كان لدينا ذلك الاهتمام أم لا. ولكن يمكننا أنْ نتعامل في الحال مع قضية تمهيدية، وهي: أعتقد أنك تعلم أنَّ أجزاءً عامة معيَّنة من الاهتمام المذكور يمكن استئجارها بطريقة قانونية من المدينة لوظائف خاصة؟».

أكذب قائلاً: «همم؟ طبعاً».

«عظيم، عظيم. إذن فنحن نتحدث عن شيء بعيد عن الحدود العامة. شيء، هل نقول - استثنائي. شيء (ضخم) حسب تعبير صديقنا الذي في طوكيو».

«يمكنك أنْ تقول هذا».

«ممتاز. أعتقد أنني أعلم ما الذي تقترح - وإذا كان ما آمل أنْ يكون، فقد أثرتَ اهتمامي. إنني أحييك. في الحقيقة، منذ أنْ عرفت مكان إقامتك نقلتُ إلى عميلنا في باريس أنَّ الأمور تبدو جيدة. أنت تعلم كم هو حذر. ومن قبيل الانضباط إبقاء هذا العمل بعيداً عن فندق روما أو أدلون - لا بُدَّ أنكَ تشعر بالملل من أوساط الكابوتشينو، لا بُدَّ أنك مللت مرأى الباستا. إنَّ الأمر يستدعي مشروباً. ولكن هل نستطيع على الأقلّ أنْ نتقابل هذا المساء؟ يجب أنْ يكون تحرّكنا سريعاً، إنَّ صديقنا ينتظر منا مكالمة».

«هل لي أنْ أسأل مَنِ الذي يتكلَّم؟».

«ليس أمراً هامّاً عبر الهاتف. أنا واثق من أنك تفهم. أما الآن فأنا صديقك في برلين. هل نقول الساعة التاسعة؟ أمام الفندق الذي تُقيم فيه؟ سوف تتعرَّف عليَّ. يمكننا أنْ نتصارح شخصيّاً، أمرٌ متعب أنْ نشنّ حرباً باردة عبر الهاتف. سوف أتطلّع بشوق إلى تناول مشروبنا. منذ مدة طويلة لم أتواصل مع - شبكة البثّ».

«أه – شبكة البثّ. نعم».

«وكما تعلم – أشعر بأنَّ هذه هي الساعة الأمثل».

بعد أنْ أودِّع الرجل، أجلس برهة أراقب الدخان يُفسِد الضوء المتسلل من بين الستائر. وعندما أُعيد سماعة الهاتف إلى مكانها لا يسعني إلّا أنْ أهزّ رأسي. أه، يا لسميتس ومطبخه (القاعدة). سميتس ومطبخه الـ (KGB)، مع مرؤوسيه الغامضين المُطيعين. مَنْ يدري متى يجد أيّ منهم الوقت للطبخ أو الأكل وسط المؤامرات. لعلهم يقضون وقتهم في برغر كينغ، يُخطِّطون لقلب أنظمة الحكم. أتناول جرعة طويلة من ماريوس، مُسترخياً أفكّر في الأمر. ولكن بعد قليل يبدأ ذهني بالتردّد. أدركُ أنَّه ربما قدَر سميتس متعلِّق بهذا العالم السُّفلي، أو العالم العلوي كما يبدو على الأرجح. إنَّ مصيبته أبعد ما تكون عن الشرعية، ملوّثة بالمصالح التجارية. من الطبيعي أنْ نتصور أنَّ تلك المصالح تحمل مفتاح تحرره. ولكن حسب قدرتي على تقديم العون، مشكلتي مُضاعفة: أولاً، لم يتقدم أحد بعرض لإطلاق سراحه. الأمر فقط يُخمّنه سميتس. مما يجعل الأمر أقرب شبهاً بلعبة شطرنج، حيث مصالح غير مُعلنة بين غرباء يتقابلون بشأن موقع ما. ثانياً، ولا يقل عنه حسماً – لا يوجد أيّ موقع. أي إنَّ الأمر خدعة.

والسيد يمبوس أفضل مني في هذا.

إنَّ الوضع يُنذر بالسوء وفجأة يُصبح حقيقيّاً جدّاً. طبعاً، لو أنني قمت بذلك الاتصال الهاتفي في شقتي القديمة في لندن لكان سهلاً نبذه بوصفه سيئاً. إنَّ لندن تتمتع بنظام مناعة ضد كلّ ما هو مشؤوم وطنّان، ربما لأنَّ موظفي الدولة أهلكونا عبر السنين بلغة فاسدة. أكاد أسمع شريكي القديم في الشقة ألان في خلفية ذلك الاتصال يقول: «إذا رفض أنْ يذكر اسمه يمكنه أنْ يغرب عنا! أخبره أنَّ في المنزل صبيّاً في الثانية عشرة، سوف نقول إنه من فريق الإعداد!».

ولكن، أنا لستُ في لندن. والمصالح المنحرفة موجودة في العالم،

بقدر كافٍ للذين يتعاملون بها كي يتعلموا كيف يتصرفون بطرق حذرة وغير اعتيادية. إنَّ الذين يحومون بسريّة موجودون، الذين يحملون معهم شجيرات، ولا يصطادون إلّا الفرائس النادرة. يصطادون وحيد القرن، كما قد يقول سميتس. مثل أولئك الناس موجودون.

ربما في يمبوس الإمبريالية الحديثة أكثر من أيّ مكان آخر.

تغلغلت البرودة في أعضائي. لقد أقحمت يداً دون أنْ أنظر داخل شبكتها، داخل شبكة من الممارسات والبروتوكولات نادرة ومتحفظة حتى إنها تبقى مجهولة إلّا لحفنة مترفّعة في العالم. وأتذكّر تعليقاً لسميتس يقول: «***يمكنني أنْ أحكي لك شائعات عن الباسكيّ تجعل قلبك يتوقف. لقد عرفت طهاة عملوا لصالحه كانوا يديرون ظهورهم ببساطة ويبتعدون عندما تسألهم عن ذلك. إنهم لا يتبسمون ويغيّرون الموضوع. إنهم لا يقولون: (لا أستطيع أنْ أبوح)، بل يستديرون ويبتعدون***».

وووش بسرعة. العالم العلوي.

كلّ ما عليَّ أنْ أُقدّم بينما يُضيِّق خناقه من حولي - هو عربة لبيع الأطعمة.

وإذا كان لزوجة غيرد ضلع في الأمر - ولا حتى هذا.

أفكر للحظة في أنْ أغيِّر الفندق، أو أرتمي تحت عجلات القطار السريع. لكنَّ الأمر لا يستحق - إنْ كنتُ مُلتزماً بسميتس، فأنا مُلزم بلقاء الرجل ورسم قلعة له في إسبانيا. من الأفضل إذن أنه يدعوني إلى مشروب - سوف أكتفي برسم القلعة الضرورية، وتوديع الليل.

بعد أنْ أُقرر هذا أمضي بقية النهار كسائح موفِّر في آخر يوم له في الحياة، مما يستدعي تناول شطيرة في مقهى تحت أرضي، يتبعها تناول مشروب ومشاهدة التلفزيون في السرير بعد إسدال الستائر. ومع ذلك، إليك ما يلي: عند نقطة معيَّنة أكاد أُقسم بأنني أشعر بأن تصحيح نبيذ ماريوس المُخفَّف يحدث داخلي. في الواقع أتوقف بينما يبدو أنَّ معادن

وطاقات ما قبل الإنسانية تضغط على زرٍّ رخو داخل جيناتي. ومن هذا، وربما أيضاً من المُسكرات عموماً، أجدني أستعدّ لمقابلة السيد. أرتدي بذلتي وفروي، وأرشّ نفسي بعطر جيكي وأودع زجاجة من **سيمفوني** في كيس بلاستيك، إلى أنْ يقع أمران خارج الفندق عند الساعة التاسعة. الأول عاهرة ترى الزجاجة فتنهض مترنحة وتقول: «أهذه لي؟»، فيناولها إياها. «أنت رجل عظيم، عظيم. أنت شخصية عظيمة».

من خلف هذا المشهد يتناهى أنين عَنَفَة، ثم بعد برهة أخرى على ضوء المصباح تتلألأ سيارة مرسيدس سوداء تندفع بسرعة متوقفة عند حافة الرصيف كالسائل، وتجعل المتشرين يُهرولون على الطريق.

آخذُ نَفَساً. أشعر منذ الآن ببوادر السُّكر، ولكن ليس هذا بالنبأ السيئ. بالأحرى قد يُساعدني على استذكار درس النضج، ولزوم الصمت في الغالب[76]. إنَّ مهمة هذا المساء تستدعي وسائل نقل، كلّا، كلّا. إنها مجرد إشارة إلى الموقع. بعد إطلاق سراح سميتس يمكن للحقيقة أنْ تنكشف على هواها. لأنه دعنا نكون واقعيين: إنَّ أزيز فناء مدرسة كهذا لا يصدر إلّا عن معاملات عائلة كعائلة سميتس التي لا تُنفَّذ أبداً. وهي تُبدَّل حالما تصل، بفنادق على جبال من الثلج، ومقاهٍ صغيرة في بغداد – بأيّ شيء من مهرجان الاحتمالات التي تدعم عبقريّاً مكتئباً بين الأدخنة المنبعثة من خلفية مطبخ.

أشعر بأنَّ هذا المدخل حكيم جدّاً.

76- تعلَّم أنْ تحبّ آثار السُّكر. غذّها واعشقها كأنها موسيقى حزينة. إنَّ سندريلا الفسق هذا نعيمٌ مُستتر، لعلّه أعظم أنواعه؛ لأنَّ القرارات الحكيمة تُصنع هناك. وآثار السُّكر الجيدة، وقضاء بضع ساعات فيها، تُسبب الجوع، والشعور بالامتنان لأنك بقيت على قيد الحياة؛ إنها تعيد الظرف الإنساني إلى حالة الإهمال، التي هي باعتراف الجميع بائسة، ولكن أيضاً واقعيّة وصافية، وغير راغبة في الأذى. إنها نافذة تطل من سرير الموت على الماضي، حيث نتمنى لو أننا انتقينا خيارات متنافرة أقلّ. لذلك لا نتخذ أية قرارات فنحن سُكارى – ولكن استخدم آثار السُّكر لجعلها أشد تقويم لك تدبّراً وإنسانيّة. – المؤلف

يتدفق بثقة من عنب مُعدَّل جينياً.

أخطو لأقابل السيارة، ثم أرتبك عندما أرى فتاة خلف المقود. تبدو خالية من العيوب، بشَعر نظيف وأسود يُنافس بريق سيارة الليموزين. أتراجع، مُعتقداً أنني أخطأتُ وخلطتُ بين صنف من الشامبو ومطبخ العالم العلوي؛ ولكن في الحال، وبدون إصدار صوت، يُفتح الباب الخلفي وتستدعيني يدٌ إلى الدخول. على الطرف الآخر من وسط مقعد يُشبه آلة أرغن أجد رجلاً أنيقاً، شعره أسود، يرتدي ملابس سوداً. في نحو الأربعين، يُشبه ممثلاً ذا مظهر صبيّ حَسَن المظهر. «أنا توماس»، يبتسم، مادّاً لي يده.

لا شيء شرير في توماس، على الرغم من شكله الصقيل والساحر. أقترب منه مع انطلاق السيارة، ونحن في الخلف نغوص في عشٍّ من الجلد الناعم.

أجيب: «وأنا غابرييل»، وأناوله الحقيبة عبر المقعد.

يُنعم النظر داخلها: «آآه، سيمفوني - نتاج 2004!». يُشرق وجهه، ويسكت برهة قبل أنْ ينظر إليَّ ويقول: «أتعلم - أعتقد أننا سنتّفق».

عينان أُخريان تبادلان النظر، لوزيَّتا الشكل في المرآة، ثم أنف صغير وابتسامة. تقول السائقة: «عطر زكي. أهو جيكي؟».

يقول توماس: «اسمها بيتينا. أنفها حسّاس جدّاً».

تقول: «وأنت تضع منه الآن - عبق السيتروس[77] قويّ».

أنظر في المرآة: «نعم، إنه أنف جميل فعلاً».

عندئذٍ تنكسر طبقة الثلج التي كانت رقيقة جدّاً في السيارة ونضحك جميعاً، وينبلج ما يُشبه الفجر داخلي. ننطلق كأننا أصدقاء إلى قلب برلين، ويمرّ بنا الليل كالومض، وأصوات تتك بنعومة كالساعات؛ وعندما يظهر تحديق بيتينا أحياناً، تنبعث أخيلة أُسيطر فيها على غرورها.

77- السيتروس: رائحة الليمون، وتتضمن الأترُج والليمون الحامض والبرتقال إلى آخره... - المترجم

إنها حتماً إشارة إلى عودة الأمل. آه، يا لذاك اليمبوس المجنون.

يتناول توماس يدي. «إذن، برنامج هذه الليلة بسيط. لديَّ سؤال وطلب، وأنا واثق، بعد أنْ رأيت أسلوبك الأنيق، من أنْ في وسعك أنْ تلبيهما بسهولة. ولكن دعنا لا نندفع. إذا أرضيتني، سوف أستمتع باللغز وأنا أتناول العشاء»، يسكتْ قبل أنْ يُضيف: «هذه الليلة قد تكون طويلة».

نصل إلى نهر سبري وهو يتدفّق من تحت شارع فريدريكشتراسه، حيث رايات المجلس التشريعي العملاقة ترفرف في وجه الأفق. تتوقف السيارة بجوار الدَّرَج المؤدي إلى الأسفل نحو ضفة النهر. يقول توماس: «مطعم الشواء غريل رويال. آمل أنْ يُعجبك. أنا معروف هنا، لكنهم متكتمون. ومع ذلك، سوف نُجري حديثاً جديّاً لاحقاً».

أحدث ولوج توماس المطعم تبادلاً للنظرات، وعلى الرغم من أنَّ حركة العمل ناشطة سرعان ما أُعدِّت لنا طاولة تطلّ على منظر رائع. أراقبُ سفينة سياحية تنساب من أمام النافذة مُخلّفة وراءها خطّاً زئبقيّاً وذهبيّاً عبر تموجات نهر سبري الهلاميّة، وهنا، تحت الأضواء المُجمّلة، فوق البياضات والفضة، أجد طائرة الرفاهية حيث يجب أنْ أتوقف، يا صديقي، وأدعوك إلى الدخول. اقترِبْ من البياضات المتوهجة، من هذه الأواني الزجاجية المتلألئة، وشُمّ رائحة الطعام الحارّ وعبق النبيذ، أصغِ إلى تلك الثرثرة الأنيقة بين أصحاب العقول الدمثة، واعترِفْ معي:

إنَّ السيد يمبوس على حقّ في بعض الأشياء.

كيف يمكن للمخلوقات الهشّة أنْ تقاوم الراحة؟ ولِمَ نقاوم؟ حالما يحضر النبيذ، والخبز الريفي والزبد البارد، هذان هما السؤالان اللذان ينبغي التفكير فيهما - وأيضاً أنْ نسأل لماذا تجلب الراحة التوازن، كيف تجلب وفرة الأفكار، وهدوء البال، وكيف يُزيل نورها عيوب البشرة، إلى أنْ نُصبح في النهاية فخورين كنجيمات مُشرقة - وربما لأننا نستحقّ ذلك.

هذا هو السيد يمبوس. انظر وتفكَّر.

لأنّه فجأة لا يعود الليل يبدو قاسياً على الإطلاق. فجأة يبدو كحضارة نقيّة. كم كانت مخاوفي سخيفة على ضوء هذا الواقع! والآن أتذكّر التأثير الأول والمقبول أكثر للسيد: إنّه يضع المرء في حالة من الارتياح التامّ. كيف يمكن أنْ أشعر بالاضطراب في مثل ذلك الجوّ؟ الأمر بديهي، لقد خفتُ من استجواب كبير الطهاة أو عامل متوحش، ولكن في توماس شيءٌ، إشراقه، تهذيبه، يوحي بأنه ليس متورطاً في مجال الأطعمة على الإطلاق. زيادة على ذلك، إنه يوحي بأنه كإنسان لا يميل إلى الاستجواب من أيّ نوع. وأتساءل إنْ كان مجرد ضيف سابق، أو صديقاً للغامض الباسكيّ. في كلّ الأحوال، يبدو إنساناً عاديّاً بالنسبة للعملية، مثلي أنا، ولذلك لعلّه يعتقد أنني أعرف أكثر مما أعرف حقّاً. إنَّ الليل يدعوني إلى الاسترخاء، وأسكت وأراقب ما يجري.

مع وصول المحار والكعك الإصبعي المصنوع من الخبز الأسود، يلتفت لكي يقهقه: «هل سمعت عن السمكة، في طوكيو؟».

«همم؟ لقد كنتُ هناك. وتذوّقتها بنفسي».

«الآن - هذا الأسبوع؟»، يحدّق، ضاحكاً، «وما زلتَ حيّاً؟ أنت تتحسّن باطّراد. طوكيو. تمبلهوف، ماريوس - إنني أحاول أنْ أخمّن صِلتك ببرلين ولكن بصراحة، بعد هذا أستسلم».

آه، إنها موجات الحماس. أم إنَّني أصبحت في النهاية أسبح مع مدرستي الطبيعية؟ هل انتزعتني الرأسمالية لتعيدني إلى حيث ينبغي أنْ أكون؟ لم أكن قد اعتبرتُ أبداً أنَّ عالم المبتسمين، والمتحدثين المفوَّهين والمتأنقين في الملبس، هم مدرستي. لكنني أعترف بأنَّ ثمّة شيئاً في المُبتسِم العادي في استطاعته أنْ يجعل الحياة سلسة، إلّا أنَّ مشكلتي مع الابتسامات هي أنَّ الأسواق استولت عليها لتستغلها كواجهات للِّواط. لم يعُد في الإمكان الوثوق بها، بسبب كلّ ما يجري من وراء ظهرها. وهكذا أجد نفسي في وضع غريب، بين العوالم. ما أشد

تباعد العوالم. على سبيل المثال، لقد وثقت بالعبوس في عربة أطعمة غيرد – لأنه لم يعِد بأيّ شيء.

ومن ثم، أعتقد – ما حصلت عليه لا شيء.

تتقابل عيناي مع عينَي توماس. «وهل صحيح أنه استضاف فتاة في صهريجه؟ أعني رئيس الطهاة؟ وعندما اتصل الباسكيّ كاد لا يتمكن من الكلام بسبب الضحك».

«همم. أعتقد أنه لم يعلم إلّا بعد مرور بعض الوقت أنَّ سميتس كان يسخر».

«حسب معرفتي هذا تصرّف نموذجي من فتية ديديه. لا بُدَّ أنَّ في استطاعته أنْ يقوم بعمل ما، لا تكن قاسياً. إنني أخمِّن أنَّ لديك مداراً مُشابهاً لمداري في الشبكة – على طول الذراع، مع تواصل مؤقّت. لعلَّه الوضع الأكثر أماناً. في أول الأمر لم أُصدّق ما يجري. ولكن هكذا هو حال الأشياء على هذا المستوى».

«إنَّ وضعي حتماً آمن أكثر من وضع سميتس».

ينكسر تواصُل تحديقنا، لكنَّ توماس يميل لكي يهزّ ذراعي. «أنت تعلم أنَّ الباسكيّ يحترم الشخص المُستقل. كلّ الأشخاص المفضّلين لديه هكذا. ربما لهذا السبب يعملون معاً بتعاون تامّ. لقائي الأول معه كان في فندق بروسيّ، **قلعة نيواردنبرغ**، تقع بالقرب من الحدود البولونيّة. لقد جلب ثلاثة طُهاة عباقرة وستة طُهاة مُساعدين عِظاماً. ومع انتهاء طبق السمك وقع حادث طعن في المطبخ. ومع تقديم الطبق الرئيس، كانت قد احترقت سيارتان وفُقِدَ ثلاثة أشخاص ولم يُشاهدوا أبداً. إنني لا أزال مُحرجاً من العودة إلى (**القلعة**).

«يبدو شيئاً من النوع الذي يجذب رجال الشرطة»، وأرشف بعض النبيذ.

«كان تلك حتماً آخر حدث يقع له في فندق. وآخر حدث مع عدد من الطهاة. وبعد ذلك انحدرت أحواله، وأصبح الوضع خطيراً».

بجلوسنا هكذا نعبّ من نبيذ شابلي البارد، ونأخذ وقتنا في أكل

المحار مع الخبز، يزداد شعوري بالارتياح مع توماس، ومع الموقف، إلى أنْ أجد نفسي أفتش في ذاكرتي عن حكايات أخذتها من سميتس يمكنني أنْ أستعين بها في الحديث.

أقول: «ما زال الموقف ضعيفاً. أعني - كيف تفسِّر وجود نافورة من النبيذ لرجل شرطة؟».

يومئ توماس برأسه، محدّقاً من فوق نظارته. «حسب عِلمي، هو لم يُعانِ من أية مشكلة. حسن - انظر إلى عدد المواقع التي استخدمها. إنَّ النوافير هي أقلّها غرابة. ومنذ البداية، كانت أداة أول حدث وأشدّها أهمية هي مسدس التحذير. إنَّ كلّ شيء مُصمَّم من ذلك بحركة عكسية. أصبح الآن تقليداً مُقدَّساً. وأول مُستخدَم هو دائماً الحارس الذي يحمل مُسدساً خُلّبيّاً. *alarum*. وأول ما يؤخَذ بعين الاعتبار في أيّ موقع هو التغوُّط. أعتقد أنه خضع للاختبار في هذا مرة واحدة. فقد اكتشفوا أنَّ الطلقة التي لفتت انتباه الحارس صدرت عن التغوُّط، لذلك حقّقتْ هدفاً مزدوجاً. ولأنَّ من الواضح أنه مسدّس خُلّبيّ، فالأمور ليست خطرة جدّاً بالنسبة إلى الحارس إذا ما أُلقيَ القبض عليه. ولا حاجة إلى قول إنه يحصل على أجر مُضاعَف في هذه الحالة».

نتناول صدف محارنا من وسط فراش من الثلج، ونغمس الخبز في مزيج من ماء البحر والليمون، مُبللين أصابعنا.

«ثمة تخطيط لا يُصدَّق يجري في الولائم هذه الأيام». يزلق توماس آخر محارة على لسانه. «التي حضرتها على أية حال. جديرة بالباسكيّ بكلّ معنى الكلمة، إنه أشبه بطفل ثريّ يُجري عمليات سرقة أحجار كريمة. لكنه أخبرني بأنه ما زال يتعلَّم شيئاً في كلّ مرة. وهو يزداد حِكمة في وضع لائحة الضيوف. ومشكلته الكبرى هي الشهرة؛ الآن الضيوف يتوقّعون كلّ ما هو مُشين. الرمزيّة، وليس البراغماتيّة[78]. إنهم يريدون خمسين طاهياً،

78- البراغماتية: الفلسفة الذرائعية، العملية، التي تعتمد أساساً على النتائج العملية. - المترجم

يريدون أنْ ينكحوا بنات رؤساء الجمهوريات، يريدون أنْ يأكلوا الأطفال. وهكذا، بالاعتماد على ما لديك تمنحه لي، كان يفكر في جعل وليمته التالية هي الأشدّ فخامة، على الأقلّ لفترة من الوقت. سوف تدرك أنه يُقيم مثل تلك الولائم بدافع الحبّ - هل نقول، على الرغم من أنها لم تُفسِد عمله. لكنَّ التحدّي تفاقم كثيراً، خاصة عندما يتعلَّق الأمر بالموقع. بعد ذلك سوف يتوقعون سجن ألكاتراز أو متحف اللوفر. ولم يعُد من السهل العثور على مواقع عذراء، خاصة أنه يُصرّ على أنْ تكون أماكن لا يمكن إعادة استخدامها لهذا الغرض. ومن الصعب ضمان هذا. موقع نقيّ. وليمة واحدة. لحظة سريّة في تاريخ العالم. هذا ما يتوقع ضيوفه على أقلّ تقدير. أنْ تصنع التاريخ». يسكت توماس لكي يُقهقه ويرشف بعض النبيذ. «لن أنسى ما حييت وجه الباسكيّ ذات مرة، عندما سأل أحد طُهاته لماذا لا يستطيعون أنْ يستخدموا الموقع السابق مرة أخرى». صرخ «ماذا؟ لأننا منحناه عنواناً! فإذا تناولنا الطعام هناك مرة أخرى يُصبح مجرد مطعم! والوليمة هي ليلة لا يمكن تكرارها في تاريخ العالم!».

نضحك، لكن بينما توماس يستردّ أنفاسه ليواصل حديثه أعي اقتراب شخص بدين، يرتدي بذلة رمادية، بخُطى متمايلة.

يُلوَّح لتوماس: «براندي! براندي يا صاحبي!».

يومئ توماس: «فرنر، أَطَرَدوك أم ماذا؟».

«كيف يمكن أنْ أطرُدَ نفسي، أنا الريِّس؟». يجلس الرجل من دون دعوة، مُلقياً نظرة شزراء حوله على الطاولات القريبة. ولا يُحيِّيني.

«هذه نكتة. يبدو الوقت متأخراً على بقائك في الخارج».

«كن لطيفاً من فضلك - لقد فقدتُ امرأتي توّاً».

«أوه، لا، تلك التي تُقهقه؟ أم التي من مونتنيغرو؟».

«الأخرى - التي في منزلي مع الأطفال».

«أوفف، تبدو مُكلِفة - آسف جدّاً لسماع هذا».

«لا عليك مني، أنا في ألدون منذ أسبوع. لقد منعتني من دخول المنزل. أعطني بعض النبيذ - دعني أُحضِر كأساً أخرى».

يملأ توماس الكأس بالنبيذ: «خُذ كأسي».

«أسمعت مَنْ سقط من المنحَدَر من ليمان؟».

يتلفّت توماس حوله: «هسسس، فرنر، ليس هنا».

«ماذا؟ هذه ليست أنباء جديدة، إنَّ غرفة عقد الصفقات مملوءة بها. على أية حال، سوف يجذب مادوف الصحافة. في هذه الأثناء أترى كيف تُفتَح الأبواب الخلفية وتُغلَق في كلّ مكان؟ أسمعُ أنَّ هناك حتى قنبلة موقوتة في البنك الدولي تستهلك الزمن حتى عام 2012. أتعلم كيف أعرف هذا؟ لقد فُتِحَ بابهم الخلفي. مَنْ يعلم إلى أين سيهرعون».

يقول توماس: «الأمر يعتمد على مدى ثراء القنبلة. على أية حال، الأمر لا يعنينا».

«ماذا تعني بأنَّ الأمر لا يعنينا؟ إنَّ النظريات تنتهي هنا، يا براندي. وهذه التصادمات الأولى ما هي إلّا قطرات في محيط. حاولْ أنْ تحصل على إشارة هاتف في زيوريخ هذا اليوم، فلن تحصل عليها - إنَّ الخطوط مشغولة كلّها بسيولة داخلية».

«فلنقُل فقط، إنها عملية تجديد». يقوم توماس برفق بطيّ منديله على الطاولة.

«تجديد! بالعودة ربما إلى الزراعة كمورد رزق. أو العودة إلى اجتماع الصيادين اللعين. دعني أخبرك بما سمعت عن بنك سكوتلندا».

ينهض توماس قائلاً: «في الواقع كنا نوشك أنْ نغادر. بالمناسبة، هذا روفوس - إنّه صديق صديقٍ لي، تعرّفتُ إليه مُصادفة. سوف أذهب وأغسل حذائي».

يهتف فرنر: «أتغادر منذ الآن؟ هل أصبحت رائحتي كريهة الآن؟».

عندما لا يُجيب توماس، يواصل المتطفّل عبّ نبيذنا. أخيراً ينخر قائلاً: «روفوس، من أين لك هذا الاسم؟».

«لا تسألني».

يسكت برهة ليُحدّق. ثم يواصل مضغ خبزنا.

يُخيِّم على الطاولة إحساس مزعج. إنَّ غرائز توماس على صواب. إنَّ الحضارة، المُفترَض أنها مادة رقيقة، بل أثيريّة، تلاشت. وبعد بضع دقائق من الإصغاء إلى فرنر وهو يلعق الطعام كخنزير، ومراقبته وهو يلتهم ما تبقّى من خبزنا ونبيذنا، أقوم بمحاولة لفتح حديث:

«هل سمعتك تقول براندي؟».

ينخر: «نعم. إنَّ الحياة قصيرة بصورة لعينة بحيث لا يمكنني تذكُّر اسمه كاملاً. توماس جورج فيليب فريدريك فلوريان فون براندنبرغ شتندال ساكس - ويعلم الله ماذا أيضاً. يحتاج الأمر إلى بطاقة رجل أعمال بطول متر. إنَّه الـ *PETIT PRINCE* الذي لم يقابل امرأة حول شرجها شعر».

يعود توماس في الوقت المناسب ليسمع هذا، مُشيراً إليَّ: «تعني، مَنِ الذي يستطيع أنْ يميِّز الفرق بين شرج المرأة وشرج الرجل».

يجرع فرنر القطرات الأخيرة من النبيذ، ونتركه وهو يتكلَّف الابتسام لأمٍّ وابنتها قريبتين.

يهزّ طاقم الإدارة برؤوسهم لنا تحية المساء ونحن نتوجَّه نحو باب الخروج. لدى تجاوز توماس طاولة الخدمة المتحركة ينتزع منها زجاجة بيرة روشلت فوغلبير ويُقحِمها تحت إبطه. «لقد دعانا الهر باور إلى الطعام»، ويبتسم، «مع هذه، لكي نأخذها معنا».

«طبعاً، هر شتندال».

في أثناء خروجنا يضغط على زرّ في هاتفه المحمول، ومع وصولنا شارع فريدركشتراسه تكون سيارة المرسيدس في انتظارنا.

يتنهّد، وهو يستقلّها: «أحد مساوئ عالم الأعمال هو اضطرارك إلى أنْ تكون مُهذّباً مع الأوغاد. أنا آسف بشأن الغداء. أمر غريب أنْ يظهر باور هنا، في المعتاد يذهب إلى بورشارت. يُناسبه أكثر. ذات مرة اصطحب

معه الباسكيّ، كانت خطوة سيئة. حسب الكابتن أنه لا يُحسن الألمانية، ووضع اللوم عليه بسبب ارتكاب رفيقته خطأً في اختيار الطاولة. إنه حقّاً سلوك سيئ، لا يُصدَّق».

أقول بإبهام: «إنها عاقبة الإثم». في الحقيقة أنا نفسي لم أفهم ما قلت.

ومع ذلك، ينظر توماس إليَّ. «بالضبط، هذا هو باور - مملوء بالمال، ومُجرّد من التهذيب. أمر عاديّ أنْ تتعثّر برلين به، أنت تعلم كيف هو الأمر. لقد مرَّ عشرون عاماً على انهيار الجدار، وحسب مستوانا ما زالت الأماكن التي تستحق الزيارة قليلة. فيما عدا ذلك هناك الباستا والكباب. أو حيث تُقيم، اللبنة وصودا بيونيد. من المذهل أنكَ نجوت».

«إنَّ وزن أمتعتي عشرون كيلوغرام وكلّها من زجاجات ماريوس».

يومئ توماس برأسه قبل أنْ يستدير نحوي: «أنا مُعجب بك يا غابرييل».

جبنا شوارع هادئة، وأخيراً وصلنا إلى ناطحة سحاب صغيرة مندسّة خلف الأبنية في شارع ستريسمانشتراسه. لا توجد أيّة لافتة واضحة، والمدخل موصد. ولكن يلوح شبح شخص يكمن خلف الزجاج يُراقب. نقفُ برهة إلى أنْ يفتَح الباب كاشفاً وجه شاب. يُشرقُ مُحياه لدى رؤية توماس، ويقودنا إلى الداخل؛ أولاً إلى غرفة إيداع المعاطف حيث تستلم سيدة معاطفنا، ثم إلى مصعد من الزجاج يرتقي إلى المُلحَق، وهو موقع مزدوج مزوّد بدَرَج يرتقي إلى مساحة تجريبية مُظلمة. ومشاهد كاملة للمدينة مفتوحة من ثلاثة جوانب، تطلّ عليها من أريكة وكراسيّ مُعلَّقة حيث تتمدد أشكال وسيمة عبر خطّ الأفق، تحفُّ بها إيقاعات هادئة. وتَخفِقُ عروضٌ سينمائية على الجدار الوحيد للغرفة، خلف بار تتوهج عليه كؤوس الكوكتيل وتنبضُ مع إيقاع الموسيقى.

يقول توماس: «نادٍ شمسيّ. الآن نستطيع أنْ نتكلَّم».

نُحضِر كؤوس الفودكا مارتيني إلى زاوية منطقة التدخين، حيث تمتدّ أسرّة مزدوجة من الجلد على طول الجدار وتطلّ على المدينة. وعلى

سريرَين منها يستلقي شخصان أو ثلاثة، ونحتلّ نحن الثالث، حيث يُضفي الضوء الأحمر، والدخان والعتمة جوَّ مرْبعٍ لتعاطي الأفيون. بعد أنْ نستقر، أقوم باستعراض خطّ أفق برلين المنخفض من خلال الزجاج - وبعد برهة تشملني بقعة من الظلام، فجوة في المشهد القريب جدّاً. يبدو وكأنَّ كتلة المدينة برمّتها قد اختفت في الفضاء. أَلفتُ انتباه توماس إلى ذلك.

يقول: «إنها تضاريس الرعب. ألا تعلم؟».

«أهو المتنزّه؟ يبدو كثيفاً جدّاً، بل إنَّ الضوء المنبعث من الشوارع يعجز عن اختراقه».

«إنه مركز قيادة الغستابو. أيضاً فندق الأمير ألبريشت، حيث كانت تتمركز قوات الأمن النازية. هملر، هيدريش، أيخمان - ذلك كان عنوانهم».

«ولكن ألم يُدمَّر هذا كلّه؟»، وأشرئبُّ بعنقي نحو الفراغ، ولكن لا ينفذ أيّ قدر من الضوء، ولا حتى طرف سيجارة مُشتعلة. إنه امّحاء تامّ عن خريطة برلين المتلألئة.

«طبعاً، لكنَّ ذلك كان في نهاية الحرب. وفي الدقيقة التالية وصل الروس، واستمرت حركة التاريخ. ولم تعلم جمهورية ألمانيا الديموقراطية ماذا تفعل به. ماذا يمكن أنْ تفعل أشدّ مراكز العالم شرّاً؟ تؤجّره كمكاتب؟ تحوّله إلى ملعب للأطفال؟».

«ألم تُبنَ روضة للأطفال فوق مخبأ هتلر المُحصَّن؟».

«نعم، لكنه كان مُقاماً عميقاً تحت الأرض. وفوقه لا ترى إلّا ركاماً معشوشباً. أما هذه فأطلال مدينة بأكملها. حتى بعد انهيار الجدار لم يعرف أحد ماذا يفعل بها. في الواقع إنَّ جدار برلين لا زال قائماً في أحد جوانبها، سليماً. أعتقد أنه الجزء الوحيد الذي ما زال قائماً. وأصبح تجنُّب المكان تقليداً. المدينة أحاطته بسياج والطبيعة استعادته. والآن

بعد مرور خمسة وستين عاماً أصبح ذلك المكان أشبه بغابة طرزان، بل تنمو فيه نباتات متسلقة. ولكن تحت السطح سوف تعثر على أساسات وكسارة، وسوف يكون المخبأ المُحصّن هناك، وأنفاق أيضاً أعتقد. ما زالت موجودة حتى اليوم. يمكنك أنْ تخرج من فندق فخم، وتنتقل إلى غابة في قلب المدينة، وتلتقط قطعة من مركز قيادة الغستابو. لا تجد هذا إلّا في برلين. لقد عشتَ حياة آمنة هنا، يا صديقي».

«ربما. ولكن أخشى أنَّ هذا فقط حتى الآن».

بدأتْ مُسكِرات المساء تدير الرؤوس عند أسفل المُنحدر التالي، الذي هو الدرب المؤدي إلى المرج المُشجّر العالي المُحلِّق، وهناك يحوم بحِكمة تحت النجوم. أُقرر أنْ أُسخّر ذلك لخدمتي مخافة أنْ تتسرّب الأمسية من بين أيدينا.

أقول: «لقد نقلوا سميتس إلى السجن».

ينحني توماس، ناظراً بعينين نصف مُغمضتين من خلال كأس المارتيني. وحول اسم «سميتس» بإهمال إلى اللغة الألمانية لكي تتلمظ بها الشِّفاه، فقال: «*شماتز. شماتز* – اسم يليق برئيس. اسمع، إنَّ الباسكيّ يعلم بأمر اجتماعنا هذه الليلة. من الواضح أنَّ الوضع صعب. واليابان صعبة، ومنطقة غريبة عليه. لكنه يدعم سميتس. يجب أنْ تعلم هذا. وقد أخبرني ذات مرة كيف عثر عليه في مطعم كمبنسكي في بْروج. هل أخبرك سميتس هذا؟ لعله لم يكن قد أدرك الانطباع الذي أحدثه».

«لقد جمع بعض الحكايات من مطعم كمبنسكي».

«لقد سمع الباسكيّ شيئاً عن كرم العنب وذهب إلى هناك بوصفه زبوناً. وصل متأخراً، ولم يطلب إلّا فاتحاً للشهيّة. طلب عشرة أطباق من *فاتح الشهيّة*، ويبدو أنَّ سميتس أطلَّ برأسه على المطبخ ليرى مَنْ يكون ذلك الفرنسي الأبله. لكنه لم يرفضه، أو يُلغي فاتح الشهيّة من اللائحة. بل أخذ ملء عربة من المكونات إلى الطاولة، وأمسك بأجمل النادلات واختلق بضعة أبيات من الشِّعر في التوّ واللحظة. هناك عند الطاولة.

وأتى بطبق السمك كطبق أخير، ثم أخرج ولاعة سجائر، وطبخها باللهب وهي مُدلاة من بين أصابعه. وأخذ يُطعِم ديديه لاكسالت وكأنه طفل وليد. أتصدّق هذا؟».

«تصرُّف جدير بسميتس».

«نعم، اسمع. إنَّ ديديه لا يحكي حكايات عن كلّ طاهٍ يُقابله. إنه يقبض على ذلك النوع من المواهب، ويصقله من أجل منفعته. النوع الذي لا يقتصر على دروس الطبخ، الذي يشعر بأنه جزء من عالم الأحاسيس، ويتكيَّف مع أية أداة يعثر عليها. إنه أشبه بالطيران. لم أرَ مثله إلّا مرتين. ولهذا السبب لا يبحث الباسكيّ عن نجوم معارض ميشلان، ودائماً تقريباً يرفضهم. لأنَّ النجم يتطلَّب الثبات على مدى فترة من الوقت. إنه من أجل المتزوجين الذين يستطيعون أنْ يقوموا بالعمل نفسه مراراً وتكراراً. ولكن بتحويل جزء من موهبتهم إلى مسألة روتين، يُخفضون سقفهم. إنَّ الباسكيّ يفتش عن عبقريّ يتمتع بروح استقلالية، الساذج الجامح والحر – وطبعاً هو يُجازف بأنهم قد يفشلون فشلاً ذريعاً. ولكن عندما لا يفشلون، يستخلصون من الطبيعة خبرة تحبس الأنفاس لا تُنسى، أو لا يجد المرء الكلمات المناسبة لوصفها. وأعتقد أنَّ هذه هي حالة صديقنا الذي في طوكيو. أريد أنْ أجهر بهذا بأعلى صوتي لكي نفهم ما الذي جمعنا معاً. وبهذا تطمئن إلى أنَّ لديه أصدقاء أقوياء. تذكّر أنَّ الباسكيّ جاء من فيلق أجنبيّ. وبما أنه رجل متين فيمكن أنْ يستخف ببضعة أيام في السجن – لكنه أيضاً يفهم الأخوّة». يربّت توماس على ساقي. «إذن اهدأ. تشجّع. لا أحد سيسمح له بالاختفاء».

يجتاحني فيض من الشعور المنعش، يشبه التصميم المُفعم بالأمل. آه، ذلك السيد يمبوس. لا يسكنه المتذمّرون والمُنظرون، بل مخلوقات عمليّة.

يُفرغُ توماس المارتيني في فمه، يُدوِّم، يبتلعه، ثم تتقابل عيوننا: «وهذا يوصلنا إلى السؤال الحاسم».

أصبح وجهه مُبهماً برهة بسبب كأسي المقلوب رأساً على عقب. ولكن عندما اختفَتْ مشروباته، وتمّ الاستمتاع بها مطوّلاً، بالإضافة إلى قطرات صغيرة من الصقيع تبِعتْها إلى داخل فمي؛ وعندما كفّ لساني عن الهيجان، وهدأ، وابتعد الكأس عن شفتيّ - وجدتُ عينيه السوداوين تخترقاني.

يقول: «لقد خمَّنتُ ما هو جليّ بالنسبة إليَّ. ولكن دعنا نلخّص ونفهم كلٌّ منا الآخر. أولاً يُقيم سميتس نادياً منحطّاً مكان *flughafen* (مطار) تمبلهوف. والآن، كما لا بُدَّ أنك تعلم، هناك ملهى ليليّ قديم من بين مشاريعه الغريبة التي يتضمّنها - ولكن بالنظر إلى الأهداف التي يُحددها سميتس، أنا أرفضه. وبما أنَّ المطار سيُغلق أبوابه في هذا الشهر، فإنني أرفض أيضاً أيّ موقع دائم. في هذه الأثناء اتفقنا أنا وأنت على أنَّ بعض المواقع العامة يمكن استئجارها لاستغلالها - كموقع آخر الخطّ، على سبيل المثال، بعد ساعات الدوام. وكلانا يعلم أنَّ المبنى يتألّف من أماكن العمل وأماكن تاريخية، بعضها لم يُمسَّ منذ أعوام». تبدأ ابتسامة توماس بالإشراق. «لذلك فإنَّ كلّ شيء يتجمَّع عند نقطة معيَّنة. عند شيء، عندما يطلب الباسكيّ رأيي، يدفعني أولاً إلى الضحك».

أشعر بأنني مضغوط في زاوية من الأريكة.

«ولكن بعد أن اتصلَ بي أعدتُ التفكير. فكّرتُ في ادّعاء سميتس. الادّعاء الذي لا يُصدَّق. الادّعاء السخيف بصراحة، الذي هو: أنَّ سميتس يدّعي أنّ مساحة كبيرة من أرض مطار تمبلهوف هي تحت تصرّفه».

بدأ نبضي يُسرِع.

يتابع توماس، مائلاً نحوي، بشبه همس: «ثم، بعد أنْ أعدتُ التفكير في الأمر لاحقاً، اتصلتُ بالباسكيّ لأقول إنَّ هناك فرصة واحدة ممكنة لأنْ يكون هذا صحيحاً. احتمال ضئيل جدّاً. ولكن إنْ كان ***فعلاً*** صحيحاً، فإنه سيمثّل أشدّ ما يمكن لنا أنا وأنت أنْ نصادفه في حياتنا قوة. وإذا

أسرعنا في التصرُّف، فسوف نُنجزُ أيّ شيء في الوقت الأمثل. ثم – يا غابرييل بروكويل – يبقى هناك سؤال واحد صغير».

توقف نبض قلبي.

يهمس: «لا تُسمِّ الشيء بصوت عالٍ. ولكن هل توصلت إلى العقدة؟ الوحيدة التي يمكن أنْ يتحدث سميتس عنها؟»، ويُحدِّقُ دون أنْ يرفّ له جفن.

يخرج لساني بسرعة ليُغطي شفتيَّ. وأبدأ بالإيماء برأسي إيجاباً وكأنني أفكر في المكان نفسه، وكأنني أستحضر صورته إلى ذاكرتي. أخيراً أسمع صوته يقول: «نعم».

يسترخي توماس على ظهره، مُحركاً عينيه يميناً ويساراً. «كيف تفعل هذا؟».

أجلس هادئاً برهة. «قلتَ إنَّ هناك سؤالاً واحداً».

نلزم الهدوء التامّ، يراقبُ كلٌّ منا الآخر. ثم بحركة سريعة، يُثبتني في مكاني، ويُشعّث شَعري، ويلكم ذراعي. «أنت نجم. دعنا نشرب».

وووش بسرعة. نستقلّ المصعد وننزل إلى السيارة المنتظرة، وهناك يُخرِج توماس علبتَي سجائر أنيقتين، يُناولني واحدة، يقول: «عدَّة البقاء على قيد الحياة»، ويُخرِج أيضاً iPod، وجهازَي هاتف أُذنيّ وزجاجة من روشيلت، قبل أنْ ينطلق مُسرعاً كصبيّ يُطلقُ طائرة من ورق. نندفع عند المنعطف إلى شارع أنالتر إلى أنْ نُصبح مجاورين للثقب الأسود لـ (*توبوغرافيا الرعب*).[79]، بأشجاره الملتوية والصارّة، وحوالقه اللولبية التي تصل حتى الرصيف. بالقرب من الطرف القصيّ من المبنى، بقعة ضيقة مهجورة من الأرض ينمو عليها عشب باسق تبقي الغاب خلف السياج، ونتوقف هنا، نلهث. يتفقّد توماس الطريق من الجهتين، ولكنْ

79- توبوغرافيا الرعب: اسم لمتحف داخلي وخارجي في برلين في ألمانيا. كان في السابق مركز القيادة للغستابو وللبوليس السرّيّ النازي، أداتَي القمع في الحقبة النازية. – المترجم

لم تكن هناك غير سيارته المرسيدس وحدها تجوس على بُعد مسافة إلى الخلف. يتحول انتباهنا إلى السياج، الذي ينخفض قليلاً تحت مستوى الكتف، والمُهلهل إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه يُحيط بما يُشبه الجحيم. يعثر توماس على بقعة يكون فيها أيضاً منحنياً، ويهزّه.

يقوم مع نخر بحني السلك، ويضغطه إلى أسفل من أجلي لكي أتجاوزه. ونختفي عن الزمن الحديث.

مع تقدّمنا نحو قلب البرية يتلاشى اتصالنا بالمدينة، ويلحّ الظلام ونضطر إلى تلمُّس طريقنا خلال الأغصان المتشابكة. كأنه موقع مأخوذ من حكاية عن الساحرات، أغصان متضافرة بخيوط، وجذور تمدّ براثنها نحو الخارج وتلامس أقدامنا؛ كأنها تحذّرنا من الاقتراب، وتهب ريح وترتفع لتهزّ أعالي الأشجار فوقنا. يُضيء توماس شاشة هاتفه، جاعلاً شجيرات مُخيفة تمدّ أذرعها، كأنَّ أفاعي ملتوية تراقبُ من الأغصان وثمة عناكب كبيرة بحجم الرأس.

تنشأ من هذا كلّه هالة من الخوف، لكنني أتبيَّن في قلبها شيئاً آخر، طنيناً عذريّاً مُسكِراً تماماً. ويتساءل عقلي ما هو، فأدركُ أنه ما يلي: لقد فصل المكانُ العقلَ عن الإدراك. إننا نطير على متن أدوات، لأنَّ الدماغ وحده يعلم أننا في قلب مدينة كبرى – الحواس ليس لديها دليل لدعمه، إذا ما اندفع أيّ شيء نحو الجهة الأخرى. هذا الصراع الداخلي يُنتِج جهده الحسيّ الخاص، لمسةً مما يشعر به الهابطون بالمظلات. يبدو أنَّ الأحاسيس لا تثق بالعقل، الذي ارتجلته الطبيعة بفجاجة كما هو.

بالإضافة إلى هذا فتحت الخطوط الجوية عبر الممرّ. والآن نحن نُفرِغُ الغابة من ضبابها، والطنين شديد الوضوح حتى إنه يدفعني إلى التساؤل إنْ كان الممرّ هو جزء من الخطّة. وأنظر أمامي فأرى توماس يُضيء الأجمات بهاتفه، وأُقدِّرُ مزايا كونه عبقريّ الهالة النورانية العظيم. ويزداد البرهان الصريح على ذلك، وهو وحده هنا مع براندي في العنوان الأشد بشاعة في العالم.

يُشير إلى حفرة تقع أمامنا. «*Achtung* حذارِ».

ثمة فتحة تقود إلى تحت الأرض من خلال حطام كرمة ودبش. نتوقف لكي نتعود على الظلام، وبعد بضع لحظات يظهر تكوين متناسق من القرميد والإسمنت. إنها فُسحة وسط الأساسات، تضم بساطاً من الأوراق الساقطة. ولسببٍ ما تغوينا بالجلوس، فنجلس، ونرفع ياقتينا ونشدّ معطفينا حولنا. وأفكّر كم هي نادرة فُرصة رؤية الطبيعة فطرية كما هي الآن، في أنقى حالات الهمجية والعماء، تتراكم الطفيليات، فوق طفوليات، فوق طفيليات؛ ما عدا طبعاً في السوق الحرة. يُضيء توماس علبة سجائره بهاتفه ويُشير إلى قطرميز صغير من الكوكايين، وحدّ موسى وبعض سجائر الحشيش أو السجائر العادية. أُخرِجُ علبتي وأجد فيها الشيء نفسه، لكنه يمنعني من فتح وعاء الكوكايين: في قعر العلبة يوجد مغلف من ورق السيلوفان يضم مكعباً من أسيد النشاف. يتناول الشَّفرة ويقطع زاوية منه لكلٍّ منا.

يقول: «الكوكايين سوف يُبقينا باردين. وهذا أيضاً سريع المفعول ويدوم مدة أطول. ولسنا في حاجة إلى الكثير منه، فقط ما يكفي لصنع مخيم قاعدة».

مخيَّم قاعدة. لا شك في أنها عبارة جديرة بعبقري. نتبع قرص المُخدّر ببراندي الفاكهة، ويُشعل سيجارة، فيتصاعد منها دخان لاذع يختلط بضباب الأرض، يرين علينا الصفاء، والدفء، ونحن ندخّن. أشعر بأنه هيروين. أجلس في مركز الغستابو أتعاطى الهيروين وأشرب براندي أحمر مع عبقري منتعش. كيف يُعقل هذا؟ أرى بعين عقلي أنَّ حبل التاريخ يمتدّ هنا من مطبخ مقهى صغير بعد انتهاء دوام المدرسة. يُمسك سميتس بطرف الحبل ويشدّ هذه اللحظة؛ لحظة في حياة العباقرة، والشهوات والحظّ الوحشي.

لكنني أجلس عند طرف حبله من دونه.

والآن حان دور توماس لأسحبه.

يناولني البراندي ويُشعل سيجارة حشيش. ويتبيَّن لي أنَّ ضياعي أضعف من حياة هؤلاء الرجال اليومية. هكذا اختزلتِ الثقافة روحي. إنَّ الضياع بالنسبة إليَّ هو مجرد ليلة يوم سبت بالنسبة إلى توماس. أسقط مُصاباً بالدوار على فراش الأوراق الساقطة، شاعراً بجهد الوعي على حواشيها. وأتساءل أيُّهما أشدّ بثّاً للرعب: الافتقار إلى الروح لكي تُحلِّق - أم الحصول عليها. بينما الريح الشديدة تهبّ من فوقنا، تومض عينا توماس في وجهي كعينَي غراب. لا بُدَّ أنَّ نقاشاتي الذهنية تسللت إلى الهواء، لأنه عندئذٍ يقول بغموض: «إنَّ الاقتصاد في المتعة لا يروق لي. والألوهيّة تتحقق من خلال الأحاسيس - وسواء أحصلت عليها من الإحساس أو من الانغماس فيه، فإنَّ الحياة تكون بمدى عمق إحساسنا».

لدى سماع هذا تتوهج الهالة النورانية. يستلقي على ظهره فأرى جانب وجهه، أرى شفتيه منفرجتين، وطرف لسانه يبرز. إنه الإنسان المُهمَل، تحول جسمه إلى أداة، بلا ادّعاء، بلا أيّ عِلم نفس. لقد فصلت المُسكرات التواصُل بيننا، نحن نفقان خاليان تهبّ من خلالهما الريح العاصفة. يلتفت ليراني أراقبه، ونبتسم لعِلمنا أننا اجتمعنا حقّاً. يصرّ قفصٌ فوقنا، والظلام يضجُّ من حولنا. عند نقطة ما يرنّ جرس هاتفه. يُقرِّبه من وجهه، فيُضيئه بلون أخضر مُخيف، لكنني لا أفهم ماذا يقول. أحاول أنْ أتفادى الشظايا المتناثرة من رنينه، لكنَّ الأمر ينتهي بأنْ تضرب كلتا عينيّ.

يتحول انتباهي إلى الطبيعة.

إنها تستدرجني إلى مخدعها، وأستلقي. بعد كلّ تعليقاتي البغيضة. القدر المُنتقم يُحررني، أو حبل سميتس، أو مقهى والدي الصغير، أو أرض اليمبوس، أو هيملر. هذه الليلة هناك إحساس بالتواصُل المثالي مع نظام ما - ولكن ليس واضحاً أيُّها. إنّها إشارة مؤكَّدة إلى طبيعة تكمن قريبة كرائحة البراز المنبعثة من الشيطان. والمؤكَّد أنَّ الأوراق والسيقان تبدأ تمتدّ نحوي، إنها تهتزّ وتدور وتختنق، والأرض تتعفّن وتصبح

سائلة تحت رأسي. وتتكشّف رؤيا - مفادها أنَّ الجحيم ليس حارّاً، بل الفردوس هو كذلك: حارّ وسائل، بينما الجحيم بارد وعفِن.

يُناولني توماس سيجارة فأتمسّك بها كأنها طوق نجاة. لكنَّ طرفها يحرق ثقباً في الظلام، وتُخلِّفُ بقعاً ملتهبة حيثما أوقفها، لا تزول. هذا هو عمل الهالة النورانية. إنني أحاول أنْ أُبقي السيجارة ثابتة على وجهي، أحاول أنْ أمجّ دون أنْ أنظر. ولكن في أثناء ذلك أسمعُ أصواتاً. شهقات وضحك مكبوت في الظلام.

بعد لحظة يضع توماس سماعة الأذن على رأسي.

يقول ببساطة: «رامشتاين[80]، باي-باي».

تُصيبني صدمة كهربائية تجعلني أجمد في مكاني: الإيقاع الثابت المتكرر لمسير القوات كتلة واحدة، (*لينكس، اثنان، ثلاثة، أربعة*).[81]، أعالي الأشجار تضجّ فوق رأسينا والأرض تهتزّ تحتنا لدى مرورها. ثم يأتي جحيم من آلات الغيتار. تدور عيناي في مِحجريهما. أغادر جسدي وأنضم إلى الهواء. تصل امرأتان، تجثم إحداهما لكي تغرز يديها فيَّ، مُبعثرة غازاتي الأساسية على الأنقاض. تطعنها بلسانها، وتختلط رائحة الأرض الكريهة برائحة عرق الفرج ورائحة القُبل لتُلصِقنا معاً، لتمتصَّنا، تخوض في سوائلنا إلى أنْ تُراق فاسدة على الأرض ونموت معاً، هنا لكي نتحلّل مع الطبيعة. آه، يا لهذه الهالة النورانية المنيعة.

لن تتراكب أجزائي بتآلُف من جديد.

أخيراً يغلبني نوم الأموات المتقطِّع، نوم الديدان، حتى وقت لاحق، في حياةٍ مختلفة، ويوقظني غلين ميللر[82].

80- رامشتاين: اسم فرقة موسيقية غنائية ألمانية. - المترجم

81- عنوان أغنية للفريق الغنائي السالف الذكر. - المترجم

82- غلين ميللر (1904 - 1944): عازف ترومبون ومؤلّف موسيقي وقائد أوركسترا أميركي. من مقطوعاته الشهيرة «*سيرينادا ضوء القمر*». انضم إلى فرقة سلاح الطيران الأميركي الموسيقية في أثناء الحرب العالمية الثانية. اختفى في ظروف غامضة في أثناء رحلة بالطائرة بين إنكلترا وفرنسا. - المترجم

سوناتا ضوء القمر.

الضوء يخز أعالي الغابة. الطبيعة المهيبة تُرخي قبضتها، لأنَّ الليل هو قَصْرُها، والأفضل قتلها وإيلامها. طيورها المتملّقة تُحاكي ساخرة الأرواح التي ماتت قبل طلوع النهار. معي هنا فتاة. أحضُنها، مادّاً يديَّ إلى ردفيها لأحشرها بينهما، إلى حيث لا زالت النعومة والدفء يختبئان. يستلقي توماس إلى جواري باسطاً ذراعيه وثمة امرأة أخرى تسترخي فوقه، تتململ. إننا بلا سراويلنا. يرفرفُ سروال داخلي نسائي مُبقَّع بالفودكا على غصن عالٍ فوقنا.

تتلألأ أشعة رفيعة من الشمس متسللة من خلاله.

لفتاة توماس شفتان غليظتان. لون ظلال عينيها الأحمر ينزف على وجنتيها. تمدّ يدها لتجر علبة من الأغصان المجدولة من خلال الأوراق الساقطة، يُخرِج منها توماس أكياس مصل الدم مع خراطيم ضامرة. يُعلّقها من شجرة، فينهمر غبار طلع الخوخ وتطرف عيوننا عندما تصل إلى أفواهنا. ثم يظهر براندي أميركي، ثم كما يحدث في غرفة الطوارئ تجري سلسلة من خطوات العلاج تُجبر أجسادنا على التلوي والتعبير عن الغثيان، والصداع، والنعاس، والقلق، والشبق والجوع، في مرحلتها الأخيرة يوزع توماس الكوكايين على كلّ منا، بدءاً بالفتاتين.

يقول: «خُذا، لأنكما مجرد شيئين بالنسبة إلينا».

تشخر الفتاة قائلة: «شكراً لله، وإلّا لاضطررنا إلى التظاهر باحترامكما».

تنفض أشعة الشمس الغبار عن هذه المرحلة من الشفاء. تُضفي على الهواء مذاقاً غُسِلَ حديثاً. نشعر كأننا برلين نفسها، نستيقظ أحياء بعد قصف عنيف بالقنابل. ثم تمنحنا شوكولاته لوينشتاين بمذاق الزنجبيل والليمون، الأمل، والسجائر تنعش الحسّ الفكه، وأخيراً ألاحظ أنَّ صديقتي لديها عينان ثاقبتا النظرة. مع هاتين العميلتين ترتقي قُدرات الحياة إلى مستوى حكومة مؤقتة، بما يكفي للحثّ على العناق والتقبيل

إلى أنْ تظهر البيرة من السلّة، مُبرَّدة بالطبيعة بصورة مثالية. وسرعان ما يجعلنا هذا العلاج الحاسم ندور حول أنفسنا خارجين من العالم السُّفلي كالحوريات والساطير[83]، والأرستقراطيين، وأبي الهول، والصبايا الرشيقات.

إنه الصباح الباكر في شارع آنهالتر. تضربنا المدينة وأشعة الشمس معاً كضرب الصنج. على الطريق تجثم سيارتنا تنتظر مع سائق جديد. وهنا تضربني لحظة تجلٍّ هائلة في حجمها، مُبهرة في تأثيرها حتى إنني أشعر بأنَّ بشرتي انقلب داخلها إلى الخارج بفعل الشمس، وأنَّ أعضائي الداخلية تمتلك خواص مغناطيسية قادرة على جمع مصائر هائلة معاً. والأمر على الشكل التالي: يمكن لأيّ أمر أنْ يحدث إذا أردتُ ذلك.

لقد أطاح السيد بشكوكي كلّها إلى الجحيم.

وليمة منحطّة في تمبلهوف - ولِمَ لا؟

تغرد الفتاتان *Gleisdrieck Gleisdrieck*[84] «*!*»، ونترك السلة وننطلق عبر الشوارع الخالية إلى أنْ تظهر فجأة براري من الرمال والشجيرات المنخفضة، ثم الغابة، وسكك حديد نما عليها العشب الباسق ومحطات متهدمة، هُجِرَت منذ زمن الحرب، نُسيَتْ بصورة ما في قلب برلين. تختفي المدينة، وتحلّ محلّها أراضي محطة قطار غلايسدريك هذه، التي كانت ذات يوم شبكة سكك الحديد الرئيسة بالنسبة إلى الرايخ. نندفع، بأحاسيس منفلتة، وأحذية منسية في غابة هيملر، نثرثر ونضحك على بقايا مُهملة، فوق كثبان رملية، بين الشقوق، نتبع إشارات إلى أماكن اختفت منذ زمن بعيد، إلى أنْ يصبح الصباح صوراً مُركّبة، رقصة شمس مرحة حيث ننهار أخيراً وسط دغل شاسع، مُعفّرين كرعاة البقر، نتبادل المداعبة إلى أنْ ننغمس من جديد في الجنس.

نستلقي بعد مرور بعض الوقت تحت حافة معشوشبة، نشعر بهبوب

83- الساطير: إله العربدة والشبق والانغماس في الشهوات عند الإغريق. - المترجم

84- اسم محطة للقطار. - المترجم

النسيم، نراقبه يُحرّك أهداب التنانير والشَّعر الأشعث - فجأة تتثاءب إحدى الفتاتين.

ينجلي الليل بنقرة واحدة كأنما بإدارة مفتاح.

سرعان ما نتقدّم في السنّ في ضوء النهار، زائرون نُحتَجَز في مياه ضحلة. تُحذّرنا ظلال طويلة بالابتعاد عن الدغل. وتزداد السماوات زُرقة، لا بُدَّ أنَّ علماء الطبيعة يجتمعون ليقتل كلّ منهم الآخر ويشوّهه. نسير على الدروب، مجتازين مخازن البضائع القديمة، إلى أنْ تعود المدينة أخيراً إلى الظهور من جديد، في أسفل آخر ضفة رملية. نجتاز جادة أمامنا وأدرك أنها يوركشتراسه. نحن في كروتزبرغ. وفي غضون دقيقة تهدر سيارة المرسيدس ونقع داخلها، تنطرح الفتاتان فوقنا وهما تقهقهان؛ ووسط سكون السيارة تجعلني رائحتهما المنحلّة أرغب في اصطحاب إحداهما معي إلى المنزل وأغفو مع علبة من الكعك. لكنني أشعر بأنَّ ذلك لن يحدث. حزن. إنهما فتاتان موهبتهما الوحيدة هي في القدوم والذهاب.

أُريحُ رأسي على النافذة. أُرسل نظري إلى سريري، إلى أنْ أشعر بعد قليل بأنَّ السيارة تُبطئ وتنعطف، وكأنها تتسلل مقتربة من عنوان ما، أفتح إحدى عينيّ. يلوح الـ *Zentral Flughafen* (المطار المركزي) بجوارنا كفتحة لإطلاق النار، لم يصِله بعد نور الصباح.

أنعق: «تذكَّر أنني أقيم في برنتزلاور برغ».

يعود نبضي إلى الحياة.

«سوف نتصل بالباسكيّ من هنا. أعتقد أنَّ المفاتيح معك، أليس كذلك؟».

-16-

«أنا لم أقُل أبداً إنَّ سجق فينر لا يُكلّف شيئاً. أنا أقول إذا لم نحصل على شيء مقابله، فإنَّ فينر أفضل من سجق بوكهورست. أي إنها تخلّت عن حوالي ثمانين سنتاً».

«وهذا سجق بوكهورست الذي كان في الأسبوع الماضي بستين سنتاً؟ إذن إنه يُصبح أكثر نُدرة كلّما استحال أخضر اللون، هكذا يجب أنْ تُصبح عليه الأمور في غرلند».

«آخ، جيزيلا، *Gott* يا ألله».

أرى من خلال الباب توماس ينتظر في السيارة، وثمة فتاتان تغفوان على كتفيه. إنَّ الحاجة هي أم الحماقة، وقد طلبتُ منه أنْ ينتظر عشر دقائق ريثما أُقدِّر أمان المعاينة. إذا لم أرجع بعد ذلك، فعليه أنْ يذهب بالسيارة على أنْ نتواصل في وقت لاحق من الأمسية. قبِلَ ذلك، بل ربما شعر بأنه عوقِبَ قليلاً لأنه تخيَّلَ أننا سوف نقحم نفسينا كأننا في حفل خاص بالرجال.

أرتجفُ بعيداً عن الأنظار عند المدخل. الغثيان يملؤني من الداخل، وقدماي الحافيتان ترشح برودة جراء قطع مسافة كيلومتر من الحجارة. شعري رطب ومُلتصق بوجهي. معطفي ارتبط بالطبيعة، وهو يجمع أوراق النبات والغصينات. بعضها يزحف. والنشاط العقلي الوحيد في مثل هذه الساعة يصدر عن اليسوعيين الذين يُقيمون على الحدود بين العربدة وآثار السُّكر، يغزل الكوابيس من أشياء بريئة. إنها تُشير إلى ما

يحدث: تصادم العوالم. في داخلهم عوالم مُطلقة، لكنها متنافرة. في المرسيدس عالم، وفي عربة بيع الأطعمة عالم مختلف تماماً.

وأنا في المنتصف، مع قضايا تتفاقم.

أسمع غيرد يقول عبر البهو الخالي: «هيا، إذا طبخته فسوف يكون لذيذاً. كانت أمي تأكل منه على مدى أيام».

«ينبغي أنْ تعرف، بعد موتها بعشرين عاماً».

«آخ، *Gott*. لماذا التعامل معك صعب جدّاً؟».

«صعب؟ إنني أحسب كم ستُصبح قيمة سجق بوكفرست في الأسبوع القادم. قد نتقاعد ونستقرّ في إيطاليا».

«أرجوك واجه الحقائق: هذا آخر شهر لنا في العمل، وينبغي أنْ نستغل الأيام المتبقية أحسن استغلال. يجب أنْ تكون أياماً حافلة، مع إغلاق المكان أبوابه، وامتلائه بالسياح ويعلم الله بماذا أيضاً. يمكننا حقّاً أنْ نُحرز تقدّماً. على أية حال، ماذا يُجبرنا على منح أفضل مخزوننا إلى غونار؟ ألا يرتشي رجال الشرطة؟ هل هو تدبير من المافيا؟ هل سيفجِّر عربة الطعام إذا أعطيناه سجق فينر؟».

«إنكَ ملك السجق. لا عجب أنك قادر على تكاليف قضاء العطل».

«آخ، لا تقُل هذا. إنَّ الرحلة هي دعوة لك إلى طبق شهيّ، انفصال عن كلّ شيء. ظننتُ أنك تحبّ كولنغسبورن؟ ربما هي ليست البندقية، ولكن مع ذلك الباوهاوس[85] جميل ويمكننا أنْ نمشي على شاطئ البحر، ونشرب البيرة. وبعد مرور هذا الشهر لن يكون الأمر سهلاً جدّاً، ورأيتُ أننا يجب أنْ نستمتع بالحياة قليلاً، بعد انقلاب عربة بيع الأطعمة. سيكون الأمر رومانسيّاً».

أشعر بالمرارة في حنجرتي. وأُقرِّر أنْ أنتهز فرصة وأعبر الردهة إلى المراحيض. ولكن حالما أخطو الخطوة الأولى يتلبّس صوت جيزيلا سخرية لاذعة، فأنكص عائداً إلى الجدار:

85- الباوهاوس: مدرسة الهندسة المعمارية والفنون التطبيقية في ألمانيا. - المترجم

«أوه، نعم»، وتبصق، «رومانسي جدّاً، وغوتفريد على شاطئ البلطيق. وإكراماً للأيام الخوالي نجلب عنصر البوليس السرّي[86] الخاص بنا لكي يُراقبنا».

«*Gott*، جيزيلا، **شششش** - إنه يقضي وقتاً صعباً. إنّه لن يدخل غرفتنا، نحن فقط سنقلّه إلى المكان. أنت تعلمين أنّه سيقضي النهار كلّه في *strandkorb* (كرسي شاطئ) مع بعض البراندي ومجلة تعنى بصيد الطرائد. هذه الإجازة كان المقصود بها إدخال البهجة إلى قلبك».

«ورؤيتي أكشّر كحصان كعكة العسل».

يشقّ أنين طريقه إلى صوت غيرد: «أنا شديد الأسف لأنها ليست ليلة في الكينو التي أردتِ طوال حياتك. ومع ذلك، فالحياة لم تنتهِ. إنَّ كينو لا زال موجوداً، ما زال في إمكاننا أنْ نحاول. لقد عملتُ جاهداً على أنْ تحصلي على كلّ ما تحتاجين. إنَّ الحياة ليست حلماً، يا جيزيلا! العصر صعب بالنسبة إلى الرجل العامل!».

«أوه، الرجل العامل العظيم، الذي يوظف أمواله في السجق. لقد أمضيتُ خمسة عشر عاماً أسخن سجق *Wurstchen* وأغسل الأكواب، والآن بعد أن انتهى الأمر لم أعُد أملك أيّ شيء. وأنت لا تملك أيّ شيء. ولا حتى المحمصة، أو الفرن أو الأطباق».

«لدينا آلة صنع القهوة. إنها ليست رخيصة».

«والدي هو الذي اشترى الآلة، يا غيرد!».

«ولكن لا أظنك تلومني؟ مجال الأعمال يعني المجازفة. هذا هو عنوان مجال الأعمال. المجازفة! أتظن أنني كنتُ أُخطط لكي نخرج خالي الوفاض؟ أهو ذنبي أنهم يُغلقون المطار؟ كان يمكن أنْ يكون الأمر بالعكس - لعل برلين تُقرر أنَّ هذا هو أعظم مطار وتملؤه بالطائرات حتى نُصبح أثرياء. ثم ماذا؟ سوف نرتاد الكينو في كلّ ليلة!».

86- المقصود هنا البوليس السرّي الخاص في ألمانيا الشرقية. البوليس القمعيّ. - المترجم

«هل أصبحت أعمى أيضاً الآن؟ انظر إلى المكان! إنه قبر! هل يَثرى الناس في قبر؟ أم إنهم يُدفَنون فيه!».

«باه، كفى».

«كفى؟ كفى! أنا أيضاً جازفت! كان يمكن أنْ أكون بعيداً عن هذا المكان! إنك تتمنى لو أنَّ الجدار ظلّ قائماً لكي تختبئ خلفه في الشرق! حيث لا تُضطر إلى تحقيق أيّ شيء في الحياة! كان في استطاعتك مع غوتفريد وكلّ أقرانك العجائز أنْ تمكثوا هناك تتهامسون حول كلّ شيء آخر من دون أنْ تُضطروا إلى تطوير أنفسكم!».

«لا تبدأ من جديد بالأيام الخوالي».

«الأيام الخوالي؟ ***تلك*** كانت أيامي أنا! ***تلك*** الليالي! كانت ***أياماً جديدة***، وكنتُ أوشك على الرحيل عن هذا المكان كالطائر!».

انخفضَ وجه غيرد مع انخفاض نبرة صوته: «باه. حسن، فلِمَ لم ترحل إذن».

«كان ينبغي أنْ أفعل!».

«كان ينبغي أنْ ترحل حينئذٍ. فلِمَ تضع اللوم عليَّ بعد مرور سنين عديدة على شيء كان عليك أنْ تنفّذه، لا أستطيع أنْ أنفّذه بالنيابة عنك».

«لأنني ***أشفقتُ عليك!***».

ووش بسرعة. يتبع ذلك صمت على هيئة أمواج صاعقة.

خلال فترة الصمت الفاصلة بين هذا ووقع حذاء رخيص، أرى عينَي غيرد بعينَي عقلي، تجثمان على حافة مثقلتيهما. يُنادي خلفها: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟ ماذا عن الرحلة؟ هل ألغيها؟».

«افعل ما شئت!» وتغادر جيزيلا عربة بيع الأطعمة. أحبس أنفاسي لدى مرورها. سيارة المرسيدس ما زالت في الخارج، لكنَّ طاقة جيزيلا مُخيفة جدّاً، احتكاك ولوجها إلى مجال جاذبية الأرض عنيف إلى درجة أنه يبتعد قبل أنْ تلمس السطح. الأشخاص في المقعد الخلفي لا

يحركون ساكناً. أراقب السيارة تنعطف نحو كولومبيادام، وينبعث مقدار ضئيل من البخار من أسطوانة المحرك.

مع عمليات المغادرة هذه يُزاح عبء عن كاهلي. آخذ بضعة أنفاس عميقة، وأنا أصيخ سمعي لأيّ صوت يصدر عن غيرد، ثم أنطلق عبر البهو. عند آخر الخطّ لا يوجد إلّا بضعة أشكال تتحرك في المكان، عجائز ينتظرون شيئاً قد لا يأتي. أهبط الدرَجات القليلة، وأنا أتلفت حولي. المراحيض موجودة أسفل بضع درجات أخرى إلى يميني، ولكن عندما أنعطف نحوها يسيل شيء حارّ على شفتي.

ألمسه، إنه دم.

أتوقف لأتلمّس أنفي. أرى شخصاً ضئيلاً يعبر الفسحة. ألاحظه لأنه يُبرِز رأسه بتلك الطريقة المُستفهمة الجديرة بالببغاوات والكلاب. بينما أحاول أنْ ألعق الدم عن وجهي، أو أمسحه بيدي وألعقه عنها، يتحرك الشخص نحو مرمى النظر. إنه امرأة شابة ترتدي معطفاً أحمر وتعتمر بيريه. تُخفِض هاتفاً محمولاً عن أُذنها وتضعه في جيبها.

إنها آنّا من عربة بيع الأطعمة.

أذهب لكي أتدثر بمعطفي لكنني أجد أنْ فتحة بنطلوني مفتوحة، وملابسي الداخلية غير موجودة، وحزامي لا زال محلولاً. تجيش كتلة من القيء إلى فمي. عندما أحاول أنْ أبتلعها، يبدأ أنفي يتدفق كالحنفية. أبصق الكتلة وأضع كمّاً مفتوحاً تحت أنفي، متظاهراً بأنني أتشاجر مع شَعري، مُحرّكاً جدائل بإصبعي.

تبتعد آنّا ببطء بضع خطوات، بوجه خالٍ من التعبير، وأخيراً تتوقف لكي تتفحّصني بنظراتها. وفي الختام تُشير قائلة: «لقد فقدتَ شَعرة».

أنزلتُ كُمّي. ويتدفق الدم إلى قدمي.

«هل تحتاج إلى سيارة إسعاف؟».

قبل أنْ أُجيب أُعيد الضماد إلى أنفي. يؤدي عمله بشكل جيد، لكنَّ

الدم لا زال ينتثر على الأرض ويسيل على فمي. تعلق قطرة من شفتي برهة قبل أنْ تسقط. أنعق: «أعتقد أنني في حاجة فقط إلى بعض الكعك».

تؤمئ برأسها بحركة بطيئة. «لكي تأكله - أم لتحشو به أنفك؟».

الآن يعمل الأدرينالين على إنعاش مفعول المخدِّر. أبدأ بالمشي بخطى خفيفة وينتهي بي الأمر إلى الانهماك بالرذاذ على الأرض. تقفُ مُحدقة إليَّ إلى أنْ أبدأ بالترنُّح.

تسأل: «أهذه ليلة يوم سبت طبيعية بالنسبة إليك؟».

«طبيعية جدّاً. ولكن أحياناً أخرج لأتناول مشروباً».

ألاحظ ارتفاعاً ضئيلاً جدّاً في الحاجبين. ليس مرحاً. لكنه ليس مرحاً. وتقول: «يمكن لغيرد أنْ يُحضِر لك كعكاً. هل تستطيع أنْ تعثر على المرحاض؟».

«نعم، شكراً لك. شكراً، آنّا، على ذلك».

«لا عليك» وتُشيح بوجهها، والمعطف يهتزّ بأناقة كجرس.

أتعثر وأنا أمشي إلى المراحيض. إنها نظيفة وخالية في مكانها تحت الأرض، كواحة منعشة حيث يمكنني وإياك أنْ نجتمع. يتردد صدى إفراغي في أرجائها - اغفر لي هذا - ثم يوقف الماء البارد نزف الدم، ويُنظّف بصورة أو بأخرى وجهي. أجلس بعض الوقت على المرحاض، مع دوار، إلى أنْ يُصبح الافتقار إلى الكعك حالة طوارئ. أعتقد أنَّ غيرد لا يعرفني معرفة يومية، لذلك قد لا يعتقد أنَّ حالتي غير عادية. إنه ليس في حاجة إلى أنْ يراني، إذا ما اقتربتُ من الجدار. أُثبِّتُ أزرار معطفي كلّها وأرتقي الدَّرَج.

يبتسم لي من خلال الزجاج (فريدريك)- ثم: «*Mein Gott* (يا إلهي) - ماذا حدث؟ أين حذاؤك؟ تعالَ، تعالَ، اجلس».

«أنا في حاجة فقط إلى كعك».

«*ها!!* - أبدأتَ منذ الآن بالتدرُّب على حفلتنا الصغيرة؟ قد تكون هذه الليلة ليلة صاخبة، هه؟ لكنكَ بدأت باكراً بمقدار اثنتي عشرة ساعة».

أرى آنّا تتكلّف الابتسام من الخلف.

«في الحقيقة سوف نُقيم حفلة خاصة أخرى بعد أسبوع أو نحوه. فإنْ بقيتَ هنا»، ينهمك غيرد في صنع القهوة، «حفلة أكبر، وهي الأخيرة قبل أنْ نغادر تمبلهوف. حفلة وداع. هل سبق لك أنْ أكلتَ *Berliner Kartoffelsalat* (سلطة البطاطا البرلينية)؟ سوف تصنع جيزيلا بعضاً منها، وهي أصلية تماماً. إنَّ جيزيلا طباخة عظيمة، في الواقع».

السُّكّر الذي يتضمنه كعك السنتات الستة يجعلني في حالة ثابتة من تأثير السُّكر. لكنَّ أحد الأعراض هو المزاج العاطفي، وسرعان ما يؤلمني صدري مع محاولات غيرد في مجال المرح، لعلمي بكلّ ما جرى. أشعر بأنَّ المعرفة تجعلني أشدّ قذارة لأنني أُشفق عليه سرّاً: إنه أشد ما يمكن لشخص أنْ ينطوي عليه من أسرار موهِنة، والاحتفاظ به ضروري. في الحدث، لا أحتمل، أختلقُ عُذراً وأستقل سيارة أجرة.

يهتف غيرد: «*هاا*، آمل أنْ نراك لاحقاً إذن!».

ألوِّح بيدي وأتسلل عائداً إلى سريري، حيث تُصمِّم آخر كمية سُكَّر ضئيلة في دماغي على حضور الحفلة. إذ مَن يدري ماذا سيحصل. حفلة صاخبة، لقد سمعتُه يقولها. وهذا يعني أنها أشدّ فخامة من عربة بيع الأطعمة. أليس كذلك؟

ومع ذلك أصلّي قبل النوم، أنعق: «أوه، يا بن الرب[87]، أيها النبيّ النوراني والعظيم، ادعم عربدتك. دع غضب الهالة النورانية في رحمتك،

87- فلنعترف أيضاً بما هو واضح: إنْ كانت قوة روحيّة تشكّل أساس الحياة الإنسانية، يبدو أنه يُفضَّل أنْ توصف عبر الآلهة الكلاسيكية، أي، مجلس من أصحاب المناصب ذوي المزاج المتقلّب يتحكم بمجموعة من الطبائع تتراوح بين الرقة والقسوة. ويجب أنْ نسأل برقّة أصحاب المذهب الأورثوذكسي: هل توحِي الحياة حقّاً بوجود قوة واحدة تهتمّ؟ إننا لا نستطيع أنْ نتجاهل الافتقار إلى التدخّل الإلهي في معظم الكم الهائل من المعاناة . وإذا كان لتلك القوة وجود، كن عمليّاً: هل سيكون الانبعاث من قبر هادئ من أجل الانضمام إلى إنجيليين خشنين ومعتدين بأنفسهم قدَراً يجب أنْ نهرع إلى تقبّله؟ - المؤلّف

فلتبدِّد الحفلة كلّ احتمال، دعها تزدحم في صالوناتها الملكية التي لم تُرَ منذ زمن الحرب وحرِّرها لأجلنا لكي نستعيرها عندما نشاء». سرعان ما تجعلني كلماتي المُثيرة للرثاء أنهارُ على السرير، وأستغرق في النوم. وتنقضّ عليَّ الأحلام كأمواج الإعصار.

يتراءى لي في أحدها أنني أبٌ في القرن التاسع عشرٍ يتمتع بمهابة كافية لجعله يؤسس عائلة مع آنّا. إنها تجلس بتزمّت وتحفّظ، كما تفعل النسوة اللواتي تعلّمن بأسلوب رسميّ فنون الجماع. لا بُدَّ أننا ارتبطنا بعلاقة جنسية مؤدبة، ربما عبر شق مُزخرف في غطاء السرير، لأنَّها تحمل طفلَين وليدين بين ذراعيها؛ واحد هو سميتس، والآخر غيرد العجوز.

يخطر في بالي أنْ أستفسر عن العطلة.

يسأل وكيل السفر: «بأيّ نوع من العطل تفكر، يا سيدي؟».

أجيب: «في عطلة في المحيط».

«فهمت»، ويفتح دفتراً كبيراً، مُستخدماً ذراعه الكاملة لكي يقلب الصفحة، «رحلة على متن سفينة بخارية؟ هناك رحلات ممتازة في هذا المجال، على متن سفن الرحلات وأيضاً - حسن، إذا سُمِحَ لي بأنْ أتجرّأ ــ على متن سفن الشحن، يا سيدي».

«أقلتَ سفن شحن؟ سفناً تجاريّة؟».

ضاق تحديقه من فوق نظارته. «إنَّ هذه يمكن أحياناً أنْ تزودك بـرحلة - هل نقول: (حميمة) أكثر. من أجل أولئك الذين يسعون أكثر ربما وراء عزلة الأعماق نفسها. إنْ صحّ التعبير، يا سيدي، طبعاً».

أصفع النضد. «نعم، نعم. يبدو أنَّ هذا هو المطلوب. حقّاً. وهل يصدف أنْ يكون لديك رحلات لا - كيف أُعبِّر عنها -».

«لا - تعود، يا سيدي؟ لا ترجع؟».

«همم. نعم. رحلات قد لا، بعبارة أخرى، لن ترجع بالمعنى الحرفي للكلمة، كما تُفهَم هذه العبارة بالصورة الاعتيادية».

«فهمت». يميل الوكيل مُقترباً مني أكثر، مرفرفاً بعينيه برهة. «فهمت،

حقّاً. أي في الواقع - تريد، إذن، حادث *غرق*، يا سيدي، أترغب في حجز مكان؟».

«في الواقع»- أنتصب في وقفتي - «بإسهاب، أعتقد. إنْ شئت».

اشرأبّ الوكيل برأسه: «إنَّ هذا يُضيق كثيراً مجال خياراتنا. ولكن، على سبيل المثال، أستطيع أنْ أعرض رحلة إلى - ماراكيبو، يا سيدي».

«آه - ماراكيبو!».

«نعم، يا سيدي، ماراكيبو. طبعاً - إنها فقط رحلة *ذهاب* إلى هناك. إذا فهمت ما أعني. سوف *تنطلق* السفينة على هذا المسار. بعد هذا الانطلاق، وبعون الله، والبلطيق هو كما هو، حسن، *إحم*». يتنحنح.

أداعبُ ذقني: «نعم، نعم. تمام. وهكذا كلّ الأرواح -؟».

«نعم، نعم. الجميع، كما يبدو. التصريح بهذا أمر مأساوي».

«إذن سوف نحن جميعاً - همم؟».

«أخشى ذلك».

وووش بسرعة - عندما أستيقظ يكون الظلام قد حلّ من جديد. سيكون هذا حلماً من الصعب التخلُّص منه، وسوف تُحيرني ذكراه على مدى زمن طويل. زيادة على ذلك استيقظت وأنا أعلم أنها عشيّة فرصتي الأخيرة. لعبتي الأخيرة. بعد بضع مراوغات، وخدع وبدايات زائفة، يصل طرف القمع أخيراً إلى أقصى مداه: هذه الليلة إما أنْ أنجح أو أموت.

أتململ وأتكئ على مرفقي وأضع خطَّي كوكايين، وأفكّر في مسألة الصلاة. إنَّ المنطق يقتضي أنَّ من الحكمة الاعتراف بالآلهة من عدم ذلك. قد يكون الخلاص مُحتملاً أو غير مُحتمَل، لكنَّ الحصول على بطاقة سفر لا يُكلّفُ شيئاً، هذا ما قرّره المفكرون العِظام. على أية حال، كان النبي الرائع يسوع شخصيّة حيّة في التاريخ، لا يمكن إنكار هذا. وكبرهان على تمتعه بقوة فوق بشرية جلبَ أفضل أنواع النبيذ إلى العرس في قانا - في الحقيقة تلك كانت الإشارة الأولى إلى مواهبه الخارقة:

«وقال له، كلّ إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذٍ الدون. أما أنت فقد أبقيتَ الخمر الجيدة إلى الآن. هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه». [88]

نعم: تبرز المسيحية من توهّج النبيذ. لقد كان النبي يتمتع بموهبةٍ سيطرةٍ لاأرضيّة هائلة حتى إنه سمح بإقامة حفلة عرس كاملة، إلى أنْ ذهب ضئيلو الحجم إلى المنزل، وانهار الريفيون. وأما الأقوياء فذهبوا بحثاً عن البيرة - وذلك قبل أنْ يُخرِجوا الزجاجة الأفضل. وهوه، كم ابتهجوا، وتبعوه.

قررتُ أنْ أرتدي الفرو ليكون طلسماً، وأُسرّح شعري وأُغرِق نفسي بعطر جيكي قبل أنْ أُقيّم شكلي في المرآة. لا شك في أنَّ ما سأرى هو شبح بين المحتفلين الصاخبين. أفكّر، قد يكون غيرد رجلاً متواضعاً، لكنَّ الحفلة هي حفلة، والحفلة الصاخبة في الحقيقة هي حفلة خاصة، كما قال - لا بُدَّ أنْ تكون ماجنة في أية لغة. أتناول جرعة من النبيذ على شرف النبي، وأستعدّ للقيام بالحركة الأخيرة - ولكن بينما أتفحّص منخري بحثاً عن الثلج يبدأ الهاتف بالرنين، فأتوتّر. وبعد أنْ أراقبه وهو يرتعش بضع لحظات أهرع خارجاً قبل أنْ يرنّ من جديد.

عندما أصل إلى تمبلهوف يكون الليل المُصقع قد حلّ. ينهض المطار ساكناً وقاتماً في وجه السماء المُضاءة بأنوار المصابيح، وهناك بضعة أضواء مُنارة في نوافذه، وهي كافية لنشر وهج بلون الجمر. أتوقف برهة، مُصغياً علّي أسمع إيقاعاً هادراً أو ضحكاً، أو أيّ ضجيج صاخب. ولكن لا شيء من هذا. تمتصني الجاذبية وأنا أتهادى مرتقياً الدَّرَج، فأجد أنَّ البهو أشد هدوءاً من المعتاد. وهذا يعني أنَّ الأنفاس المزعجة لشخص أكبر سنّاً، أو حتى تجعيد ملابس، يمكن سماعها من مسافة بعيدة. وقد تصادفَ أنَّ تلك الأنفاس المزعجة وتجعيد الملابس يمكن سماعها الآن. لفتت انتباهي إلى الجانب الذي توجد فيه عربة بيع الأطعمة من

88- إنجيل يوحنا: 2-10 و11.

البهو. هناك حفنة من الأشخاص في العتمة، من العجائز، رجال ونساء، يتحلّقون محدودبين حول الطاولات. ولا أثر لغيرد. أقفُ متردداً عند الأبواب، مستعدّاً للتخلي عن الأمر. وتعزّز هذا أكثر عندما تظهر جيزيلا شبيخت في عربة بيع الأطعمة؛ إنها ترتدي سترة من الجلد مع قميص كاوبوي من الجينز وتدهن وجهها بشكل مُسلّ بلون قرمزي متهور، في موقع فمها تقريباً. إنَّ منظرها يُثير المزيج نفسه من التعجُّب والامتعاض الذي كان يُثيره مشهد أساتذتنا عندما كنا نراهم يرتدون ملابس عادية في يوم الألعاب الرياضية؛ أي في وقت واحد مُبهر لأنَّ في استطاعتهم أنْ يكونوا أقرب شبهاً بالأشخاص العاديين، ومنفّر لأنهم يعتقدون أنهم مؤهلون لمحاولة فعل ذلك.

لا يلتفت أحد لينظر إليَّ. لعلها دماثة أهل الشرق القديم، حيث تنمو العيون على جانب الرأس. الحاضرون زوج من العجائز الأتراك ربما؛ وشاب طويل القامة يعتمر بيريه جديرة بولد صغير، كبيرة؛ ورجل عجوز أملس البشرة ضخم الجثة ذو قسمات وجه منتفخة وسيجار. عيناه تحمل نظرة متحدية: عينان زرقاوان شاحبتان جاحظتان تواجهان عربة بيع الأطعمة تُشبهان كُرات الكلَّة. لا بُدَّ أنهما قادرتان على بثّ رسائل من دون أنْ تتحركا، لأنَّ جيزيلا تشمخ برأسها تعبيراً عن انزعاجها منهما وتعطي الرجل بيرة. عندئذٍ، تتحرك الشفة السفلى، بمعزل عن باقي الرأس الضخم، وتُصدر نخيراً.

تلمحني جيزيلا في أثناء ذلك. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أنْ أقول إنْ كانت قد تعرّفتْ عليَّ، ناهيك عن أنْ تُظهِر لي أيّ دفء - إلّا أنها لم تُبدِ امتعاضاً، وأشعر بأنني أنجزت انتصاراً صغيراً. أقترب خطوة من المجموعة، فيرفع الزوج التركي عيونهما ويومئان برأسيهما. إذن، نحن في نادٍ فضفاض - موحش حتى الآن، نظراً إلى ما يحتاج إليه الليل، ولكن مع ذلك، هو يضم على الأقلّ عضواً شابّاً واحداً، يعتمر بيريه، مما يوحي بشيء أكثر مرحاً من الجلوس حول عربة الأطعمة طوال الليل.

أيضاً أعتقد أنَّ الوقت ما زال مبكراً من أجل أيّ أية عربدة حقيقية. ما إنْ أفكر في هذا، حتى يظهر شخص آخر أصغر سنّاً من الباب عبر الردهة. امرأة شابة ضئيلة ترتدي الجينز تحت معطف من الصوف، وقد قصّت شعرها الأسود قصيراً جدّاً. إنها تحمل حقيبة صغيرة، على عكس حقائب اليد الأخرى في المكان[89]، وخطواتها قصيرة وسريعة، تشبه خطوات سنجاب في خفّتها. إنها الفتاة آنّا. الفكرة تجعلني أحمرّ خجلاً، وكأنها يمكن أنْ تُخمّن الحلم الذي راودني بعد ظهيرة هذا اليوم.

أراقبها من زاوية عيني، لأنَّ زملاء المدرسة يظهرون أيضاً برؤية جديدة في يوم الألعاب الرياضية. إنها فتاة بقسمات وجه شبه عادية - على الرغم من العينين الواسعتين والخضراوين بلون الطحلب والشفتين الصغيرتين الجميلتي التكوين - لكنها قسمات أنقذها ما يشبه التصميم، النوع الذي تراه في عيون بعض أطفال السنوات الست المحسوبين رواقيّاً على البالغين. هذا الحسّ بالهدف، الذي يتبدّى في الافتقار إلى الحياء، إلى التحديق المباشَر، يمتزج مع لمعان الشفة ليجعل من ظهورها هنا كظهور يراعة في كهف. ولكن بينما أستعد لاستقبال هذه البوادر المُحتملة، مُعتقداً أنه لن يأتي المزيد مثلها ليُقارب العدد الأدنى لتشكيل حفل صغير، تبتسم للفتى ذي البيريه، ويُلوحان بأيديهما للمجموعة الصغيرة - يُغردان «*Tschuss! Tschuss!* إلى اللقاء! إلى اللقاء!» - ويبتعدان داخل المساء.

تنادي السيدة التركية: «ليلة هانئة. ابقيا دافئين».

بعد أنْ يخفت الهمس الذي دائماً يتبع الشبان - «إلى أين سيأخذها،

89- لاحظ أنَّ حقائب اليد تأتي بأحجام تتناسب مع سنّ حاملتها واهتماماتها بالأشياء عموماً. الشخص العجوز يحتاج إلى دعم أكبر من الأشياء الخارجية مع انحدار قِواه الداخلية؛ بالإضافة إلى أنَّ حساسيته اتجاه ذلك الانحدار يجب أنْ تؤدي به إلى أنْ يتخيَّل المزيد من كبح جماح النفس المرعب. وهكذا يمكنك أنْ تضع في حقيبة جيزيلا علبة عدّة سبّاك، وفي حقيبة آنّا تضع فقط قطعة حلوى إصبعية بالشوكولاته. - المؤلف

حتماً هو أيضاً لا يحبّ الشِّعر؟»- «كلّا بل هي التي تأخذه إلى عرض للكراريس القديمة في شارع كارل ليبنخت. أستطيع أنْ أفكِّر في طريقة أفضل لقضاء يوم جمعة، لا بُدَّ أنه متحمس»- «إنه أبعد ما يكون عن الرقّة، مسكينة الفتاة - إنها شديدة الرصانة، لكنني أشعر بأنها الوحشة، أنا متأكّد من أنَّ هذا هو سبب تحفّظها»- وحدها الأنفاس المزعجة وجعيد الملابس يبقى. بعد بضع دقائق يصل زوج جديد، أيضاً من العجائز، مع مركزَي جاذبية بالقرب من صدريهما، ثم زوج آخر من قصيري القامة، بطولين وحجمين متطابقين كوعاءَي الملح والسُّكّر، وبرأسين مربّعين.

بعدهما يأتي رجل بدين. بينما أتأمّل رأسه الأصلع، وشاربه الأشقر الخفيف مقارنة بشارب غيرد، ووجهه المُشرق - يُذكرني شيء ما فيه بالسِّمة المُهلكة لمحاولة الليل:

الرجل يرتدي زيّ بحارة رائع.

هو أيضاً يحمل لوحة مفاتيح إلكترونية من النمط الذي يُصدر إيقاعات صغيرة وأنغام عبر أزرار مكتوب عليها (سامبا)، (بوسانوفا)، (كويكْستِب) و (فركستوروت). قبعة البحار مُعلّقة من لوحة المفاتيح، تتدلى منها.

عندما يدخل غيرد يكون حماسي قد فتر.

في الحقيقة يجب أنْ أتوقف هنا، يا صديقي، وأُعِدّ المشهد التالي. إذ لا فائدة من ملاحظة قلبي الذي يغوص، ومصائري المتردّية، لأنَّ الأمثلة ستكون عديدة ونبرتها شديدة الكآبة بحيث تعجز الكلمات عن التعبير عنها. بدل ذلك، وكما تعلم وضعي جيداً، سوف أَسرد ما يلي بينما أشاهده يحدث:

يدخل غيرد بزيّ قبطان بحري شديد الضيق عليه، ويعتمر قبعة شديدة الضيق، تجثمُ على قمة رأسه كفطيرة. ويُكشِّر كاشفاً عن أسنان مُصفرّة، كالشَّعر الخشن، مع غمغمات الاستحسان من الجماعة المتحلّقة حول عربة الأطعمة.

بين الدول والمجتمعات، في المدن، والمناطق، والشوارع وحتى الأبنية، قد يحدث أحياناً أنْ تشكِّل مجموعات إنسانية حالة ركود تفسد مع مرور الزمن وتُصبح ذات طبيعة خاصة بها. هذا ما حدث هنا. وأُدرك بجلاء تامّ أنَّ لا شيء مما قد أشهد بعد ذلك مألوف بالضرورة في ألمانيا أو برلين، ولا في تمبلهوف أو حتى للإنسانية نفسها؛ بل إنني تعثّرتُ ببركة صغيرة كريهة خارج دفق الحياة العارم، حيث يتردد أحياناً صدى سقوط قطرات، حيث الأشكال تكمن وحيث الدفء في الماء يمكن أنْ يُثير الريبة.

«فريدريك، لقد نجحت! *هاا* – وبحذائك!».

أراقبُ قلنسوة غيرد تهبط الدَّرَج بينما جيزيلا تقترب من عربة الأطعمة. أمام هذا المشهد يقف أعضاء مجموعتنا المتنافرة رتلاً عبر البهو خلف القبطان، ليس لولوج الموقع الشاسع ذي الأعمدة، بل أمام المطعم المتنقّل الصغير المندسّ في زاوية قصيّة من الخطّ النهائي. نضده مُغلق، وكراسيه مقلوبة وموضوعة على الطاولات. وعند أحد الجدران تستند خزانة على منصّة تحتوي بعض زجاجات النبيذ الرخيص، وطاسين من سلطة الباستا، وطبقاً من السجق البارد المُقطَّع، وسلّة من لفائف الخبز، وبُريج من أكواب البلاستيك ودلو نفايات.

يُجلِسني غيرد بجوار الرجل الذي لا يُحرك ساكناً، الذي بتُّ أعتقد الآن أنه كان يكنس المكان هنا في زيارتي الأولى. يقول: «هذا غوتفريد بيتش»، ثم يقول للرجل: «هذا *غابرييل، من إنكلترا*».

ينخر غوتفريد: «*Ah so, Er sieht aus wie ein Walross*».

«هاا – يقول إنك تشبه حيوان الفظّ».

أنظرُ إلى معطفي: «همم – ها ها».

تفوح من غوتفريد رائحة قوية هي مزيج من عطر الجسم والبيرة، ويُعطي إحساساً بأنه يستطيع أنْ يستوعب العالم من خلال حوافّ تحديقه. بعد مرور بضع لحظات، وعندما أجد أنَّ الطاولات الأخرى محجوزة،

تأتي امرأة عجوز شبه كروية لتنضم إلينا. اسمها ماغدا، وتجثم على حافة كرسيها كأرملة تلتزم بالواجب كانت تتبعُ زوجها ذات يوم أينما ذهب، ربما على مدى عقود، وذلك قبل أنْ تكتشف الجانب المُرعب من شخصيته، لأنها الآن باتت قادرة على نقل جسمها إلى مكان ما دون أنْ تعترف بأنها موجودة. فلا هي تمكث ولا تغادر، ولا هي تبتسم ولا تعبس.

لا هي تراني ولا تأبه لي.

سرعان ما أستأذن متظاهراً بأنني أهتمّ بلوحة المفاتيح. وبينما غيرد يُعدّ خشبة مسرح صغيرة، ويقيس أطوال الكابل بين يديه، ألاحظ أنَّ حركاته أصبحت أكثر ارتياحاً، ليس على الرغم من التقدُّم بالسنّ، بل بسببه؛ فجسمه لم يعد ينحني ويلتوي، بل يتحرك من الحوض كرافعة. يبدو أنَّ لسنّ النضج فوائده، ولعلّ الحركة من الحوض هي إحداها، على الرغم من أني لم أكن قد سمعت وصفاً لها[90].

يُقدِّم زميله البحّار، «غابرييل، هذا ديتر شتراسمن»، ثم يميل عليَّ هامساً، «الليلة سوف نتنبه لغوتفريد، في حال تساءلت - إنه يعيش حياة صعبة حاليّاً، وليس له أصدقاء حقيقيون. لذلك هو في حاجة إلى مشروب، ليس الكثير من المشروب، كما تعلم»، تمرُّ نظرته بسرعة على ذلك الشخص الوحيد. «إذا تحدثت معه سوف يُحاول أنْ يهديك إلى الاشتراكية، ها أنا ألفتُ انتباهك منذ الآن. ولكن فيما عدا ذلك هو جيد، رجل حاذق جدّاً، يجب أنْ ترى ما يبني في ورشته».

90- إذا تجاهلتَ قدوتي واخترتَ طريق التحلل الجسدي، لعل ليس كلّ الأخبار سيئة. فبينما الجسد يذوي عن عِظامه، فإنَّ العملية المُسمّاة حياة يبدو أنها تستمرّ في الداخل. وكما اكتشفت من ملاحظاتي، فإنَّ ما يحدث هو عملية إنقاص، كما في مخزون اللحم. ومع حلول موعد الاحتضار، لا تبقَى إلّا الأملاح الأوليّة والمُستخلصات. يبدو أنَّ أي حياة تقطر الشخصية هكذا، مهما احتوى وعاء المرء. لذلك فإنَّ المتلاشي، والواهن، والمُدمن سوف يُقطِّرون؛ ولذلك هل يحقّ لنا أنْ نفرض معايير عليهم أو على أيّ شخص، سواء بدافع الإحسان أم النظام الاجتماعي؟ كلّا، لأنَّ الحياة هي ذلك التقطير وحده، وتستمرّ متجاهلاً أيّ شخص، بما فيها من مكونات. - المؤلف

يقول ديتر: «ها، غوتفريد العجوز، ما زال يتعافى».

«ششش»، يُشيح غيرد بنظره بعيداً، مُضيفاً بصوت عالٍ، «ولاحقاً نُجرّب نبيذك، هه؟ عظيم. نبيذ أسترالي، يا ديتر، من غابرييل. وانظر – إنه شيء مميّز» ويُشير إلى سلطة الباستا، وعندما يرى جيزيلا تتسلل من الخلفية، يهتف: «*Was ist das -?* ما هذا؟».

تهتف بدورها: «*Italienisch*».

يقول متفاخراً: «إيطالية. إنَّ جيزيلا طباخة عظيمة».

يتكوّن السائل ببطء في السلطة. وتباشر لوحة المفاتيح في عزف لحن مُصاحب من نفخ البوق، والإيقاع، والصرير وقرع الطبول.

يسأل غيرد: «هل سبق لك أنْ سمعت *Klaus und Klaus*؟ إنهما ثنائي شهير من هامبورغ».

يتجهم ديتر: «*Nee*، كلاوس بومغارت هو من أولدنبرغ».

«نعم، أوكيه، لكنَّ الثنائي هما من هامبورغ. وإلّا فلماذا يرتديان ملابس البحارة ويغنيان عن شاطئ بحر الشمال؟».

«إنَّ أولدنبرغ مجاورة لبريمن – ما هو الشاطئ القريب من بريمن في اعتقادك؟». يُدير ديتر عينيه في محجريهما ويهزّ لي رأسه المتورد.

«كنتُ أنوي أنْ أخبرك أنَّ ديتر كان عضواً في فريق الثناء على ***كلاوس أوند كلاوس*** في لايبزيغ. ولكن فجأة إذا به يُصبح أيضاً بروفسوراً في الجغرافيا العالمية».

يقول ديتر هازئاً: «*Ja, Ja*، وكأنَّ بريمن مكان يقع في آخر العالم».

تتنحنح سيدة عجوز لطيفة تجلس إلى طاولة قريبة، مُشفقة على كوني أجنبيّاً، وتقول: «جميلة جدّاً، بريمن – لا بُدَّ وأنك سمعتَ عن الجامعة؟ إنَّ شهرتها تصل حتى الصين. إنَّ بريمن أضحتْ حقّاً مركزاً للتميُّز».

يقول مواطنها: «*Ja*، إنهم يصنعون بيرة بكس. بعد أنْ تشربي كأسين منها تشعرين بأنكِ متميّزة».

يقول غيرد: «على أية حال، نحن بمثابة فرقة ثناء على ***كلاوس أوند كلاوس – غيرد أوند غيرد***. يبدو لقباً معقولاً أكثر من ***ديتر أوند ديتر***، ألا تعتقد؟ على الرغم من أنه يستغرق منا عشر دقائق من العمل لشرح السبب في أنَّ ديتر يُدعى أيضاً غيرد».

يقول ديتر: «وأيضاً نحن لسنا من هامبورغ».

«باه، اخرس». عندئذٍ يُباشر غيرد بالعمل، مُخرِجاً زجاجتين صغيرتين من نبيذ أوندربرغ من بذلته ويُعطي واحدة لديتر، الذي يتراجع في حركة رعب ساخرة. بعد أنْ يشربهما غيرد معاً، يترنح مبتعداً عن ذراع ديتر، يحثّ الغمغمات من الأرض:

«الآن أصبح سكران، أوتو، انظر، *oh Gott*».

يعمّ إيقاع ثقيل من نفخ البوق يساراً ويميناً ويتخلّله ضرب الطبول. ومع عودتي إلى الطاولة تنظر إليَّ ماغدا وجيزيلا معاً بصورة غريبة. أدركُ أنَّ وجهي قد تلوى بتعبير رعب، وكأنني أشاهد جرواً يحتضر. فأصحح تعبيره وأجلس بجوار غوتفريد. ينخر عندما أجلس.

ثم أبدأ أعبُّ أكبر كمية من المشروب.

خلال هذا الوجه الخالي من التعبير أراقبُ الهالة النورانية ترتفع ببطء في فضاء الخطّ النهائي، مما يُثير مشكلة الفلسفة قبل أيّ شيء: هل الهالة النورانية للمتع الصغيرة تعادل أشد أنواع العربدة القاسية؟ ما الذي يفصلنا نحن الذين نتوق إلى المواد إلى درجة الإفراط المُهلِك عن أولئك الذين يسترخون مع نفير البوق والنبيذ؟ مَنْ منا أكثر سيطرة على هالته النورانية؟

يحتاج حتى الاقتراب من المسألة المزيد من المُسكرات القوية، إلى أنْ نحصل على جواب. مهما كان الأمر: من المستحيل تنظير أيّ شيء في حضور نفير البوق. وسرعان ما ينقضّ علينا كوخ بحري مملّ، ويشرح البحّارة مازحين لماذا يُسمى ديتر أيضاً غيرد. ويتدفق النبيذ

ويغني الجميع أغنية (هناك حصان في الرواق)، إلى أنْ يرتعش الصرح الذي كان ذات يوم الأضخم على وجه الأرض من المرح. ألتفت لأرى غوتفريد يتمايل باعتدال، مردداً الكلمات بتجهُّم. يجرُّ أحد حراس الأمن كرسيّاً وهو يومئ برأسه، ويرتفع جبين ماغدا بين أبيات الأغنية، وحتى حذاء جيزيلا الطويل يهتزّ يميناً ويساراً، حتماً على إيقاع فهم أنَّ وقت الفراغ يُساعد الصحة مثل شاي الجنسينغ أو الحقنة الشرجية.

الهالة النورانية هي هالة نورانية وأكافح لكي لا أرتفع.

آه، يا لدفق الحماس الوحشي. تنهض امرأة بدينة لترقص، وتنتزع زوجها عن الكرسي، وتضغطه حتى تسحقه على صدرها، وتؤرجحه إلى الأمام وإلى الخلف وكأنه دمية عرض الملابس. بينما جسم غوتفريد يذوب إلى جانبي، تنفتح حولنا مساحة مكشوفة بفعل الرائحة. هذا كلّه يحدث بينما سميتس يضع لوائح طعام أوليّة في اليابان.

ثم حلَّت فترة استراحة دعاني غيرد في أثنائها إلى فتح زجاجته من ماريوس. فقط بعض الرجال وماغدا أبدوا اهتماماً بتذوقها – ومن بين هؤلاء وحده غوتفريد طلب ملء كأسه من جديد. وبينما أصبّ له يمدّ يده ليتناول الزجاجة ويتفحّصها، وعندما يشرب الرشفة الأولى يرفّ جفناه بسرعة. ويبدو كأنه تجمّد برهة، وأتجمّد أنا إلى جواره؛ ثم يتحول تحديقه إلى الأعلى، «*Sehr gut - Dankeschon* جيد جدّاً – شكراً منذ الآن».

وهكذا تتواصل الأمسية، يتصاعد الحديث وينخفض، والطعام يُستهلك عن آخره، وتهدأ الفكاهة وتضعف النكات. يتوهج جسمي بفعل النبيذ، ويطن بآخر غرام من التسلية الحادة. يستقر السُّكر في الأطراف، يجعلها أشبه بالأدوات، بينما يصفو ذهني ويقرع من شدّة الضغط. بالنسبة إلى كلّ شخص آخر، ترتفع الهالة النورانية وتحلِّق برهة؛ ليس بغطرسة بل بأصالة، وكأنما مسّهم، كالحياة، الحزن الذي يجب أنْ يخبو قبل حلول الغد. وعند رحيل أول زوج، يبدأ ضجيج

الضيوف ودوامة من عبارات الوداع المطوّلة عند المائدة العامة. ويدور هدير الهمس حول مَنْ سيرافق غوتفريد إلى المنزل، أو إنْ كان في حاجة إلى قطعة سجق أخرى.

هنا أختم هذا المشهد، يا رفيقي العزيز، وأنا توّاق إلى الموت، بل وأتساءل أين أترك رسالتي الأخيرة. وهكذا تنتهي حفلة غيرد شبيخت المنحطة الخاصة. سوف ينتابنا أنا وأنت الشعور نفسه حول الأمر، ولست مُضطرّاً إلى قول المزيد. وفي كلّ الأحوال سوف يحدث بعد ذلك أمر أشدّ إثارة للاهتمام بكثير.

يمدّنا الليل بلعبة أخيرة مُذهلة بحدّ ذاتها.

يلوح لنا غيرد من خشبة المسرح. «يا شاعر! تعال وساعدني، وسوف أريك شيئاً».

يطوي الطاولة المنصوبة، ويدعوني إلى تقديم المساعدة مع مُكبّر الصوت. يمسك ديتر لوحة المفاتيح ونعبر الردهة الرئيسة، مارين بلوحة مواعيد المغادرة العالقة على رحلة إلى ساربروكن، وننتقل إلى مهوى الدَّرَج الذي يهبط مسافة ثلاثة طوابق إلى باب الأمن. هنا في أعماق المبنى الضخم يُخرِج غيرد حزمة من المفاتيح.

يُقعقع الباب ويُفتَح.

تمتدّ طريق سريعة تحت الأرض أمامنا، وإلى جوارها خطّ سكة حديد، وقد رُصِفَت الأرض بين مساراته بالحصى، منعطفاً في المدى البعيد خارج مرمى بصرنا. أترنح عند الباب، وأنا أحدق.

تسري الرعشة في جسمي.

يقول غيرد: «أتـرى، هنا يوجد أكثر من خمسة كيلومترات من مستودعات التخزين والأنفاق، بُنيتْ من أجل الرايخ الثالث. مَنْ يدري إلى أين تُفضي. إنها معقدة جدّاً».

نخبئ الجهاز الموسيقي بالقرب من مهوى الدرج، حيث أستعرض،

بينما يتسابق ذهني ليهضم ما رأيت، أرفف المخزن، مُحاولاً أنْ أستعيد هدوئي. الغرفة ممتلئة بما يمكن استهلاكه في عربة بيع الأطعمة – أكياس السُّكّر الصغيرة، الشوك البلاستيكية، بعض الممسحات والمكانس، وعلبة عليها كتابة بالصينية ونجوم تتفجّر.

أقول: «كأنها ألعاب ناريّة»، لأسمع إنْ كان صوتي لا يزال فعّالاً وأيضاً لأبدي اهتمامي بالعلبة – لأنه يخطر لي أنَّ هذا لا يمكن إلّا أنْ يكون العقدة التي توقّع توماس أنْ يؤمِّنها. كيلومترات من العالم السفلي القوطي السامي.

يومئ غيرد برأسه. «نعم، هي ألعاب نارية. من أجل إقامة حفل وداع المطار».

يسأل ديتر: «صواريخ؟ سوف أستجدي بعضها من أجل عيد مولد هايدي».

«لا يمكن تجزيئها، إنه عرض ألعاب نارية متكامل».

«أه – حيث أشعلتَ العلبة توّاً؟».

«بالضبط». يُطفئ غيرد النور. «إنها مترابطة على شكل سلسلة، وتنفجر في وقت واحد كرقص الباليه. شيء بارع حقّاً، يُساوي ستين يورو. سوف نُطلقها عند منتصف الليل، إيذاناً بانتهاء عهد المطار. فلنشرب الكأس الأخيرة في صحة المكان».

يقول ديتر: «قبل بضعة أسابيع أشعل اليساريون في الشارع الذي أُقيم فيه واحداً من هذه الألعاب داخل سيارة بورش. يا يسوع المسيح، لو شاهدتم ما جرى، لقد انفجرت وتناثرت أشلاءً».

«سيارة بورش؟ فقط بفعل ألعاب نارية؟».

«كلّا، نعم، شيء لا يُصدَّق، أنا أيضاً لم أتوقَّع ذلك. ما تصورته هو أنَّ السيارة كانت مُحكمة الإغلاق بحيث إنَّ الانفجار سبّب ضغطاً صادماً وفجَّر كلّ شيء. ثم اندلعت النار في كلّ شيء. وانفجارات

خطيرة، شهدناها جميعاً. وبعد عشر دقائق بدا كأنه هجوم نووي، ما كنتم لتصدقوا».

يسكت غيرد برهة. «أليس من المُفترَض أننا من اليساريين؟».

«حسن – حسبت أننا ماركسيون–لينينيون».

«وما الفرق؟».

«مَنْ يدري. ربما يكمن في سيارة البورش».

«نعم، حسن. إذا لم تقابلوا أيّ يساريّ قبل حلول عيد مولد هايدي، فإنّ غوتفريد يعلم من أين يحصل على صواريخ رخيصة إذا احتجتم إلى أيّ منها».

«ها – في استطاعته أنْ يحصل على دبابة إذا شئنا».

«مع أنَّ في حوزتي بعض المفرقعات هنا متبقّية من عيد أول نوّار». يوصد غيرد باب المخزن ويقودنا في طريق العودة إلى نفق الطريق السريعة.

«شكراً. سوف أبحث عن الصواريخ – الحجم هامّ بالنسبة إلى هايدي».

«وانتهى بها الأمر إلى الزواج بك؟ *هاااا!*»، وننتقل على طول الطريق السريعة إلى باب حديدي آخر، يفتحه غيرد واسعاً.

«وانظروا»- يُضيء الأنوار فوق الرؤوس.

أترنّح على قدميّ. يمتدّ أمامنا مركز تجاري عبر صفوف من الممرات ذات الأقواس الثقيلة، قوس بعد قوس بعد قوس، وكأنها تتكرّر عبر مرايا وإلى الأبد. وتعِدُ ظلال بعيدة بوجود المزيد من الممرات، والقاعات، بعيدة عن النظر.

إنه قصر حمراء تحت أرضي.

يقول غيرد: «إنه من عام 1935، مستودع لتخزين معدات المطار. ثم لديكم مستودعات لوفتهانزا، مستودعات للأطفال والنساء. مراكز

قيادة القوات الأميركية - إنها بلدة تحت الأرض، المُجمَّع له حتى ألعابه المائيّة الخاصة ومصنع لتوليد الطاقة، مُستقل عن مدينة برلين». ويقودنا خلال منطقة مكتظة بالصالونات. «انظر - أترون رسم الرجل السكران؟ أترون الكتابة؟ إنها أصلية من حقبة الثلاثينيات. لم يُلمَس أيّ شيء منذ سبعين عاماً».

على الجدار رَسْم لجانب وجه رجل، الرأس يميل إلى الخلف، يكاد يكون عموديّاً وهو يُفرِغُ محتوى زجاجة في فمه. أنظرُ حابساً أنفاسي.

أيقونة مُبهرة.

نعود إلى المركز التجاري الأول حيث تشكل الممرات ذات الأقواس حُجيرات مُقنطرة تؤدي كلّ واحدة منها إلى الأخرى، دون توقف داخل المدى، وكلّ منها فسيحة بحيث تصلح قاعة طعام، أو قاعة استراحة، أو حلبة رقص أو ما شئت. إنه انحطاط أسطوري تحت أرضي، قصر قوطيّ، خالٍ، يرين عليه السكون، وبلا نوافذ.

ساكن سكون قصر الموت.

مع معبود نورانيّ.

وووش بحركة سريعة.

إنّه أرض العجائب.

-17-

الطائر المبكِّر يحظى بالدود، هذا هو شعار **سيد يمبوس**. إذن أستيقظُ في صباح هذا اليوم مع الطيور، والأطفال الرضَّع، والسعادين ورجال الأعمال، بل وأرتدي بذلتي لكي أنضم إلى عملاء الامتياز الجائر بتحويل النهار حسب إرادتي.

المهمّة: الحصول على مفاتيح أرض العجائب.

لأنَّ شيئاً ما ظهر لي في الليل: مفاده أنَّ هذه ليست مجرد مفاتيح تفتح أرض كوكيني[91] تحت أرضيّة، إنها لا تفتح ببساطة الطريق إلى وليمة سريّة، إلى إطلاق سراح صديق، أو موت مُرفّه - ولكن أيضاً تفتح أرض يمبوس الرأسمالية الحديثة في أعمق تكويناتها وأشدّها هشاشة. في قلبها وروحها.

لعل قِوى الأسـواق نصبت لي ولسميتس فخّاً، لكنَّ الملائكة، والشياطين، ودفقات الحماس وحالات اليمبوس تحتشد الآن إلى أنْ تصل إلى هذه الذروة الأسطورية، وتصل إلى مرحلة نهاية اللعبة. المفاتيح لا تفتح أقلّ من عِرق من إله الغرب.

لا أفهم، وأنا أشرب نبيذاً مُخفّفاً، لِمَ رفضَ غيرد أنْ يُعيرنا إيّاها. إنني أتخيّل ثلاثة سيناريوهات، بالاعتماد على استجابته. لو أنه يُعيرُ بكلّ سرور المفاتيح لمدة غير مُحدَّدة، أستطيع أنْ أدعو توماس إلى الحضور وأُريه

91- كوكيني: في أساطير القرون الوسطى في أوروبا: أرض الرفاهية والاسترخاء الوهمية. - المترجم

المُجمَّع. وهذا سيُنهي دوري في الصفقة وأضمن إطلاق سراح سميتس. ولو أنّ غيرد أكثر تردّداً، ويُعيرُ المفاتيح لمدّة مُحدَّدة، فسوف أهرع لأصنع نُسخاً منها في كروتزبرغ، وأعرض المكان على توماس لاحقاً بعد إغلاق عربة بيع الأطعمة. ولو أنه يُعيرها فقط لبرهة من الزمن، فسوف أفتح الأبواب وأُفسد أقفالها، وأسندها بورق كرتون لكي ألجها لاحقاً.

في صباح هذا اليوم أيضاً أيقظني رنين الهاتف، بعد بضع محاولات في أثناء الليل، بما أنه كان مدفوناً تحت أغطية السرير والمناشف. يبدو هذا أفضل من نزع الفيش، لأنَّ هذا قد يُشير إلى تهرّبي. وفجأة أُصبِحُ شاباًّ نشطاً، لأنَّ السيد يسعى لتلبية رغباته – ولكن عندما يُضيف النموذج الاستراتيجي لهذا اليوم ثقة متجدِّدة، أستخرج الهاتف بعد الرنّة التالية وأُجيب.

أُدهَشُ لأنه ليس توماس، بل شخص يُدعى توشيتو.

توشيتو ساتو من طوكيو، يقوم بالتمهيد بصورة مُهذّبة.

يقول: «سوف نمْثُل أمام المحكمة في يوم الاثنين، السابع والعشرين من شهر تشرين الأول. بعد ذلك سوف يتمّ البتُّ في القضية. يُخبرني السيد سماتوسو أنكَ كنتَ شاهداً على ما حدث. ربما يمكنك أنْ تُخبرني: هل رأيت الضحية يدفع ثمن وجبته؟».

أعود بذاكرتي وأقول: «همم، لا أعتقد أنه دفع».

يبدو ساتو خائب الأمل. «أوه، كلّا، كنتُ آمل أن تكون قد رأيته يفعل».

«حسن، لا أعتقد أنَّ الرجل قد دفع أيّ شيء: لقد خرجوا هكذا ببساطة».

«أوه، كلّا. لكنكَ رأيتَ الشخص يطلبُ أجزاءً من السمكة؟».

«نعم. رأيت. لقد طلب أكباداً، رأيتُ ذلك عن قُرب».

«آه، عظيم. وما هي الكلمات التي استعملَها في طلب ذلك؟».

ران صمتٌ مع شعور بالخوف، ثم «أوه، كلّا».

أقول: «اسمع، الأمر غاية في البساطة: طوال الليل والمطعم يُقدِّم سمكاً ساماً مميتاً، ليس من المزرعة، بل من البحر. وبعد الحادثة راقبتُ رجلاً يستبدل السمك الذي في الحوض، وأخذ السامّ منها كلّه معه».

«وهل كان السيد سماتوسو يعلم جيداً أنه كلّه سامّ مميت؟».

«في الواقع، طبعاً - هذا ما يشتهر به المطعم».

«ومع ذلك قدَّمها للرجل، مع عِلمه بأنه سامّ؟».

«همم. في الواقع -».

«أوه، كلّا».

«اسمع - هل تستطيع أنْ تُخبرني ما الذي سوف يجعلنا نربح القضية؟».

«أه. لسنا في حاجة إلّا إلى السمك، والبرهان يأتي من هناك».

«حسن، هذا لن يحدث. أليس الشهود مفيدين؟».

«أوه، كلّا. في الواقع، في اليابان إجراءات المحكمة مُشينة».

«ولكن من المُشين حقّاً إرسال رجل بريء إلى السجن؟».

«نعم، نعم - هذا إنْ كان بريئاً. في هذه الحالة، إنْ كان الرجل يعلم أنَّ أجزاء من السمكة سامّة ومميتة، داخل صندوق آمن، ومُقفل، ويفتحه عامداً ليجلب الأجزاء القاتلة إلى الزبون - فهو ليس بريئاً».

«لكنَّ الزبون كان ثملاً - وأصرَّ على طلب السمكة!».

«كلّا، كلّا - إنَّ الزبون موجود في المطعم، حيث يمكنه أنْ يسكر بأمان. وبدل ذلك تُصبح مشكلتنا هي أنَّ السيد سماتوسو ثمل! في مكان يُقدم خدمة متميِّزة! كيف يُعقل هذا! مسألة تُعتبَر غاية في الخطورة في اليابان! ما الذي يدفعه إلى السُّكر!».

«همم، حسن. لا عليك من هذا، أنا لا أفهم كيف يمكن لسيد المطبخ أنْ يتجنّب المسؤولية - فبوصفه طاهياً مُجازاً، وضع مطعم تقديم سمكة

الفوغو بين يدَي شخص مُبتدئ تماماً في وقت كان لا يزال هناك زبائن في الداخل يطلبون أكل الكبد».

«نعم»، يصمت ساتو. «وتركهم بأمان داخل صندوق، مع مفتاح».

«حسن، يبدو كأنَّما يمكن لسميتس أنْ يُسجَن ببساطة لأنه يقوم بعمله كما ينبغي. يبدو أنَّ مسألة تبديل السمك لم تعُد تهمّ أحداً».

«أوه، كلّا - إنَّ السمك أمر هامّ. إنْ كان السمك يمثّل قوة غير شرعية، فالسيد سماتوسو ما كان يمكن أنْ يعرف أنه يمكن أنْ يقتل. إنَّ المسؤولية تنتقل إلى مالك المؤسسة. ولكن مع وجود دليل على وجود سمك معتدل النكهة من المزرعة، يبدو أنه يُسمِّم الرجل عن عمد باستخدام تلك الكمية الكبيرة التي يمكن لأيّ إنسان عاقل أنْ يرى أنها أكثر مما ينبغي».

«همم. إذن أملنا الوحيد هو عيِّنة من السمك السامّ في تلك الليلة؟».

«أعتقد ذلك. مع صِلة للمطعم واضحة بالأمر».

بعد ذلك لا تتحسّن المكالمة، على الرغم من عِلمي أنه يمكن أنْ تكون أمامي فرصة للتحدث مع سميتس عبر بطاقة الهاتف التي يحقّ له أنْ يستعملها في السجن خلال الأيام التالية.

تخيِّم الكآبة. السابع والعشرون من الشهر سيحلّ بعد عشرة أيام فقط.

وحده الباسكيّ في استطاعته أنْ يُنقذنا، وحتى حينئذٍ يبدو الأمر صعباً - إذ ليس عليه فقط أنْ يُحضِر عيّنة من السمك السامّ، بل عليه أيضاً أنْ يورّط موكّله. بل وأنْ يخرق القانون لكي يورّطه. لقد أضحت المهمة ثقيلة. إنني أجرّها إلى الشارع وأنا أعاني من آثار السُّكر قبل أنْ يرنّ جرس الهاتف من جديد. لأنه بما أنَّ الفرص تبدو ضئيلة، لن تكون هناك أية فرصة على الإطلاق إذا لم أحصل على نقود السيد في المقابل.

اليسوعيون في ذهني يُرسلون تحذيراً من أجل الانتباه من سيارة توماس - ليس فقط هنا، بل حول المطار، على الرغم من أنّه ليس

لدينا موعد للّقاء الشخصي. ولكونه رجلاً عملياً يبدو هذا إجراءً وقائيّاً معقولاً. فإذا نفد صبره، فإنَّ المزيد من الأعذار بشأن المفاتيح يمكن أنْ تدمّر مصداقيتي إلى الأبد.

ثقوب في الغيوم تُسقِط أشعة من النور على المدينة. أهتف لسيارة أجرة تحت أحدها. مع وصولي إلى المطار تكون الأرض تشرق بالمطر. بهمسه تحت دواليب السيارة، وارتعاش الأضواء في البرك، وانحناء الناس المتجولين نحو الأمام، هذا كلّه يُزيد من وتيرة نبضي إلى حالة اليمبوس المستقرة: إثارة في ظلّ الخوف.

المطار أكثر حركة من أيّ وقت رأيته من قبل. جعلتُ سيارة الأجرة تُنزلني عند الحديقة التذكارية الصغيرة لأواجه براثن المدخل. عندما أجده مسدوداً بشجيراته وأشجاره، أستكشف المكان بحثاً عن سيارة مرسيدس-بنز سوداء. تمرُّ السيارات جيئة وذهاباً من أمام الواجهة، وموقف السيارات ممتلئ أكثر من المعتاد. وفعلاً، في منتصف مسافة أحد الصفوف تستقر سيارة مرسيدس سوداء تتلألأ. أمدّ عنقي لأحظى بزاوية نظر أفضل - وها هي ذي.

أنعم النظر وأتوقف، ولكن - أجد واحدة أخرى. وبينما أخطو إلى الخلف لكي أُشعِلَ سيجارة، تلج موقف السيارات سيارة مرسيدس سوداء ثالثة. سجّل عندكَ من أجل ملحمتك: في أرض اليمبوس لا توجد أيام عطلة. في الحقيقة إنَّ الجهاز الذي يقيس النجاح في دماغي، الذي لا ينشط إلّا بجوار العبث، يُثير المشهد رغماً عن رغباتي عند الموت، يسأل إنْ كان إنهاء أيامي في حديقة تذكارية في ألمانيا هو ما أفكّر فيه.

يحلّ عليَّ الوهن. في الحقيقة إنني أتساءل إنْ كنتُ لا أزال أسافر، وإنْ كان عامل مُضاعفة السيارات ناشطاً. أقرر أنْ أقترب من نهاية الخطّ مُطرق الرأس، وحتى حينئذٍ عندما أنظر أمامي إلى سيارة تزمجر عند المدخل، أرى مرسيدس سوداء أخرى. أهرع مرتقياً الدَّرَج وأرتمي في فراغ المبنى، سامحاً له أنْ يجعلني أقعقع وأنا ألجُ من الأبواب.

يراني غيرد وأنا أدخل من عربة بيع الأطعمة. يغرد من الفتحة: «بووم، بووم، هناك يقف حصان في الرواق - *ها!!* إه؟».

أقترب من النافذة. «ها ها، نعم».

«لقد سمعت هذا من غوتفريد. إنه يكاد لا يتصل هاتفياً أبداً، ولكن فجأة إذا به يتصل لكي يقول إنه يحبّ نبيذك. لو تُخبرني عن السوبرماركت الذي يبيعه، فقد أبتاع بعضاً منه».

«أشكّ في أنك ستعثر على أيّ منه. ولكن في حوزتي زجاجة يمكنني أنْ أعطيه إياها».

«*Nee*، إذن، لا ينبغي أنْ تفرّط فيها. إنه مجرد غوتفريد. يستطيع أنْ يشرب كيانتي».

«إنَّ فيه أكثر مما تراه العين - إنه حقّاً نوع فريد من النبيذ».

«باه، هذا هو سلوك غوتفريد النموذجيّ، لا أحد يستطيع أنْ يُخمّن ماذا سيفعل. إنه أشبه بالتمثال في معظم الوقت، وفجأة ترى منه شيئاً غير متوقَّع». يُلقي غيرد نظرة حول البهو قبل أنْ يُخفض صوته حتى الهمس. «إنه بوليس سرّي حقيقي - هل سمعت عن البوليس السرّيّ في جمهورية ألمانيا الديمقراطية؟ هذا هو عمل غوتفريد القديم، وعلى أعلى مستوى أيضاً. في ألمانيا لم نعُد نتحدث عن مثل هذه الأمور، لقد تغيَّر الزمن. لكنه عاصر بعض الأحداث في حياته. إنَّ ديتر لديه معلومات أكثر عنه. إنه دائماً يمزح قائلاً إنَّ غوتفريد ما زال يحتفظ بجوارب العمل وبالمسدس بجوار سريره. لكنَّ هذا نصف مُزاح. إنه يعيش كلّ يوم كأنه ينتظر، ربما لكي يُسدِّد ضربته الكبرى لصالح الاشتراكية، آخر لكمة قوية من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. إنه ما زال يرصد بهدوء، يُراقب الأفق في انتظار مجيء الرفاق. يُراقب ككلب دوبرمن».

«ماذا يعمل الآن؟».

«إنه يُصلح الدراجات في ورشته ويقوم بأعمال صيانة هنا بدوام

جزئي. لكنَّ الأحوال سيئة. إنني أرثي لحاله. لقد فقد زوجته قبل عامين وفقدت بشرته لونها. والآن أحوال عمله تزداد سوءاً، والمطار سيُغلق أبوابه قريباً. إنه يحبّ هذا المكان، على الرغم من أنه لم يكن يُشكّل جزءاً من برلين الشيوعية. أعتقد أنه يشعر بأنه يُشبهه قليلاً - صَلْبٌ ويعجّ بالأنفاق الخفيّة. إنَّ غوتفريد في وضعٍ أمنيّ أفضل مني، في الحقيقة، بل إنّه يمدّ يد العون في أرض المطار، حول الطائرات. إنه حادّ الذكاء، وشديد العقلانية، والناس دائماً يلاحظون ذلك في نهاية المطاف. قريباً سوف يُصبح مَعْلَماً. يجب أنْ ترى بعضاً من اختراعاته الصغيرة».

تظهر آنّا من الخلف، وتجعل غيرد يعود إلى أعماله على النضد. يُغمغم: «*Nein*، غوتفريد. دعيه يشرب كيانتي. لِمَ لا».

بينما يبدأ الحديث بالتداعي أتنفس الصعداء وأنتقلُ إلى موضوع المهمة الرئيس: «الطابق تحت أرضي الذي أريتني بعد العرض مذهل».

«*Ja*، أليس كذلك؟ يبدو أنَّ هناك أبنية تحت الأرض بقدر ما يوجد فوقها».

«أحقّاً؟ يجب أنْ تعيرني المفاتيح، أحبّ أنْ أتفرَّج على المكان».

«*Ha!!* - ولكن، كلّا. في ظلّ القانون الفدرالي لا نستطيع أنْ نسمح بدخول السياح. وحتى آخر هذا الشهر سوف يبقى مطاراً دوليّاً، والأنفاق أيضاً تقع ضمن ملاك المطار. الأمر يستلزم الحصول على تصريح صارم. حتى أنا لا يحقّ لي أنْ أنزل إلى هناك - عربة الأطعمة لها غرفة تخزين هنا فوق، لكنَّ المطار يستخدمها في أثناء إخراج بعض الأشياء. إنَّ الإجراءات الروتينية تتغيَّر مع اقتراب موعد إغلاق المكان. باه، حسن. لا أعلم ماذا سنفعل بعد ذلك».

«أمر مؤسف حقّاً». أحاول ألّا يبدو الإحباط على وجهي وأنا أقول هذا.

«أه، أعتقد أنَّ هذه هي الحياة. على أية حال، المدينة مملوءة

بالمستودعات إنْ كنتَ مهتمّاً بذلك. محطات تحت أرضية مهجورة، ومعامل تقطير، وأنفاق - وحتى طرق سريعة. كان هتلر ينوي أنْ يُبدّل برلين بعاصمة متفوقة، جرمانية، أشبه بروما إمبراطورية جديدة. ويُقال إنَّه مقابل كلّ مبنى على الأرض في برلين هناك آخر يُقابله تحت الأرض. إنَّ شركة برلينر أونترفلتن تنظم رحلات سياحية، يجب أنْ تتصل بهم».

استأذنت بالمغادرة وأنا أتخيّل توماس في جولة سياحية مع دليل، وزحفت عائداً إلى الفندق. إنَّ أقوى الرجال لا يستطيع أنْ يصمد أمام يوم عمل واحد من حياتي. عندما تجتاز سيارة الأجرة نهر سبري أتذكَّر أمسيتي مع توماس. في الحقيقة يبدو كأنه حدث قبل شهر مضى. تبدو المسافة أطول لأنني ألقي نظرة من عالم آخر، عالم الجياد التي في الأروقة والتصدعات فوق بوكفورست. هذا الانتقال بين العوالم أمر مُرهِق، أتحرك بسرعة محاولاً أنْ أجمع بينهما.

في الحقيقة أتذكَّر جندي المظلات المبتدئ الذي سأل المُدرِّب: «إذا لم تنفتح المظلة، كم من الوقت لديَّ حتى أنشر الإضافية؟».

أجاب المُدرب وهو يضحك: «ما تبقّى لك من حياة».

ليس هناك في النظام الإنساني جواب على القِوى التي تُمارس الآن على خادمك وممثّلك. أبقى كالمشلول بضع لحظات مستلقياً على السرير، أفكر في القوى التي حرّرتها. فكّرت في مدى ضآلة قِوى الأمس التي يبدو أنها لا تُقهَر. أه، يا لهذا القمع. كم كان رحباً. أضع خطّاً عريضاً، وأنا أنعق مع نفسي وأتململ، فأتسبب بنزيف في منخرَيَّ كليهما. ثم بعد أنْ أُنظّفهما بمنديل ورقيّ الذي يُصبح ثقيلاً ورطباً، أجمع أمتعتي الدنيوية، أعتقد كنوع من تقدير قيمة الذات، وأتوقف لكي أُنعم النظر فيها بأنياب تقطر. يا لها من أمتعة منحطة. وأتساءل، ماذا أصبحتُ. إلامَ آلتْ أمتعة الحيويّة، والدُّمى الرقيقة المبتسمة. وثمار بستان العمّة، وصندل حالات الطوارئ.

ما آلتْ إليه هذه الأمتعة هو أنّها لم تكن أبداً لي. أنا فقط دُفِعتُ إلى

هذا الاعتقاد. لقد نُسِّقَتْ أحلام حياتي ومعادلاتها بالنيابة عني على أساس حياة لم أعِشها أبداً. على يدَي موظف إداري اسمه جون لستُ موجوداً بالنسبة إليه في الواقع.

ها هي أمتعتي اللعينة: مجموعة من زجاجات النبيذ، وقارورة عطر، وسترة وقبعة ماركة *ميشباخر*، ومعطف من الفرو الزائف وكمية من المخدرات.

أنتقل إلى البطّارية وأُعدّلُ وضع الريشة على القبعة.

بعد مرور عشر دقائق من عودتي إلى السرير، مستوعباً هذا الكم من عمل حياتي، يرنّ جرس الهاتف، وقبل أنْ أعرف ماذا أفعل، أختطفه من مهده.

يقول توماس باندفاع: «لقد نجا! يا إلهي، خلال فترة من الزمن قلقتُ من أنْ أكون قد أفسدتُ الصفقة – آسف إنْ كنا متكتمين في النهاية، طبعاً كان ظهورنا في الموقع عملاً أحمق. آمل ألّا يكون قد وقع أذى؟».

قلت بازدراء: «إنَّ كلمة (نجا) متفائلة أكثر قليلاً مما ينبغي».

«ها، أما زلتَ تعاني؟ إذن على الأقلّ كنتُ مُضيفاً جيداً. ولعل ما سأقول يُبهج يومك: لقد نقلتُ إلى صديقنا في باريس أنَّ عرضك هو بالضبط ما كنا نأمل في الحصول عليه. لقد طار من الفرح، خاصة بما أنَّ هذا هو الشهر الأخير في التاريخ الذي سوف نتمكن من الاستفادة منه. إنَّ الأمر أشبه بوليمة على متن *تايتانيك* قبل إبحارها!».

«أوه، أحقّاً؟».

«إنه يُحضِّر لأمّ الولائم. الأمّ العُظمى».

«وماذا عن سميتس؟ أليس لدينا أمّ القضايا؟».

«طبعاً – إنَّ ديدي يحضر مؤتمراً الآن، لا تقلق. هناك بعض الأوراق يمكن اللعب بها، وطبعاً هو منزعج بشأن موكله هناك. لكنها حقّاً كانت

قضية (حَذَر المُشتري)[92] بالنسبة إلى الرجل، ولا نستطيع أنْ ندع أيّاً من أصحابنا أنْ يتحملوا اللوم على مقامرته التعسة. اطمئن إلى أنَّ الأمور تقع في الشرق».

«هذا خبر جيد جدّاً».

«أما بالنسبة إلى الحدث، علينا أنْ نتحرك بسرعة. بعد أنْ أعطيت الباسكيّ إشارة البدء في الموقع، حدَّد يوم الجمعة الرابع والعشرين من تشرين الثاني موعداً مؤقتاً. في نهاية الأسبوع القادم، آخر عطلة نهاية أسبوع تجري فيها العمليات في المطار. سوف ننجو بأعجوبة، وحتى ذلك الحين هناك الكثير من العمل. لن أقول المزيد عبر الهاتف – ولكن سوف نشرب نخبنا في يوم الاثنين. أنقذ نفسك!».

أتململ على الوسادة. «أوه، أحقّاً؟ حسن، ولكن لا زالت هناك عقبة أو اثنتان يجب اجتيازهما».

«لا تقلق، كلّ شيء تحت السيطرة. سوف يصل الطاقم يوم الثلاثاء».

«أوه، أحقّاً؟ أيّ نوع من الطواقم؟».

«كما تعلم، أصحاب الباسكيّ من باريس – مسّاح، وكهربائيّ، ومهندس ديكور. ورجال أمن وما إلى ذلك. ومع نهاية النهار سيكون كلّ شيء تحت السيطرة».

«ماذا؟ ولكن ما زلتُ أحاول أنْ أحصل على المفاتيح!».

«ممتاز، أحضر لي نسخة أيضاً. احصل عليها إنِ استطعت. اسمع، لن أُبقيكَ مطولاً على الهاتف – فلنجتمع غداً إلى مائدة الغداء، سوف أقلّك من أيّ مكان. نحن لم نتحدث عن التعويض، وأيضاً أريد منك معروفاً صغيراً: سوف يصل الباسكيّ بهوية مستعارة على متن طائرة تجارية عبر تيغل، لكي لا يتعرَّض لتفتيش أية أمتعة – وقد فكّرت كم ستكون لمسة

92– حَذَر المُشتري: في التجارة مبدأ يقول إنّه من المتوقَّع من المُشتري ألّا يكون مُطمئناً للبضاعة التي سيشتريها، وأنْ يُبدي شكوكه حولها. – المترجم

لطيفة لو كان في حوزتنا زجاجة من مخزونك عام 2004 لنتقاسمها معه، لم أتمكن من العثور على واحدة منذ أكثر من عام. قلت في نفسي إذا نزلت إلى القبو خلال عطلة الأسبوع القادمة، فربما تستطيع أنْ تُحضِر إحداها لنعطيها له؟».

«همم - وأيّ قبو هذا؟».

«ها، لا تتواضع. إنَّ إعجابي بك يزداد باطراد، يا غابرييل».

وووش بسرعة. ترتخي يدي مع الهاتف. عبر السرير أسمع توماس كأنه صوت نفير ناءٍ، على الرغم من أنه صادر عن سماعة الهاتف الصغيرة:

«أنت تتحسَّن باطراد. تقول (أيّ قبو)- ها!».

-18-

أيّ شيء مفهوم بين هؤلاء العبيد المُحرّرين يمكن أنْ ينتفع من ظروف القبو تحت الأرضي الباردة، والمظلمة والثابتة؟

أوه، نعم. وبينما سيارة الأجرة تنساب عائدة عبر نهر سبري أربّتُ على حقيبة الماريوس، بل وأفتح السحّاب لكي أداعب إحدى الزجاجات. قد يكون للجَمال تأثيرٌ نافعٌ أصلاً. لأنَّ غيرد امتنع حتماً عن إعارة مفاتيحه بعد أنْ أتيتُ على ذِكر استكشاف المستودعات. ولكن إنْ كان مستودعه موجود هناك، ويُفترَض أيضاً أنه في متناول آنّا والعانس، فالقضية لا تكمن في امتلاك المفاتيح، بل في التجول في أجزاء من المبنى غير مُصرّح بولوجها. وعليه أنا في حاجة إلى سبب أشدّ براعة لدخول المستودعات - كحاجتي إلى تخزين شيء في خزانة الأطعمة. وقبل أيّ شيء، حتى غوتفريد موجود معي إذا ما تعلّقَ الأمر بصحة وأمان نبيذ ممتاز وفريد من نوعه.

أه، يا توماس، أنت عبقري. أنت بوّاب دفقات الحماس.

عندما أدخل آخر الخطّ أجد غيرد يرتدي سترته الصوفية. وبصورة ما، وعلى الرغم من أنَّ وضعي لم يتغيَّر جوهريّاً، فإنَّ عنف التغيُّر في الحظ وصلصلة زجاجات النبيذ في حقيبتي بشّرَ بطاقة من المرور الحرّ، طاقة اليقين قبل الثقة. أشرح لغيرد، وأنا ألهثُ رازحاً تحت ثقل الحقيبة، أنَّ هذا النوع الأشدّ نُدرة من أنواع النبيذ يحتاج إلى مكان ثابت لبعض الوقت. ينظر إلى آنّا، التي تقوم ببعض أعمال الترتيب في الغرفة الخلفية،

ثم يُخرِج المفاتيح ويسلّمها إليَّ: «هل تتذكّر لأيّ الأبواب؟ المفتاح الأخضر، ثم الأصفر».

«شكراً لك، نعم. سأعود بعد قليل».

«*Ja*، أعطها لآنّا». ثم يتوقف برهة لكي يُحدّق وهو في طريقه إلى الخارج «ولفريدريك – على الأقل هناك في الأسفل سيكون آمناً من غوتفريد، هه؟ *ها!!!*».

يزداد وجيب نبضي مع اقترابي من القبو. إنها أكثر من مجرد إثارة. لدى فتح الباب المؤدي إلى نفق الطريق السريعة يخطر في بالي ما يلي: إنني أهبط إلى أرض اليمبوس الحقيقيّة، في عالمٍ سفليّ مهجور. الفكرة تدفعني إلى التوقف والترنُّح. تمبلهوف: أرضُ اليمبوس. غابرييل: يمبوس. تسطع أضواء الأمن على حجارة رصيف ما بين خطوط سكك الحديد، وأتوقف لأتلفّت حولي وخلفي. الطريق السريعة تمتدّ إلى داخل الظلام من كلا جهتيها، والأضواء تتلوى عند المنعطفات. خلفي ماضيَّ، وأمامي مستقبلي.

تتسع عيناي وتزدادان حرارة. تسقط دمعة على الطريق، على بقعةٍ يجعلها الضوء تلمع. إنها الشيء الوحيد المتلألئ تحت الأرض. فجأة يتخذ المدى شكلَ لاوعيي. مُظلم، يتقيَّح، يخترقه نفق.

مع لمعة واحدة صغيرة داخله.

قريباً سوف يُغلَق إلى الأبد.

بعد أنْ أُفرِدُ زجاجة لتوماس وأترك الحقيبة في المخزن، لا أقاوم إغراء الذهاب إلى المستودعات. ينزلق مفتاح في باب أرض العجائب، أدير مفتاح النور. أحدّقُ خلال الأقواس وكأنني أنعم النظر إلى أعماق بئر. المساحة هائلة. موطن طائرات بان، متشرّبة بظلال مُثيرة للعواطف من كلّ مَنْ مرَّ خلالها على حافة سكين الحياة. إنْ كان العنب يمتص الأشواق فلا بُدَّ أنَّ هذه الجدران ترتعش معه، تنضح به، وتصرخ طارحة إياه في الليل.

يحثّني نسيم عجيب على العودة على طول طريق النفق. وتنبع الأفكار في إثره. الآن توماس يقترح أنَّ الدفعات سوف تتدفق من الموقع. لم أكن قد فكّرت في هذا، بسبب اهتمامي بموتي. ربما، إذا ما تقدَّم الأمر، قد يموّل المزاح شفاء غيرد. قليل من الرأسمالية من أجل قضية عادلة، طبعاً إذا تمّ التعامل معها بصرامة. إنَّ التناسُق، كما يمكن لسميتس أنْ يقول، مثاليّ. إعادة توزيع الثروة. ما زال في استطاعة موتي أنْ يأتي، وبالنمط الذي أرغب: بوليمة لا تشبه أيّ شيء منذ سقوط روما القديمة. لا يمكن ربط المخاطرة بغيرد. إذا صنعتُ نسخاً من المفاتيح تبقى مجموعته معه بأمان فوق. المطبخ في العالم العلوي سوف يستحوذ على المُجمَّع ليلة واحدة، ويكون مسؤولاً عن نفسه. ما ضير بعض الاستغلال المُنظَّم؟ بينما غيرد يجني أرباح آخر مبيعات سجق بوكفرست في الأعلى، قد يُدّخر بعض المال في العالم السُّفلي.

سداد دَين العائلة. فقط انظر إلى التناسُق.

على الرغم من أنَّ مؤشّر جهاز الإحساس داخلي يُشير إلى أنَّ هذا آخر غوص داخل بلعوم السيد يمبوس، أتساءل: ولِمَ لا؟

يبدو أنَّ الخُطط القويمة تستجلب الطاقات اللازمة لتنفيذها. في هذه الحالة أهرع مرتقياً الدَّرَج ومنه إلى الشارع، حريصاً على ألّا تراني آنا. أتصلُ هاتفيّاً بتوماس من هاتف عمومي. أسأل العون بصوت سرّي، منخفض، من دون أنْ أشرح الأسباب والغرض. ويستجيب بصورة جيدة مع هذا وبسرعةِ إشعالِ سيجارةٍ تظهر سيارته المرسيدس تلمع بين حركة المرور.

ليس في داخلها غير بيتينا، وقد رفعت شَعرها داخل قلنسوة سائق سيارة، مشهد فاتن، وجريء وحديث، إلى درجة أنني يجب أنْ أتوقف عند الباب، يا صديقي، وأدعوك إلى الاقتراب: امشِ معي، اسمع الهمس العميق لمحرّك مثالي، شُمّ رائحة الجلد ممزوجة مع عبير المسك، انظر إلى هذه العذراء الطاهرة التي تتنكّر بهيئة رجل، وخادم، تلهو بهذا، معنا، تومض بغمازاتها وأسنانها وبعينيها الصافيتين، واعترِفْ معي:

بأنَّ السيد يمبوس يتمتع ببعض المزايا.

أغوص في المقعد بينما برلين تمرّ مسرعة خارج النافذة، صامتة كفيلم سينمائيّ، والليل الهابط يُلوّن بالقرمزي والبرتقالي الزجاج المصقول. تسارع السيارة يصفُ الأشياء الآتية. بداية الانتقال السريع. انتقال حاسم، ختامي، لأنَّ ما تمّ إثباته ليس أكثر من أنَّ السيد يمبوس من الرأسمالية الحديثة يُحرّك الأحداث - ويجعلها تقع بالأمس.

بعد ثلاث مكالمات تعثر بيتينا على صانع مفاتيح مُستعدّ لفتح دكّانه. نهرع إلى أحد العناوين وأترجل مع المفاتيح.

يهرش صانع المفاتيح سبلتيه عندما يراها. «همم. هذا الأحمر لا نستطيع نسخه. أتفهم؟ ولا هذا، ولا هذا. لأنها مفاتيح إجراءات أمنية عالية».

أرى من خلال النافذة بيتينا تُغادر السيارة.

«ولكن أترى هذا؟ ذا الحدّ المجوف الممتدّ؟ هذا مختلف. نحن حتماً لا نستطيع أنْ ننسخه. يجب أنْ تأخذه إلى الشركة التي صنعته».

«أنا فقط في حاجة إلى الأخضر والأصفر، وهذا النحاسي هنا».

هزَّ الرجل رأسه مرتاباً. «تبدو مفاتيح تخصّ مؤسسة. بعضها سحيق في القِدَم، انظر إلى هذا. أقصد بقولي، انظر إلى هذا هنا، أترى؟ من أين أتيت بها؟».

«أه - من مؤسستي».

«أه - هذا الذي هنا، ما اسمه؟».

«كلّا - الآخر».

يتوازن حاجباه في انتظار جواب، فأبتسم، وأرفرف عينيّ وكأنَّ اللغة الألمانية سوف تُسبب لي مشكلة في الكلام. لكنه يتظر. وأصابعه تقبض على المفاتيح.

أخيراً أقول، رافعاً نظري إلى الأعلى لأنعش ذاكرتي: «*Das Institut,* *Das Institut zur Optimierung menchlicher Angelegenheiten*».

أعتقد أنني أعطيت اسم مؤسسة لا وجود لها. فيرفع حاجبيه، ويُحدّق إليَّ. يقرع جرس لدى ولوج بيتينا.

يهزّ صانع المفاتيح كتفيه استخفافاً. «وهذا الآخر هنا، يعني - أشكّ في أنَّ أحداً يستطيع أنْ ينسخه».

«أنا في حاجة فقط إلى الأصفر، والأخضر والنحاسي».

«همم»، يُداعب ذقنه من جديد. «أتحتاج إليها ليوم الثلاثاء - أم تستطيع أنْ تؤخر موعده؟».

تُقحم بيتينا نفسها: «لماذا تُضيع وقتنا؟ انسخ المفاتيح، نحن مستعجلون!».

«عفواً؟ إنني فقط أقوم بعملي!».

تضرب رأسها. «أأنت أحمق تماماً؟ أتعتقد أننا خرجنا إلى الشارع في ليلة يوم سبت لكي نؤجل عملاً ليوم الثلاثاء؟».

ينكمش الرجل. «ماذا؟ كيف تكلّمينني بهذا الأسلوب؟ إنني أقدم إليكما معروفاً لمجرد النظر في الأمر! إننا نقوم بعمل جيد هنا، طبعاً يجب أنْ أتفحّص المفاتيح! على الرغم من أنني أرغب في صفع الباب في وجهيكما!».

«أنا واثقة بأنك ترغب في صفع الباب في وجهينا!» وتقترب من وجهه: «أنت هنا لكي تتولى عملاً ينتهي يوم الثلاثاء وحتماً سوف تطلب أجرة العمل خارج الدوام. أليس هذا صحيحاً؟ تقفُ هنا ترفع السعر بجعله يبدو عملاً صعباً. أرني رخصة العمل! أرني رخصتك ووثائق الضريبة ريثما أتصل بالشرطة! هل لديك عائلة في الطابق العلوي؟ في ملاك تجاري؟ فلينزلوا إلى هنا!».

«مدام، هذا أمر مُشين! لا يُصدَّق! إنني أؤدي عملي بشكل صحيح وأنت تُهينينني بهذا الأسلوب؟ أنا الذي يجب أنْ أستدعي الشرطة من أجلك! من أجلك سأتصل بهم!». يتسلل الرجل إلى الغرفة الخلفية، وهو يتمتم بالسباب.

بعد لحظة نسمع هدير مطحنة.

أبتسمُ بارتياح. «حارسي البرلينيّ».

«أنا من هامبورغ. وهو تركي، بالكاد يتلاءم مع الجوّ. لا بُدَّ أنهم يُثيرون جنونك. أنتم محظوظون في لندن، إنَّ المحلّات التجارية هنا بالكاد تبدأ بفتح أبوابها بعد ظهيرة يوم السبت، ولا تفتح في أيام الأحد. حاول أنْ تعثر على سوبرماركت في برلين هذه الليلة».

«همم. هناك حتماً إيقاع أكثر نضجاً للحياة».

تقول بارتياب: «إنه إيقاع مناسب له. في عصرنا هذا تحتاج إلى أنْ يحدث شيء. وحياة أمثالنا من الناس هي وليدة زمن كهذا».

في غضون عشرين دقيقة من هذه الحقيقة الصارمة نعود إلى المطار حيث نجد شخصاً وحيداً يقفُ عند البوابة الرئيسة. إنها آنّا، تنظر في ساعة يدها. مع اقترابنا، يظهر شخص آخر أضخم جثة - إنه غوتفريد. لقد فات أوان إيقاف السيارة. نمرّ بمحاذاة الدَّرَج فتقفز بيتينا خارجة لتفتح بابي، وتقف لتُحييني بضحكة وقحة، وطرف قلنسوتها يومض تحت ضوء المصباح. الآن فقط تتعرَّف بيتينا عليَّ. أرى قسمات وجهها تُصبح أقسى، على الرغم من أنها لا تقول شيئاً، وتستدير بدل ذلك لتلقي تحية المساء على غوتفريد وهو يبتعد بخُطى ثقيلة.

تغرد بيتينا: «سوف أقلّك غداً لتناول وجبة قبل الغداء[93]. من هنا أم من الفندق؟».

أقول بهدوء: «من الفندق أفضل. سوف أترك لكِ الزجاجة لكي تسلّميها لتوماس».

تهدر السيارة منطلقة وأستدير نحو آنّا وغوتفريد، وأنا أحاول إخراج المفاتيح، يومئ غوتفريد برأسه من دون أنْ ينطق بكلمة ويبتعد داخل الليل. تبقى آنّا واقفة على الدرَجة التي تحتها تراقبني. بعد فترة صمت مُدمّر تقول: «أوف، يا سلام، يا سلام».

93- المقصود هنا وجبة يتمّ تناولها بين وجبتي الإفطار والغداء. - المترجم

«آسف – لقد صادفتُ في طريق عودتي صديقة قديمة».

«هذا مؤكَّد، كما أرى».

أسلّمها مفاتيح غيرد «ليس كما تظنين».

«ولكن يبدو أنَّ هناك شيئاً. لا بُدَّ أنك على الأقلّ جاسوس. غابرييل بوند، وقد أرسلوا أوامرهم إليك. لكي تتقيأ في المطار. لكي تنزف في إيران».

أنظرُ إليها، وألمح لمعاناً خاطفاً في عينيها. نقف صامتين برهة.

ثم: «أوف – باي–باي».

أستقلّ القطار العائد إلى كاستانيينالي، أسترخي في حالة من النشوة بينما العوارض والأضواء تمرّ بسرعة الومض. عندما أستعرض أحداث النهار يتبين لي أنني لست سعيداً كما ينبغي أنْ أكون. وزجاجة من **سيمفوني** وعشر سجائر يُساعدونني على النفاذ خلال الحقائق: إنَّ في حوزتي مفاتيح أرض العجائب، والباسكيّ وسميتس يُخطّطان لإطلاق سراحه من السجن، ووليمة موتي تقرّر إقامتها في غضون أسبوع. وحليفي الجديد في الرأسمالية لا يعمل إلّا على طرح الحلول وتمهيد طريقي. إنني أشعر مثل سميتس أنَّ الحياة تستمر بطيئة، أشعر بأنني مُثبّت إلى دولاب الحظ.

ولعلها مزوّدة بشيء يتك.

ولكن مع ذلك هناك اضطراب في الأعماق، وبينما الحافلة الأخيرة تئنّ مارة بالنافذة أتساءل إنْ كان الأمر ما يلي: مع تنقّلي بين العالَمين طوال الأسبوع، وارتياحي في كلّ منهما، وحصولي على أصدقاء في كليهما، بدا المشهد الذي دار عند الدَّرَج في هذا المساء أشبه بباب يُصفَع بقوة في وجه أحدهما. وعلى الرغم من أنني لا أعرف الكثير عن آنّا أو غوتفريد، فإنَّ جزءاً مني يتطابق معهما، وشعرتُ بأنَّ المعرفة التي تبدو عليهما كأنها وداع. خاصة آنّا، التي تبدو، بصورة غريبة، وتُسبب الاضطراب، أجمل

في كلّ مرة أراها، وتستجلب المزيد من الاحترام بوقفتها الهادئة، الشبيهة بأبي الهول. قد يفتح لي وصولي بسيارة الليموزين قلبَ، أو على الأقلّ ساقي، العديد من الفتيات في الوطن - أما مع آنّا فالأمر أشبه بالخيانة، ليس فقط لنفسها، بل وخيانتي لنفسي. هل انتقلَ بيننا الكثير من الرهافة حتى بات في استطاعتها الآن أنْ تُفشي الكثير من الحقائق من دون أنْ تنبس بكلمة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأية تعقيدات تنتقل عبر تحديقها؟ هل تبيَّنتُ أنا أيضاً فيها لعوباً جديدة، بريقاً، بينما هذه الأمور المزعجة تقابلني؟ هل اكتشفَتْ معياري خلال فترة وجيزة من الوقت؟ لِمَ تريد معياري أصلاً، وأيّة أحكام أصدرتْ يمكنني الآن أنْ أكشف النقاب عنها؟

بوف، مَنْ يدري. حاليّاً أعزو الأمر إلى التعب وتخيلات عقل يشعر بالذنب. وربما أيضاً إلى إدراك أنها في حياتي السابقة أثارت اهتمامي. وهذه سخرية أخرى من حالة اليمبوس.

على أيّة حال، مع حلول الصباح الباكر أشعر بأنَّ العلاقة هي انفصالٌ آخر، نوع من وضع iPod في كلّ أُذُن، وأستغرقُ في النوم بعد الفجر بوقت طويل، وأستيقظ من جديد لأجد أنه يتوفر لديَّ ما يكفي من الوقت لأرتدي ملابسي وأقابل السيارة المتوقفة في الخارج. ثمة نقطة اشتباك واحدة فعّالة: تلك التي تُخبرني بأنني اليوم سأنضم إلى عالم الرأسمالية.

لدى وصولي إلى مركز المدينة أجده ينتظرني كعروس، مع مائدة ترحيبية تمتدّ عبر زاوية من فندق أدلون كمبنسكي باتجاه بوابة براندنبرغ. الكافيار الإيراني الفخم يتلألأ بين الأصداف، مع جراد المياه العذبة، وفطيرة السجق، وكركند ولاية مين، والقريدس الفخم، وفطر الإنائيّة، وكبد البط، والكمأة، وأجنحة سمك الراي اللساع، والحَمَام، والأرضي شوكي، وسيقان الضفادع، وعنب مُسكات، ومستردة التين، وثمار الآلام وأرانب، في حين إنَّ أضخم تورتة، والبودنغ، والبتي فور، والمعجنات والكعك تشير إلى استخدام الأدوات المخزية نفسها بينما الطيور النادرة تنشر الجنس في البريّة.

يسأل توماس النادلة: «هل لديكم فول سوداني؟ إلّا إذا»- ويلتفت نحوي - «كنتَ تفضّل أنْ تنضم إليَّ وتتناول بعض الشمبانيا والفريز؟».

أدعك وجهي. «لا بأس بالبيرة، مع بعض النوم».

يسترخي الأرستقراطي، مبتسماً عبر الطاولة. وبعد دقيقة يمدّ يده ليُفسح مكاناً على المفرش للمشروب والفريز وتشكيلة الجوز. نشرب نخباً، ويقضم طرف ثمرة فريز ناضجة. «شكراً على النبيذ، سوف أرسله إلى غرفة الباسكيّ. سوف يصل غداً، لذلك استعد لأنَّ الأمور سوف تتسارع بعد ذلك. وإليك العرض: أقايضك مفتاح جناح الأحداث في الطابق العلوي مقابل مفاتيح المجمّع التي بحوزتك. نحن في حاجة إلى دفع الأمور، فالوقت ضيق بصورة لا تُصدَّق».

أجرع البيرة. «تبدو لي صفقة سيئة. إنَّ التاريخ هو أكبر قبو للنبيذ في مقابل الخزانة التي هنا. أين سأحطّ طائرتي؟».

يضحك توماس ويمدّ يده إلى جيبه. «كما تضعها هكذا -» ويُشير لي كي أفتح يدي من تحت الطاولة ويُسقِط شيئاً في راحة يدي. أنظر تحت مفرش الطاولة فأرى أنه جوهرة صفراء لامعة.

يميل مقترباً مني: «إنها لفتة شُكر صغيرة. سوف تعلم أنه من الآن فصاعداً لن تمرّ بيننا أيّة نقود، أو أدوات بلاستيكية أو إلكترونية. إنّ فاتورة الفندق آمنة، ولكن استعمل فقط اسمك الأول، ولا تضع توقيعك المعتاد، والتزم بخدمة الغرفة». يتنقّل تحديقه حوله قبل أنْ يُضيف: «عند زاوية شارع كروتزبرغ شتراسه ومهرينغدام ثمة عمليات تبادل إنْ أردت أنْ تبيع الحجر الكريم».

«هذه المرة الثانية في يوم واحد أشعر فيها بأنني أُشبه جيمس بوند».

«أعلم أنَّها أجواء درامية ولكن فكِّر في الأمر، إنها العملة المثالية. تتنقّل بسهولة، ويتمّ تداولها في العالم كلّه، ولها سعر تبادل واحد. وتفتن كلّ مَنْ يراها، وتُخرجك من أيّ ورطة تقع لك في الشارع. تُخبئها في

فمك أو في طيزك. تساوي قطعة صغيرة من الذهب. إنها حامل سيجار تحمل بداية جديدة في الحياة».

«أتعتقد أنها يمكن أنْ تُحضِر أحد أكشاك الكعك إلى الطاولة؟» وأومئ برأسي إلى أكوام التورتات، والكعك الإسفنجي والمعجنات.

«سوف أرسلها إلى غرفتك - أرى أنني أخسرك. نم قليلاً، كلّ شيء في أيدٍ أمينة. سوف نباشر بخلق روح في الموقع».

«همم - روح؟».

«مكامن حقيقية حول المبنى. إنَّ أعمال الإنشاء تُثير الكثير من الشبهات، نحتاج إلى أشخاص محلّيين يتعودون علينا بالتدريج. ومع حلول ليلة الحدث لا ينبغي أنْ نُثير الاستغراب. لا أظنك تعتقد أننا سوف نظهر هكذا فجأة ونُقيم حفلة؟»، يقول توماس هذا وهو ينظر إليَّ، وترتسم ابتسامة على وجهه وتتسع: «أحياناً أعتقد أنك لا تُدرك أهمية هذا»، ويضع مفتاحاً في يدي: «وفي أحيان أخرى أعتقد أنك بارد كالثلج. على الرغم من أنكَ تستطيع أنْ تخلع ملابس التنكّر الآن».

أنظر نحو الأسفل إلى فروي المتلبّد. «أيّ ملابس تنكّر؟».

«لا تُثِر جنوني. اذهب إلى السرير».

أرسمُ على عجل خريطة للمستودعات وأسلّم فقط المفتاحين الأخضر والنحاسي، لأنَّ المفتاح الأصفر خاص بمخزن عربة بيع الأطعمة الذي يحتوي آخر مؤونة لي من نبيذ ماريوس، وأجتاز بهو الفندق تحت أضواء سماوية، تلك التي تُعيد إلى البشرة طفولتها، وتحوّل مُقلتَي العينين إلى اللون العاجيّ، والياقات الخفيفة إلى بياض ثلج هطل حديثاً. ومن ثم أتوجه إلى جناحي لكي أنهار.

إنَّ مظهر الوسائد يجعلني أتداعى من فرط التعب. ومع وصول حامل الكعكة مع الشمبانيا أستعرض خشب الغرفة، وأريكة الاضطجاع، وطاولة المكتب، والأريكة، والبار الصغير والسرير المزدوج. أنزع

ملابسي وأستلقي بجسدي الأبيض النحيل. تحت الأضواء يُصبح أبيض كاللؤلؤ، شفافاً حتى عمق قليل، كالرخام. هنا يبدو هذا الجسد هزيلاً، نخرته حياة طائشة. كيرقة ذات عروق تتراخى في منتصف الطريق إلى أسفل في كتلة من الشَّعر النحاسي.

آخر شاهد كئيب، يتساءل.

أشعة الشمس رمادية وباردة تتسلل من النافذة عندما أتململ يوم الاثنين. السماء لا تدوّم ولا تتدفق، بل تبقى معلَّقة. الصباح يجلب العري. قُرابة مئة عام من الشيوعية تزدحم في ضياء كئيب. أُطُر جسدي وأغلفته تحرّرت من جلدي خلال الليل. والآن أنا أصرُّ وأقعقع، وقلبي يتمايل كأنه مُعلَّق في كيس مائع. فقط أنظر إلى الطبيعة. الأداة التي خصّصَتْها للتعامل مع مشوار بالسيارة إلى المطار هي آليّة ردّ الفعل اللاإرادي، زرّ الرعب الموحَّد المُخصص للتعامُل مع كلّ شيء بدءاً بشراء الملابس وانتهاء بالموت الوشيك. إنَّ بدائيتنا تسحقني. لا يمكن لأيّ مقدار من الذكاء، ولا لزيّ ملابس أنْ يُخفي مدى إساءة فهمنا.

عندما أرى صقر عطر جيكي يبرز من جيب معطف، أنتزعه وأتناول جرعة. وووش بسرعة: يُصيبني بصدمة كهربائية، يجعلني ألهث، والغريب، أنني بعد لحظة أجده مُستساغاً تماماً. أرشّ منه على نفسي، كما يعمل رجل المغاوير على قلْي وأكل ذيل عقرب قَرَصَه - ثم أتناول رشفة أخرى. الأثر يُصبح أكثر تناسقاً، يصدم أحاسيسي بالعطر. بعد هذا، ومع بضع سجائر ومشاهدة بعض برامج التلفزيون الألماني، أضرط ضرطة تحدٍّ قصيرة.

ختاماً أُصبح مستعدّاً لمواجهة النهار. مهمتي الأولى هي أنْ أتصل بالمحامي ساتو لكي ينقل إلى سميتس رقم هاتفي الجديد. وأتساءل مع بعض الحماس إنْ كان في وسعي أنْ أقابله من جديد. الفكرة تحثّني وأنا تحت الدش، وبعد أنْ أتذكَّر أنَّ عليَّ أنْ أجمع أغراضي من فندق كاستانيينهوف، يدفعني إلى الانطلاق للعثور على غيرد، وهو صديق

آخر، أعتقد، حضوره هامّ في أيام المرء الأخيرة. نعم، صديق آخر، لأنني أتطلّع إلى مقابلته، وأنا سعيد لأنني ذاهب إلى عربة بيع الأطعمة، وأمنيتي الوحيدة هي أنْ أتقاسم عيش هذا العصر المجنون معه، وأحكي حكايات من زمن اليمبوس كصديقٍ عاد توّاً من قضاء عطلته.

عندما أصل أجد غيرد وحده في العربة. وعلى الرغم من أنَّ آخر الخطّ يضجُّ بالمسافرين وبموظفي المطار، إلّا أنَّ موقع العربة المنعزل مهجور. مع رؤية غيرد يأتي الحزن. إنه رجل طموحاته تأتي إلى أيّ شخص مجاناً. ما أروع أنْ تترك له الوليمة هدية. يبدو أنه تقرَّر أنْ نمضي قُدُماً، في هذا الحدث، لذلك فإنَّ كلّ ما يلزم هو إعادة توزيع الثروة بصورة لا تخدع كبرياءه. أراقبه قبل أنْ يراني. إنه يُحرّك أشياء تحت النضد، يُحكم سدّ أغطية، ويُغلق علباً، كأنما يستعدّ للإغلاق.

يُشرق وجهه. «فريدريك!».

«أتغلق منذ الآن؟».

«أه، لم يأتِ أحد طوال النهار. لا أعلم السبب، ولا حتى سائقو سيارات الأجرة عرّجوا». يستدير لكي يعبث بشيء ما في الخلف. «وجيزيلا ذهبت إلى أختها في شتوتغارت. إنها في حاجة إلى هذا حقّاً، إنه مفيد. لكي تتبادل وصفات الطعام مع أختها. جيزيلا طباخة عظيمة، هل سبق لك أنْ تذوقتَ سلطة البطاطا البرلينية؟».

إنني شديد الاستغراق في المشاهدة بحيث لم أُجِب. وبعد برهة يُبرِز رأسه من الواجهة: «في يوم الجمعة ستُقام حفلة الوداع، هه؟ بعدئذٍ يمكنك أنْ تجربها».

«في يوم الجمعة؟ هذا الجمعة، في الرابع والعشرين؟».

«*Ja*، طبعاً – إنها آخر عطلة أسبوعية في المطار. طعام وشراب حقيقيان، وألعاب نارية أيضاً. يُستحسن أنْ تبدأ بالتدرُّب – *هاا!*».

الآن يصل الهبوط الداخلي المركزي إلى حالة الضياع. أه، يا لهذا الكم من العمل. كلّ ما يمكنني الإجابة به هو: «وأين هي آنّا اليوم؟».

«آنّا؟ تحصل على اللقاح استعداداً للذهاب إلى أميركا الجنوبية. إنها فرحة جدّاً لأنها ستشاهد السلاحف العملاقة. أعتقد أنها حقّاً شيء رائع - إنَّ أشهرها، جورج الوحيد، يُفترَض أنه عمره يبلغ حوالي المئة عام، وهو أكبر من طاولة مكتب».

«أكبر من طاولة مكتب؟ يا إلهي» بعد أنْ أساعد غيرد في إغلاق مصاريع العربة، أمشي إلى الخارج معه، مفتشاً عن سيارة أجرة.

يسأل: «في أيّ اتجاه ستذهب؟ ربما يتوفر لدينا وقت لشرب كأس من البيرة في بيراتنبرغ؟».

«شكراً لك، إنني أنقل غرفتي. سوف أستقلّ سيارة أجرة من هنا».

يقول، مُنعماً النظر عبر موقف السيارات: «باه، يا لك من رجل غني». أتبع تحديقه فألمح شكلاً مألوفاً في الطرف المقابل، بجوار كولومبيادام. يمشي غيرد متمهلاً بضع خطوات على الرصيف، مادّاً عنقه ليرى. ثم يتوقف، وينظر إليَّ، وننعم النظر معاً إلى الأمام.

يقترب شكل غوتفريد من مرمى النظر.

إنه يجالس جاثماً بعض الرجال في بار عربة مقطورة مزودة بكمية هائلة من الأطعمة، مُدججة بدهان ديوكو الأبيض وبالفولاذ اللامع. فيها موسيقى وإضاءة مقهى، وتقوم على خدمته مراهقات صغيرات أنيقات يُثرثرن ويضحكن ضحكاً مكبوتاً ويرتدين مآزر. ترحب بنا لدى اقترابنا روائح شواء اللحم وعبق القهوة المطحونة حديثاً.

«غوتفريد؟» ويقترب غيرد خلال حشد من أشجار النخيل نحو حافة الطريق.

يستدير غوتفريد بحركة جامدة. «آاال، كنتُ قادماً الآن لأقابلك».

تتراخى قسمات وجه غيرد. «تأتي لتراني متى؟ ما هذا كلّه؟».

يقول الشرطي: «أوه، *Gott*، قبل شرب أربع كؤوس من البيرة كان سيأتي إلى هنا».

«*غونار*؟ لقد ادخرت لك سجقاً طوال النهار! ما الذي يحدث هنا؟».

«حسن، لم أرغب في إزعاجك. هل يوجد لديك شرائح لحم».

«إه؟ مـاذا؟». يسـتوعب غيرد المشـهد كعـائد إلى منزله ليجده قد سُـرِق. «سوف تُكلفك كثيراً. نحن مستعدون دائماً لتسخين قطعة سجق جميلة لأجلك، أنت تعلم أننا نفعل، إنه تحية من المحلّ. أو حتى قطعة روكفورست جميلة، إنْ كنتَ تفضّل».

«في الواقع هذا المكان مجانيّ». يرشف غونار الزبَد عن الكابوتشينو القوي النكهة.

إحدى الخادمات، وهي فتاة جميلة ترتدي زيّاً بلون البودرة الزرقاء، تميل على النضد المتألّق لكي تبتسم لغيرد: «كلّ شيء مجانيّ اليوم لأصدقاء المطار. ماذا نُحضر لك؟ طبقنا الخاص هو شرائح سجق فينر مع سلطة بطاطا دافئة وصلصة الزعتر والليمون، وحساء بيسك ثمار البحر مع زلابية أصابع البيبي والشبث».

يُشير غوتفريد بكأس البيرة: «هذه لورا، من لايبزيغ».

يقفُ غيرد ويتلفّت حوله، وأصابعه تنتفض بجواره.

يُقهقه غوتفريد: «لورا الظريفة من لايبزيغ».

تقرص الفتاة وجنة وهمية. «لذيذ جدّاً!».

«ولا تنسي أنه ذكي. لذيذ وذكي».

تصرّ الفتاة: «أريد أنْ آخذه معي إلى المنزل!».

«يمكن تدبير هذا».

«ها ها ها».

«ها ها ها ها».

يلكزه غيرد: «باه، إلى بيراتنبرغ، هه؟».

ينخر غوتفريد: «ليس الآن».

تطرق فتاة العربة الجميلة برأسها برهة. يشدّ قبضتَي يديه ويُرخيهما وهما إلى جنبيه، ويُحدّق مُستعرضاً صفّاً من الزبائن الدائمين. ثم يربّت على كتفي مودّعاً – ربتتين صغيرتين خفيفتين – ويخطو مبتعداً وحده.

أراقبُ سترته الصوفية تبتعد على طول الطريق.

-19-

«أرأيت العربة؟» يجلس توماس في المقعد الخلفي يبعث رسائل نصيّة. «جميلة، ألا تظن؟ بحلول يوم الأربعاء سوف نحصل على عربتين مقطورتين هناك. سوف نُبقي هذه مفتوحة للعموم، وخلال الحدث يمكن أنْ تتضاعف أهميتها كمطبخ احتياطي».

أحدّق بكآبة من خلال النافذة. وعلى الرغم من أنني لا أميل إلى الاكتشافات هذه الليلة، لا يسعني إلّا أنْ أقع على واحد من هنا: إنَّ العالم يُصبح مكاناً أبهى بريقاً من خلال زجاج سيارة ليموزين. أسألُ: «ولكن هل يُسمح لك ببساطة أنْ تركن السيارة وتقوم بتقديم الطعام هكذا؟».

لا يرفع توماس بصره: «المدينة تسمح بهذا. إنَّ أيام تمبلهوف الأخيرة تُعتبَر حدثاً مميزاً. لم يتبقَّ إلّا أقلّ من أسبوع. أمر مُثير».

«سوف تقضي على التجارة الصغيرة التي في آخر الخطّ».

يلتفت ليحدّق إليَّ: «ماذا؟ إنَّ مَنْ لم يتمكن من كسب النقود هناك على مدى السنوات السبعين الأخيرة لن يُنقذه هذا الأسبوع». أخيراً يعتدل توماس في جلسته في مقعده ويترك هاتفه. «لا أظنك تشتاق إلى كتل خيوط العنكبوت القديمة في المبنى؟ إنَّ معظمهم من ألمانيا الشرقية، لا تستطيع حتى أنْ تسميهم رجال أعمال. إنهم متهالكون، وليستْ لهم أيّة أهمية. ونحن لا نلهث وراء الربح، نحن نهب الطعام والشراب. إننا نقوم بالعمل الصحيح عبر كلّ شخص».

«قد يبدو ما سأقول فظّاً. إنَّ بعض الموجودين هناك على قدر عالٍ من المهارة».

يضحك. «Ja, Ja. إنَّ كلّ شرقيّ هو عالم ذرّة. ولكن ما فائدة عالم ذرّة يعمل في مسح الأرضيات ليكسب قوته؟ أو مهندس صواريخ لا يُحسن تقشير موزة؟ أو جرّاح أعصاب لا يستطيع خوض حديث؟»، يُبقي فمه مفتوحاً في انتظار الجواب. «يا صديقي، إنَّ رومانسيتك الإنكليزية بيّنة. إنها صِفة ساحرة، ولكن صدّقني – سوف يكونون في أحسن حال، وسوف نكون في أحسن حال».

تبادله بيتينا التحديق: «هل نحن ذاهبون إلى هيئة الطيران العام؟».

«كلّا، إنه قادم بصورة سريّة، بل إلى شركة إير فرانس».

«هيئة الطيران العام؟»، وأنظر إلى توماس. «لنطلب طائرة خاصة؟».

«سوف يتضمن الأمر ثلاث طائرات نفاثة أو أربعاً قبل انقضاء الأسبوع. والمدرج هو أحد سِمات الموقع التي لا تقلّ جمالاً. يمكن للمُنتَج أنْ تطير من المنشأ مباشرة، ويمكن للضيوف أنْ يحطوا بجوار طاولتهم». يراني أرمش بعينيَّ لسماع هذا، فيمدّ يده ليصفع ساقي. «لقد حاولت أنْ أخبرك: إنها أمّ المناسبات جميعاً».

«هذا ما يبدو. ومَنِ الضيوف؟».

«ها – حتى أنا لست متأكّداً من هذا. ولو كنت أعرف، لتوجب أنْ أقتل نفسي. لكنني أضمن لك ما يلي – إنهم يأكلون طائرات نفّاثة على الإفطار».

في برلين-تيغل أبذل مجهوداً لكي أظهر بتعبير الوجه المناسب. مَنْ يدري ماذا يمكن توقّعه من شخص مثل ديدييه الباسكيّ. يجب أنْ أُظهر فرحة غامرة بوصوله، على الأقلّ على الورق. في كلّ الأحوال لقد نجوت من التعجُّب كثيراً من ظهور رجل بدين، مدجّج بالأزرار، من بوابة الوصول. لحية سوداء قصيرة تغطي وجهه وفكّيه، وتمتدّ عالياً عبر رأسه كمرج محروق. يتقدّمه أنف غريب الشكل وضخم، ثم تومض عينان بسرعة من خلال مساحة مشاع خفية تُحيط بمعطفه، حقل طاقة مُتاح لكلّ مَنْ يتمتع بقوة تنبعث من الداخل.

لا ينظر الباسكيّ إليَّ، لكنه يُقدم لي إصبعاً من يده اليُسرى لكي أضغط عليه قبل أنْ يتجاوزني وسط موجة من ماء الكولونيا. فقط عندما يرى توماس يرفع حاجبيه عن أنفه. «انظروا إلى هذا»- ويُشير بيده - «إنَّ شَبَهَه بنجوم السينما يمنحه حياة رخيّة، هه؟ من ناحيتي، يجب أنْ أعمل بجهد مُضاعَف لكي أُعوّض عن قُبحي».

يُكشّر توماس. «أوه، وتعتبر ذلك تعويضاً؟».

يتلقّى لكمة، ويتبادل الاثنان القُبل على الوجنات، ونخرج من السيارة. مقعد السائق خالٍ، وأرى بيتينا أمامنا تقف في طابور سيارات الأجرة. بدل ذلك يتولى توماس القيادة ويجلس ديدييه إلى جواره، ويتركني مسترخياً في المقعد الخلفي.

أولاً نعود إلى بوابة براندنبرغ، وتوماس مع الباسكيّ يتبادلان الهمس في المقدمة كوَلدين يحفران نفقاً يوصِل إلى الصين. وسرعان ما أجدني مفتوناً بهذا الباسكيّ؛ إنَّ روحه بصورة ما صادمة، والانفعالات تندفع وتراوغ داخله وهو يتكلَّم، جاعلة جسمه يهتاج بقوة عصبيّة على الوصف. وعلى الرغم من أنَّ تحديقه سريع التنقُّل يُحذّر من طرح الأسئلة، تشعر بأنَّ أية إهانة منه إنما تصدر عن شدّة الحماس وليس عن خبث[94]. وسوف تتعرَف في الحال على صداه في صوت سميتس، وليس أقلّها لفظ (أه؟) عند نهاية كلّ جملة، وترداد كلمة (عاهر). ولكن من المعروف أنَّ مطابخ

94- *كيف تميِّز الأشخاص الجيدين*: امحُ التعاليم الليبرالية، وإذا بالجليّ صحيح: إنك تتعرَّف إلى الأشخاص الجيدين من وجوههم. هذه الحقيقة منبوذة، بل وتُقدِّم على أنها ظلم، ولكن فقط لأنَّ الذين ينبذونها يريدون أنْ يتعرَّف عليهم التاريخ المكتوب وليس بالحقائق الجلية حول أنَّ عيونهم نهمة أو أنهم يبدون حمقى. وهناك حقيقة مرافقة لهذا: إنَّ الحمقى يجد كلّ منهم وجه الآخر حسناً، وهكذا يجتمعون. هذه هي الآليّة التي تُشكّل بها الحكومات، بالإضافة إلى جماعات أخرى من الثوريين والتكوينات الشبيهة باللجان. وتذكَّر: الشخص الجيد لا يريد إلّا أنْ تتدخل في حياته الشخصية. لستَ في حاجة إلى أنْ تفعل أيّ شيء آخر لتكون إنساناً جيداً - وسوف يظهر ذلك على وجهك. - المؤلف

الطعام الجيد تُثير الجدل، ولذلك هو لا يُفصِح بأيّ شيء عن الاثنين. كذلك الأمر مع طاقة الباسكيّ المحتشدة، التي لاحظتُ وجودها عند نماذج قوية أخرى. وبينما هو يودِع فندق أدلون حقيبته ألاحظ أنَّ أفراد هيئة الموظفين حول الباب يتفاعلون مع حضوره، وبعد قليل أتبيَّن تشبثاً في سلوكه - تحديق مُزدرٍ يرمي به كلّ شيء ينظر إليه للمرة الأولى، ثم موافقة محسوبة تُريح المتلقّي. بهذه الطريقة يجذبهم من احترامهم لأنفسهم، ويجرّهم إلى خدمته مع مزيد من الشعور بالامتنان.

يُدمدم باتجاه الخلف «إذن، غابرييل، هل لديك فتاة؟ أم أننا أفسدنا محاولتك لاصطياد إحداهن هذه الليلة، وفي كلا الحالتين أنا آسف».

«كلّا، لقد انفصلت عن إحداهن حديثاً».

«هذا أفضل. إنَّ برلين مكان جيد للصيد».

«همم - بصراحة الوحيدة التي قابلتها هنا تبدو صعبة المراس. إنَّ نظرة واحدة منها أشبه بضربة بالهراوة. إنها صعبة».

«يا عاهر، ولكن هذا هو سرّ روعتهن! يجب أنْ تلاحقهن! قد يُعيرك توماس واحدة من سياراته الفارهة - ما دامت الفتاة لا تحرق سروالها الداخلي على مقعد من البلاستيك، فإنها سرعان ما تجد سبباً لأيّ شيء تقوله أنتَ».

«ها ها - أعتقد أنَّ هذه سترى العكس. على أية حال أنا لستُ مهتمّاً بها، إنني فقط أراها في الجوار».

«اشتراكيّة صغيرة؟ يا صديقي، عندما يتعلَّق الأمر بطيز على بلاستيك، ليس هناك فتاة اشتراكية. اعطها جلداً جيداً وسوف يسقط السروال».

أضحك على ديدييه وهو يرد عليَّ بضحك مزمجر، مؤدياً مزيجاً من دور العم القذر والجندي، مناكِفاً رجلاً لرجل، مُختبراً حسّي الفكه، يُرققني.

أقول: «على أية حال الأمر كلّه نظريّ. يمكن لسلحفاة أنْ تغلبني فيه».

هتف الرجال مندهشين: «*Quoi ?*، سلحفاة!».

«إنها مُغادرة إلى أميركا الجنوبية في جولة سياحية لمشاهدة الحياة البريّة. السلاحف العملاقة في جزر غالِيباخوس. إنها متيَّمة بجورج الوحيد».

يقول توماس: «آه هذا ذائع الصيت. إنَّ عمر ذلك الحيوان يبدو كأنه مئة عام».

يُدير ديدييه عينيه في محجريهما. «أوفف، إذن لا تنزعج. عليك ببساطة أنْ تقول إنها تفضل الأكبر سنّاً». ويملأُ الضحك السيارة، صوتان صادحان وصوت جهير تدمدم بينما المرسيدس تخترق حركة مرور خفيفة.

لم تتضح صورة ديدييه أمامي، إلّا عندما توجهنا إلى تمبلهوف، وبعد أنِ انتهى المزاح الذي يُقسِّم الرجال إلى مراتب هرميّة. وبعد بعض الحديث عن المصارف التي تفشل، ينظر خلفه ويُتاح لي أنْ أقول: «أليس مما يدعو إلى السخرية أنْ تُقام وليمة على هذا المستوى العالي في مثل هذا المناخ؟».

وقبل أنْ يُجيب يقول بهدوء: «إنَّ ما ترى وتسمع من الآن فصاعداً يخصّنا، إذا لم يتمّ تكذيبه. لن تجد أسرارنا ثقيلة - في الواقع إنها خفيفة ونادرة كالفراشات الصغيرة، كالقُبُلات المسروقة. ولكن يجب أنْ نحتفظ بها. لا أحد سبق أنْ نكث عهده معي - فكّر في كلامي وسوف تعرف مغزاه. إه؟». ويُحدّق إليَّ إلى أنْ أومئ برأسي، ثم يُتابع: «*Bon*، أما بالنسبة إلى تعليقك، فأنت مُخطئ تماماً، ليس هناك أية سخرية. ومن وجهة نظر الطبقة الوسطى قد ترى الاقتصاد ينهار، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ الرأسمالية قد قامت بعملها على أتمّ وجه، كما ينبغي أنْ يُنفَّذ. وبينما تبدو الأسواق تنهار في الضواحي، والأحياء الفقيرة، والمتاجر وفي نشرات الأخبار، فإننا في الواقع نعيش في أثرى الأوقات على مدى التاريخ الإنساني. والأثرى بالمعيار الأدقّ. إنه زمن الوفرة الذي في استطاعة الرومان فقط أنْ يحلموا به. لكنك لا تلاحظ بسبب نجاح

الرأسمالية – لقد انتقلت الثروة الحقيقية إلى أيدي القِلّة القليلة. لم يسبق أبداً أنْ تركّزت مثل هذه الثروة في أيدي أفراد، إه. أبداً».

«وهم حتماً احتفظوا بها لأنفسهم». من خلال الزجاج أرى زوجاً من العجائز يُجاهدان في السير على الطريق مع عربة أطفال مملوءة بالأغراض المنقولة.

«اسمعني: إنَّ ما يُسمّى بالاقتصاد لا معنى له، فلا تجعله يُشتتكَ. والرأسمالية لم تكن يوماً أداة للمجتمعات. إليك تشبيهاً مجازيّاً: تخيّل سفينة فضائية. إنَّ تسعاً وتسعين في المئة من حجمها مجرد وعاء للوقود – وعندما ينفد الوقود، تسقط عائدة إلى الأرض. وما تراه الآن يحدث مع الاقتصاد هو الأمر نفسه – إنَّ الوعاء يسقط فارغاً. والأشخاص الذين بنوا السفينة ما زالوا هناك عالياً في الفضاء. لن يمسّهم أو يمسّ سلالتهم أيّ شيء بعد الآن، ليس قبل خمس مئة عام. هكذا يحدث الأمر. وسواء أكنتَ تكسب من بيع رنّات الهواتف أم من شهادات ضمان السيارات لا يهمّ – فأنت تشكّل جزءاً من وعاء الوقود. قد يجعلك ضجيج السفينة تشعر بأنك قوي، ولكنها في الواقع لم تُصمَّم لكي تبتعد كثيراً. سوف تسقط أنت وتنهار».

«وهل توافق على هذا النمط؟ أعني –».

«إه؟ ليس هناك ما أتفق بشأنه معك أو لا أتّفق. تستطيع أنْ تتبنى أية أيديولوجية تشاء، فكلها لا صلة لها بالموضوع. إنَّ الأيديولوجيات هي تسالٍ، كالكلمات المتقاطعة بالنسبة إلى الحالمين. ذلك أنَّ البشر لن يتغلبوا على أنفسهم بالقدر الكافي لدفعهم إلى العمل. إنَّ كلّ إنسان وحده لطالما كان مفتاحاً للبقاء على قيد الحياة. وهذا هو الحال اليوم على وجه الخصوص. إنَّ الرأسمالية ليست أكثر من شكل مُهذّب لتلك الحقيقة الأساسية. هل لكرة القدم أيديولوجيا؟ هل للموسيقى أيديولوجيا؟ هل لباريس هيلتون أيديولوجيا؟ هذا ما يهتمّ به العاملون في هذه الأيام، وهو نظام مثالي، إنهم وبهدوء يملؤون الوعاء من أجل سفينة شخص آخر. ما

عدا ذلك، ليست الحياة أكثر مما يفعله الرجل بخصيتيه وما تفعله المرأة بفرجها. أمّا أنا شخصيّاً فأميلُ إلى الذين يُحققون إنجازات ضخمة بهما. وكبير وصغير هما الخياران الوحيدان في الحياة الإنسانية، يا صديقي».

«إذن يبدو أنّه الزمن المثالي من أجل إقامة وليمة».

«بالضبط. إنه أفضل وقت في التاريخ لإقامة وليمة - على الرغم من أنه يمثّل أيضاً تحدّياً كبيراً. إنَّ مُكدّسي الثروة غالباً ليست لهم حاسة ذوق، ولا أحاسيس راقية. بعضهم أصله من رعاة الجِمال، أو من البورجوازية التي لا ترحم. الكثير منهم ليسوا بالضبط مُلهمين أو أذكياء. غالباً ليس لديهم ميل إلى الرهافة. إنَّ الناس يعتقدون أنَّ الأقوياء يتشمسون في عالم من الرهافة الراقية لأنهم يرونهم يقتنون أشياء قديمة رائعة وأعمالاً فنية. لكنّ هذين الشيئين استثنائيان. إذ لا يمكنك أنْ تتمتع بأحاسيس رقيقة مؤلمة وأنْ تكون قويّاً معاً. إنَّ كلّاً منهما يُدمّر الآخر. وغالبيتهم يقتني التحف الفنية العظيمة لأنّ التحف نفسها تتسم بالقوة. لذلك فهو تحدٍّ بالنسبة إلينا لأنَّ من الصعب إرضاء الأحاسيس البليدة - ولهذا نتعامل مع أفكار كبيرة. مع مواقع وتجارب لا يستطيعون أنْ يشتروها بالمال. وطبعاً كلّما ازدادوا ثراءً، يُصبح من الأصعب العثور على أشياء لا يستطيعون شراءها. إننا نعمل فوق هوامش الممكن. أيضاً مثل هذه الولائم غالباً ما تحتفل بمناسبات خاصة، مما يُضاعف من حِدّة التحدّي لأنَّ الموقع يجب أنْ يعكس المناسبة. لا يمكن تكريم قطب في مجال الشحن البحري في حطام سفينة، هه. هذه الوليمة، على سبيل المثال، هي مراسم موت، تغيير في الحياة على أعلى مستوى. لذلك فإنَّ المطار كدافع يُعتبَر مثاليّاً بسبب دوره في جسر برلين الجوّي الشهير. الأمر أشبه بنهر ستيكس[95] - فالطائرات لم تكن فقط تتوجه إلى غاية أخرى، بل إلى حياة أخرى، تاريخ آخر. انظر كيف يتطابق الأمر؟ وتذكّر، يجب أنْ يكون الجمال مُفاجئاً - وكذلك الممتاز حقّاً يجب أنْ يصدُم

95- ستيكس: في الأساطير الإغريقية، نهر الجحيم الرئيس. - المترجم

بشدّة ويكون غريباً في أبعاده. على الضيوف أنْ يغادروا وهم يتساءلون إنْ كانت المناسبة قد وقعتْ حقّاً. وهذا المبنى هو المنطلق المثالي لهذا الحدث. إنه أفضل ما حصلت عليه طُرّاً».

أقول: «يجب أنْ يُبقيك منشغلاً، في العثور على مواقع على هذا المستوى».

«نحن لا نقدّم ألبسة، لا نفعل هذا لنكسب قوتنا. بل فقط لنتباهى. ونفعل المستحيل لأننا نستطيع ذلك، لأنَّ لدينا خصى، لأنَّنا في الحياة نختار الكبير وليس الصغير - على الرغم من أنه طبعاً لا يؤثر على عملنا أنْ نرمي الأساطير خلفنا. وعندما تكون أغنى الرجال، أو في المرتبة الثانية، أو حتى رقم مئة بين الأكثر ثراءً، تريد أنْ تشعر بأنك تملك العالم بكلّ ما فيه. وعندما تخدم أولئك الأشخاص كما نفعل، عليك أنْ تبيِّن لهم أحياناً أنك تملك المفاتيح، وأنك تستطيع أنْ تمنحها، ولو لليلة واحدة».

بهذا انحدرنا إلى كولومبيادام، حيث تنهض كتلة المطار الضخمة أمام الأنظار. يشهق ديدييه بصوت منخفض. «انظر إليه، يا إلهي. تحفة إرنست ساغيبيل. الذي أطلق عليه نورمن فوستر أمّ المطارات جميعاً، إه. لقد قطعنا مسافة نصف كيلومتر وما زال المبنى بعيداً عن الأنظار. وانظر»، ويلكز توماس: «ما زالت النسور تقوم بالحراسة في الخارج».

تمتلئ السيارة، ذات النوافذ المُحكمة الإغلاق، بالطاقة، من هذا الرجل، من هذه الأفكار، من استحالة تنفيذ الخطّة؛ ويبدو أنَّ لكتلة تلك الطاقة يقينها الخاص، وأنها تحجز لها حيزاً في التاريخ نفسه. تبدو أنها أوضح تجسيد للإرادة الإنسانية يمكن أنْ أقابله، طاقة تضغط بالمعنى الحرفي على لحمنا. وعلى الرغم من أنَّ هناك أسباباً لا تُحصى لاستحالة إقامة وليمة هنا، فإنَّ قوانين الفيزياء الإنسانية داخل السيارة مُحاطة بغشاءٍ حالما يُخرَق، سوف يدفع الطبيعة إلى قبولنا كسادة جُدُد.

كشفَ توماس عن وجود درب آخر يؤدي إلى الطابق السُّفلي، يمرّ من غرفة المنافع التي يتمّ بلوغها من الخارج. ونهبط إلى أرض العجائب.

يهمس ديديه عندما تُضاء الأنوار: «*يا عا-هر*».

لبرهة من الوقت لا يُسمع إلّا حفيف الأحذية على الأرض وهفيف الأنفاس في الجوّ الساكن. وعندما نتجمع ببطء في منتصف الامتداد الطويل للمداخل المقنطرة، يمرّ المزيد من الوقت قبل أنْ تبدأ عقولنا بالعمل، قبل أنْ تخرج أفكارنا على شكل همسات:

يسأل ديديه: «وماذا عن المطابخ؟ هل بقيَ أحدها هنا؟».

يقول توماس: «يُستحسن أنْ يكون متنقلاً. سيارات نقل المؤن تقف في الخارج».

يومئ الباسكيّ برأسه وهو يتأمل الأسقف المُقنطرة، ويحسب المساحات في طول الباحة وعرضها في ذهنه. «الأهمّ فالمهمّ: المسدس الخُلّبي يجب أنْ يكون في الخارج في نفق سكة الحديد. عملية الإخلاء يمكن أنْ تتمّ هنا في الأسفل - هل تعرف إنْ كان في استطاعتنا أنْ نصل إلى الأنفاق المؤدية إلى أرض المطار؟ هل هناك دروب مباشرة إلى الطائرات؟».

يقول توماس: «هناك على الأقل دربان، وإنْ كان ما زال علينا أنْ نتفحّص قفل أمان آخر لكي نحصل على مفتاح. هل فكّرت في وضع خطّة طيران؟».

«طبعاً - سوف نعدّ خطّة رحلة من باريس إلى هلسنكي من دون توقف، وهذا يجعلنا فوق الرؤوس مباشرة. ثم نقوم بهبوط وقائي بسبب فشل في إحدى الأدوات. يمكن لباريس أنْ تنشئ شيئاً ليس حاسماً بأحد أضواء ركن الطيّار».

«شيء بارع. إذن الطائرة على استعداد طوال الأمسية، ومُعدّة للانطلاق».

«بالضبط، وواضحة للعيان، الدرَج نحو الأسفل، والأضواء الداخلية تسطع، والأنظمة تعمل. الجوّ وديّ، وديّ، وديّ، وتوجد في الداخل أمتعةٌ لا يُعرَفُ صاحبها».

«عظيم. وإذا تزودنا بالوقود، واستعنّا ببعض الخدمات الأرضية، سوف يُحبُّنا المطار. في المعتاد يُغلق المطار أبوابه عند الساعة الحادية عشرة، ولكن إذا سدَّدنا ما علينا وبقينا ضمن مجال الضجيج يمكن أنْ ننجو، بسبب تحليقنا قرابة منتصف الليل، خاصة من تهمة الهبوط الوقائي على افتراض أنَّ هذا هو آخر يوم جمعة من العمليات. ولكنّني أنذرك، بسبب الموعد قد يشكون في أننا نطير من أجل المتعة - إنَّ شونفيلد مطار يعمل طوال الليل، وقريب منا. ولكن ليست هناك مشكلة لا يستطيع سحر الطاقم حلّها. مَنِ الذي سيطير؟».

«في الواقع إنَّ الضيوف الرئيسين سوف يطيرون بأنفسهم، من دون طاقم تقني - سوف نحتاج إلى اثنين من الطيارين البلهاء فقط لكي يتسكعا حول الطائرة وفي الطابق العلوي».

«أستطيع تدبير هذا - نحن نستعين بأحد أصدقائي لتقديم طائرة نفاثة أخرى للإنتاج، وشركته معروفة في تمبلهوف ولهذا لديه تصريح جيد لولوج منطقة المطار».

يومئ ديدييه برأسه: «*Bon*، وهل استأجرتَ مساحة إضافية في الطابق العلوي؟».

«سوف أتأكّد غداً. أعتقد أنّنا نستطيع أنْ نحصل على أيّة مساحة لحظيرة الطائرة أو مساحة لغرفة المكتب، وأيضاً بعض من مساحة الخطّ النهائي الرئيسة من أجل الأحداث الفريدة، ولكن بعد أوقات الدوام».

«فريدة؟ إذن احجز واحدة لكلّ يوم. امتلكها كلّها فوراً».

«أليس إقامة مناسبات إضافية كلّ يوم هو هدر للوقت؟».

«قُل لهم إنّه لإنتاج فيلم سينمائيّ، فقط ضع آلة تصوير هناك. يجب أنْ نمتلك أكبر مساحة ممكنة من المبنى، يجب أنْ يعمّ النشاط كلّ زاوية بحيث لا يتذكرون ما هو العادي. ضَعْ وجوهاً جديدة، وأنشطة جديدة، وأثاثاً جديداً أمامهم في كلّ يوم إلى أنْ يملّوا التساؤل عما يحدث».

يسأل توماس: «وما هي قائمة الطعام؟ إنَّ التبريد مسألة هامة».

«أنت تعلم كيف هو الأمر، إه - إنه يعتمد على ما نستطيع الحصول عليه. والشيء الذي ما زلنا نحتاج إليه هو الطبق المميَّز، ومقدار ما لن يُعرَف حتى النهاية. إنني أبرم عقوداً نهاراً وليلاً. وحتى الآن، ووفقاً لِما نمتلكه فعلاً، قد نتمكن من إحضار نمر».

يطرف توماس بعينيه: «نمر؟».

«نمر نظيف، إه. نمر صغير. ألديك مشكلة في هذا؟ إنه حيوان. أنا حيوان. إذا لم آكله أنا، فأيّ حيوان آخر سيفعل، أو هو سيأكلني. أتعتقد أنه مُستنير إلى درجة ألّا يأكلني؟ هذا هو منطق موتنا».

«هيه - أنا لا أجادل».

«عظيم. لا مجال للجدال هنا. لقد فكّرتُ في أنك ربما تنضم إلى الحملة للمحافظة على أشياء ظريفة، أشياء تُصدر صوتاً تحت الماء. فبالنسبة إلى لائحة الضيوف هذه يجب أنْ نكون رمزيين. إنهم لن يفهموا المطبخ الراقي، يجب أنْ نقدّم حكايات. خالية من العيوب، طبعاً، ولكن لا تعتقد أننا سوف نكسر ظهورنا كما فعلنا آخر مرة، ونزرع محاصيل هجينة جديدة ونجرب أنْ نصنع كابوتشينو من خلايا سيقان النبات، خاصة ليس من سيارة نقل المؤن ومع السير في الهواء الطلق قبل الخدمة. هذه المرة العمل جريء وبسيط، بمكونات فريدة، غنية بالنكهة، ومُعالجة بشكل ممتاز، وتُقدَّم تحت وعاء زجاجي واقٍ. وطبعاً، كلّما أمعنتُ التفكير في الهواء الطلق بين المطبخ والطاولة، أقترحُ أكثر إقامة غطاء مسرحي. أو فيلم سينمائي في الطابق العُلوي يمكن أنْ يُراق ويسقط على العربات المقطورة. أفهمت، إه؟ غطاء يحدث تحته كلّ شيء».

عندئذٍ يتقدم ديدييه وتوماس داخل البهو، يُغمغمان، ويُشيران حول الأقواس والجدران. ويهبط عليَّ الإدراك: إنَّ حلم سميتس وحلمي عن المستقبل يتكشّف هنا - *في الهالة النوانيّة*. إنه مطعمنا منذ زمن بعيد.

يبدو أنَّ الحلم يتدفق عائداً خلال الأقواس، متجمعاً بكلّ تفاصيله وكأنَّ هذه هي المساحة المطلوبة. أكفان لحجز الدموع والصلصة،

الوصايا والمواثيق الأخيرة، لا يافطة، لا أزواج، اسمه يُتداول همساً. أتعتقد أنه ستكون هناك أكفان في تلك الوليمة، أو كراسي صيد السمك من أعماق البحر عليها أشرطة؟

وماذا عن مواصفات الرداء، هل يجب أنْ أعثر على ردائي؟

عندما أرى أنَّ الرجال عادوا، تقابل عيناي عينَي ديدييه. أسأل: «وهل هناك مواصفات للرداء؟ هل يجب أنْ أُبقي عيني مفتوحة بحثاً عن أيّ شيء؟ عن رداء سهرة؟ أم إنها حفلة تنكرية؟».

توقفا، تكتنفهما الأروقة المقنطرة، ويُحدقان برهة. يُنعم ديدييه النظر أمامه. «ماذا؟ لماذا مواصفات الرداء، لمَنْ - للضيوف؟».

«نعم، لأجلي - في الوليمة. هل أُحضِر زيّي الخاص؟».

فجأة يُصبح الجوّ ثقيلاً. يخطو ديدييه خطوة أخرى نحوي، أراقبُ شفتيه تُشحنان ببطء كما يُشحن مسدس. «يا صديقي - إنَّ هذا حدث مُغلق تماماً».

أقفُ صامتاً، أُنقِّل نظري من رجل إلى آخر.

يهزّ كتفيه استخفافاً. «ربما هناك ما يمكنك القيام به عندما نبدأ، إنْ شئت - لا أعلم، ربما تقدم يد المساعدة في إحدى العربات المقطورة».

«أه. همم. أنا فقط فكّرت أنَّ، بعد -».

«اسمع، كلّا، فلنكن واضحين تماماً: إنَّ عملنا انتهى - هه؟».

-20-

في صباح اليوم التالي أجد أنَّ من المستحيل أنْ أنهض من السرير. وبدل ذلك أستلقي مع إحساس مبهم بهاجس، أتنحنح وأهرش نفسي من دون أيّ سبب خلاف أنْ أبرهن على أنني موجود. يرنّ جرس الهاتف بعد الظهيرة تقريباً، مُغرداً جرعات صغيرة من الأدرينالين. أسمع خلف صوت سميتس ضجيجَ صراخٍ في سجن الأحداث: أنين هنا، عواء هناك، يتردَّد صداها على أسطح من حديد. ولا أُصبح وحيداً إلّا بعد برهة من بضع كلمات باليابانية. أنحّي صينية إفطاري البارد جانباً بإحدى رُكبتيّ.

أخيراً يقول: «غابرييل، أنسيتني أيها العاهر أم ماذا؟».

أُصدَم. «هه؟ طبعاً لا، ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟».

«أعلم أنَّ الله يعمل بأساليب غامضة، ولكن على الأقلّ أخبرني ما الذي يجري. إنني أُقيم في السجن منذ سنوات، التي تتألّف من تلك الساعة الأخيرة التي تسبق رنين جرس المدرسة. إنني أنتظر ديدي أو ساتو لكي يدفعا قيمة الكفالة ويُخرجاني من هنا».

«ولكن - ألم تجتمع بالباسكيّ؟».

«كلّا، ليس منذ تلك المكالمة الوحيدة في مركز الشرطة. إنَّ ما أعتقد هو أنه في البنينسولا يعبث بأعضائه. غالباً في غرفتك، إه».

«في الواقع، كلّا - إنه هنا. قال زميله إنك كنتَ على اتصال معه، قال إنَّ هناك خطّة تُعدّ. إنَّ كلّ شيء يسير سيراً حسناً في برلين، يسير ببطء».

«أوه؟» مُحاولاً أنْ يستوعب. «حسن، وهل قال ما هي طبيعة الخطّة؟

إنْ كانت تدور حولي فمن المذهل أنْ أسمع عن فحواها قبل أنْ أُدان بتهمة القتل يوم الاثنين».

سرت برودة في أوصالي. «سميتس - لقد سمعتُ أنَّ كلّ شيء تحت السيطرة. إنهم هنا يُنظمون الوليمة».

«حسن، أعتقد أنَّ هذا أمر رائع، على الأقلّ ما زال يتمسّك بمكاننا. شكراً لله على هذا! ألم يأتِ على ذِكري فيما يخص قائمة الطعام؟ إنَّ مزيّة هذا المكان الوحيدة هي: أنَّ لديَّ وقتاً رحباً لارتجال قائمة طعام مُترفة بجديّة».

«همم، حسن - إنه لن يناقش هذا الموضوع معي». كان لا يزال ومض بارد كالثلج يسري في جسمي، بل بدا إنَّ الغرفة تعيثُ فيها الفوضى - ليس مما سمعت، بل من إحساسي بما سيأتي. إنه إدراك بطيء على مستوى هائل. «كلّ ما سمعت حتى الآن هو أنهم قد يُحضِرون نمراً صغيراً».

«أه؟ نمراً؟ خطوة سيئة، تُدهشني - إنَّ القطط قذرة».

«أعتقد أنه قال إنهم لن يُعدّوا مطبخاً راقياً جدّاً، إنه يفتشون أكثر عن الرموز. عن إنتاج بسيط، وغنيّ بالنكهات».

«يا عاهر، إن كان نمراً فقد لا نتمكن من التعامُل إلّا مع الذيل. إلّا إذا كان جرواً، جرواً يتغذّى على الحليب - هل هو جرو؟ إنْ كان جرواً أخبره بأنَّ عليه أنْ يُغذّيه على الحليب على الفور، أعتقد أنه سوف يحتاج إلى ثمانية إلى عشرة أسابيع على الأقلّ. كلّما أسرعتُ في الانهماك في العمل، كان ذلك أفضل - أخبره أنْ يتمهّل في وضع القائمة في الوقت الحاضر. ما هو موعدهم المفترض؟».

«همم - أعتقد أنه قريب جدّاً». أتراجع، شاعراً بالاشمئزاز في داخلي.

«حسن، اسمع، يا عاهر - إنْ كانوا متحمسين إلى هذه الدرجة للمكان، ويفكرون منذ الآن في قائمة الطعام، فإنَّ الخدعة الآن هي *إنهاء*

الصفقة. أنْهها اليوم إن استطعت، إنَّ الوضع يُصبح مُخيفاً هنا. ولكن تذكّر مع مَنْ تتعامل، تصرّف بهدوء. ومهما كان ما تفعل، لا تسمح لهم بالاقتراب كثيراً من المكان! ليس قبل أنْ يروا الأمور تتطور هنا! أه؟ هذه هي الخطوة الوحيدة الباقية، فلا تُفسدها. السلطة تبقى في أيدينا - ولكن فقط ما دمنا *نتحكم بالمفاتيح*».

وووش بسرعة. هكذا برصانة، وبعقل غير قابل للجدل، بل ومثالي، يُدلي سميتس بما ينبغي أنْ يكون نهاية اللعبة بالنسبة إليهم جميعاً - المشهد الختامي لمجلد مملوء بالمشاهد الختامية، نهاية أبي الهول وكلّ ذي حظّ عاثر يسير في دربه المشؤوم - ذلك أنني أعطيت، كما يُعطي كلّ الأشخاص الصغار يتوددون إلى السيد، المفاتيح للخلاص في مقابل بقعة من أشعة الشمس على البياضات، ووسادة الريش وإفطار في السرير.

رسالة واحـدة فقط تُستشَفّ من الأمـر: امشِ على درب البشر جميعاً. عانق قسيس البُكم الشاحب، سلِّم الروح، اعثر على شاطئ نهر الموت[96]، لبِّ النداءات الأخيرة، سدِّد الدَّين الذي يتوجب علينا جميعاً أنْ نُسدده للبحر - ثم اذهب ومُتْ.

الليلة التالية تشهد إنهائي ما تبقّى من مواد، وإفراغ البار الصغير وبكائي إلى أنْ تُسد مجاريي كلّها. ويحلّ يوم الأربعاء، عشية هذه الحفلة المنعزلة، وأخرج لأواجه العالم للمرة الأخيرة. عالم يختلف عما كان من قبل. الآن أصبح عالم السيد، يدوسه الطفيليون، والمُغتصبون وأنواع الجراثيم كافة.

أخرجُ شاعراً كأنني المصدر الأساسي لهذا التلوُّث.

عندما أصل إلى تمبلهوف أجدها تعجّ. أبواب خدمة ضخمة تبقى مفتوحة على مصاريعها وشاحنات بأضواء وامضة تُصدر صوتاً مُلحّاً تمرّ

96- المقصود هنا نهر الموت الذي يفصل الحياة الدنيا عن الآخرة، الستيكس، في الأساطير الإغريقية. - المترجم

جيئة وذهاباً، تقودها أسراب من الرجال في مهامَّ مجهولة. ووسط ذلك كلّه تتوقف عربة المطبخ وتضخ طفيليين حديثين – وعند النُّضد يقفُ شخص يرتدي السواد.

إنه يرفع ياقته كجاسوس في فيلم سوداوي[97]، يكاد يُشبه رجلًا خليع الملابس، ويهتزّ برفق على إيقاع على عقبيه.

أرى عن بُعد غوتفريد بيتش يقترب بخطى ثابتة.

إنِّ حالتي الجسدية تعادل حالة أيّ شخص يقضي آخر يوم له في الحياة بعد مرض طويل؛ إحدى الساقين كانت قد تيبّستْ وتحاول أنْ تزحف، وذراعاي أصبحتا ملتصقتين بأضلعي عند المرفقين ويداي تتقوسان نحو الداخل كالمخالب. أحاول أنْ أجتاز العربة دون أنْ يراني أحد، وأشعر بأنني نجحت إلى أنْ ينخر صوت خلفي: *أيها الإنكليزي* – إنْ كنتَ تبحث عن شبيخت، فهو ليس في الداخل». لم يتلفت غوتفريد، بل بالأحرى اقتنصني من خلفية رأسه. أقتربُ منه عند العربة.

بعد أنْ راقبتُ كأس البيرة يُرفَع إلى شفتيه، والورقة الأنيقة المُحيطة به تدور عند العنق، أراقبه يُعيده إلى البار، يقول، أيضاً من دون أنْ يلتفت: «هل تعلم بأمر إنتاج فيلم يُبرَم هنا؟».

أسعل. «همم، لا أستطيع أنْ أقول إن لي عِلماً بهذا، كلّا».

حينئذٍ، بعد فترة صمت تامّ، يستدير ويُحدق إلى وجهي. أنجح في تحمُّل شُعاع أو اثنين من أشعته الزرقاء بلون الثلج، بتأثيرها الذي يُشبه تأثير أشعة الشمس – ثم أُضيِّق عينيّ، وأُخفض تحديقي. وبعد برهة صمت أخرى يقوم بمراسم صغيرة بإخراج سيجار ثخين من جيب صدرته ويُشير به إلى كولومبيادام، حيث شخصان جالسان على حافة الطريق تحت شجرة. أحدهما غيرد، رأسه بين يديه، وهاتف على أُذنه.

97- المقصود هنا نوع من أفلام الجاسوسية والإثارة التي صُنِعت في حقبة الأربعينيات وتتسم بالغموض وباللقطات التي يكثر فيها تعارُض الظل القاتم مع الضوء. – المترجم

أشكرُ غوتفريد وأمشي قليلاً لأجد آنّا جالسة إلى جواره، تتابعُ حلازين على الأرض حاملة غُصيناً.

«باه! ماذا؟». يرتعش صوت غيرد وأنا أقترب. «لكنهم قضوا أيضاً على عربة بيع الأطعمة، وهذا الأمر لا يتعلّق بمَنْ لديه مال أكثر، بل هي مسألة ممارسة مُنصِفة في منطقة العمل الصغير. إه؟ حسن، أعلم أنَّ الأمر يتعلّق بالمطار أيضاً، ولكن أخبرني أنت إنْ كان إعطاء تحذير مُنصِف ليس جزءاً من واجبهم اتجاه الساكنين».

تنهض آنّا، وتنفض الغبار عن مقعدة بنطلونها الجينز، تهمس: «ماذا تريد؟ هذا الوقت غير مناسب، إنهم يُحاولون أنْ يُلغوا حفل وداع غيرد».

«أوه، كلّا، أنا آسف - مَنِ الذي يُحاول أنْ يُلغيها؟ كيف يمكنه ذلك؟».

«ثمة حدث طرأ في الدقيقة الأخيرة واستأجر منطقة آخر الخطّ. سوف يُغلق غيرد عربة بيع الأطعمة باكراً. إنَّ الأمور تسير سيراً سيئاً بما يكفي اليوم لأنك لست هنا تجوس المكان بحثاً عن كعك».

«ولكنهم حتماً لا يستطيعون منعك من ممارسة التجارة؟ حسبتُ أنّ مساحة آخر الخطّ لا يمكن استئجارها إلّا بعد انتهاء ساعات الدوام الرسمي، لإقامة أحداث خاصة؟».

تضيِّق تحديقها. «هذا صحيح - ولكن سواء واصلنا البيع أم لا، فإنَّ سيارة النقل هناك تهب الطعام مجاناً فما الفائدة؟ ثم ما أدراك بسياسة منطقة آخر الخطّ؟».

أقفُ وأنا أترنح بهدوء، وأخيراً أمشي إلى أقرب شجرة، وهناك أدعم نفسي كمنصب ثلاثي القوائم. «همم، حسن - لا بُدَّ أنني سمعت ذلك حول المكان».

تتابع: «وبسبب الأحداث لا يُسمح لنا بدخول المبنى في ليلة يوم الجمعة. إنَّ غيرد يستشير محامياً، إنَّ الأمر ليس مُنصفاً».

أومئ برأسي وأُشيح بوجهي، محاولاً أنْ أكافح ذلك الألم المُمضّ.
ها هو السيد يمبوس الرأسمالية، عاصفة من النار، لا تستهلك فقط كلّ شيء في طريقها، بل وتمتص الأوكسجين من العالم حولها لتغذّي فراغها النهم، بل وتستنزف الرئات تماماً من ممتلكاتها كلّها. وفي مكان قريب تتراجع سيارة نقل إلى الخلف، مُصدرة صفيراً مُلحّاً، ومع صفيرها أسمع صوت ذلك اليمبوس يعلو: «أنا أربح، وأنت تخسر».

«آه، يا فريدريك»- ينظر غيرد إليَّ - «ألم تُخبرك آنّا؟ إنهم يُحاولون أنْ يُلغوا الحفلة، لكنني لم أتخلّ عن القتال بعد. كلّا، يا سيدي. لن أتوقف ما دام في رئتيَّ هواء»، ويومئ برأسه لنفسه برهة قبل أنْ يمدّ بصره إلى حيث العربة. «هل رأيت غوتفريد؟ لقد أخبره أحدهم أنَّ ثمة إنتاجاً لفيلم سينمائي يُعدّ له – *هاا!*».

بعد هذه الفورة من الحيوية يسقط وجهه إلى حالة من الحزن الصارم، ويُثبِّت نظره على الموقع. تستشير آنّا ساعة يدها ثم تلتفت إليه:

تقول: «سأذهب الآن. هل أُحضِر ما أحضرته سابقاً؟».

يومئ غيرد برأسه: «*Ja*، الأرخص. ربما الشاعر يُساعدك في حمله».

تتفحّصني آنّا من رأسي إلى أخمصي. «أووف. شاعر؟ إنَّ هذا يُفسّر شيئاً. على الرغم من أنَّ الأمر قد ينتهي بي إلى حمله». وتلتفت إليَّ: «هل تصلح للقيام بنزهة؟».

أقول: «نعم، إنْ كان في استطاعتي أنْ أساعد». وبصراحة أنا سعيد لفراري، بسبب كلّ ذلك الصفير والأزيز في المكان أشبه بالمُدمِّرين الذين يقتحمون المكان بغية القتل.

حقيبة آنّا التي بحجم حلوى الإصبعيّة تتدلى من كتفها، وأجدني أتمنى أنْ تحتوي حلوى إصبعية التي صُمِّمتْ لحملها. بدل ذلك تُخرِج منديلاً ورقيّاً وتعطيه لي. إنَّ الدم ينزف من أحد منخريّ؛ فأمسحه.

تسأل غيرد: «وأين أتركها؟».

«ضعيها في المخزن – إليك، خذي المفاتيح».

نطلق لإنجاز مهمتنا من أجل غيرد الذي يعرف أماكن الأشياء والغرض منها، ولكن ذلك هو أقلّ ما يمكنني إنجازه من أجله، وعلى أية حال يمكن أنْ يكون من أجل مكان أقلّ إثارة للسخرية من هنا. وربما النزهة تساعد على استقرار حالتي بقدر كافٍ للُّجوء إلى الحكمة، لأنَّ السير بخُطى مُتعبة خلف آنّا، ومراقبة حركة كفليها بالجينز، يُذكّراني بأنَّ الحياة باتت خلفي. وحده الموت يقفُ أمامي، حيث لا شيء يتحرك. أجرُّ قدميَّ قُدُماً كالطيف، وبينما صخب المطار يتلاشى خلفنا أعلمُ أنني يجب أنْ أستغل هدوء هذه الساعات، وأستغل مساحة شوارع برلين العريضة، العملية، وغياب تدخّل حالات اليمبوس الاستغلالية، لكي أُخطّط لموت سريع – موت بلا وليمة.

تلزم آنّا الصمت حتى وصولنا إلى إشـارات المرور في شارع شونبرغرشتراسه.

تسأل: «أأنتَ هكذا دائماً؟ أم إنَّ حفلة غيرد (الخاصة) تدمرك؟».

أقول: «لقد استفقدناك في (الحفلة الخاصة)».

«أووف – لقد بكيت حتى جفّت دموعي لأنني لم أكن هناك».

«همم. هكذا كان شعوري في حفلات عائلتي».

تقول متجهمة: «ليست لديَّ مشكلة معها، إلّا إذا أُقيمت في دريسدن».

«أه، آسف. حسبتُ أنَّ غيرد كان –».

«أنا قريبة بعيدة لجيزيلا. بعيدة جدّاً».

في أثناء عبورها الطريق تتكبد مشقّة المحافظة على مسافة بيننا. فقط عندما يلوح مبنى ضخم أمامنا أفكّر في أنْ أسألها عن مهمتنا.

تقول: «صناديق تخزين. من أجل حزم أغراض عربة بيع الأطعمة».

تجيش أحشائي.

ما يلوح أمامنا هو IKEA[98].

المكان بالغ الضخامة، إنه *flughafen* (مطار) الاقتصاد. موقف السيارات وحده استغرق منا اجتيازه ساعات عديدة. يضعف وجيب قلبي عندما يبدأ ظل البناء يسقط علينا، ويُخفق الحوار بينما أبحث عن مخارج وأماكن للاختباء. إلى يسار المدخل يمتدّ صفّ طويل من منافذ دفع الحساب إلى ما لانهاية كحدود دولية حيث تبرز فجأة حشود كالنمل من المتسوقين مع بضائعهم. حركة المرور تتجه فقط إلى الخروج. الأبواب إلى اليمين تُفضي إلى ردهة فيها مصعد يرتقي إلى مستوى واحد قصير. تأخذني آنّا إلى المصعد، وفي الطابق العلوي ننتقل إلى درب مشهور يلتوي عن بُعد خلال أمواج من قطع الأثاث والمنقولات. ينضح عرق بارد من جسمي كلّه. يجتاز الدرب مياهاً ضحلة، وتيارات وكتلاً من قطع الأثاث الأساسية، مروراً بمغارف وأرفف، وقدور، ووسائد، وأرائك وطاولات.

هناك اتجاه واحد فقط. وأبدأ أشعر بالاضطراب.

«أودّ أنْ أخرج لأدخن سيجارة». أتوقف وسط مجموعة من محاليل الاستحمام، ما يشبه الزاوية المنعزلة بعيداً عن الدفق المتلاطم. يُدوِّم عدد من المتسوقين الآخرين هنا فترة وجيزة، لكنهم سرعان ما يخرجون نحو قطع أثاث أبعد. أراقبهم يبتعدون نحو مجموعات من حوامل الأكواب، وصحاف قطع الصابون وصناديق القمامة.

تقول آنّا مرتابة: «ما خطبك؟».

«أشعر كأننا قطعنا أميالاً مشياً».

«أووف – نحن لم نقطع حتى نصف المشوار».

يخبو ادّعائي ويموت داخلي.

يجعلُ وخزٌ من الرعب الباردِ المشهدَ يدور إلى أنْ أستدير أخيراً

98- شركة سويدية لتصنيع وبيع قطع أثاث يمكن تركيبها بسهولة. – المترجم

وأفرّ، مارّاً بالمغارف، وبأرفف الكتب والأرائك، وبأذرع تضرب باندفاع متهوِّر نحو المصعد.

لكنَّ بابه يُغلَق.

لا يوجد زرّ للهبوط.

من فوق الدرابزين أرى العالم من خلال النافذة، أرى الناس يتجولون بحرية، يُثرثرون، يُدخنون.

ولكن لا مهرب أمامي.

لقد صُمِّم المبنى مُضاداً للفرار.

ألتقط أنفاسي. يحتجزني شخص سويدي داخل محلّ تجاري. يُعاني من آثار السُّكر. وفي موقع على مسافة مني عميل شرير للسيد يمبوس، يرتدي ملابس من الكشمير أتقن صنع فخّ للبشر. نحن جرذان بالنسبة إليه، مجرد وحدات من الربح، من القيمة الحقيقية التافهة بحيث نستدعي المصعد ذا الاتجاه الواحد خشية أنْ نُحسِن الحكم ونُدين المرور خلال متاهة تؤدي إلى منافذ تسديد الفاتورة.

إنه مُختبَر التسوّق. مربى الضعف الإنساني.

إنه عمل قِوى لا شيء يقفُ في طريق شبقها للربح.

وفي برلين! مدينة الناس! الألم لا يُحتَمَل. إذا وصلتْ إلى هنا، أعني هذه العدوى - فهذا يعني أنها وصلت إلى كلّ مكان.

أُلقي نظرة حولي بحثاً عن أجساد. طبعاً ليس كلّ جرذ يمتلك الأنسجة التي تخوله المرور. ثم قفلتُ عائداً بسرعة مجتازاً المتجر، قاطعاً باندفاع ميلاً بعد ميل من أشجار الصنوبر الشمالية، متغلباً ببطء على الزوايا إلى أنْ يُفتَح الطابق الأرضي أمامي كفوهة مرفأ. أمامي على الشاطئ تحوم حافلات البضائع على رصيف تعمّه الفوضى، وأتوجّه نحو ضفّة من منافذ تسديد الحساب يقع خلفها. هناك تتملكني قوة المعجزات، الخطى تتسع، والأذرع تمتدّ باندفاع كالمكابس، والنظرات المُحدقة تتحرك بسرعة عبر الطوابير لتتبيَّن أيُّها الأقصر.

ولكن لا يوجد طوابير أقصر.

منافذ تسديد الفواتير مزدحمة بالجرحى السائرين على الأقدام.

أفرّ من هذا الاتجاه وذاك، لكنَّ يديَّ فارغتان، والمُستهلكون لا يفهمون خلوّ وفاضي من المنتجات، إنه نادٍ لمَنْ يمتلكونها، إنهم مربوطون بها، وأنا مُهرطق، خليّة خبيثة، وبالطريقة التي تواجه بها الكائنات الحية الكائنات المنحرفة يتكتّلون معاً لكي يعترضوا طريقي ويصدّوني. إنَّ عملية طردي مكتملة، إنها مشهد مأخوذ من أسوأ كوابيس أورويل، تظهرُ فيه جرذان مذهولة تدور مع بضائع ليست حتى مصنوعة.

بل إنَّ السويدي قدَّرَ نظام المناعة عند الحشود!

أخيراً، في غمرة رعبي من حياتي أندفع مُقتحماً طابوراً ليس شديد الازدحام وأثب فوق عربة تسوق سيدة عجوز منطلقاً إلى الحرية، وسط وابل من عبارات الدهشة والدفع بالمناكب.

في وقت لاحق تعثر آنّا عليَّ وأنا أرتعش بجوار عربة نقل سجق في موقف للسيارات. تترك صناديقها «لا تُخبرني. إنه رجل لا يحبّ التسوُّق».

«إنه احتجاز قسري، لواط تمّ بالتحكُّم عن بُعد».

«أووف» وترمي نظرة إلى السماء. «لولا مركز التسوق السويدي لكانت برلين نائمة على الأرض. إنه مناسب لها تماماً - بسيط، ورخيص وممتع. إنه متجر الشعب».

«لا بُدَّ أنهم يستمتعون بالاغتصاب الجماعي».

«ماذا تقول؟ هل هددوك بمسدس؟ هذا متجر! تحصل فيه على أغراضك وترحل! إذا كنتَ لا تريد أنْ تأتي فلا تأتِ!». تلاحق كلماتها وهي تحدق، ثم تتلفّت حولها بفتور، وكأنما بحث عمَّن يُرافقها إلى المنزل.

أُشعل سيجارة. «أنتِ لا تُحبّينني، أليس كذلك؟».

«وهل تتصف بأيّة مزايا محبوبة؟».

«أعتقد».

«وما هي؟».

«حسن»، أسحبُ مجّة طويلة، وأنفخ بوقاً من الدخان.

تنتظر إلى أنْ يغدو صمتي جواباً. أرفعُ بصري فأراها تبتسم لي كاشفة عن أسنانها الصغيرة، الحادة، وشعرها منسدل خصلاً على جبينها.

أقول: «همم، إذن أعتقد أننا نتفق على شيء ما».

«ها ها، نعم. أنت فظيع، ومُستسلم تماماً لأهوائك».

أُضطر إلى الضحك على هذه الوقاحة المذهلة. أقول: «ها ها، حسن. أنت تُطلقين الأحكام وفظّة. فتاة ألمانية بائسة».

«*Dankeschon* شكراً لك» وتنحني لي بازدراء.

لا يسعنا إلّا أنْ نضحك من جديد، ضحكاً ينمّ عن ارتياح يأتي بعد معرفة الحقيقة، وأفكّر في قلّة الحقيقة التي شرّفتْ حياتي، وأتساءل أيضاً ما الذي منحها السيماء الذي يُجمّلها الآن. ربما هو الفصل الافتتاحي لحياتي التي تومض أمام عينيّ، النذير باعترافي بآثامي، بمقابلة خالقي. سوف يتواءمُ مع دفقات الحماس إرسالُ شخصٍ كهذا وأيضاً، بعد شيءٍ من التفكير، إرسالي في جولة التسوّق المستقبلية لشبح عيد الميلاد هذه، لكي أشهد العالم الإنساني المتذبذب وهو يُختَزَل إلى متاهة من الجرذان الدوارة. إذن لا شك في أنّ الموت قريب، وعندما أرفع بصري إلى الفتاة أراها تراقبني، وكأنها تتيقّن من أنَّ حقائقها قد أصابتْ هدفها. لا أستطيع أنْ أتذكّر أنه قد سبق لي أنْ تبادلت مثل هذا الحديث الصريح مع شخص غريب، وأشعر كأنني تلقّيت صفعة.

أخيراً تقول: «أنت في حالة مزرية. هل تحتاج إلى بعض الـ*pommes* (بطاطا مقلية) مع المايونيز؟».

«شكراً لك، إنْ كان هذا لن يؤذي رأيك أكثر من ذلك».

تتجه صوب سيارة النقل. «ها ها. لا شيء يمكنه أنْ يفعل ذلك».

إنَّ يورو واحداً يبتاع صينية صغيرة من رقائق البطاطا المقلية، مما

يؤكد لي أنَّ سيارة النقل أُرسِلَتْ من قِبَل مؤسسة خيرية إلى هذا المكان تعلم أنّ ضحايا أبرياء سوف يتجمعون فيه. تنبعث سحابة من البخار من الرقائق إلى وجهي، فتتوجَّع أقنية جسمي وفوهاته بوجعٍ لذيذ وهي تنزلق إلى الأسفل. أتناولها وأنا أراقب سيلاً من الرهائن يُقرقرُ خارجاً من المخزن مع أحمالهم بينما الطيور تتسكع في الجوار، تهدد طعامنا. يبدو حقّاً أنه بين الطبيعة، والمُغتصِب الشمالي وأبي الهول الخسيس، الحياة الحديثة كلّها حاضرة هنا بكلّ رعبها.

أقول متأملاً: «لا أعتقد أنّ جيزيلا أيضاً مولعة بي كثيراً».

«مولعة بك؟ إنَّ جيزيلا في الحقيقة *تكرهك*. *تشمئز منك*».

«أوه؟ همم».

«أراكَ لم تُدرك ذلك؟ لهذا السبب رحلتْ! ونشبَ بينها وبين غيرد شجار. بعد أنْ أتيتَ إلى الحفلة بدآ يتشاجران، هي لم ترَ أنَّ عليهما أنْ يدفعا ثمن طعامك. وكلّ ما استطاع غيرد أنْ يقول هو: (لقد اشترى أفضل أنواع النبيذ - غابرييل اشترى أفضل أنواع النبيذ)، ولكن الشجار لم يتوقف، وكان يعود في أصله إلى أيام امتلاكه النادي في برينتسلاور برغ. هل حدث مرة أنْ سرق والدك منه شيئاً؟».

«في الواقع - هذا على الأقل حسب رواية غيرد. أنا كنتُ مجرد طفل صغير».

«أه، إذن هذا هو السبب». تسكت برهة، وهي تحدق. «إذن والدك يسرق من أناس شرفاء، وتصبح أنت شخصاً كريهاً ومنغمساً في أهوائه».

«ألا تكذبين أبداً ولو قليلاً، بدافع التهذيب؟».

«ماذا، تعني كقولي: ربما هناك أمل لأجلك».

«ها ها ها». ويسقط رأسي في حجري.

وتنفجر هي أيضاً بالضحك، وقد رأت أنَّ هذا كلّه يُؤدي غرضه.

«ها ها ها»، وأتعثّر بصندوق للقمامة، فأرفع غطاءه وأرمي فيه رقائق البطاطا التافهة.

تشيح آنّا بوجهها، وهي تومئ برأسها بتوكيد لنفسها. وعندما أتمالك نفسي في نهاية المطاف، أرفع بمشقة صناديقها وأُعيدها إلى المطار، وقد تبدّد يومي، وأُرهِقَ جسمي، واختُزِلتْ شخصيتي إلى ما هي عليه، أي إلى لاشيء كما يبدو.

«إذن، كان ذلك ممتعاً»، وألهثُ مع ظهور المطار.

«ربما بالنسبة إليك. يبدو أنَّ لديك الوقت الكافي لتتسكّع وتنزفَ دماً وتفصم الزيجات. ما سبب وجودك هنا حقّاً؟».

«كان يمكن أنْ أطرح السؤال نفسه عليك. أنت لستِ الخِيار الأمثل لإدارة عربة بيع أطعمة. هل أنت نوع من حارس للحقيقة؟ أو أداة كليلة حرة الحركة؟».

«هراء. أنا أفعل ما في وسعي فعله. وأدّخر مالاً من أجل قضاء العطلة».

«في الألفية التالية إذن، إذا كان عمل العربة مُربحاً».

«إنني فقط أمدّ يد العون لغيرد قبل أنْ أرحل. إنني أعمل في بوتسدامر بلاتز منذ عام. وعندما أُعلن خبر إغلاق المطار أخيراً، كان غيرد متيقناً من أنَّ الأسابيع الأخيرة سوف تُحقق نجاحاً منقطع النظير. واشترى كمية كبيرة من البضاعة القديمة».

وضعتُ الصناديق على الأرض. «همم. أنا آسف، في الحقيقة».

«أنا لا أقول إنك لستَ كذلك. ومن طبع غيرد أيضاً أنْ ينتابه الرعب بشأن الحفلة وإغلاق المحلّ. إنني أفهم سبب انزعاجه، فقد كان يُخطّط للأمر طوال العام. ولكن كان في استطاعته أنْ يحتفظ به في مكان آخر. وفجأة يُصبح اهتمامه مناطقيّاً يدور حول المطار. كذلك الأمر مع الهر بيتش، إنه يتسكع كعاشق عجوز». ترفع عينيها الخضراوين الصافيتين إليَّ. «إنَّ قلقي الوحيد هو من أنْ يبيع غيرد سيارته أو يقوم بعمل أحمق كهذا، محاولاً في سياق ذلك أنْ يُقاوم. إنه لا يمتلك اللازم من أجل

المحامين. إنه فقط مُرهَق بعد أنْ غادرت جيزيلا، والآن هناك هذا التنافس مع العربة المقطورة. وانتهت قضية المطار قبل أنْ يتوقع انتهاءها، كانت مصدر أمانه الوحيد في الحياة. إنَّ غيرد يعتمد على الروتين الصارم».

هسيس طيارة نفاثة يجلب معه نسمة من المطار. نمرّ من أمام الشجرة حيث جلس غيرد، مفتشين العربة التي أمامنا عن إشارات تَرِدُ منه أو من غوتفريد. لكنها لم تظهر. بينما أتوقف لأستردّ أنفاسي، تجلس آنّا تحت أحد الأروقة في أحد مداخل الخدمة، تستعرض الشوارع متجهمة. أنضم إليها بين العوالم، بين الحياة والموت من ناحية، والنمور وسجق بوركفورست من ناحية أخرى.

أقول: «أتمنى أنْ أعوّض على غيرد قبل أنْ أرحل».

«لن تجد ذلك سهلاً، إنه ذو كبرياء ويكره الدَّين. لا ينبغي أنْ أخبرك هذا، بعد المشكلة التي نشأت بينه وبين جيزيلا - لكنَّ جيزيلا شديدة الولع بك، إنْ كنتَ لا تعلم. إنه لم يُنجب أطفالاً، لم يقدر على تكاليفهم. لكنه يتذكّرك جيداً من أيام طفولتك ودافعَ عنك بقوة في وجه جيزيلا. وأنت عوّضتَ له بطريقة متواضعة بمجيئك إلى هنا. إنه من النوع الذي يُقدِّر الأشخاص والأشياء التي يعرفها منذ مدة طويلة. وأنا متيقنة من أنه تحمّل جيزيلا بهذه الطريقة - حالما انتهتِ الصدمة، أصبحت تتواجد دائماً، وبدأ هو يتعود على وجودها».

«همم، حسن شكراً لك. لقد أثّر فيَّ كلامك».

«هراء، لا داعي للحماس - أنت ما زلت مُشيناً».

وحده الصمت يمكن أنْ يتبع ذلك، ولكن عندما يحدث هذا تبدأ الروابط بالظهور وتجمع الغرباء معاً، في أول الأمر بصورة واهنة، وربما لا تتطور إلى أكثر من خيوط عنكبوت تخيِّم على هذا الصمت. لكنني أتساءل، لو لم أكنْ أوشك أنْ أموت، فكم كان سيستغرق من هذه الفتاة لكي تُلهِم بظهور رابط حميم كاللبلاب، من النوع الذي تتجعد أوراقه العريضة وتتدلى من رفّ المدفأة. ربما ليس وقتاً طويلاً.

أقول: «يجب أنْ أعترف بأنني لم أتوقع منك أنْ تكوني صريحة».

تفكّرت في هذا برهة، وهي تومئ برأسها. «كلّ ما في الأمر أنَّ من الغريب أنكَ ظهرتَ من دون أيّ سببٍ ظاهر، ومن ثم بدأتِ الأحوال تسوء. أنا لا أريد أنْ أرى غيرد متأذياً، إنَّ لديه ما يكفي من المشاكل بعيداً عن برامجك الغامضة».

«همم. ولكن بشرفي، أنا آسف على كلّ ما حدث - وعندما أتيت لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما آلتْ إليه الأمور بين غيرد ووالدي».

«هراء - دعني أستوقفك قبل أنْ تحوّل المسألة إلى غلطة رقيقة، بريئة»، ثم تتجهم. «إنَّ ما لا يراه غيرد وأراه أنا هو أنكَ أتيتَ إلى هنا بغية تدمير نفسك. وقد سبق لي أنْ رأيت كيف يكون تدمير الذات. وبرلين شهدت ذلك أيضاً. وبما أنكَ قادم من إنكلترا فربما وجدتنا جميعاً شديدي الخنوع والهدوء، إنك تعتقد أننا لم نشهد أوقاتاً سريعة، ولم نتذوق طعم الانحطاط. ولكن هل سبق أنْ تساءلت لماذا يمكن أنْ نكون هكذا؟ لأننا تذوقنا طعم الانحطاط كما لم تتذوقه أنت من قبل. ونحن تذوقناه طويلاً إلى درجة أنَّ هتلر بدا في نهاية المطاف بمثابة فترة راحة مقبولة. والآن تأتي أنت حاملاً النكهة نفسها، رائحة الخواء، العماء الأناني. لأنَّ ما لا يُدركه الأنانيون أمثالك هو أنَّ تدمير الذات هو لعبة جماعية، تأسر كلّ واحد كالأبله، والشاهد، والضحية والمفجوع. إنها ليست لعبة ممتعة، وليست لعبة للحمقى. إنها لعبة الأداء العالي، باستخدام الطموح الشديد، والقرارات البارعة، وقوة التحمُّل، والبصيرة. إنها عكس النجاح في العالم، لكنها تتطلب القِوى نفسها من أجل إنجازها. إذن انسَ أمر والدك، وانسَ كلّ ما تضع اللوم عليه بسبب موقعك في الحياة - إنك تنجز بنجاح ما قرّرت أنْ تُنجز. وكلّ ما أطلبه منك هو ألّا تجنّدنا في اللعبة، لأنّنا أدينا دورنا. والآن نريد النظام والسلام. في بلدك ربما لديك النظام الدكتاتوري لتصبو إليه - ولكن نحن لدينا نظامنا الدكتاتوري الخاص، ولسنا في حاجة إلى رائحتك هنا

لتذكّرنا بما يُنشئه. لسنا مُضطرين إلى أنْ نشهد عماءك، فليشهده قومك. وليست مشكلتنا أنك لم تتعلّم كيف تعيش».

«وووش بسرعة»، تهبط نظرتي. «هذا كلام قوي جدّاً».

«الحياة قوية جدّاً».

«همم – أعتقد أنني يجب أنْ أعتبر صراحتك مديحاً».

«ينبغي أنْ تعتبر رفقي بك معروفاً. ولو لم تكن فناناً، كما يبدو أنَّ غيرد يعتقد، لاضطررتُ إلى استخدام لغة شديدة الوضوح».

وووش بسرعة، انظرْ إليها، يا صديقي، اقتربْ منها – لأنني هنا على حافة الموت، أنزُّ ألماً أينما توجهت – إنني ما زلتُ مُضطرّاً إلى كبح الابتسام لهذه الصلبة الصغيرة الواقفة إلى جواري. الله وحده يعرف السبب، بعد ذلك التأنيب القاسي. هذا هو حدّ موساها ولذلك ينبغي أنْ أُحكِم إغلاق شفتيَّ لكي لا أُقهقه على مجرد قوتها.

إنها تفهم هذا، ووجهها يغدو أشد تجهماً. «أفف، والآن ماذا؟».

أشيح بوجهي. «همم. في الواقع أنت تُشبهينني، ألا ترين؟». تبقى الكلمات مُعلّقة برهة، تراقبنا؛ ثم أرفع بصري فأراها هي أيضاً تعاني، تشبه طفلة منزعجة من تجهّم رُغماً عنها، يتلوى على الوجه.

«لا تحاول أنْ تتهرب. أنت بنفسك اعترفتَ بأنك لا تتحلّى بصِفات محبوبة».

«ولكن هل هذا هو رأيك؟ وإلّا فلمَ تهدرين أنفاسك؟».

«لأنكَ ككلّ المُدمّرين الناجحين تتحلّى بالقلب وبالعقل اللازمين لصياغة مبدأ أخلاقيّ قائم على أساس تجربتك، التي من الجليّ أنَّها مترعة بالخيانة وبالألم. لكنك صغتَ المبدأ الأخلاقي الخطأ. لا أحد يمكن أنْ يُحبّ هذا أو يحترمه. ما أعني هو أنّه بينما يمكن أنْ يكون الانحطاط قد وصل إلى مدينتك، لأنها كانت الأعظم وفجأة لم تعد كذلك – نحن تجاوزنا هذا. إنَّ برلين لا تقع في نهاية دورة، بل في

بدايتها. وما نفعل مُفعم بالأمل ودائم. ولذلك لا معنى لأنْ تتفسّخ هنا. إذا كنتَ لا تستطيع أنْ تُضيف شيئاً نحو مستقبل أفضل، فعليك أنْ تعود على متن طيران إيزيجت[99] وتتقيّأ مع أصدقائك».

أقول: «وووش، هذا كلام قويّ. إيزيجتْ، هه؟ يبدو كشيء احتجتُ إلى سماعه قبل زمن بعيد. كشيء احتجتُ إليه في البداية الأولى».

التفتَتْ لكي تزمجر في وجهي، كاشفةً عن أسنانها الصغيرة الحادة، وهازّة رأسها كما قد يفعل المرء في وجه أشد الأطفال قذارة. وتقول: «إنّ ما احتجت إليه في البداية كان شجاراً جيداً لعيناً بالوسائد. شجاراً ينتهي ببكائك وأنت على الأرض».

وووش بسرعة. أستعيد ذكرى قديمة كفيضان. أه، يا لهذا اليمبوس.

بعد هذا يحلّ الصمت، لا جواب، وقد فات الأوان في لعبتي للتواصل معها. وعلى الرغم من أنني أتفقّد وجهها بين حين وآخر تقصّياً لأيّة بهجة، إلّا أنَّ عقلي يغوص في نهاية المطاف عائداً إلى شؤون أخرى. في الحقيقة أبدأ بالتخطيط، وهذا أمر غريب لأنَّ التخطيط هو أقرب إلى عمل الظلام والعزلة. أما هنا، حالما نستيقظ ونتوجه إلى المبنى ومنه إلى المستودعات، تظهر الخطّة، وهي ما يلي: في جيبي جوهرة صفراء. إذا استطعتُ أنْ أعوض غيرد عن خسائره كلّها فقد أموت كرجل نال الخلاص بصورة مبهمة، وليس أقلّ من هذا في تقدير آنّا، وهذا يبدو فجأة هدفاً ثميناً. غريبٌ كيف يُسمح للناس بالاطلاع على محاكمة المرء العقلية، تلك المحكمة التي نترافع أمامها ونناشد تخفيف الحكم.

فكرتي الأولى هي بيع الجوهرة: لكنني أعتقد أنَّ غيرد مُحرَج بسبب الدَّين ويُفضّل أنْ ينسى الأمر. ثم خطر في بالي خاطر: إذا أعطيته الجوهرة نفسها، جعلته يعثر عليها في مكان ما - لأنَّ هذه الفوضى الجديدة في أرجاء المطار تجعل هذه اللّقية، قبل كلّ شيء، تلقى الترحيب - فكيف

99- إيزيجتْ: أكبر شركة طيران بريطانية من حيث عدد الركاب. معروفة برخص أسعارها. - المترجم

يمكن أنْ يرفض؟ وإذا ساعدتُ في تثمينها، وهنّأته على حظه الحسن، واستدعيتُ الشهود - فسوف ينجح الأمر حتماً.

في أثناء هبوطي إلى الطابق السفلي أُدحرج الحجر الكريم داخل جيبي.

يرتعش الهواء عندما يُفتَح باب التدابير الأمنية. على الرغم من أننا لا نغامر بالذهاب بعيداً داخل النفق، أمعنُ النظر على طوله باشتياق وألاحظ وجود تحرُّك على بُعد مسافة بجوار قضبان سكة الحديد. آنّا أيضاً تلمحه ونتوقف، نمدّ عنقينا لنرى. يظهر رجلان بزيّ العمل يدفعان أمامهما قفصاً على عربة. ثم عندما يرانا الرجل الذي يسير في المُقدِّمة، يُسرع برمي غطاء فوق القفص - نلمح شيئاً يطنّ في الداخل.

يتضح أنها عصافير صغيرة تحوم. عصافير طنّانة.

آنّا تنظر إليَّ.

أهزّ كتفي باستخفاف وأوشك أنْ أستهين بالأمر عندما يُنقذني صوت غيرد يتردد صداه على طول الدَّرَج. يهتف: «هه؟ آنّا؟».

تُجيب: «نحن نودِع الصناديق الآن».

يظهر رأسه عند المسطبة. «لقد تأخرتما».

«لأنَّ شاعرك كان يتقيّأ».

أسعل. «شكراً لك، آنّا، على هذا».

«فريدريك؟ هل أنت على ما يُرام؟ في الحقيقة أنا نفسي لا أشعر بأنني على ما يُرام - انتهي من أمر المفاتيح، يا آنّا، وأنا سأذهب إلى المنزل لبعض الوقت. يكفي عمل ليوم واحد، باه».

أقول: «سأمشي معك حتى المنعطف. من الأفضل لي أيضاً أنْ أذهب».

أداعب الجوهرة التي في جيبي بينما غيرد وأنا نمشي بتمهُّل. بين مدخل الخطّ النهائي والحديقة الشاسعة يقبع رأس ضخم من البرونز لنسر على قاعدة - من الواضح أنه ما تبقّى من نسر نازيّ كامل كان

يتوّج ذات يوم مبنى الخطّ النهائي، إلى أنْ عمدت القوات الأميركية إلى تفتيته، قطعوا الرأس لكي يُشبه نسرهم الأصلع. بينما أتوقف لكي أتأمّل بإعجاب البرونز، أنتظر مرور عائلة خلفنا؛ ثم، بينما غيرد يُشير إلى حيث كان النسر يجثم، أضع الحجر الكريم على الرصيف.

أشير: «غيرد، ماذا يُشبه ذلك الشيء لعينك؟».

«أه – ماذا؟».

«هناك في الأسفل. إنه يشبه الجوهرة».

ويمدّ يده إلى الأرض. «باه. إنه زجاج. كيف يمكن لحجر كريم أنْ يصل إلى هنا؟».

يلمع الحجر الكريم في راحة يده. ننخسه.

يقول: «أولاً إنه أصفر اللون، والجواهر بيض».

«كلّا، هناك جواهر صفر».

«أه، لكنها نادرة جدّاً. أما هذه فلا بُدَّ أنها زجاج للزينة».

مع ذلك تقبض أصابعه على الحجر، ونعاود المشي من جديد. وترتفع معنوياتي، على الرغم من عدم وجود شهود، فإنه سوف يتوقف حتماً في طريقه إلى المنزل عند بيراتنبرغ حيث قد يؤكد له أصدقاؤه صحّة اللقية.

عندما نُدرك العائلة الشابة التي تجاوزتنا أراقبُ غيرد يتلكّأ لكي يبتسم للأبوين. ثم يمدّ يده، بحركة بطيئة، نحو فتاة صغيرة تتدلى من ذراع الأم: «هاك، أيتها الصغيرة»، ويضغط الحجر الكريم في يدها: «هذه جديرة بأميرة».

-21-

وهكذا يطلع النهار السابق للوليمة. لقد أنجزتُ كلّ ما أستطيع – ولا أستطيع أنْ أُبطِل أيّاً منه. إنه صباحي الأخير. من سريري في فندق أدلون كيمبنسكي، ولا يوجد شاطئ قريب على البحر، أُصمِّم على أنْ أغوص في إحدى البحيرات وأغرق. أستلقي مفكراً فيما إذا كنتُ سأفعل هذا في وضح النهار أم في الظلام. ثم يرنّ جرس الهاتف، وأَجْفُل:

«غابرييل – هل أنتَ يقظ؟» إنه صوت توماس.

«كما يبدو». أسمع هرجاً حوله.

«هل تعرف كا دي وي – **Kaufhaus Des Westens** *(متجر الغرب التنويعي)*؟ تعالَ إلى الطابق العلوي من بار المحار».

«حسبتُ أنَّ عملنا قد انتهى». لا يمكن قول هذا الكلام إلّا ببرودة شديدة. أتذكّرُ ألمَ تلاشي الأحلام.

يقول توماس: «لا تتصرف هكذا. إنْ كان ذلك يُسعدك، فلن نشارك ديدييه وأنا أيضاً في الوليمة. إنَّ الحدث سيتمّ على نطاق ضيّق، وهم لا يرغبون في وجودنا نحن المزودين بالطعام الوضيعين. ولكن لدينا عرض صغير، تعالَ».

بعد الدش أستقل سيارة أجرة إلى غرب برلين وأسترخي في المقعد الخلفي أحاول أنْ أُجمِّع معاً قطع فشلي كأحد رواد اليمبوس. بعثوري على موقع لإقامة حفلة من أجل سميتس فإنني حتى الآن كنتُ مفيداً في عملية تحطيم علاقة زواج، في تحطيم تجارة صغيرة واستثنائي

من الحفلة نفسها. ومع ذلك، كفى. ربما عرض توماس الصغير يرفع معنويات سميتس قبل رحيلي. وفيما عدا هذا، سوف أُلقي نظرة أخيرة على أمِّ المطارات كلّها وعلى أصدقائي الفضوليين هناك، وأرحل.

المشهد الذي تطلّ النافذة عليه يُشتت انتباهي قليلاً عن الإحساس بالألم، في أثناء قيادة السيارة على طول كورفورشتندام نشعر كأننا ولجنا مدينة مختلفة، بواجهات المخازن الصقيلة والأبنية القديمة المُبهرجة بزخرفتها خلف مظلات المقاهي والأشجار. فكّرتُ، يبدو أنَّ الأشجار تفضّل الأغنياء على الفقراء في المدن. وهذا برهان آخر على أنَّ الله لا يحبّ الفقراء. إنَّ المرور بمظاهر البذخ هذه يوضّح كم كان غرب برلين يُعتبَر شوكة في اللحم الشيوعي. وتذكّرت أنَّ هذه المنطقة الثرية المُحاصَرة، التي أعلن جون ف. كينيدي نفسه مخزن غذائها، هي نفسها التي أنقذتها جسور تمبلهوف الجوية. لقد حاول السوفييت أنْ يُجوِّعوها كأنها ورم خبيث، لكنها لم تعتمد على السيد.

إنَّ كا دي وي هو مخزن تنويعي باذخ. أستقلُّ المصعد إلى قسم الطعام، حيث أشد عيّنات المنتجات فظاظة، وبدائيّة، تتراكم في كلّ بوصة من المكان. وأصادفُ بعد بضع زوايا قسم الأطعمة البحرية، وهناك أعثر على بار المحار. ديدييه يجلس منحنياً فوق طاولة منهمكاً في حديث مع توماس ويحرك يديه بعنف.

يومئ توماس برأسه إليَّ وأنا أقترب لكي أجلس على مقعد بلا ظهر. «إننا نناقش أمر إضافة محار غرب أيرلندا إلى لائحة الطعام». وسرعان ما حضرت الشمبانيا، ولكن يبدو أنَّ جسمي تكاتف ضدي خلال الليل لأنَّ الرشفة الأولى تحرقني كأسيد البطاريات.

يومئ ديدييه برأسه مُحيياً. «مكان مُبهر، هه؟ إنه بالنسبة إليَّ المتجر الأشدّ إبهاراً في أوروبا. ويحتوي أيضاً على أكبر عدد من مقاعد المطاعم في أيّ موقع في ألمانيا، وأفضل خدمة محار في هذا البار. الشيء الوحيد الذي أطلبه هو زجاجة من بلاك دوغ إلغود مع المحار. وبيرة من بلدكم،

إه – إنه سرّ صغير من خبراء». مع وصول الدفعة التالية من المحار يلتفتُ خلفاً إلى توماس، الذي يشرح قائلاً:

«إنَّ ديدييه فقط يُذكّرني ببايك، لأنني لم أسمع نهاية القصة».

يقول الباسكيّ: «أه، يجب أنْ يُخبرك بنفسه بالنهاية»، ثم يقول لي: «بالمناسبة، شكراً لك على الزجاجة – هذا ما حرّكنا ضد بايك». ويرتّب ديدييه المحار ويتناوله بفمه بكلّ رصانة مراسم دفن في البحر. «لكنني أعتقد أنَّ باقي تاريخ حياته معروف في كرم العنب. لقد عشتُ على أساس هذه الفكرة منذ ذلك الحين: كان بايك في ذروة قوته في أوروبا. كان يُصاحب تلك الفتاة التي تعمل موديلاً. وقد اتضح أنَّ لديها أختاً أجمل منها. فصاحَبَها هي الأخرى. ثم حانت اللحظة التي اضطُر فيها إلى أخذ إحداهن معه إلى مونت كارلو –».

يسأل توماس: «أكان ذلك في غيبلي شبايدر؟».

«نعم. بل أعتقد أنني أعرف أين يقع اليوم. أصبح يُساوي ثروة الآن. على أية حال كانت الأخت الأخرى موجودة أصلاً في موناكو، وكانا يستقلّان السيارة وينضمّان إليها. طبعاً كان بايك ينوي أنْ يضاجعهما معاً في تلك الليلة. وهكذا حانت اللحظة التي وجد نفسه فيها على طريق ملتوية تركب إلى جانبه في سيارة سبور موديل موديل، في طريقهما إلى مقابلة موديل أشدّ جمالاً منها. كان البحر أزرق اللون، والسماء تمتدّ مشدودة، والهواء حارّاً، وكان في استطاعته أنْ يشم رائحة الفتاة، والجلد المدبوغ، والبحر. وكانت النشوة مضمونة. وفي تلك اللحظة قال لنفسه: «*لا يمكن أنْ تصل الأمور إلى أفضل من هذا*».

نحبس أنفاسنا، وتتوقف أصداف المحار في الهواء.

«إذن أوقفَ السيارة، وخرجَ منها، ومشى مبتعداً – ولم يعُد أبداً».

انكمش توماس. «*ماذا؟* لست متأكّداً من أنه كان في وسعي أنْ أفعل ذلك».

«إنه أشدّ ما عرفتُ من أعمال تدلّ على النضج يمكن أنْ تصدر عن رجل. طبعاً لا يفعل المرء هذا في أول موعد، لقد شاهد وتذوّق كلّ شيء. ولكن لِمَ فعل ذلك: لقد اكتشفَ قوة المتعة الكامنة في اللحظة السابقة. أدرك أنه لا وجود لصيغة الحاضر، الأشياء لا توجد إلى أنْ تأسرها الذاكرة. والمتعة لا تموت إلّا في الماضي، مهما كانت حديثة العهد أو بعيدة. وعندما توقف في تلك اللحظة قبضَ على مستقبل مثاليّ وختمه بختم الحاضر الذي يكتنفه. ذلك أنَّ نزهة بالسيارة ليست مجرد نزهة بالسيارة، والنكاح ليس مجرد نكاح - إنه ينتهي مع أنفاس كلب في الصباح. بدل ذلك أطال من أمد احتمال مثالي إلى الأبد. لا يمكن أنْ ينتهي بصورة سيئة، ولا يمكن أنْ يزول. لقد عثر على النشوة في اللحظة السابقة للإشباع». ونجلس تأسرنا المعاني الضمنية إلى أنْ يهزّ ديدييه كتفيه: «بهذه الاكتشافات يتعلَّم الإنسان كيف يعيش حقّاً».

يقول توماس: «رائع، لولا -».

«أووف، يا يسوع المسيح - الآن سوف تسألني عن المعنى الحقيقي. الجميع يفعلون ذلك، هه - ولكن ينبغي التفكير في الأمر. إنه يعني أنَّ لحظتك الأفضل لا تكمن في شرب الكأس العشرين من البيرة، وإنما في أول كأس بيرة يوضَع أمامك؛ ليس في المليون المئة من الدولارات الذي تجمعه، بل في المليون رقم تسع مئة وتسعة وتسعين. إنه يعني أنَّ المتعة الإنسانية تنبع من فتح باب، وليس من المرور خلاله».

«إذن هي فلسفة التحفُّظ؟ أم القبول؟».

«بل هي فلسفة سنّ الرشد. وحدهم الأطفال الصغار يمدّون أيديهم إلى كلّ شيء. إنَّ بايك أمضى فترة شبابه وهو يشرب أفخم أنواع النبيذ الأوروبي - ثم حان الوقت الذي بات عليه أنْ يُنتجه بنفسه بدل ذلك».

«إذن من المفارقة أنْ يُقدِّم نبيذه الخاص - إنَّ الفكرة تُناقِضُ ما يؤيده ضيوف الوليمة كلّهم».

يقول ديدييه ساخراً: «وطبعاً هي أرقى من فهم الضيوف بكثير»، لكنَّ

المال بحدّ ذاته ليس فيه متعة، إنهم فقط يأكلون الطعام كما يأكل القرش السمك، بلا أية مشاعر».

«ولكن لا زالت هناك الخاتمة المُفاجئة للقصة؟».

يُكشّر ديدييه. «أوه، نعم. اسأله بنفسك ذات يوم. أما الآن فيجب أنْ نتحدث مع رفيقنا، ربما هو منزعج»، ويلتفتُ إليَّ.

أقول: «حسن، كلّ ما في الأمر أنَّ سميتس ما زال في السجن، وموعد المحاكمة يحلّ بعد أربعة أيام. إنه يشعر بأننا نسينا أمره».

عند سماع هذا يهبط جبين ديدييه إلى أنفه. وتتحول عيناه إلى شقّين طويلين ويسترخي على مقعده وينشر ذراعيه، معرّياً صدره؛ ظلّ يتجهم في وجهي هكذا برهة، ثم لملم نفسه من جديد على الطاولة، مُقرّباً وجهه من وجهي. «هل تشك في كلامي عندما أقول إنك تتحكم في القضية؟».

«ولكن يجب أنْ تعترف: الوقت يفوت».

يُراقبني، دون أنْ يُحرّك ساكناً على مدى لحظة طويلة: «أرجوك حبِّذ أنَّ القضية هنا هي تطهير يدَي سميتس دون أنْ نلوّث أيدينا. هه؟ وشيء واحد فقط يمكن أنْ يفعل هذا. وغداً سنرى».

«ولكن غداً هو آخر يوم عمل في هذا الأسبوع».

وضع إبهامه على الطاولة ونهض. «*Bon*، شكراً لكم، أيها السادة. يجب أنْ أذهب. توماس، انظر إنْ كان في وسعك أنْ تقدّم عرضاً لغابرييل بالنيابة عني – وأراكما أنتما الاثنين معاً غداً. كان نهاراً حافلاً، هه؟».

بهذا اختفى داخل متاهة المنتجات.

أمضينا توماس وأنا دقيقة في محاولة التواؤم مع الحياة بمنأى عن جاذبية الباسكيّ القوية. ثم بعد تناول رشفة من الشمبانيا، يميل توماس عليَّ: «هل أنت على عِلم بموقع الشخص *المُساعِد* في هذه الأحداث؟ من الناحية التقنية هو *alarum pursuivant*؟ (الشخص المُساعِد المُستدعى)».

«لا أستطيع أنْ أقول إنني أعلَمُ، كلّا».

«هذا غاية في الأهمية. إنَّ موقع *الشخص المُساعِد* يُناسِب أحد الفنون المنسية في إقامة الحفلات، أي تحديد البداية والنهاية. وأعظم الأحداث سوف يفسد إذا سُمِحَ للضيوف في النهاية بالرحيل - إذن الحدث المثالي يبدأ وينتهي بدقّة. يجب أنْ ينتهي قبل الوقت الذي يتوقعه الضيوف بقليل - بهذه الطريقة يبقى حيّاً في ذاكرتهم، ويُحافظ على إثارة الطاقة غير المُستهلكة، بالإضافة إلى إسقاط الندم الضروري. هذه العناصر معاً تشكّل جوهر ما نفتش عنه في المتعة - إنها تشبه قصة بايك، كما يخطر لي للتوّ. إنَّ عمل الـ*alarum pursuivant* هو أنْ يُعطي إشارة البداية والنهاية. نودّ منك أنْ تفكر في قبول ذلك الدور من أجل عرض ليلة الغد. أنت تعلم أنَّ الـ*alarum* يُعيَّن خارج قاعة الوليمة مع مسدس لإعطاء إشارة البدء، بمثابة إنذار مهذّب. والـ*pursuivant* هو العميل الذي يوصل تقليديّاً الضيوف بأمان إليه ومنه - إذن الأمر يتضمن لقاء الضيوف في أرض المطار، وقيادتهم إليها: وعند منتصف الليل يُعطي إشارة نهاية الحدث بإطفاء الأضواء في الموقع وقيادة الضيوف إلى الـ*alarum*، الذي يواكب خروجهم عائدين إلى الطائرة. سوف تكون مُقنّعاً وتضع رداء الكتفين، يكونان في انتظارك عند خيّاط الإدارة قبل الحدث. وبسبب أناقتك قد يُتاح لك أنْ تلقي بعض النظرات إلى داخل القاعة. صدّقني، الأمر ممتع وكأنك تحضره. وديدييه وأنا أيضاً سوف نراقب سرّاً».

يسكت توماس برهة ليُنهي شرب نصيبه من الشمبانيا، ثم يميل مقترباً أكثر، ومُخفضاً صوته. «إننا نشعر بأنك سوف تكون مفيداً جدّاً بقيامك بالدور، ليس فقط بسبب معرفتك بالمجمَّع، وطبعاً متكتماً - بل أيضاً بسبب ما يلي: يجب أنْ تتعرّف إلى بعض العاملين في أرض المطار».

«أنا أعرف اثنين أو ثلاثة منهم، طبعاً».

«رجلاً بديناً يرتدي السواد، ويعتمر قبعة؟».

«همم - لا بُدَّ أنه الهر بيتش، نعم».

«ذلك أنَّ هذا الرجل كان يقضي يومه في العربة وهو يطرح أسئلة. وهي ليست أسئلة بريئة تماماً – إنه يعرف ماذا يسأل، إذا فهمت ما أعني. نحن قلقون قليلاً. لقد شاهده أحد رجالنا أيضاً بالأمس تحت الأرض، ولذلك نحن نعلم أنَّه يحمل تصريحاً لدخول المُجمَّع».

يجلس توماس مسترخياً على ظهره، يراقبني بينما هذا الأمر يُقرّ. أُجرّب رشفة أخرى من الشمبانيا لكنني سرعان ما أتخلى عنها، مُحاولاً ألّا أسكر.

يُتابع توماس قائلاً: «إذن من موقعك كـ *pursuivant*، والذي سوف يُبقيك حول المدخل المؤدي إلى الموقع، يمكنك أنْ تؤدي مهمة قيِّمة في تدبّر أمر هذا الرجل، ورجال آخرين يتصادف مرورهم. موافق؟».

«سوف أفكّر في هذا. لنستمع إلى ما يقوله سميتس».

بعد هذا القول نجلس يراقب كلّ منا الآخر برهة. ثم يُحول توماس مسار الحديث إلى مسائل غير رسمية، وينتهي الاجتماع.

أخرج خلال غابة من الأطعمة شاعراً بالتعب وبالاضطراب. وفوق ذلك كلّه يجلب غياب المشروبات المُسكِرة فيضاً آخر من المشاعر والأفكار. وبالإضافة إلى إحساسي بجوع ضارٍ، أشتاق الآن إلى ما يشبه المنزل.

وأشعر بحاجة مُلحّة إلى الفرار من الرهافة.

إنَّ غرفتي في فندق أدلون لا ترضي تماماً هذه الأخيرة، ومع ذلك ألجأ إلى سريري لأجعل عقلي يستعرض الآراء التي تحتشد الآن على ذروة هذا القمع. أولاً يأتي السؤال ما إذا كان ينبغي أنْ أثق في الباسكيّ وفي توماس. ثمة شيء واحد تعلّمته من سيد يمبوس الأسواق الحديثة هو أنك لا تخرج من الورطة – ففي الوقت الذي تشعر بأنك وصلت إلى الأمان، يفشل الوضع ويقدم اليمبوس حلّاً تالياً. وهذا ما يحدث هنا. أولاً كان الوعد بموقع كافياً لإطلاق سراح سميتس. هذا الوضع

انهار، وحلّت محلّه حالة تؤمِّن مفاتيح الموقع فيها إطلاق سراحه. ولما اتّضح أنَّ تلك الحالة زائفة، يبدو أنَّه توفّرت الآن حالة أخرى، هي إبعاد غوتفريد عما يجري في الخفاء.

إنَّ رسوم السيد يمبوس كلّها سُدِّدتْ بينما لم يُسدَّد أيّ من رسومنا. لاحظ أنَّ هذه هي المعادلة الأساسية - هكذا يعمل السيد. إنه يُبقينا مرهونين بينما يعِدنا بالحرية فور تسديد الحالة التالية كلّها.

ولكن هل يشكل الباسكيّ وتوماس جزءاً من اليمبوس نفسه؟ أم إنهما مجرد قرصانين يستكشفان حوافّه طلباً للمغامرة؟

هذا هو أساس وضعي: إنْ كنتُ أثقُ في الاثنين فيجب أنْ أحضر الوليمة بحسن نيّة، إكراماً لسميتس. وإنْ كنتُ لا أثق فيهما، فيجب أنْ أعثر على بحيرة في هذا المساء.

يحوم عقلي متنقّلاً بين هذا وطبيعة هذين العالمَين اللذين أقفُ بينهما، وقريباً سوف أُخلّفهما ورائي. كان العالم العلوي والعالم السُّفلي هما ملكيتي، على الرغم من أنني أثبتُّ أنني لا أصلح في كليهما. واعتماداً على الدليل المُجمَّع على امتداد هذه الملحمة أعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أقول إنَّ العالم السُّفلي هو عالمي. أمضيتُ بضع لحظات أقدّم له ولائي الصامت. أعتقد أنَّ كلّ مخلوق يجب أنْ يموت وهو عالِم بالمكان الذي كان يهواه قلبه.

الفكرة تدفعني إلى التفكير في آنا، وفي غوتفريد وغيرد.

أتذكّر وجه آنا الجامد، يا صديقي، الذي لا يتأثّر بأيّ تحدٍّ أو مفاجأة. أتمنى لو أستطيع أنْ أتحكّم بالوجه الجامد قبل أنْ أموت. إنَّ لوحة ألوان جبين وجه السيد الإنكليزي الحياديّة تومض، وتبتسم وتعتذر يمكن أنْ تُسهِّل يومنا في منطقتنا اللاعقلانيّة، أما هنا فثمة الكثير يُقال لصالح الاقتصاد. وعندما لا يُستدعى ردّ فعل قويّ، فليس هناك أدنى ردّ فعل، وأنا أشعر بأنَّ هذا يعكس بصدقٍ أكبر حجمَ العمل في الحياة. ويتنامى داخلي إحساس بأنَّ هؤلاء ليسوا أناساً صلبين، بل هم متحفظون. إنني أفكر في صديقتي السابقة سارة التي لا تحبّ أصدقاءها حقّاً، لكنهم

وضعوا دعامة فكرة مَنْ ينبغي أنْ تحبّ ويتّصِف بالمزايا المناسبة، لذلك تظاهرت بأنها تحبّهم. لقد اعتبرَتْ أنَّ هذا هو واجب الصداقة. إنني أفكر في نفسي، متظاهراً بأنني أحبّهم إكراماً لها، وربما هم أيضاً يتظاهرون بأنهم يُحبّونني، لأنه يبدو أننا نحبّهم كثيراً. إنني أفكر في أنَّ كلّ شخص أعرفه يتظاهر. وعندما لا نكون دمثين، يتساءل الناس ما الخطب - ليس لأنَّ كآبتنا تشير إلى وجود مشكلة، بل لأنَّ عدم ادّعائنا يشير إلى وجودها. إنَّ هذا كلّه يوصِلُ إلى الكَشف التالي: من الكذب أنْ نتوقع من أحوال الحياة الوضيعة أنْ تكون هي السعادة؛ والدفاع عن تلك الكذبة يحتاج إلى كذبة أخرى، ثم أخرى فأخرى. كيف أمكن لهذا الالتفاف أنْ ينشأ في تفكيرنا؟ مَنِ المستفيد من فكرة أنَّ كلّ ما هو أقلّ من السعادة يجب أنْ يكون حالة تستدعي المعالجة؟

إنها الأسواق وحدها. إنّه السيد وحده.

يوقظني رنين جرس الهاتف بعنف من أحلام يقظتي هذه.

يقول سميتس: «غابرييل، ما الأخبار؟ إنّني أتّصل لأطلب منك ألّا تتخلى عن الموقع لأولئك القوم، يبدو أنهم يسرقوننا».

«ماذا؟ لقد أتيتُ توّاً من اجتماع مع الباسكيّ - إنه يُطمئنني بأنَّه يمسك بكلّ شيء بيده».

«يا صديقي: إنَّ ما يُمسك به بيده هو قضيبه. إنَّ ساتو ينوي أنْ يقدم اعترافاً بالذنب يوم الاثنين. يقول إنَّ ذلك سيكون أسهل من المماحكة بشأن السمك».

«إه؟ ولكن حتماً بقي لدينا يوم عمل واحد؟».

«أوه، أحقّاً؟ وأيّ يوم عمل هو؟».

«غداً - نحن الآن فقط في يوم الخميس».

يسود صمت فاتر، ثم: «أيها العاهر- قد يكون اليوم هو الخميس عندكم. ولكن نحن أصبحنا في الغد في اليابان. تمنَّ لي الحظ الحسن، يا صديقي الحميم، تمنَّ لي الحظ الحسن».

-22-

تُخيِّم فوق كروتزبرغ سماءُ تشرين أول كلوحٍ من الزجاج يعلوه الصقيع. أشقُّ طريقي إلى المطار لكي أودِّعه. إنَّ نهاية اللعبة لا تشير إلّا إلى شيء واحد - النهاية.

ألمحُ نفسي لدى مروري من أمام واجهة دكان. بشرتي شاحبة، وشعري منتصب كالقش. هلا نظرتَ إلى نفسك، يا هذا. ثيابي تتدلى عليَّ كملابس متشرد. هذه هي عاقبة اليمبوس. أشتري نصف ليتر من الحليب بالشوكولاه من محلّ بيع الأطعمة التركية، ومع هذا الطعام الفاخر أتابع طريقي بخطى مترهلة على طول الشارع. إنَّ الحقيقة الجديرة بالانتباه هي أنَّ شخصاً متشرّداً يمكن أنْ يُثير ريبة وخوف المارة، ولكن ليس إنْ كان يحمل الحليب بالشوكولاه. إنَّ خوفهم طبيعي جدّاً، بما أنَّ الأنماط المنبوذة يمكن أنْ تكون من السكارى والمُضطربين عقليّاً، ومن المُحتَمل أنْ يتحرشوا بالناس أو أنْ ينفجروا في نوبات غير عقلانية من الهياج؛ وكثير منهم يفعلون ذلك حتماً ولذلك ينبغي تجنبهم طلباً للأمان. ولكن في حين إنَّ العين العابرة دائماً تفتش عن آثار مشروب كحولي أو مخدرات في المتشرّد، إلّا أنَّ الحليب بالشوكولاه يمكن أنْ تُضفي عليه سِمة المُسالم بصورة مقبولة. إذن، مع هذا العَلَم الأبيض المديني أتابع طريقي على مهرينغدام قاصداً الـ*Flughafen*.

لدى اقترابي من عربة المطبخ أرى عربتين مقطورتين أُخريين متوقفتين بجواره. واحدة مُغلقة تماماً، ولها زجاج مرآة. لا ألمح قبعة غوتفريد في

أيّ مكان، لذلك أتوجه إلى منطقة آخر الخطّ. ولدى وصولي إلى الدَّرَج تهرع آنّا خارجة مرتدية معطفها:

تقول: «إنَّ غيرد مفقود. سوف أبحث في بايرتنبرغ - هل لك أنْ تذهب وتبحث عن غوتفريد؟».

«ماذا؟ طبعاً - ما الذي يحدث؟».

«لقد خسر غيرد معركته في إقامة حفلته. والآن هو مدين بأربع مئة يورو لأحد المحامين وسيارته مفقودة. لم يكن يبدو على طبيعته عندما رأيته، وأخشى أنْ يرتكبَ عملاً أحمق. إنه يتعامل مع الأشياء بجدية مفرطة».

«همم - أنا آسف. وأين يمكن أنْ أعثر على غوتفريد؟».

«هل سبق لك أنْ زرتَ مكانه؟ أعني ورشة الدراجة الصغيرة القريب من بايريتنبرغ. حاوِلْ أنْ تطّلع على ما يعرفه ولاقني عند غيرد. سوف أستخدم الهاتف هناك».

«وأين يقع منزل غيرد؟ هل في وسعك دخوله؟».

«إنه في شارع غروسبيرنشتراسه، بعد بايرتنبرغ مباشرة، الطابق الثالث. طبعاً أستطيع أنْ أدخل، إنه مكان إقامتي إلى أنْ أغادر إلى جزر غالاباغوس».

وجدتُ دكان غوتفريد في مبنى سكني قديم. ثمة أجزاء من دراجة تستكين خلف زجاج واجهة مُغبرّ. يبدو المحلّ مُغلقاً، ولكن بعد أنْ أضغط على الجرس ببضع لحظات أرى كتلة غوتفريد تتحرك في الداخل. لا يفتح الباب بل يشقّه مقدار بوصة، مُحدقاً حول قدميه. ثم يمدّ يده إلى الأسفل مع نخير، ويرفع قُطيطة بُنيّة اللون:

«ادخل - إنها تتصف بالحيوية أكثر من الحِكمة».

يُداعبها بإصبعٍ بدين ويتقدمني إلى الداخل. ثمة عدد من زجاجات البيرة تصطف على الجدار الأقرب إلى الباب. وعلى طاولة في الخلف

ألمح زجاجة ماريوس فارغة، تذكاراً من حفلة غيرد. وأُفاجأ برائحة زيت تشحيم الجنزير وغسيل غير مغسول. ومع ذلك، كان غوتفريد مُشرق المحيا، مُمشَّط الشَّعر، ويرتدي قميصاً من الفانيلا ذات مربعات، يجرّ قدميه متنقلاً في المكان ويُغمغم لنفسه بصوت منخفض، مداعباً القُطيطة. يقول مُستهجناً: «أين الشيء؟ ها هو - كلّا، كلّا. إنه الآخر»، وفي أثناء ذلك تبدأ أشكال معيَّنة تظهر من بين الفوضى. ثمة بدعٌ مبعثرة هنا وهناك، اختراعاته. وبين أجزاء دراجة أرى قالب حذاء يدور مصنوع من دولاب، ومن خلال باب أرى أداة صغيرة بجوار سريره تجمع بين سيجار وساعة خاصة بالسفر.

يلمحني وأنا أنظر. «أتعجبك؟ - إنها توقظني مع سيجار مشتعل في صباح كلّ يوم. ولديَّ أيضاً ساعة منبّه للبيرة في الخلف، للمناسبات الخاصة». وبينما هو يتكلّم تلمع نظرته، ولا يزال يتململ بعصبية. (وهكذا)- وأخيراً يتوقف لكي يواجهني - «اليوم نحن نعتني بشبيخت، في حال كنتَ تتساءل. إنه يعيش حياة صعبة في الوقت الحاضر، وليس لديه أصدقاء حقيقيون. لذلك هو يحتاج إلى الشراب - ولكن باعتدال، إنْ فهمتَ قصدي»، ويتقدَّم من خزانة تقع في الزاوية الأشد ظلاماً ويفتش في أحد الأدراج، ويُخرج زجاجة بيرة ملفوفة بقطعة قماش. راقبته وهو يزيل الغطاء عنها، ويُقدمها إليَّ كما يُقدم المرء أدوات من عهد الشباب النشط مضتْ وانقضتْ. يقول: «هاك. دعنا نتمشى معها ونتفقّد الـ *Fluhafen*».

«أحوّلتَ درج دولاب الملابس إلى ثلاجة؟».

«أه (ويغمز بعينه). هيا، فقط أحضر البيرة».

نتجول مارّين بمتنزه فيكتوريا إلى مهرينغدام وعند نقطة معيَّنة، وبلا أيّ سبب ظاهر، يقول: «هل نلت الفتاة؟».

«أيّ فتاة؟».

«لا تكن حييّاً».

«تقصد آنّا؟ أنت تمزح».

«أنا لا أمزح أبداً». يتناول غوتفريد جرعة نهمة من البيرة. «من الأسئلة التي طرحَتها عليك أُعطيكَ فرصة جيدة. إنَّ عقلها يبحث عن أساليب لتشرح لك». ويرى من المناسب أنْ يتوقف عند هذا المنعطف ويُحدّق في وجهي. «إنَّ كلّ الرجال ينطوون على الجنون. وبعضهم لديهم منه أكثر من غيرهم. أنا أعرف هذا الأمر جيداً. إنَّ الرجل من دون امرأة قوية هو سفينة انفصلت عن مرساتها في الليل. يمكن أنْ تصبح الأمور خطرة».

«همم - حسن، هذا الكلام يصلح لك، طبعاً. لكنني حقّاً أعتقد أنها تشمئزّ مني. إنني أكاد لا أعرفها، ومع ذلك أخبرَتني الشيءَ الكثير».

«وأنا أكاد لا أعرفها. ولكن ربما هي تشمئزّ مما تفعله بنفسك. وهذه مسألة أخرى. فلنفرض أنَّ والدها كان كاتباً جيداً من ألمانيا الشرقية وكان على علاقة حبّ مشبوبة مع الكحول - ونتيجة لذلك غادر العالم وهو في صدر شبابه، وتركه وحده - همم؟ فإنَّ الصورة تتغيَّر فجأة».

وووش بسرعة: يسطع شُعاعٌ من ضوء جديد على المنطقة، وتظهر أعماقٌ جديدة تجعلني ألزم الصمت ونحن نرتقي التل. أفكّر، ما أعجب أنْ تبقى الحياة ترسل رؤى، أنْ تظل تومض أضواءً وتفتحُ أبواباً. إنَّ الصورة تتغيَّر حقّاً.

مع هذا الحديث الهامّ، الذي أشعر بأنه غريب على غوتفريد كما هو عليَّ، المولود في الضباب الخفّاق للتغيُّر غير المتوقَّع الذي غالباً ما يبرز بين الفصول في الحياة - يجلس مسترخياً داخل نفسه، ويزداد وجهه سكوناً، مُرتدّاً إلى آليات حركة عين التمساح ونلج بهو المطار.

يبدو غوتفريد غير مستعجل للعثور على غيرد. في الحقيقة إنني أتساءل إنْ كان الضجيج الغامض حول المطار يُثير استياءه بصورة ما، إنْ كان يجد أنَّ ضباب التغيير جذّاب ويُعيد الشباب - لأنه بعد قليل، يقترح أنْ نقوم بنزهة خلوية. وفي أثناء تمشيتنا خلال موقف السيارات باتجاه

العربة، ألاحظ أنه الآن ينتصب أكثر في مشيته، وينفخ صدره أكثر. والآن رآه مرتين نظيفاً وتفوح منه رائحة العطر، وملابسه نضرة ونظيفة. ثمة في أرض الضياع الضبابية ما يُفضّله غوتفريد.

ثمة في المغامرة ما يفيده.

قبل أنْ نصل إلى العربة نلمح أحد أبواب الخدمة مفتوحاً. هناك مخلوق مدهون بالألوان يُبعِد انتباهنا عن الكآبة، وننتقل إلى الداخل لكي نُلقي نظرة. إنه ساطير له ذيل حصان يرمقنا بخبث من سطح خشبي كبير، ربما هو جزء من إعلان عن عرض جانبي. لا بأس بتلوينه، نُفِّذَ بالزيت، ويُنيره ضوء الشمس، في ذروة حالة من المرح أمام خلفية من أعماق غابة، مع أغصان وأوراق خضر وثمار على الحافة في القمة. ومخلوقات أخرى تندفع مهرولة بعيداً عن حافة السطح، وأتقدَّم لأكشف عن المزيد من الألواح في الخلف. هناك الإله بان مع مزاميره، يشمخ برأسه إلى الخلف في استسلام للنشوة، وإلى جانبه ميدوزا تتلوى ثعابينها وتتشابك، تُكشِّرُ عن أنيابها من خلال أغصان فوق رأسها.

يقول غوتفريد: «إنه القرن التاسع عشر. ربما هو عرض غريب قديم».

السطح الأخير هو اللوح الرأسي، مشهد مشوَّه من حوريات وجانّ صغار ينفجرون من الأشجار، ينتزعون قضمات من ثمار ناضجة، ويُخيفون الطيور ويُبعدونها عن الأغصان، في حين هناك كتابة بأحرف ضخمة عن العرض تقول: *Launen des Schicksals* – «تقلّبات القدر».

عندما ألتفتُ عن تلك الأسطح أرى غوتفريد يراقبني. إنه لا يتحرك ولا يرمش له جفن. وبعد فترة صمت طويلة يكتفي ببساطة بتضييق تحديقه ويسأل: «هل أنت مريض؟».

«همم – سبقَ أنْ كنتُ في حالٍ أفضل». وأشعر به يُقيِّم وظائفي الحيوية.

«لأنني أراك هنا شديد الشحوب». ينطق الكلمات برقّة، بهمسٍ أقوى

نبراته أيضاً تدمدم: «وأنفاسك غير منتظمة. وهذا يعني أنَّ قلبك يضخ الدم تحت وطأة التوتر. هنا، وأنت تنظر من خلال باب الشحنات، إلى اللوحات. إنني أتساءل، ما الذي في ذلك التصرف يجعل جسمك يضخّ الدم تحت وطأة التوتّر؟».

أحاول أنْ أقابل عينيه، لكنَّ ذلك لا يدوم إلّا لحظة.

يقول: «أيكون السبب هو أنَّ لوحات هذا العرض الغريب ترتبط بوضع تعرفه؟ أيمكن أنَّها مُنفَّذة من أجل (إنتاج عمل) غامض قد يدور أو لا يدور حول كشك بيع الهواتف النقّالة الذي هناك؟ إنَّ بعض الأسئلة مطروحة».

الآن فقط أبدأ بالشعور بأنَّ دمي يضخ تحت تأثير التوتّر.

«هل حان الوقت بالنسبة إلينا لنتقاسم سرّاً؟»، ويستمر في التحديق، «ذلك أنَّ هناك قصّة صغيرة أخرى تجري أحداثها هنا، أليس كذلك، تحت هذه؟ هناك فتى إنكليزيّ غامض يأتي فجأة إلى غيرد. وإنتاجٌ مُفاجئ غامض لفيلم سينمائيّ. ولعبة شطرنج بدأتْ في الأسفل. وأنا أعلم أنك تعي وجود هذه اللعبة - لأنك أحد لاعبيها. أنا أعلم أنك، في الحقيقة - ربما اللاعب الرئيس فيها».

أتلفّت حولي دون أنْ أُجيب. لم يبقَ لديَّ دم يُضخّ.

يقول بنبرة عادية أكثر: «إننا نعيش زمن سِلم، ونأمل في أنْ نتعامل مع منجزات شابّة، وليس مع تهديدات للنظام المتحضّر. ولا اعتراض لديَّ على بعض المغامرة. وصدّقني، لا اعتراض لديَّ على ممارسة لعبة بين حين وآخر. ولكن هناك وجهة نظر قد تكون خدعتَ بها وتلاعبتَ بكلّ شخص على مسافة كيلومترات من باب المخزن هذا. بأناس لم يُسببوا لك أيَّ أذى. هناك وجهة نظر قد تكون قد أطلقت منها عقال الانحطاط على مكاننا الذي تعمّه السكينة. قد تكون تسببت بها بألم حقيقي، حتى رُغماً عنك، لأناس تُحبّهم حقّاً. وذلك كلّه بخطّة أنانيّة لها صِلة بصورة أو بأخرى بهذة اللوحات، بهذه العربة، بهؤلاء الناس الجُدُد كلّهم».

كنت قد أطرقت في تحديقي. الحرارة الوحيدة المتبقية التي يمكن الشعور بها هي المنبعثة من تحديقه.

«إنَّ حديثنا يُسبب لك الإزعاج. لا أحبّ أنْ أكون السبب في إزعاج صديق. في حين إنَّ»- وينطلق سائراً من جديد - «الفرنسي ما كان ليوفّر أيّة فكرة».

أُضطر إلى هزّ رأسي: «من أين تعرف الفرنسي؟».

يُلقي نظرة جانبية. «كانت خدعة. لقد أعطيتي للتوّ جانباً آخر من القصة. على الرغم من أنَّ الفرنسيين دائماً موجودون في مكان ما».

ليس لديَّ ما أقول لغوتفريد، وفي أثناء المشي أشعر بأنّ خططي تنهار وتحترق من حولي. وبعد برهة من الصمت يُبطئ خُطاه ويقول:

«السبب في أنني اخترت أنْ أتحدث معك هو أنني على معرفة بالعديد من المواقف الإنسانية. بل والمواقف المتطرفة. ولكلٍّ منها سِمته الخاصة، وملمسه. ولكلّ منها أتباع، أناس آخرون أو أوضاع متصلة بها. وغالباً ما تستطيع أنْ تحكم على طبيعة وضع بالنظر إلى الموقف المرافق ولنوعية أتباعه».

يبقى رأسي مُنكّساً لكنه يتابع، مفكراً بصوت عالٍ.

«وأحد أتباعك هو صديقي غيرد شبيخت. وهذا يدلّ على شيئين - واحد، بما أنه شديد الكلف بك، عليك أنْ تكون صاحب شخصية قوية وراسخة. واثنان، إنه مُرشَّح ليتأذّى بوصفه تابعاً لك. وعليه، عندما أنظر في وضعك، في هذا السيناريو المكشوف للعيان في المطار، وأجمع الخيوط كلّها معاً، يتكون لديَّ حكمٌ بأنك رجل ذكي وحساس، وربما متحمّس أكثر مما ينبغي، وغالباً متناقض بسبب نظرة معقّدة إلى العالم، فاسقة قليلاً - حرَّكَ سلسلة من الأحداث أفلتت الآن عالياً بعيداً عن السيطرة». يسكتْ غوتفريد، مُنقّباً في وجهي. «بعيداً إلى درجة - أنك الآن تشعر بميل إلى قتل نفسك».

إنه يُتيح لهذا الوقت أنْ يغوص، فيفعل مع أزيز يزداد علوّاً ويبدأ صداه يتردد. ولكن هناك المزيد:

«أنت لست متوحشاً، كما أرى. ولا تنوي القيام بأيّ عمل عنيف. في الحقيقة أنت رومانسي، حالم، وأعتقد أنّك مستعدّ للغوص في البحر. وفي هذه الحالة حمداً لله أننا لسنا قريبين من الشاطئ».

يتبع ذلك صمت هو بمثابة دعوة إلى إعطاء جواب، وأرفع نظري، مُجاهداً لأصيغ إنكاراً – ولكن حتى قبل أنْ أتمكن من فتح فمي، يمدّ غوتفريد يده ليتناول معطفه ويُخرِج منه دفتر ملاحظاتي، ويفتحه على الصفحة الأولى:

يقرأ: «ليس لوضعي وصف»، ويُعطينيه. «ينبغي أنْ تنتبه إلى مثل هذه الملاحظات».

تذوب عروقي وتميع. يُمسك غوتفريد بي من كتفي ويُبعدني عن المطار، وهو يتكلّم بصوت ناعم: «الحياة حيوان غريب، ليس فيه حدود من النوع الذي نتصور. يمكن للأوضاع أنْ تتغيَّر في أيٍّ وقت. وسَعْينا وراء الاطمئنان يجعلنا عُرضة للتلاعب بنا بسهولة. إنَّ التجارة تجمع ثروتها من بيع حلول فارغة، وتجعلنا نشعر بأنَّ علينا أنْ نبلغ الأمان. وعندما لا نستطيع أنْ نبلغه، لأنه لم يُخلَق ليتمّ بلوغه، نمدُّ أيدينا لنتناول مشروباً أو مُخدِّراً لكي يُخفف من وطأة شعورنا بالإحباط. وطبعاً سوف تحلِّقُ الأشياء أكثر فأكثر بعيداً عن مجال السيطرة، في الحقيقة هذه هي طبيعتها – انظر كم من صناعة تعتمد على هذا الانفلات. ولكن ككلّ حكم دكتاتوري، حتى النفسيّ منها كهذا، سوف يتَّحد الناس معاً لمواجهته في الوقت المناسب. إنَّ الناس يجتمعون في حالات الانفلات التي لا حاجة إليها. مُدّ يدك وتحكَّمْ. إذن ما أقوله لك هو – ربما في استطاعتنا معاً أنْ نتعامل مع انفلاتك. إنَّ لديك رفاقاً. وقد فهمتَ معظم ما يجري، على الرغم من أنَّ صلتك الدقيقة بالأمر مبهمة قليلاً، واللعبة تنقصها قطعة في مكان ما. ولكن لا أهمية لهذا. فكلانا نعرف أنَّ الخاتمة

ستحدث هنا غداً. وأعتقد أنّ علينا أنْ نتحدث قبل ذلك. لا ينبغي للأمور أنْ تحدث كما يبدو أنها ستحدث. نحن قوة جديدة في اللعبة - ونحن الذين نمتلك معظم القوة، أتعلم لماذا؟».

يبدو أنَّ وجه غوتفريد ينمو.

«لأنَّنا القوة الوحيدة اللامرئية»، وهنا، بعد برهة صمت، يرقّ صوته: «اذهب وتفقّد الفتاة، لا بُدَّ أنها قلقة».

«وماذا عن غيرد؟ إذا لم يكن هنا -».

«لا تُبالِغ في القلق. إنني أعرفه منذ زمن طويل، إنه ليس شخصاً مبتكِراً. هذا هو جمال غيرد شبيخت».

يُرسلني غوتفريد للعثور على آنّا، وأسير أنا إلى غروسبيرشتراسه وقد شتّتني كلامه، أحاول جاهداً أنْ أجمع قطع عالمي الذي أعرف. بعد اجتيازي بار بايريتنبرغ ألجُ مبنى قديماً مُظلماً ينمو على درَجه نبات الأسل المُنهك، وفي الطابق الثالث تُجيب آنّا على قرع باب شقة غيرد.

أتمتم «لا أثر له في المطار».

«حسن. مَنْ يدري، إذن. إنك تتمتع بشخصية قوية موثوقة».

«شكراً. كم بقيَ لأصل إلى المتوسط».

تقول «عشرة آلاف».

لا تُصاحب التعليق أية ابتسامة فأتابع تقدمي بهدوء إلى داخل الشقة، أدخل كما يدخل الناس جميعاً الشقق الغريبة - بتردُّد - وأحدّقُ من خلال النوافذ إلى الشارع، مستوعباً روائح قماش تجفيف الأطباق، والغبار والطبخ القديم. إنه مكان يعمّه قليل من الفوضى، يُذكِّرُ بتلك الفئة من العجائز التي تجمع تذكارات من الملاعق. على أحد الجدران نسخة ملوّنة داخل إطار يوحي بأنه من الخشب لصورة تبيِّن غيرد بملابس بحار، مبتسماً. وعلى طاولة زينة تنتصب صورة زفاف تحمل الابتسامة نفسها تقريباً. وأفكّر كم هناك من عنصر مُثير للشفقة في مشاهدة صور مختلفة

لشخص بالوضعية نفسها، بالابتسامة الخشبية نفسها. في الحديقة، على الشاطئ، ينظر في هذا الاتجاه أو ذاك - لقد قرروا على امتداد السنين أنَّ التكشير الجامد هو أفضل تعبير للوجه. إنَّ عنصر الشفقة وبعض الجمال الإنساني الهادئ يعيشان في تلك الصورة للذات العمياء والهشّة.

لا تتكلَّم آنّا إلّا عندما أطلب استخدام الحمّام.

«هناك»، وتشير إلى الرواق: «إلى اليمين. سوف أصنع شاياً».

أمشي بخُطى خافتة في الرواق، مُبطئاً لدى مروري بباب حمام مفتوح. فوق ركام من الملابس، مُلصقٌ لسلحفاة عملاقة مُثبَّت إلى الجدار. يقول التعليق في الأسفل «*Solitario Jorge*» جورج المتوحد). كلّ شيء في الشقّة يتغلغلُ فيَّ ويُثقلني بالمشاعر، إلى أنْ تسحقني أخيراً رائحة صابون الاقتصاد. الأسوأ من هذا، أنه صابون غيرد، حزمة من ست قطع من سوق التنزيلات. هذا لا يعني أنَّ الاقتصاد نفسه يُصبح رطباً - أنا سعيد لغسلي يديَّ، وأفعله بصورة شاملة، وكأنَّ مشاكلي تُلوثني. لكنَّ الرائحة تمتزج مع ضوءٍ رمادي يتسرب من النافذة لكي تذكّر بنكهة الواقع القاسي القوية.

وهي نكهة الهزيمة القوية. أُسرع مُغادراً الحمّام.

«اجلس»، وتجرّ آنّا كرسيّاً إلى طاولة المطبخ. كانت قد وضعت كعكاً على طبق، وتجلب إبريقاً يحتوي ماءً قذراً يُرسل بخاراً.

«ما هذا؟».

«شاي المريمية. إنه ما تحتاج إليه».

أرفعُ علبة الشاي: «يقول هنا إنه لعلاج أعراض سن اليأس».

«بالضبط. لن تعترض جيزيلا».

وهكذا نشرعُ في الرشف، ونعبثُ بكأسينا. يخرج حديثنا على المسافة الزمنية نفسها تقريباً التي تُعادِل المسافة المكانية التي تفصل بين الحُليّ الرخيصة المبعثرة في الشقة. ثمة ساعة حائط تتك في مكان ما،

وفي العموم يُصبح الحديث الهادئ، تحت أنظار تلك الحلي الرخيصة، لا معنى له. يمتزج ضجيج رشف الشاي مع رائحة الصابون واليأس لينتشر بقوة في الجوّ. أُقرر أنَّ صابون الاقتصاد شيء مألوف جدّاً بالنسبة إلى ضوء النهار. وأقتل حافزاً لتخيُّل آنّا من تحت ملابسها، خشية أنْ تهيمن قصة رومانسية عقلية صغيرة، ستكون مُثيرة للسخرية المريرة في مثل تلك اللحظة[100]. في الحقيقة، لما عجزتُ عن إنقاذ أيّة خطّة عملية من تطورات النهار، أو حتى أتنبّأ بارتطام مُدمِّر لعوالم مستقبلية، اختُصِرَ أفق حياتي إلى دقائق. ولن يحتاج الأمر إلّا إلى هزيمة واحدة أخرى، إلى كشف مشؤوم آخر، للقضاء على الملحمة. إنَّ هذا، بعد النهايات الزائفة، والآمال المحبَطة والتجولات المفاجئة – هو مغزى القِمْع.

أقول: «قد أُضطر إلى المغادرة عند حوالي منتصف الليل، فهل ستكونين على ما يرام؟».

«بف – أفضل من مراقبتك وأنت تشرب».

«سوف أشرب».

«إذن أنا حتماً لستُ في حاجة إلى أنْ أعرف. على أية حال هنا أفضل من أنْ أكون مع الهر بيتش».

«غوتفريد؟ لقد أصبح فجأة شخصية متميزة. بل إنَّ وجهه يبدأ يتحرك».

«مؤخراً أصبحَ يأتي في صباح كلّ يوم من أجل شرب القهوة. وأنا التي تفتح المحلّ في أوقات الصباح. إنه فقط يراقبك».

100- كقاعدة عامة انتبه من القصص الرومانسية الصامتة. وأنا لم أتجاوز الخامسة والعشرين أحمل رضوضاً لا تزول لعلاقة حبّ ندمت عليها سبّبها أناس لم أقابلهم أبداً، ولم أرهم إلّا مرة واحدة بصورة عابرة. إنها علاج لأعمال الطبيعة الفنية البربرية. إنَّ علاقة رومانسية صامتة وعابرة لا زالت تلمس منبع المشاعر كلّها، وقوية بالتحديد لأننا نعلم أنَّها لن تتحقق. إنها ذروة الرومانسية – لأنَّ القصص الوحيدة التي لن تتحقق أبداً هي المثالية. – المؤلف

«العادات القديمة لا تزول بسهولة».

«ليتها تموت. هل ذهبت لرؤية مركز قيادة البوليس السرّي؟ أنا لا أقول أيّ شيء سيّئ عن الهر بيتش، ففي استطاعته أيضاً أنْ يكون حلو المعشر، وأنا أعلم أنه يشعر بالوحدة. ولكن في متحف البوليس السرّيّ كلّهم متشابهون – رجال ريفيون عجائز مُخيفون بعيون ضارية».

«أما زالوا هناك؟».

«في الصور الفوتوغرافية! ومركز القيادة لا يقلّ كآبة. عندما ترى نوعية الأمور التي كانوا ينجزونها في ألمانيا الديمقراطية تجد كم هي مُزرية، أشبه بأعمال تلاميذ المدرسة. لم تكن لديهم حوافز. وإذا حاول المرء أنْ يتفوَّق على أسوأ رفيق، يجعلونه يظهر بمظهر سيئ وسوف يكرهه الجميع. لذلك كان يعمل على المستوى العام المتدني».

«هذا ما تفعله السوق الحرة سعياً وراء الربح».

«*Ja*، وطبعاً هذا أسوأ، ويعمل فقط على تراكم الثروة. على الأقلّ في ظلّ الاشتراكية تحصل على تعليم عالٍ وما يُشبه الوظيفة. ولكن كان لا بُدَّ من إيجاد نمط جماعيّ أفضل من ألمانيا الديموقراطية. أمر مُقبض جدّاً. في المتحف ما زالوا يحتفظون بحزم الأوراق التي كانوا يضعونها على الكراسي في أثناء الاستجوابات. كانوا يحتفظون برائحتك في زجاجات لكي يرسلوا الكلاب في إثرك».

قلتُ متفكراً: «إذن، نجا المسكين غيرد من فخّ الثقافة».

«إه؟ إنَّ (المسكين غيرد) فيزيائي. في الفيزياء الجزيئية، أعتقد. لقد نال غوتفريد على إجازة في الهندسة. وجيزيلا مُعالِجة بالكلام».

«*ماذا؟*».

أخذ تحديق آنّا يضيق ببطء إلى درجة الحملقة. «أوه، فهمت – فقط لأنك لا ترانا نضحك داخل سيارة بورش لا يعني أننا فلاحون!».

«كلّا!».

«انظر إلى نفسك! أولاً أُصبتَ بالدهشة عندما عثرتَ على شخصيات هامة خلف وجوهنا الجامدة، ثم، - أوه، يا إلهي! - عثرتَ على الثقافة تحت غطاء السجق والقهوة! وقريباً سوف نبدو لك متعادلين! إنها أزمة! إه! أيها السيد المتقيّئ المنحطّ المتعالي! إه! وأعتقد أنكَ أتيتَ حاملاً جائزة نوبل في الطب؟».

«صدقاً، كلّا - كلّ ما في الأمر أنني لم أكن أفكّر».

«إه! أو إنك تحمل ثلاث شهادات دكتوراه في علم الأحياء النووية! أم إنك أعظم من أنْ تَدرُس!».

«أنا درست الكلاسيكيات، ولكن اسمعي -».

«بف، أترى؟ إنها شهادة جديرة بامرأة، إنها لا تؤهلك لنيل وظيفة أستاذ».

«في الواقع - أنا لم أنل الشهادة أبداً».

«أترى! أوه، يا ربي! الآن سوف تظهر الحشود ذوات الوجوه الجامد بشكل أفضل! وماذا تعمل؟ لا بُدَّ أنك القيِّم على المتحف الوطني! لا بُدَّ أنك تُخرِج عروض مسرح الدولة! لا بُدَّ أنك تعزف البيانو في فرقة سيمفونية!».

«همم». تظهر الأشياء على ضوء جديد. «لا شيء في الوقت الحاضر. كنتُ طبّاخاً. أعدُّ السجق في الغالب - وهذا يُثير السخرية».

«ها!». ترمي بهتاف نحو السقف. «*ها!* أوه، الدكتور متقيِّئ من إنكلترا! أوه، البروفسور نازف من الغرب العظيم! إنك تجعل ألمانيا الديموقراطية تبدو أشبه بحضارة في ذروتها!».

أخيراً أقول: «يا الله، أنت فتاة صعبة. في الواقع أنت لا تُحبّينني، أليس كذلك؟».

«هل تتمتع بأيّة سجايا مقبولة؟».

«هذا ما كنتُ أظن».

«ماذا كانت؟».

خلال فترة الصمت تلك، صمتٌ دائماً مُقدر له أنْ يسود هنا، أُقرر أنْ أبحث عن نهايةٍ أرقّ وأُعيد فتح الموضوع بغباء:

«ولمَ لا يمارس غيرد العلوم؟ إذا عمل المرء في عربة بيع متنقلة فلن تدركي على الفور أنه يعمل في مجال الفيزياء الدقيقة».

«أعتقد أنه لم يكن يستطيع أنْ يتحمل تكاليف ذلك. إنه مجال متخصص، ويمكنك أنْ تخمِّن أنَّ ألمانيا الديموقراطية لم تكن تهتم بالإنجازات الهامة. لقد تزوج مباشرة بعد أزمة النادي، وهو مُثقل بالديون، ولم يعمل على الاهتمام بمسيرته المهنية. وظلّ مديناً لأهل زوجته. وكان الهدف من عربة البيع أن تكون حلّاً مؤقتاً، نقطة انطلاق إلى حياة أفضل - لكنَّ الانطلاق لم يحدث أبداً».

أقول: «حسن، أنت تعلمين حتماً أنني لم أعتبر نفسي أفضل من أيّ شخص آخر».

«*أوه، كلّا!* إنَّك تضع نظريات حول السكان الأصليين وتعبيرات وجوههم! مكتشفاً أنهم يحملون خلف وجوههم القاسية بعض (الشخصيات المتميزة)، بطريقتهم الشعبية الصغيرة - هل تعرف حتى من هو هذا (الشخصية) الذي اسمه هر بيتش؟ دعني أخبرك مَنْ يكون صديقك الصغير الجديد من أوقات العطل - إنه نتيجة تعرُّض أمه للاغتصاب من قِبَل جندي روسيّ بعد انتهاء الحرب. والذي تُرِكَ في مرحاض إحدى المستشفيات وقامت الدولة بتنشئته وهو حليق الرأس. كان يلعب الشطرنج وهو صبيّ، وقد لاحظ الناس عليه هذا، لأنَّ الشطرنج تجمع الشباب مع العجائز، والرجال مع النساء، والأغنياء مع الفقراء - في لعبة الشطرنج تتقابل عقول اللاعبين كلّ واحد منهم على حِدة، بنقاء. وكان عقله صافياً ولامعاً. وقد اجتهد في دراسته وحصل على منحة دراسية لدراسة الهندسة. وفاز بجوائز على أطروحته. وعمل في موسكو ويُقال إنه لم يتمكن أحد هناك من التفوق عليه في الشطرنج.

لقد بهر العديد من الناس بعقله حتى إنه بدأ يختلط مع كبار موظفي الدولة الشيوعيين. وكان ماركسيّاً ملتزماً، صديقك المتواضع، وعاش في عصر نادر من التاريخ. وعندما عاد إلى ألمانيا الشرقية أُعجبَ به حزبه ونقله إلى موقع يتطلب الثقة في وزارة أمن الدولة. وهناك اكتشفوا أنَّ صاحبك (ذا الشخصية) هو من أشدّ المستجوبين موهبة. وكلّ سرّ يودع معه في الغرفة يخرج. طبعاً! لأنه كان يعرف سراديب العقل! كان دائماً يلعب مباراة بطيئة وطويلة، مباراة ختامية. وكان دائماً يفوز. وبقيَ على مدى سنين طويلة مسؤولاً عن تحديد الحقيقة على أعلى مستوى. وعند ذلك المستوى يكون الاستجواب هو أعظم فنون الخطابة العفوية. إنه يلجأ إلى التوقيت الأقصى، والهدوء، والتمثيل والحجة. إنه يزيل جدران حقيقة الشخص حجراً فحجراً، ويُعيد بناءه بطريقة جديدة، بطريقة سوف يقبلها. والمُستجوب في مركز قيادة برلين يتعامل أيضاً مع مثقفين، مع عقول موازية في العظمة. لذلك لا تظن أنه كان يهتم بجمع الروائح - كلّا، كلّا! لقد كان يمثل النوع الصحيح من الاشتراكي، كان يؤمن بالناس. ولكن مع اقتراب نهاية جمهورية ألمانيا الديموقراطية ظهر على الساحة نوع جديد من المتنمرين. لقد أدلى صديقك الصغير بقول خاطئ وخلال عام خدمته الأخير أُعيدَ إلى واجبات الإصغاء، يجلس طوال النهار والليل وحيداً في حفرة، يُصغي إلى شريط تسجيل مراراً وتكراراً. بعقله الجبار. ولكي يتجنب دفع نفسه إلى حافة الجنون أخذ يحفظ صماً أعظم الأعمال الأدبية الألمانية والروسية. وحتى هذا اليوم يمكنك أنْ تلعب معه، يكفي أنْ تذكر جملة من عمل ما، افعل ذلك في أيّ مكان، وفجأة، عبر غرفة ما - سوف يُباشر دون تفكير في تكملة الجملة، إلى الأمام أو الخلف، كما ترغب».

تنفَذ آنّا في تحديقي، لتتيقّن من أنني أشعر بأنه اختُرِقَ. «وعندما انهارتِ الدولة كان قد أضحى أكبر سنّاً من أنْ يتنافس على العمل. واتجه بعقله إلى إصلاح الأشياء. افتتح دكانه الذي يُصلح فيه الدراجات. ولكن

محلّات أخرى أكبر حجماً ظهرتْ، مع كثير من المال والدراجات اللامعة، ونُسيَ أمره. هذا هو الذي نلتَ شرف الاجتماع به. رجل ذو حياة حافلة، يفعل بالضبط ما ينبغي عليه أنْ يفعله بها – أنْ يخلق محيطاً تخدم فيه مواهبه ما يؤمن به».

تميل مُقتربة منه أكثر: «وأنت؟ هل يستطيع أنْ يُجاري إنجازاتك الراقية. ربما لا. إنه لم يقضِ أسبوعاً واحداً في إسبانيا. وفاتته كلّ حلقة من حلقات مسلسل «*الأخ الأكبر*».[101]. وهو لم يتعلَّم أبداً كيف يبعث برسالة إلكترونية، بل لم يقتنِ أبداً هاتفاً محمولاً. ولا يتقيّأ أبداً عندما يشرب. ولا ينزف دماً. ولا يجد أنَّ هناك أحداً (ذا شخصية) لأنه يعلم أنَّ التقلصات اللاإرادية التي تُسميها الشخصية مستقلة عن أعمال العقل، وعن الكيفية التي يُعتقَد أنَّ الشخص يتصرف بها. وهي بالتالي غير هامة ومُضلِّلة. وإنْ تتبعها كأنها تمثّل شخصاً ما يعني أنّك تحتقر الشخص، وأيضاً أنْ تستسلم للضلال. إنها سطحية. إنَّ الشخص يتألَّف مما هو أو هي تفعل حقّاً. والهر بيتش لا يحتاج إلى أنْ يجعل من وجهه خشبة مسرح، وهو لن يفعل لأنه لا يسعى إلى إغوائك أو إساءة تقديم نفسه».

«إنكَ تخطئين فهمي تماماً. أنا أحبّ الجميع كثيراً، وأحترمهم كلّهم. بالأحرى *أنتِ* التي تحكمين *عليَّ* من الانطباعات الأولى».

«إنها الانطباعات التي أعطيتنا إياها! إنْ كنتَ تعتقد أنها ليست صحيحة فلماذا تُعطِيها إذن؟ إنْ كان هذا ليس أنت، فمَنْ أنت؟ إنني أوضِّح بدقّة ما أقول – إنَّ عالمكَ معكوس، ولم يتبقَّ لديك إلّا تعبيرات وجهك. من الواضح أنَّ كلّاً منكما يعزو إلى الآخر وجود قواعد انضباط داخلي عميقة ويشعر بأنَّه لا يهمّ ما الذي تُظهره على وجهك. ولكن أين

101- برنامج تلفزيوني من برامج الواقع يجتمع فيه عشرة أشخاص لا يعرف أحدهم الآخر في منزل يتألف من غرفتي نوم وحمّام واحد. وتتمّ مراقبتهم طوال الوقت بآلات تصوير تلفزيونية. المشتركون ينعزلون فيه عن العالم الخارجي، فلا يوجد هاتف، ولا صحف، أو راديو أو تلفزيون. وبعد مرور كلّ أسبوعَين يُصوّت المشتركون سرّاً على طرد اثنين من المشتركين. – المترجم

هي قواعد الانضباط الداخلية تلك؟ أين تكمن! الطموح ليس انضباطاً. الجشع ليس انضباطاً، وتقييم الذات ليس انضباطاً. إنّ الشخصية هي أداتك الوحيدة. وعملك كلّه يعتمد على أنْ يُغوي كلّ منكما الآخر لإنفاق المال. وثقة المُستهلك هي المؤشّر الوحيد على الصحة الثقافية. أنت تنحدر من ثقافة عبادة المظاهر، أما تحت هذه فعمياء لا يستجيب إلّا للمعالجة بالأدوية».

«بف، اسمعي –».

«تقول بف؟ *بف*؟ الآن أنتَ الذي يسخر مني!».

«آسف، إنه اللاوعي. أه، ولكن اسمعي –».

تقول بحنق: «تقول أه؟ *أه*؟ ».

«آسف، آسف – ولكن اسمعي، إنَّ هذه اتهامات تشمل أشياء كثيرة، هيا. إنَّ لديك محلّات تجارية في ألمانيا – انظري إلى IKEA».

«المسألة تتعلق بالحاجة وبالرغبة. لقد جعلتَ الأعمال التجارية تُقنعك بأنك ما تمتلك. فإذا خسرت كلّ ما لديك، فأنت لاشيء. هنا، على سبيل المثال، قليل جدّاً من الناس يمتلكون شقّة. لماذا نمتلك، إذا كان القانون يحمينا كمستأجرين؟ ما فائدة الشقّة بعد أنْ نموت؟ إننا لا نعيش بالدَّين، والاقتصاد لا ينمو بالتسوُّق، ونحن لا نجمع الأشياء لتجعلنا نشعر بأهميتنا. إذا حذفتَ ما نمتلك، فلن نتغيَّر. هل أستطيع أنْ أقول الشيء نفسه لك؟».

«ولكن أنا لا أمتلك أيّ شيء».

«بالضبط – *وانظر إلى حالك!*».

وووش بسرعة.

-23-

تشتد الرياح مُرسلة أيدٍ من الماء إلى صدري وتدفعني برفق إلى الخلف. أُرخي وطأة قدمي على الرمال وأدعها تدفعني. أولاً يكون البرد مشكلة، ثم أتعوّد بالتدريج. ثم يعود مشكلة من جديد، ثم أشعر بالخدَر. قريباً سوف يتوقف الارتعاش. ما أرقّ هذا كلّه، ثم تأتي كتل ضخمة من الزَّبَد ممتطية أمواجاً صغيرة، مع خيوط من الأعشاب السود تتلوى عائمة متقدمة معها.

أه حسن، يا صديقي؛ إنَّ كلّ أمنية أتمناها تتحقّق وهذه هي النتيجة. ولكن على الأقل أتوصل إلى معرفة منْ أنا قبل أنْ أموت: أنا سيد الضياع. إنَّ كلّ قطعة بروتين مني هي قوة في السوق، وتشتاق إلى أنْ تتحقق. أنا سيد الضياع وها أنا ذا مع الطبيعة، والأعشاب تتسلق قميصي، وتزحف على حذائي.

طفيليات فوق طفيليات فوق طفيليات.

لأننا قوة واحدة ومتشابهة.

طبيعة فخمة، مثالية، بريئة، تقوم بكلّ ما تقوم به الحياة، وهو ببساطة أنْ تقوم بكلّ ما يمكن القيام به. مهما كانت الطريقة التي تنفّذ بها ذلك.

وووش بسرعة: تموت موجة على بروز صخري، صافعة الصخور لكي تُرقِّم اللحظة. ليست موجة عاتية، ساخطة وهادرة، تخرج لتعاقب الشاطئ؛ بل مجرد تموُّج، مباشر ومعتدل. هذه هي حقيقة موتي. البحيرة لا تقدم واجب الولاء للقِوى المكبوتة، على الرغم من أنها قد تمور

وتغلي داخلي. أعتقد هذا لأنَّ لا أحد يعلم بوجودها. وكما قد تقول آنّا - لأنه لم يحدث أنْ تمّ التعبير عن الهياج والغليان لكي يُقدَّم لها واجب الولاء. في الحقيقة لم يحدث أبداً أن انبثقَ أيّ شيء مني لكي أُقدِّم له واجب الولاء، على الرغم من أنني عشت شاعراً بأنَّ هناك قِوى يمكن الاحتفاظ بها. إذن الأشياء هي، في نهاية المطاف، كما ينبغي أنْ تكون، مجرد حيوان خرافي صغير، كان ابن عرس ذات يوم، يغوص حتى عنقه في بحيرة. البحيرة لا تتحرك إلّا قليلاً، والأشياء تدوِّم ببطء مؤلم.

إنني أتمتع بالبصيرة اللازمة لأستجدي من آنّا كيس وجبة مُجمَّدة مُحكم الإغلاق، لكي تنجو ملاحظاتي، بسبب قيمتها، وأيضاً تدوِّم بحركة بطيئة، وكأنّها ببساطة تدور حول نفسها. على الأقلّ هناك وصفة إعداد مشروب في مكان ما، وتحذير بخصوص الأجرة المُسبقة التوفيريّة على متن القطارات.

أتقدّم أكثر داخل البحيرة إلى أنْ تخفق آخر عصائر الشمس تحت عينيّ. أغوص مع غوصها، نموت معاً كأننا واحد، وكلما غاصتْ وجهة نظري أكثر، استطعتُ أنْ أرى العالم أكثر، إلى أنِ استوعبَتْه رؤيتي كلّه، مُسرعة عبر سطح الماء، عبر أميال مُترفة، فوق مخلوقاته كلّها ونباتاتها، وفروه الملوّن وبشرته المرقّشة، وبحاره المتلألئة وقممه المدخّنة، وأرى الحقيقة تتكشّف في سماء وامضة - وهي أنَّه لا تصميم عظيماً يُشكّل أساساً لنا، لا مثاليّاً ولا ناقصاً، بل إنَّ كلّ شيء يحاول أنْ يشقّ طريقه بازلاً أقصى جهده، رغماً عن المشاق كلّها، تحت غشاء دقيق متشبّث يُغلِّف الأرض. إنَّ كلّ ما فعله أيّ شيء طوال حياتي هو أنْ يتغذّى عليَّ، وأتغذّى أنا عليه، وعملتنا المتداولة هي النقود. أرى أنَّ والدي قدِمَ إلى برلين بسبب هذا، وغادر برلين بسببه، وهجر زوجته بسببه، وحطّمني بسببه، وتشكّلت مجموعة العمل بسببه، وفسُد بسببه، ونبذني بسببه، ولجأتُ إلى إعادة التأهيل بسببه، ولوحِقتُ بسببه، وتأخّر القطار بسببه، وحضر الشرطي بسببه، والشطائر شوهدتْ بسببه، وسيارة الأجرة أبطأتْ

بسببه، ودخل سميتس السجن بسببه. والآن المطار يحتضر بسببه، وغوتفريد يهزل بسببه، وغيرد عاطل عن العمل بسببه، وزوجته تركته لأنَّ والدي قدِمَ بسببه، وغادر بسببه، ثم رجعتُ أنا.

بسببه.

أترك نفسي أسقط، أسمع المدّ يتعلّق بأُذنيّ. لا شك في أنَّ الحياة كانت حيواناً، يا صديقي الأخير، شيئاً تسعى إليه أكثر، ربما في لحظة أكثر فتوراً، مع كأس من النبيذ. أما الآن فأشعر بالبحيرة تخترقُ شفتيّ، أشعر بأنفاسي تبدأ تبقبقُ.

ثم وووش بسرعة.

النهاية

أبدأ:

على هذا الجانب، حيث يتحول البرد إلى دفء والوردي إلى رمادي وأزرق، أسمع صوتاً، واهناً في أول الأمر، ربما صوت ذلك الإله الذي نحمله في داخلنا، وربما هو حتى إله موضوعيّ، فورة نشاط جاءت لتواكب رحلتي.

يقول: «إذن حللتَ المسألة كلّها».

أقول: «نعم، حللتها، أخيراً».

«أخيراً، هه؟ هذا جيد. جيد جدّاً».

أقول: «نعم، تبدو صحيحة، قبل كلّ شيء».

«إذن هل الجواب في نهاية المطاف هو الحياة أم الموت؟».

«في الواقع، أخشى أنه الموت - إنني مجرد حيوان».

«أحقّاً؟ هذا مؤسف. أنْ تموت أنت فقط، أم إنَّه حال الحيوانات كلّها؟».

«في الواقع، لا أستطيع أنْ أتكلَّم بالنيابة عن أيّ شخص آخر. أعتقد أنَّ الأمر متعلقٌ بي، في الوقت الحاضر».

«فهمت، فهمت. إذن أنت لم تعد تحبّ هذا المكان، أليس كذلك؟».

أقول: «في الواقع، كلّا، لقد انهارت الأوضاع».

«أها، نعم هي كذلك. حيوانات أخرى، إه؟».

«بالضبط - إنها مجزرة البيع بالجملة».

«ولكن – أين هم؟».

«تقصد الحيوانات الأخرى؟».

«نعم، أليسوا هنا؟».

«في الواقع، كلّا».

«إذن؟».

يبدو الحوار مع إله أمراً مُربكاً، وأهزّ رأسي نفياً، أسعل وأشهق. ولكن بعد برهة يقول من جديد:

«لا شيء آخر يسبح بملابسه. بمَ يوحي هذا لك؟».

«في الحقيقة – بأنها ليست سباحة، ولا صِلة للملابس بالأمر».

«إنه يوحي بأنَّ الحيوانات لا تفعل هذا. أنت فقط تفعل هذا. اسمع هذه الحقيقة: إنَّ ما يفصلنا عن المخلوفات كلّها هو أنَّ لدينا الخيار إما في أنْ نكون مثلهم أو لا نكون. نحن الوحيدون الذين يستطيعون فعل هذا. نحن قادرون على ألّا نكون مثل أيّ حيوان إذا شئنا. قد تشعر بأنكَ تعيش في دكتاتورية من الحيوانات – لكنَّ الحيوانات في الحقيقة لا تستطيع أنْ تضع أنظمة كهذه. البشر وحدهم يستطيعون. إذا شعرت بأنها دكتاتوريةُ بشر يتصرفون كحيوانات، فربما أنتَ على صواب – ولكن بما أنكَ أنت نفسك إنسان هناك أشياء تستطيع أنْ تقوم بها. في الحقيقة هناك أشياء عليك أنْ تقوم بها، لنيل الشرف.

عندما أصل إلى كلمة (شرف) أشعر بأنَّ أذنيَّ متشبّثة بالسطح».

«ليلة الغد، على سبيل المثال، سوف يجتمع نموذجان من المخلوقات في الكهوف التي تحت المطار: واحد سيكون مأكولاً على طبق؛ والآخر سيأكله وهو يضحك. وسؤال الحياة الحاسم – أيّ النموذجين أنت؟».

«أأنا مُضطرّ إلى أنْ أكون أحدهما؟ لقد أردتُ أنْ أكون شيئاً عندما أُعيد التفكير فيه لا أجده بائساً جدّاً وغريب الأطوار».(102)

102- إنَّ الحياة خسيسة وغبية عندما تنعم التفكير فيها بعمق. والدليل الذي يُقدمه كلّ الذين شعروا أو فكّروا بعمق هو أنَّ الفهم يجلب خيبة الألم. وزيادة على ذلك أنا أؤكد

«إذن هيا وشدِّد على أنك ستفعل. افسح مكاناً لثالث إلى الطاولة».

«يبدو لي كأنك تحاول أنْ تقنعني بالخروج من البحيرة».

«كلّا - بالأحرى أنت الذي تحاول أنْ تقنعني بالخروج من البحيرة. أتعتقد حقّاً أنَّ شخصاً ينوي أنْ ينتحر سيظلّ يخوض في مثل هذه اللعبة التحزيرية الموجِعة؟ إنك تصفُها بأنها أرض الضياع - حسن، دعني أخبرك شيئاً: إنَّ ما علقتَ به هنا هو ببساطة مرحلة البلوغ - أشد أنواع الضياع بثّاً للرعب. علقت بعد انكسار سلسلة النماذج الأبوية. ولكن إياك والخطأ، إنَّ أفكار البالغين كلّها حالات ضياع كحالتك - الرأسمالية، الشيوعية، كلّها مجرد أفكار لا وزن لها. ومع ذلك، يجب أنْ تختار واحدة وتعمل على تطويرها، أو أنْ تُصمِّم واحدة أفضل منها. لقد كانت اللحظات السابقة لهذه الصدمة مرحلة عذبة من الحياة، مرحلة الطفولة. أما الآن فحان وقت الانتقال. وفي حال لم تُدرك، فإنَّ الانتقال هو سبب وجودك هنا اليوم».

«ماذا؟ ولكن هذا غرق، موت. أتقصد أنْ تقول -؟».

«إنه بالضبط ما أقصد أنْ أقول. إنك الآن على الحافة النهائيّة لطقسٍ ينتشر في كلّ عصر في التاريخ، تتواصل مع كلّ شخص، وعليك أنْ تقوم بخيار لا رجعة عنه. قُم بذلك الخيار: هل تريد أنْ تموت وأنت طفل - أم وأنت بالغ؟».

«في الواقع - أيُّهما سيكون إذا بقيتُ هنا وغرقت؟».

«الطفل».

لك هذا انطلاقاً من ذلك التقرير. قليلون جدّاً يستطيعون أنْ يعيشوا على عمق معيَّن وحدهم، حيث الألغاز تتوهج تحتهم إلى درجة أنها تشكّل ستارة خلفية مترفة لِما هو في حالة أخرى، حياة بسيطة، دون الاضطرار إلى تذوُّق السموم من الأسفل أيضاً. وفي حين إنّ عمل الفنانين هو أنْ يتجولوا في تلك الأعماق ويعكسوا جنونها، فلا يُنصَح بذلك من أجل عيش حياة طيِّبة. والنتيجة: لا تغُص - واكتفِ بالعوم وبالسباحة. ابتهج بالغباء. وحين تجذبك الأعماق إلى الأسفل، اهرب إلى ذلك الملاذ الخاص بضحايا الأعماق كلّهم: المُسكرات. - المترجم

«وألا أكون بالغاً يتضمن -؟».

«الخروج، وعيش حياة لعينة وصنع فُرصك».

«ولكن نصف سبب وجودي هنا يشكل النزاع الذي تسبّبتُ به بوصولي إلى هذه المرحلة. إنَّ آمالي المعقودة كلّها تهشّمت، ولم يعُد في استطاعتي أنْ أعود».

«نعم، بل تستطيع، ابتعد عن تشكيلة الأدوات المُحيطة بك».

«وما هي تلك الأدوات؟».

«في الطبيعة لا شيء يموت، بل فقط ينتقل من حال إلى حال، على شكل دورات مستمرة من الموت والولادة من جديد. واحزر مَنِ استعار أفضل الأدوات من صندوق الطبيعة؟ إنها الرأسمالية. مفهوم الشيء النافع والسامّ. عندما يقبل بنك ما دَيناً ثقيلاً مميتاً، فأمامه خيار: إما أنْ يغوص تحت ثقله ويغرق - أو أنْ يُخزّن الدَّين في جسم منفصل ويبقى عائماً. بنك جيد، بنك سيئ - *المفيد السامّ*. اترك طفولتك في البحيرة، هذا هو مغزى هذه اللحظة. انهض من جديد نضراً وقويّاً».

«لكنني مُرهق، من أين سأستمدّ الطاقة؟».

«من القِوى المكبوتة! لا تكن مأساويّاً هكذا! اذهب وعبِّر عنها! في أرض الضياع ماذا لديك لتخسره؟ إذا كنتَ تشعر بأنَّ للجنس البشري عدوّاً، اجمع رفاقك ولاحقه! اتخذ خطوة حاسمة وسوف تصطفّ القوى خلفك».

«همم؟ القِوى المكبوتة؟». أشعرُ بالحرارة تخِزُ صدري، بشرارةٍ تتطوّر إلى لهب، وسرعان ما تغذيها عصفة ريح تهب من البحيرة، لهب لا يرحم. أهتف: «قِوى مكبوتة! قِوى مكبوتة!» وأهتف مراراً وتكراراً إلى أنْ أسمع الصوت الآخر بنبرة مختلفة، أقوى الآن، وأشعر بنوعية الخَدَر تتغيَّر في أطرافي، وكأنَّ ثقلاً انزاح عنها.

يقول الصوت: «انتبه منه الآن. إنّه يعيش حياةً قاسية في الوقت

الحاضر، وليس لديه أصدقاء حقيقيون. ربما سيحتاج إلى مشروب – ولكن ليس كثيراً منه».

ثم يأتي صوت آخر: «لقد فزتُ، أنت تدين لي بكأس من البراندي».

«براندي؟». أحاول أنْ أفتح عينيّ. «براندي؟».

«هسسس» يُتابع الصوت: «أنا أتحدث مع شبيخت».

يقول غيرد: «براندي؟ أم هل كانت مجرد بيرة؟».

يقول غوتفريد: «لا تحاول أنْ تتملص، لقد تراهنت معك على براندي – هذا إنْ كان من إنكلترا كهذا، إنه لن ينتقي أقرب بحيرة، بل التي بعدها».

أرض العجائب

الوليمة

وقالتْ دفقاتُ النشاطِ كلِمتَها. ثم يبدأ الطرف الرئيس من الوليمة كصفعة من عاصفة، وفي يوم الجمعة هذا الرابع والعشرين من تشرين الأول نخرج أنا وغوتفريد من ورشته إلى الرذاذ المتطاير، منتبهين إلى وجود قُطيطة عند الباب.

«هذا تصرفٌ نموذجيّ من غيرد». يتوقف ليُثبّت زرّ السترة التي يرتديها فوق ملابس العمل. «إنه يقضي النهار كلّه في مقهى روبنز ثم ينعتنا بالأصدقاء السيئين لأننا لم نعثر عليه. مَنْ ذا الذي يذهب إلى مقهى روبنز ليسكر؟». يفترق طريقانا عند منعطف مهرينغدام حيث يتوقف ليقول: «شكراً على حديثنا القصير. لقد حللتُ كلّ شيء ما عدا شيء واحد. أراك في نهاية اللعبة - سأنتظر عند الطرف الأقرب إلى المطار من النفق بعد هبوط الظلام».

أتوجّه مباشرة إلى المطار، بشرتي مشوبة باللونين الرمادي والأزرق، وشعري متيبس خلف رأسي كلهب في وجه الريح. السماء تتحرك بسرعة، وبقايا أوراق الأشجار تتقدمني وأنا أتعثر على طول الشارع باتجاه العربة، حيث أجد جمهرة من الوجوه الجديدة.

ديدييه الباسكيّ هنا، ألمحه يهرع متنقلاً بين العربات المقطورة وسط ضباب من سبلات[103] الشَّعر والمعاطف. يرشدني إلى أحد مراكز القيادة حيث، ومن سرعة تحديقه ومقدار النبيذ الضئيل الذي يصبّه، أشعر بأنَّ الاجتماع سيكون قصيراً.

103 - السبلة: الشعر على صدغي الوجه وامتداد اللحية. - المترجم

نرفع أقداحنا: يعلن النخب «نخب الممتاز والغريب. هذا كلّ شيء، إه. آمل أنْ يُلائمك الزيّ. ويجب أنْ أشكرك - لقد منحتنا، حتي من دون أنْ تعلم، فكرة عبقرية للطبق الأساسي. أفضل ما أنجزنا. لن أفسد المفاجأة - سوف تراه في القريب العاجل. أما بالنسبة إلى جدول أعمالك تذكَّر أنَّ الإنذار الختامي سيكون في تمام الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة. ويجب أنْ تخرج في غضون أربع دقائق من ذلك. سوف يبدأ العدّ التنازلي بالتعتيم، هه؟ لقد أخبرتُ حارس الباب أنْ يراقبك، هو الذي سيتحكم بمفتاح الإضاءة. تظهر أنت، فتُطفأ الأنوار، وبعد ذلك بون فواياج».

أومئ برأسي: «جيد جدّاً».

«*Bon, allez*. المُحاسِب سوف يدفع أجرك عند المخرج. ثم أقترح أنْ تغادر المبنى بسرعة وألّا تعود على الأقلّ قبل بضعة أسابيع، على الرغم من أنَّ المكان سيكون قد أغلق أبوابه. سوف يغادر توماس قبل التعتيم مع عربتين مقطورتين، وسوف يبقى المطبخ حتى النهاية. سوف تبدأ محركات الطائرة بالعمل في الحادية عشرة وخمسين دقيقة. إذن - اتفقنا؟ التوقيت هو الأهم». يُدلّي يده لكي أشدّ عليها. «حظّاً سعيداً، يا صديقي».

في الخارج أجد توماس بالقرب من عربة مطبخ مُغلقة على مسافة بضعة أمتار، ونتوقف لنتقاسم شرب سيجارة في الشارع خلفها. يبدأ مُعارضون للإغلاق بالتوافد، لكي يفاقموا الزحام. وبنبرة صوت منخفضة يستعرض توماس الأخبار من خطّ المطبخ الساخن، وهو نظام بَرْقيّ موثوق لنقل أخبار العالم: تقول إنَّ ضيوف هذه الليلة قادمون في رحلة داخلية من أوتيل دو موريس في باريس ويشتملون على أشخاص طموحين إلى أقصى مدى، قادمين من أحياء الصناعة المصرفية والتجارية المسؤولين عن حالة الكساد العالمي، وسط هرج ومرج قبل أنْ يختفوا في مقدمة تحقيقات حكومية.

وفقاً للمطبخ اثنان منهم فقط ليسوا من أصحاب البلايين.

بينما نحن ندخّن يتناهى إلى سمعي ما يقوله طبّاخ على الهاتف في الداخل: يزعق: «ماذا في وسعي أنْ أفعل بهذا؟»، ويتعاطف قلبي مع سميتس، الذي كان ينبغي أنْ يكون هنا. وفي حين يبقى السؤال ما إذا كان الباسكيّ سوف يتمكن من إنهاء صفقتنا، قررتُ على أية حال أنْ أنفّذ الجزء الخاص بي، وأتولى بنفسي مسألة معاقبة المتسببين الحقيقيين باحتجاز سميتس.

يزعق الطبّاخ: «لماذا عبثتَ بقائمة الطعام؟ ماذا؟ لأنَّ الثوم من أجل ربات البيوت اللعينات، إنه يلوّث كلّ ما يلمس! ما الداعي إلى وضع طعام آخر معه، إذا أردتَ الثوم فاذهب وكُل الثوم اللعين! ماذا؟ حسن، إنَّ الضيف مُجرَّد من الذوق. لماذا ندعو شخصاً مُجرّداً من حاسة التذوّق؟ إنْ كان في هذا الصنف من الطعام ثوم، فسوف يُصبح مذاق الثوم موجوداً في كلّ طبق. هه؟ سكورداليا[104]؟ خاصة السكورداليا اللعينة!».

أضبط إصغائي إلى المكالمة بينما رهط من الوجوه الجديدة يدخلون رتلاً واحداً إلى المقطورة، وعندما يُفتَح الباب ويُغلق أُقسِم بأنني أسمع أنين أطفال رُضّع وغرغرة في الداخل. ألتفتُ إلى توماس طلباً للتفسير، مُصيخاً إحدى أُذنيَّ نحو العربة؛ لكنَّ وجهه يبقى خالياً من التعبير، وبعد أنْ يشدّ مجّة أخيرة من الدخان يُعطيني السيجارة ويبتعد.

يصفو الجوّ مع اقتراب المساء، وخلال بعد ظهيرة يوم الجمعة الأخير هذا الذي يُشكل نُصُباً، تاريخاً، حلماً وأرض ضياع، تشرقُ شمسُ الخريف الجميلة. في أول الأمر يختبئ الوهج خلف الأبنية، رامياً ظلالاً هادئة، مُضيئاً السماء بلون أزرق طباشيريّ. ويمرّ الناس جيئة وذهاباً عبر تلك الظلال، وتتلألأ الكروم من عبور حركة المرور، حتى غوتفريد يكمن بملابس عمله وقفازه ـ تارة يتخذ وِقفة بجوار المقهى

104- سكورداليا: طبق يوناني قوامه بطاطا مسلوقة تُسحق مع الثوم واللوز والبهار. - المترجم

الصغير، وطوراً يجوس في المكان. وعند نقطة معيَّنة ينفجر ضوء ذهبيّ فوقه، فينظر إليَّ دون أنْ يبتسم - لكنني أعلم أنها ابتسامة. تزداد السماء وقمم أشجارها صفاءً وسكوناً. الطريق يرين عليه السكون، لكنه ليس سكوناً مغرقاً. وتأتي لحظة يعود توماس، مرتدياً ملابس المساء السود، لينطوي إلى جواري على حافة الطريق، في الفجوة بين مركز القيادة والمطبخ. الشارع أمامنا لا يوحي بأيّ جوّ مرح أو حماس، ولا أضواء نيون تغوي، ولا مغريات مُبهرة، ولا وهج أشياء صغيرة أو حليّ رخيصة. إنَّ هذا الشارع في برلين ممل ومُغلق بصورة لا تعِد بأنه سيُفتح من جديد في المستقبل. ساكنوه يقبعون في الطوابق العليا. والأعمال في الطوابق الأرضية لا تصرخ ولا تصيح أو تُعلن عن تجارتها.

وهنا، ونحن ننتظر الاحتفال الأعظم منذ سقوط روما، ننتظر وليمة تريمالاخيو[105]، وآخر مواقف ديزيسانت[106]، وليالي دوريان غراي الباذخة، ننتظر أرواح سالومه[107]، والأب جول[108]، وكاراغيال[109]،

105- في كتاب بترونيوس (27 ق.م - 66م) المُسمّى «ساتابركون»، يُقيم تريمالاخيو وليمة مفرطة البذخ تعبِّر عن أجواء انحطاط الحضارة الرومانية. - المترجم

106- في رواية عنوانها «ضد الطبيعة»، من تأليف الكاتب الفرنسي جوريس كارل هويسمان (1848 - 1907)، التي تنتمي إلى ما يُسمى أدب الانحطاط، يصف الكاتب حياة البطل ديزيسانت الماجنة بتصوير دقيق لأذواقه في الطعام والشراب والثقافة والحبّ والرسم في أواخر القرن التاسع عشر، في وصف دقيق للثقافة الصناعية. وهو بمثابة وليمة للأحاسيس، كما وصفها الكاتب. في نهاية المطاف يرفض البطل أنْ يعود عن نمط الحياة الذي اختاره. - المترجم

107- سالومه التي طلبت رأس يوحنا المعمدان ثمناً لرقصها عارية أمام بيلاطس. - المترجم

108- الأب جول: عنوان رواية تحمل اسم بطلها من تأليف أوكتاف ميربو عام 1888. وتحكي عن الأب جول الذي يُقرر أنْ يتمرد على الاضطهاد الاجتماعي وفساد الكنيسة الكاثوليكية. والكتاب يُعتبر سيرة ذاتية للكاتب وتعبّر عن آرائه الثورية في زمنه. - المترجم

109- إيون لوكا كاراغيال (1852 - 1912): كاتب روماني. انتقد المجتمع الروماني في أواخر القرن التاسع عشر واصطدم مع السلطات السياسية ومُنِعَتْ كتبه على مدى عقود. - المترجم

وبودلير، وهلافاتشيك[110]، وميربو[111] وتونيغارو[112]، ندخن السجائر على حافة الطريق وننعم بالشمس الباردة.

أخيراً يُضيق توماس عينيه وهو ينظر إلى السماء. «إذن، يا صاحبي، وصلنا إلى النهاية. أتساءل كم من الأرواح سنُرسل إلى السماء». ويلكم كفى استجلاباً للحظ.

أشعر بقشعريرة. الهواء مُكهرب، خاصة بسبب حفيف الأحذية الرخيصة على أرض الشارع، وضجيج محركات سيارات الشحن المُمل. لكنَّ الليل يوشك أنْ يبدأ.

عند الغروب تبدأ النزهات والأحاديث تملأ الجوّ حول كولومبيادام بجوار المطار. أراقبُ رجلاً فرنسيّاً ممشوقاً يترنح تحت الأرض: إنه الحارس مع مسدس الانطلاق. يقوم توماس بالتعريف بالمُحاسب، وهو رجل ملتحٍ ضئيل الحجم كقزم. يُصافحني ويهبط إلى تحت الأرض لكي يتخذَ موقعه، ويمرّ رجل آخر يبدو توماس متلهفاً أكثر إلى تقديمه إليَّ بوصفه (الساعي).

أخيراً، تأتيني مكالمة تطلب مني أنْ أنتقل إلى النفق، برداء كتفيَّ المتطاير نحو الخلف، وقبعة ثلاثية الزوايا ونصف قناع أبيض اللون، إلى أرض المطار. يضرب نسيم شديد فوهةَ النفق. السماء فوق تمبلهوف مُخطّطة كالنمر، رمادية فوق زُرقة المساء. ثمة حفنة من النجوم تبدأ توّاً بالتلألؤ، وسرعان ما تنضم إلى هذه ومضات متقطعة وأنفاس غوتفريد

110- كارل هلافاتشيك (1874 1898-): شاعر تشيكي ثوري من المدرسة الرمزية في أواخر القرن التاسع عشر. - المترجم

111- أوكتاف ميربو (1848 - 1917) روائي وصحافي وناقد أدبي فرنسي. صاحب رواية (**الأب جول**)، أول رواية مكتوبة بتأثير دوستويفسكي على النمط الفرويدي. - المترجم

112- كونستانتين تونيغارو (1919 - 1952): شاعر طليعي روماني ينتمي إلى شعراء ما يسمى أدب الانحطاط. انتهى به الأمر إلى السجن في ظلّ الحكم الشيوعي. كان بوهيمياً مناهضاً للفاشية والشيوعية. - المترجم

الصارّة لدى ظهوره من ظلال بمحاذاتي. نراقب مهبط طائرة نفاثة ونميِّز جانب سيارة أجرة طويل، تزعق وتتلألأ، جاثمة كوحش مفترس. يتحرك لسان غوتفريد داخل فمه. عيناه ترسلان إشراقاً صافياً، يكاد يكون أبيض اللون. ثم يلكزني:

«انظر إليها كيف تلمع. يا لها من سيارة. تشبه البورش – هه؟».

نسكت لكي نتبادل النظرات، ثم يختفي خلفي. أحمي وجهي بينما الطائرة النفاثة تهبط مع أضوائها. تتوهج أشكال غامضة في ركن الطيّار بينما هي تقفز استعداداً للتوقف، تُصدر صفيراً وأنيناً، ويبدأ دَرَجها يخرج توّاً.

يهبط سبعة من الضيوف بمعاطفهم ذات الذيل وأقنعتهم الإنسانية. أشدّ ردائي حول صدري وأغيِّر تعبير وجهي لكي أقودهم خلال الأنفاق إلى أرض العجائب. ولكن في غضون لحظات أجدني أشعر بالغضب من الرجال: إنهم يُبطئون في تقدّمهم، ويتحدثون في التجارة بأصوات مرتفعة، وكأنهم لا يهتمون بالموقع، وكأنّهم يخرجون من مكاتبهم إلى بار يبيع الشطائر. إنه يجعلني أدرك أنَّ الـ *Zentral Flughafen* (المطار المركزي) قد أضحى ميغيلاً آخرَ سرّيّاً، صديقاً آخر، وأعاني من المسير وأنا أُصغي إلى أصداء أصوات الرجال تعلو باطراد وتتمزّق أكثر مع اختراقنا المُجمَّع. وعلى طول الطريق أسمعُ التالي:

يقول أحد الرجال: «اسأله، أعتقد أنها نظرية الجيل الثالث».

«تعني مثل الإحصاء؟ نوع من نتاج معيار بلاك شولز[113]؟».

يسعل آخر. «كلّا، كلّا. الأمر لا صلة له بالتطايرية، إنه نموذج للمُستهلك. التجارة على أساس أنَّ نصف المستهلكين يتأثرون بعروض القسائم، ولكن فقط عشرة بالمئة يُعيدون القسائم – إنَّه ذلك الهامش المُطبَّق على التصنيع. على سبيل المثال، اختصار نوعية الإنتاج إلى النصف، ولكن أقل من ذلك بقليل سوف يُعيد المنتج. ذلك الهامش هو السوق».

113 – معيار بلاك شولز: معيار رمزي لتحديد أسعار صرف العملة.

«أه، العمل على أساس أنَّ تكلفة المُرتجع يُعادل إعادة الشراء، كما في حالة بضائع المستهلك سريعة الحركة رخيصة الثمن؟ ولكن عندئذٍ يجب أنْ تكمن نصف اللعبة في أنْ يكون من المستحيل إعادة البضائع، أليس كذلك؟ أنت تتحدث عن السوق «الشديد الصعوبة».

«نوعاً ما – ولكن الجيل التالي. لقد عثرنا على عامل قبول قابل للقياس على مرّ الزمن. على سبيل المثال، مَنْ يتذكّر حذاءً لا يرشح إليه الماء بعد مرور عشرة أسابيع؟ وهاتف محمول لا يموت؟ إنَّ السوق الآن يقبل هذه الحقائق، إنَّ المُرتجَع يقلّ عاماً بعد عام. إننا نحسب نسبة القبول على أساس مرتجع الوحدات، ثم نعيد تخطيطه. والآن نموذج جيل ثالث يُطبَّق على الأسواق كلّها – تخفيض الكلفة، نسبة القبول، زيادة السعر. في غضون سبعة أعوام سوف نتمكن من بيع رزم فارغة».

«أعتقد أنَّ هذا يعضّك حتى الإيلام، وإلّا لما أتيت إلى هنا».

«إنَّ النموذج لا يعضُّ، إنها قضية اتحاد كبرى. لكنها لن تظهر على السطح إلّا في الربع التالي على الأقلّ – حينئذٍ سوف أكون قد وصلت إلى النهاية».

شيء ما يزعجني، وأنا أصغي إلى الرجال، شيء يكمن في انفصالهم عن العالم المُحيط بهم، في انعزال رطانتهم عن اللمسة الإنسانية، وفي رتابة أصواتهم وهم يُخططون لذلك الرعب المضمون:

إنها القِوى المخيفة نفسها.

تتغلغل فيَّ إثارة ونحن ننعطف عند الزاوية الأخيرة. ثمة نبرات أنغام متقاربة تومض في الجوّ مع اقترابنا من القاعة، إنها جوقة تتصاعد كأنما من التاريخ نفسه. اللحن رائع، حديث جدّاً ومألوف بصورة ما – بعد نغمة أو اثنتين عرفت أنه لحن *(ليل ونهار)* يُغنّى بالألمانية، *Tag und Nacht*، من فرقة كوميديان هارمونيست، التي منعها الرايخ في ثلاثينيات القرن. تخيّل المشهد وهو يزداد غرابة، سرب من الرجال المقنّعين في ملابس السهرة يقودهم مخلوق أسطوري يرتدي سترة للكتفين خلال

نفق من الموسيقى. ثم يُفتَح باب القاعة مؤدياً إلى غرفة مُبطّنة بالموسلين مغمورة بالأقمشة النادرة، حيث يدفع الضيوف للمحاسب رسم الدخول أحجاراً كريمة. ومع القرقعة التي تُصدرها كلّ منها على الصينية يُقدم شريحة سميكة من الفاكهة لطائر أخضر اللون رائع معلّق داخل قفص من الذهب والأحجار الكريمة.

يُغرّد قائلاً: «أطعِم الطائر، أطعِم الطائر المنحطّ».

بعد أنْ يدفعوا الرسم أتبع الضيوف خلال ستارة إلى الغرفة المجاورة. هذان الخادمان واقفان ينتظران يرتديان السترة الخطّافية وبينهما دوامة[114] بالحجم الطبيعي فيها سبعة مقاعد يشبه كلّ منها الإسفين. وسبعة أشخاص عُراة مُنكسي الرؤوس داخلها، وجذوعهم وأعضاؤهم مُستترة، والأعضاء الجنسية محشورة داخل ثقوب في وسائد، في قصف داعر من فروج وعورات متنوعة كتنوع الوجوه، ولكلٍّ طبيعته وسِحره. إنَّ مسار الشهواني الملتوي يتبع نظرية ديدييه التي تقول إنَّ الهورمونات يجب أنْ تسخن وتتحول بالتدريج إلى الغليان الشهواني في أثناء تناول الوجبة. تويجات لحميّة، شفاه ملتوية، شقوق حييّة، وحتى قضيبان طويلان جيوبهما تثير البهجة، بينما صوانٍ إلى جانب كلّ منها يتجاور المحار، والفاكهة، والحلزون، والكوكايين، والجبن، ولحم الخنزير النيء والكمأة، تستحضر أقنعة عانيّة[115] تتسم بنُدرة مرتعشة. من قمة الدوامة، كؤوس كريستالية مملوءة بدموع طفل ليغتسل الضيوف بها بين الأطباق. ألاحظُ أنَّ الرجال في هذا المذاق للفرج لا يستطيعون إخفاء طبيعتهم الفردية، بعضهم يزيل الرغوة، والبعض الآخر ينكبّ ويأكل بنهم، وغيرهم يحومون فوق بين الضباب.

بعد هذا يقودهم الخادم إلى داخل أرض العجائب.

الممرات المُقنطرة تفيض بالسجاد، والوسائد، والنباتات ووسائل

114 - دوامة مدينة الملاهي التي يركبها الأطفال. - المترجم

115 - عانيّة: تتعلق بمنطقة العانة. - المترجم

التسلية، مع مائدة طويلة تمتدّ تحت ثريات مُذهلة. ينتقل تحديقي بين الأقواس إلى المخلوقات المرسومة على الجوانب عند النهاية، بينما خلال قوس إلى اليمين، وسط تفجُّر من النبات، تقبع نافورة من نبيذ ماريوس. الضوء يعبث على انبثاقه، يتلألأ في التموجات عبر بركته القاتمة. وإلى المائدة يجلب فتيات وفتيان صواني أُذُن البحر، وجبناً مصنوعاً من حليب بشري، ورماناً وقرص عسل، بينما خادمات يحملن سمكة حفش[116] ضخمة على دثار من حلزون البحر، يغرفن الكافيار من جوفها بأيديهن.

بعد أنْ يجلس الضيوف، يحين وقت انسحابي، على الرغم من أنني بينما أغادر أرض العجائب أقابل المُحاسب، يدعوني بروح الصحبة إلى استراق النظر من خلال ستارته كلّما شعرت برغبة في ذلك.

يهزّ كتفيه استخفافاً. «إنَّ الطائر ليس أفضل الرفاق».

يتجاوزني خدم المطبخ في النفق العريض حاملين طبقاً من الحساء، ترافقهم خادمات بحركة سريعة عاريات من تحت أثوابهن. بعد أنْ يختفين أرى مجموعة من أصحاب القوام الجميل بمباذل يقفون بجوار خطوط سكة الحديد، يتسامرون ويُدخّنون في الظل - لا شك في أنهم فروج وعورات في حالة استراحة.

116- سمك الحفش: يُستخرج منه الكافيار. - المترجم

كيوي وحساء الطائر الطنّان
مع معجنات بورتشيني أغنولوتي وكراث

مكونات الحساء

14 طائر طنّان أزرق الرأس
(احتفظ بريش الرأس من أجل الزينة)
4 حبّات كيوي بني اللون.
50 غ من تشكيلة ميريبوا للخضار
4 عيدان من الكرفس.
بصلتان بنيتان.
رأس واحد من الثوم.
حزمتان من الكرفس.
3 عيدان من الزعتر.
10 حبّات من الفلفل.
3 عيدان من البقدونس.
3 من أوراق الغار.
حبّتان من البطاطا متوسطتا الحجم، مُقطعة.
2 – 3 حبّات عرعر، مسحوقة.

مكونات الأغنولوتي

50 غ من فطر بورتشني الجاف.
فص من الثوم.
رشّة من زيت الكمأة.
ملء ملعقة طعام من البقدونس المفروم
100 غ من ثمار الكيوي.
500 غ من باستا البيض.
كرز جافّ
بياض بيضة وطحين.

من أجل صنع الحساء، حضِّر الميريبوا (بصل مفروم ناعم، وكرافس وجزر بنسبة 1:1:2) اقليه مع قليل من السمن حتى تفوح رائحته. قشّر الكيوي وأزل الجلد عن صدر الطائر الطنان وعن أطراف الجناحين،

وأضف ما أزيل مع باقي المكونات إلى المقلاة. وحالما يظهر لونها وتنبعث رائحتها، أَضِف المزيج إلى قدر من الماء البارد واتركه حتى يغلي، مع إزالة الرغوة عن سطحه إلى أنْ يُختزل حجم الحساء إلى النصف. ارفعه عن النار ثم أزل اللحم عن أي عظم وأعد العظم إلى القدر، واتركه على النار إلى أنْ يُصبح الحساء مكتمل النكهة. وأخيراً ارفعه عن النار وصفّه.

أما الأغنولوتي، فانقَعْ فطر البورتشيني في ماء مغليّ حتى يُصبح طريّاً، ثم صفّه واحتفظ بالسائل. افرم ثمر الكيوي ناعماً مع لحم العظام، والثوم والبورتشيني، ثم اقلِ الثوم قليلاً في مقلاة، مُضيفاً البورتشيني مع البقدونس مع رشّة من الكرز الجافّ. أضِف لحم العِظام المفروم وأضِف أخيراً سائل غلي البورتشيني، واتركه حتى يجفّ السائل تماماً. وضعه في وعاء حتى يبرد.

من أجل إعداد الباستا، أدخل العجين في آلة إعداد الباستا بعد ضبطها بالشكل المناسب، ثم افرش العجينة المُسطحة على سطح بارد مرشوش بالطحين. اقطع دوائر بسُمك 7 سم، ثم ضع مقدار ملء ملعقة شاي من الحشو في وسط كلّ منها. أزل الحوافّ. ضع غطاء على الدوائر وأحكم إغلاقها من الخارج، ثم احفظها على سطح مرشوش بالطحين. أحضر ماءً من أجل غليه لوضع الأغنولوتي وسخّن الحساء. اغلِ الأغنولوتي إلى أنْ يطفو على السطح، ثم واحدة في كلّ طبق مع قطعة من الكيوي وفوقها الطائر الطنّان. حالما يغلي الحساء أضِف البقدونس المفروم ناعماً مع مقدار من زيت الكمأة فوق الكيوي والأغنولوتي. وقدّمه مع رشة من جبن البارميزان.

يكفي 7 أشخاص. وصحة وعافية.

أتوقف بجوار مطلع الدَّرَج لكي أُشعل سيجارة. يختطفها توماس لكي يأخذ منها مجّة. «الخادمة تلاحظ وجود ضيفين. واحد ظهر في أخبار الأسبوع السابق، المصرف الذي انهار. والآخر من المفترض أنَّ أخباره في كلّ الصحف أيضاً، لا تتذكّر لماذا. الأمر نفسه. من الواضح أنه الشعور السيئ الذي يسود المائدة».

«حيطان المطبخ لها آذان»، ويحين دوري في السيجارة.

«الأمر نفسه دائماً. خطّ الهاتف أكثر حرارة من المعتاد هنا، والمطبخ على تواصل أفضل مع الخدمة ومع واجهة المنزل. الحفل كبير هذه الليلة».

«يُدهشني أنَّ الباسكيّ ينجح في التكتُّم حوله».

«لقد تمَّ اختبار الجميع وتفحّصه، هذا ما يجعل أعماله بمثابة مهرب ممتاز للطاقم. عليه أنْ يُبقيهم سعداء حالما يدخلون. وهذا لا يعني أنَّ أحداً يعرف ما الذي يجري – خلف القاعة أماكن أخرى لا تصل إليها الخدمة. هناك يحدث الأمر القذر الحقيقي. لا أستطيع حتى أنْ أتحدث عنه. ولكن هذا موقع مثالي، لا أحد يستطيع أنْ يتجول فيه. موقع مذهل، لقد اجترحتَ معجزة حقّاً».

أقول: «إنَّ المعجزة هي أنَّ رجال الشرطة ليسوا منتشرين في كلّ مكان».

«الأمر سهل: هناك موقع لتصوير أحد الأفلام في منطقة آخر الخطّ. والطاقم يتنقّل جيئة وذهاباً بين هنا وهناك. غطاء مثاليّ، وكلهم يرتدون أزياء مختلفة. لقد حضر أحد أفراد الشرطة المحلّية، وقدّمنا له وجبة عشاء. إنه يعتقد أنَّ الطابق السفلي مُخصص للملابس والمكياج. ورأى رفيقك هناك أيضاً، ذا الشارب. شخص غريب الأطوار، كان جالساً على الدَّرَج معتمراً قبعة بحار. لعله يريد أنْ يحظى بدور في الفيلم».

إنه غيرد. الصورة تطعنني في الصميم. أخيراً ارتطمت العوالم معاً، واحدٌ انتهازي شره يلتهم كلّ ما يُصادف في طريقه، ويضحك خلسة، والآخر عالم من المسرات البسيطة، والأجوبة المباشرة والأحصنة في المداخل.

ثمة حافز يدفعني إلى البحث عن غيرد وأهرع إلى بايريتنبرغ؛ لكنني لم أتمكن من مواجهة الألم. بدل ذلك أركّز على الموعد النهائي للّيلة، مُقرراً أنْ أعتني بالتفاصيل القليلة الأخيرة قبل أنْ يفوت الأوان. وألتفتُ إلى توماس:

«هل تنضم إليَّ في شرب جرعة من **سيمفوني**؟».

«إنه في النافورة، ولا يُسمح لنا بالدخول».

«لديَّ بعض منه – انتظر هنا».

أهرع على طول النفق العريض وألج مخزن أطعمة العربة باستخدام المفتاح الأصفر. في الداخل أفتح كيس أدواتي، وأتناول منه النبيذ وبذلتي البافاريّة. قبعة *Miesbacher* تجعلني أتوقف وأتذكّر أيامي الأولى في برلين، القريبة جدّاً لكنها تبدو كأنما يفصلني عنها عمرٌ بأكمله، عندما بدا غيرد شبيخت الغامض ضخماً جدّاً. أيام بريئة، عندما أستعيد ذكراها. إنَّ لعالم الضياع طفولة، ومرحلة نضج، وها هو الآن يُغيّبه الموت. إنني أشعر به وسط رغبة ملحّة في النوم، ونفور جديد من الإفراط.

وربما أيضاً توق شديد إلى الوطن، إلى جزري المحتشدة، إلى فطيرة تفاح ورقائق البطاطا المقلية، إلى مقدار باينت من المشروب ولعبة تسديد السهام. آه، ما أجمل عالم الضياع هذا.

بعد إعادة حزم جعبتي بالمحتويات الجديدة، أترك نبيذ ماريوس مع توماس وأهرع إلى نفق أرض المطار. عند فوهة النفق أسمع أصوات تفجرات متقطعة من مولّد، وأشم رائحة كيروسين تملأ الجو. أرى الطائرة النفّاثة جاثمة ومفتوحة وتتوهج في الداخل، وقد شكّل الصقيع

أشكالاً على أجنحتها. وثمة طائرة نفّاثة أخرى تقبعُ خلفها، ويقفُ رجل في الجوار على الإسفلت. يبدو مألوفاً، أعتبره أحد أفراد طاقم ديديه. أتلكّأ عند فوهة النفق إلى أنْ يبرز غوتفريد من الظلام. يراه الحارس ويومئ له برأسه، من الواضح أنه اعتقد أنني، وأنا برداء الكتفين، أحد أفراد طاقم الحفل. أسلّم غوتفريد الحقيبة فيفتحها لينظر إلى ما في داخلها، موجّهاً إياها نحو ضوء قريب.

يهمس: «متى سيشغّلون المحركات؟».

«عند الحادية عشرة وخمسين دقيقة بالضبط. هل الساعة دقيقة؟».

«طبعاً! أنا صنعتها بنفسي. سوف أضبطها على الساعة الحادية عشرة وأربعين، لا أريد أنْ أرى أيّاً من أفراد الطاقم الأرضي في الجوار». بعد أنْ يُدعبس بضع لحظات في الحقيبة، يتوقف لكي يُفرقع لسانه: «سوف أشتاق إلى سيجار الصباح الباكر. ولكن انتظر وانظر كيف سيصرخ شبيخت كفتاة صغيرة حول صندوقه الذي يُساوي ستين يورو. أراهن على هذا مقابل ما لديك من براندي».

«كلّ شيء من أجل القضايا العادلة. أمتأكد من أنك لا تجازف؟».

«سأكون هنا عند الحادية عشرة والنصف لأحرص على ألّا يدخل أحد إلى الطائرة. إنني لا أتوقع حدوث مشاكل، الضيوف سيطيرون بأنفسهم لذلك لديهم ربان متعاقد مسؤول عن تفحص البطاقات والإقلاع. أستطيع أنْ أمنحه تغييراً في البرنامج. وبعيداً عن ذلك كلّ مجازفة تستحق العناء. أولاً هي مساحة مفتوحة من أرض الإسفلت، وسوف تنحصر الفوضى غالباً في الطائرة. ثانياً بعد انقضاء عطلة الأسبوع هذه أنا عاطل عن العمل - وهذا حال الجميع، بعد مرور سنوات عديدة، لذلك نحن لسنا سعداء. لن يذرف رفاقي أية دمعة على هذا. وثالثاً، في الواقع أنا لن أفعل أيّ شيء - بل أنت ستفعل»، ويناولني الحقيبة ويُشير إلى الطائرة النفّاثة المفتوحة: «في الداخل وإلى اليسار سوف تجد حجرة صغيرة. حمداً لله لأنها لن تكون محمولة جوّاً، سوف نحضر عرضاً رائعاً».

يلوّح بيده للحارس، وأُدرك وأنا أعبر أرض المطار أنَّ هذا سوف يبدو أشبه بتفتيش أمني روتيني من قِبَل هيئة إدارة المطار. الآن بتُّ أفهم سبب انتقاء غوتفريد للزّيّ الرسمي، بينما الحارس يلوّح لي لكي أصعد إلى متن الطائرة.

عندما أخرج أرى غوتفريد يراقب عبر أرض المطار، يومئ برأسه لنفسه، واللعاب يلمع حول فمه. أهرع عائداً وأسمعه يُدمدم بصوت منخفض: «تذكار صغير من برلين. تذكار من كروتزبرغ العزيزة، وربما سيُضطرون هذه الليلة إلى ركوب القطار النفقي للذهاب إلى بيوتهم مع باقي البشر».

سوفليه بلح بحر فانشل الغربية
مع قرن وحيد القرن الأسود

المكونات

5 رؤوس ثوم، مفرومة ناعماً

6 أكواب من بوليني مونتراتشر

12 بصلة

حفنة من البقدونس المفروم

28 حبّة بلح بحر فانشل الغربية

50 ملليلتر من زيت الزيتون

350 ملليلتر من الكريما الكثيفة

50 غ من قرن وحيد القرن الأسود، مسحوق، مع بعض رقائق البطاطا

أساس السوفليه

محّ ست بيضات

بياض 10 بيضات

350 ملليلتر حليب

مقدار 8 ملاعق مائدة من الزبد غير المملّح

مقدار ضئيل من نشا الذرة

مقدار ضئيل من الملح

أضِف 8 بصلات، والثوم كلّه وكوبين من النبيذ إلى مقلاة السوتيه

حتى يجف السائل. ضع الناتج جانباً واقلِ قليلاً ما تبقّى من البصل مع بلح البحر وأربعة أكواب من النبيذ قبل تصفية السائلين ويوضع جانباً. استعد بلح البحر ونظّفه، ثم قطّعه ناعماً وضعه جانباً.

من أجل صنع مخيض السوفليه، اغلِ الحليب والزبد، وأضِف الطحين واطبخ المزيج حتى يجمد. أخفض الحرارة واستمر في الطبخ مدة 5 إلى 7 دقائق، إلى أن يُصبح الخليط لزجاً ولامعاً. امزج الخليط في آلة المزيج حتى يبرد، ثم اضرب صفار كلّ بيضة على حِدة بينما نقلّب البصل مع بلح البحر.

بالنسبة إلى الصلصة، نختزل سوائل بلح البحر حتى النصف، ثم أضف الكريما وقلّب حتى يُصبح مخيض سوفليه دافئاً. سخّنه داخل أكواب مدة 25 دقيقة. وقدّمه فور إخراجه من الفرن، مُضيفاً الصلصة ورش أعلى السوفليه بمسحوق قرن وحيد القرن.

يكفي 7 أشخاص. وصحة وعافية.

أحدّق من خلال الستارة فأرى خادمات يقفن صفّاً واحداً ويرتدين ملابس من طراز زمن ما بعد الحرب. فتيات ممتلئات الخدود، حيويات بفظاظة، ممتلئات، متململات بعصبية. وأفكر قليلاً فيما يجذب انتباه الشخص نحو مثل تلك الحيوية. أعتقد أنه كانت هناك طفلة تقحم إصبعها سرّاً من تحت غطاء السرير لتُخرِج شيئاً سرّيّاً مسروقاً؛ وأخريات يمددن أيديهن إلى ملابسهن الداخلية على طول أذرعهن ويُشِحن بوجوههن اشمئزازاً.

الآنفات الذكر يصطففن هنا، ثم خلف المائدة.

يظهر عازف الأرغن اليدوي مع قرد يرتدي زيّاً أزرق وذهبيّاً يقفز إلى المائدة ويخلع قبعته. فتخرج منه مغلفات صغيرة، وبعد إزالة طبق الحساء، يقفز القرد جيئة وذهاباً على المائدة بأصابعه الشبيهة بأصابع الحمام ويُسلِّم مغلّفاً لكلّ ضيف، متجهماً ومرتجفاً على طريقة القرود المخبولة، والمألوفة بصورة غريبة، والذين رغم كلّ شيء هم أقرباء لنا، كمرايا صغيرة ترسلها الطبيعة لتسخر منا. المغلفات تحتوي بطاقات طُبِعَ على كلّ منها نموذج يُشبه ثوب خادمة. ويفتش الضيوف، وهم يجرعون النبيذ، عن فتاتهم المُعيَّنة ويرفعون البطاقة لاستدعائها إليهم.

نقف أنا والمُحاسِب جانباً في أثناء خروج الأطباق - بعضها لم يكد يُلمَس، عليها صدور وأفخاذ - بينما النُّدُل يمرّون مع فرن على شكل ناقوس مملوء بأنواع السوفليه الممتازة. يُنادي ضيف بدين على أحد الفتية بدل الخادم، وبعد برهة يخلع فتى مبذله خلفنا ويمرّ من خلال الستارة، بياضه مُشرق كغصن من الفضة. عيناه شاحبتان ومتباعدتان، وأنفه صغير، وشفتاه طويلتان وممتلئتان على وجهٍ خالٍ من التعبير. يتَّسم بجمال سقيم، وفي مشيته أناقة متوازنة تُظهره كمخلوق حلَّقتْ فتوّته فوق قمة الجنوسة نحو شيء لا هو أنثى ولا هو ذكر. وفوق ذلك كلّه، يبدو،

من الطريقة التي يُحول بها تحديقه، ومن وهن ابتسامته النيِّق، أنه يُطور مذاقاً لنفسه، وهذا لا يفوت الضيف، فيُغمغم له بكلام نهم حال وصوله.

يتبع ذلك أقزام ضخام يحملون محفّة مُصغَّرة عليها هيكل بوذيّ داخله عصافير حيّة تتدلى أو تجثم حول الميازب. وعلى وسادة من المخمل تتمدد امرأة شرقية من أصغر، وأرقّ وأشدّ ما يمكن للعالم أنْ يشهد شفافية. إنها تستلقي على جنبها، عارية، إحدى ساقيها موضوعة بجوار الأخرى، ويُحيط بها من كلّ جانب أدوات المتعة من أفيون وسيجار من النوع الممتاز. تمتدّ الأصابع لتلمس بشرتها لدى مرورها، أو تنزلق بين شفتيها الحمراوين المثاليتين، فقط إلى عمق كافٍ لتدفأ وتترطّب. الآن خلفية القاعة مبهمة وسط الضباب، ولم تعد الأصابع المتحركة تُرى بتفاصيلها، على الرغم من أنني أرى بعض الصِّبية أو الصبايا يهبطون إلى مُضيفيهم مع الألسنة، بينما آخرون يقطرون العسل في الأفواه من أصابعهم، أو يُمررون الزنبق والياسمين من تحت الأنوف، أو يدعون الأصابع تغوص في أفواههم. يشكل الدخان سقفاً من السحاب، جاعلاً الفضاء أكثر سِحراً، ويُباعد أكثر بين الأقواس، ويُرقّق الضوء والظلّ، ويُخفّف اللون إلى أنْ يبدو المشهد ماجناً ينتمي إلى قرون مضت.

ألاحظ طبائع الرجال: بعد أنْ يُطعموا باليد بأساليب متنوعة، بعضهم يتلمّس الخدم، هامسين بعروضهم ليمتلكوهن، وآخرون يُطالبون بهنّ ببساطة وكأنهن عاهرات. الأكبر سنّاً بينهم يكتفي بالرعشة الجنسية عند المائدة ويسرعون في طلب الكوكايين. بعد طبق السوفليه، يدعمون أمزجتهم بالنبيذ، ويميل أحدهم على الآخر متحدين، يُقهقهون، يتبادلون الخادمات، وينغمسون حتماً في الفسق.

يصل الطبق التالي مع خدم أصغر سنّاً، وبشرة أكثر سُمرة، وصوانٍ عليها مشروبات نادرة في كؤوس. مع هذا يظهر الباسكيّ للمرة الأولى، متلفعاً بمعطف الفراك اللامع، واضعاً نصف قناع فقط. ضجَّ الهتاف في الجوّ وينحني انحناءً عميقاً.

بينما أنا منتبه هكذا من خلال الستارة، أرى رجلاً آخر يدخل بلا ضجيج. لا يرتدي ملابس منحطة بل مجرد بذلة سوداء بسيطة بياقة مفتوحة. ينتقل إلى النافورة، ويرفع كأساً، ويقشط النبيذ الممتلئ به. وبعد أنْ يتذوقه يرمي محتواه، ثم يُعيد ملأه من النافورة. شيء ما يُبقيه منفصلاً عن الضيوف، إنه ليس منهم – ومع ذلك يستمتع بما يجري في القاعة. أتفحّصه بحثاً عن جواب. شعره رمليّ، ذو لحية خفيفة، لعله في الستين؛ إنه رجل من النوعِ الذي يُراقب، ولاعب مُحايد هنا، لكنَّها حيادية تحمي شيئاً، تحديقه يتحدَّى للحصول على أوراق الاعتماد.

أُذهل وأنا عند الستارة.

ها هي – القِوى الغامضة.

القِوى الغامضة، شخص غريب يقفُ بجوار نافورة نبيذ ماريوس.

وحيوان خرافيّ يكمن منتظراً.

أعناق سلاحف ريدلي الزيتونيّة
في جبن البرميزان وفُتات خبز البريوش
مع كرفس وصلصة الريمولاد

مكونات أعناق السلاحف

7 من أعناق سلاحف ريدلي الزيتونية

نصف رغيف من خبز البريوش (عمره يوم، منزوع القشرة، على شكل شرائح يابسة)

160 غ من جبن البرميزان المبشور

مكونات صلصة الريمولاد

بيضتان كاملتان

مقدار نصف ملعقة شاي ملح

مقدار ربع ملعقة شاي فلفل

50 ملليليتر من الخل

ثلاثة أرباع ملعقة شاي من مستردة ديجون

340 ملليلتر زيت نباتي

مكونات التتبيل والزينة

مقدار ملعقة ونصف شاي من البصل المفروم

15 غ من خيار غركين[117] المفروم

5 غ من سمك الأنشوفة المقطّع

117 - خيار صغير الحجم، يُستخدم عادة للتخليل.

بيضة مسلوقة جيداً ومفرومة ناعماً

ربع رأس كرفس على شكل شرائح

10غ بقدونس

ملح وفلفل

يوضع البريوش وجبن البرميزان حتى يُصبح المزيج رقيقاً، يتمّ تذوق البرميزان قبل وضعه جانباً. في خلاط روبوت كوب، امزج البيضة مع الخل، والملح، والفلفل، والمستردة. أضف الزيت بمقادير قليلة تدريجية حتى تمتزج بشكل كامل ويُصبح المزيج كثيف القوام ككريما كثيفة. أضف سمك الأنشوفة، وخيار غركين، والبصل المفروم، والبيضة المسلوقة جيداً ومفرومة، والكرفس والبقدونس المفروم. يجب أنْ يكون التماسُك كثيفاً جدّاً، والنكهة غنية وقوية. أضف البهار مع الملح والفلفل.

في الختام، تُفتت أعناق سلاحف ريدلي في خبز البريوش ومزيج جبن البرميزان ويُقلى في زيت حارّ إلى أنْ يُصبح بنيّ اللون ذهبيّاً، يُقدَّم مع الصلصة ويُزيَّن بالبقدونس الإيطالي المقلي.

يكفي سبعة أشخاص. وبالصحة والعافية!

جوّ التسلية الخارق يجعل الصمت يرين على القاعة قبل وصول الصنف التالي. أرى من خلال الستارة ذيل أفعى ضخمة يظهر، يحمله أحد العاملين في المطبخ. يتسلل المزيد من الأفاعي مع اثنين من الحاملين، ثم اثنتان أخريان، ثم اثنتان أخريان، إلى أنْ يظهر أخيراً طبّاخ مع رأس أفعى أناكوندا. يتقدّم الحاملون تحت الأقواس كحاملي طيلسان البابا، ويمدّونها على المائدة إلى أنْ تحتل مساحتها كلّها وتتدلى حتى الأرض من كلّ طرف. كتلة ضخمة في الوسط، تفوق حجم الرأس مرات عدة، توحي بأنَّ ثمة مخلوقاً آخر يكمن داخلها. إنَّ الطبيعة تتباهى بعرض عمل فنيّ على الجلد، أضلاع باللونين الذهبي والشوكولاه، مزخرفة بأسلوب الديكو مع دوائر كأنها تحدق منها. تخيَّل - بعد كلّ هذا العرض، الذي لا بُدَّ أنه استغرق وقتاً طويلاً - أنَّ الطبيعة نسيتْ أنْ تمنح المخلوق التعاطف، أو حتى سيقاناً.

لقد جعلت منه بساطاً يقتل بالخنق.

يقفُ أحد الحاملين عند الرأس ويُعلن: «مادة التسلية الأولى هذه الليلة، مغامرة خاصة: إنها هذه، أكبر الأفاعي قاطبة، نُقِلَتْ جوّاً هذا اليوم من جحرها في الغابة. لكننا لن نأكلها. ولكن، ما يوجد أمامنا هو أشد ما عرف العالم من أنواع اللحوم طراوة. سؤالنا الوحيد هو: ماذا كانت وجبتها الأخيرة؟ إنها مغامرة، ونأمل في أنْ تتعهدوا بتذوُّق كلّ ما يُقدّمه الاختصاصيون، دون أنْ تروه». ويرفع ذراعه معلناً: «*مسيو لو شيف!*».

يتناول الطبّاخ رأس الأفعى، وبعد أنْ يعدَّ حتى ثلاثة، يقلب الحاملون الحيوان على ظهره، كاشفين عن تفاصيل بلون العاج تلمع تحت الأضواء. وبحركة منشار سريعة يشقّ الطبّاخ لحمها بطعنة واحدة.

يقول: «أه، لدينا شيء هنا».

يُشمِّر عن ساعديه ويُقحِمُ ذراعيه داخلها حتى المِرفقين، مُنقّباً وعابساً على أحد الجانبين. وأخيراً ينحني، ويغرف عميقاً بيديه.

ويُخرِج طفلاً وليداً إنسانيّاً كاملاً.

أَجْفُلُ، شاعراً بأنَّ القاعة تنكمش ككيان واحد. ولكن بعد برهة تصِلُ أنفاسٌ حارةٌ إلى أُذني من الأسفل: يهمس المُحاسب: «إنه مجرد لحم خنزير ولحم عجل، مع عينَي كركند - إننا نقدمه دائماً، وأصحاب البنوك يحبّونه». بعد هذا يمسكني بكتفي ويُشير لي نحو الباب، حيث يبدو أنَّ ثمة مَنْ يُناديني.

إنه توماس. «إنني قلق قليلاً. هنا توجد فتاة، لا صلة لها بالحفل - ضئيلة، شَعرها أسود. وهذا غريب لأنَّ وقت الدوام انتهى. فهل في حوزتها مفتاح خاص؟».

«إنها من هيئة العاملين في آخر الخطّ، ولديهم مخزن مؤقت بجوار الدَّرَج».

يُشير لي إلى آخر النفق لكي أعثر عليها وأنطلق، ورداء كتفيَّ يتطاير منتفخاً. لا أثر لآنّا حول مطلع الدَّرَج، ولا في المخزن. وأقوم بالبحث أكثر، وأخيراً أرى ضوءاً يتوهج واهناً من فجوة في جدار النفق على مسافة أمامي. ولدى اقترابي أرى أنها تُستخدَم كمنطقة مستودع مؤقت، مُكدَّسة بالأقفاص والصناديق؛ يتحرك شيء لدى سماع وقع خطواتي.

تهمس آنّا: «أوفف - لقد أخفتني».

أقول: «ماذا تفعلين؟ انتبهي».

«يا إلهي، تشبه دراكولا. انظر إلى هنا، ما أقسى هذا»، وتجثم أمام صندوق من الشاي تخترقه ثقوب. في داخله يقفُ مخلوق جميل جدّاً، لعله أيل سافانا نادر أو نسخة مُصغّرة من غزال، يخرمش حوله.

تشدّ على رسغي. «ما هذا كلّه؟ إنه شيء رهيب، وانظر هناك - ثمة شيء في هذا، يمكن سماعه يتحرك. مَنْ هؤلاء الناس، ما الذي يجري، وكأننا هنا في حديقة حيوان - أيُعقل أنهم يُصورون فيلماً سينمائيّاً ليلاً؟».

«أنا واثق بأنَّ كلّ شيء على ما يُرام، لن يطول مكوثهم هنا - يُستحسن أنْ أصطحبك إلى الأعلى، لتستنشقي بعض الهواء النقي. أما زالت العربة تفتح أبوابها؟ يمكننا أنْ نشرب القهوة».

«قهوة؟ ونتركُ هذه المخلوقات المسكينة هنا هكذا؟ انظر، ليس لديها حتى ماء، شيء لا يُصدَّق. سوف أصعد إلى فوق لأحضر بعض الماء، وربما يُعطونني بعض الفاكهة والخبز. يا لصغاري المساكين - راقبهم ريثما أعود».

ما إنْ غادرتْ آنّا حتى اقتربت على طول النفق يصحبها صرير دواليب حافلة تسير بمشقّة وأصوات رنين، وقرع وقعقعة متنوعة.

ينخر رجل: «ماذا يأكلون حتى يُصبحون بهذه الضخامة؟».

يقول صوت توماس: «فقط أعشاب كما أعتقد، أو مَنْ يدري. ومع ذلك، استدعِ بعض المساعدة، لقد تأخرنا - يجب أنْ يتمكن من الوقوف على قدميه بحلول الساعة الحادية عشرة إلّا ربع، وأنْ يمشي حتى شاحنة اللحام بحلول الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، إنه طبقنا الـ*piece de resistance* (الطبق الرئيس) - ولا يمكننا أنْ نفوته».

«طبق فخم من أجل شيء عاش حتى الآن مئة عام».

أهرع مسرعاً على طول النفق لأقابل توماس، ويُسرع وجيب قلبي عندما أرى الصندوق الضخم، وأتألّم من فكرة ما تحتوي. ويبدأ بطني يجيش.

يُشرق توماس قائلاً: «انظر، أراهن على أنكَ لم تتوقع مثل هذا - لقد كانت فكرة عظيمة، لم نُصدقها. ولسنا متأكدين تماماً من أنه الشهير، فكلها متشابهة - ولكن ما دام الأمر يتعلق بالضيوف فسوف يكون كذلك. إنه المخلوق الوحيد الأشدّ نُدرة على الأرض، والأخير من نوعه. ضربة موفقة حقيقية».

أقفُ وأهزّ رأسي. بين الضربات العنيفة التي تحدث داخل الصندوق تنظر عين عجوز حكيمة ولكن خائفة، يلفتُ الضوءُ انتباهها.

عين سلحفاة عملاقة.

«شيء لا يُصدّق - هه؟ وأسهل مما كان مُتوقَّعاً - لقد قضى المدافعون عن البيئة على صناعة صيد الأسماك المحلّية بإعلانهم أنّ كلّ شيء قد تجاوز الحدود، وأصبح من المستحيل قتل ذبابة في جزر الغلاباغوس. وهذا يعني توفر الكثير من الأيدي العاملة بين الصيادين. ظاهريّاً هذه قابلة للأكل تماماً، ويمكن استغلال كلّ جزء منها. إننا نقدم المخ المقلي بالتمبورا[118] مع سلطة قنفذ البحر كطبق المفاجأة. لكنني أراهن على أنَّ في استطاعتنا أنْ نجعلها تمشي إلى القاعة أولاً، يجب أنْ يراها الضيوف حيّة».

كشفتِ الملحمة عن قمع جديد، عن طرف مُدبب جديد، عن نهاية جديدة للعبة يجب التعامُل معها. إنَّ عقلي ينطلق مسرعاً، مُصغياً في انتظار عودة سماع وقع خُطوات آنّا. «هل ستُحضره مع الحيوانات الأخرى؟ لأنَّ الفتاة ستعود حالاً».

«هه؟ أبعدها - استدعِ الأمن إذا اقتضى الأمر».

118- التمبورا: طبق ياباني من ثمار البحر أو الخضار المُغمّسة بمخيض اللبن والبيض المقلي.

مخّ قرد الطمارين ماركة الأسد الذهبي
ورافيولي الجبن الأزرق
مع شمبانيا ومشروب زاباغليوني
وكمأة ألبا البيضاء

مكونات الرافيولي
مخّ قرد طمارين ماركة الأسد الذهبي
500 غ من معجنات الرافيولي
100 غ جبنة روكفور سوسييته المُعتّق في الكهوف، باردة
بياض بيضتين

مكونات مشروب زباغليوني
ملء ملعقة شاي من الصلصة الهولندية
ملء ملعقتَي شاي من حساء السمك الخفيف
ملء ملعقة شاي من كريما مخفوقة
كمأة ألبا البيضاء مُقشّرة

استخرجْ مُخّ القرد طازجاً وقطّعه إلى سبعة أجزاء مستديرة ومتساوية. تخلّص من الجثة. قطِّع الجبن إلى شرائح صغيرة بحيث تغطي نصف قطعة المخّ، ثم قطِّع المعجّنات إلى قطع مستديرة بحجم الكأس، وادهن الحوافَّ ببياض البيض. ضع قطعة المخّ مع الجبن الأزرق في وسط كلّ قطعة باستا مستديرة وأقفل أعلاها، واضغط جيداً باتجاه الحافة. اغلِ قطع الرافيولي كلّاً على حِدة (بسرعة) في ماء يغلي سريعاً، ثم ضعها في ماء مُثلَّج مع بضع قطرات من زيت الزيتون.

من أجل صنع الصلصة، أضِف الشمبانيا إلى قدرٍ واتركه حتى يُختزَل إلى النصف. أضِف حساء السمك واغله ثم ارفعه عن النار، وأضِف الكريما بسرعة وبعدها الصلصة الهولندية. اخلط المزيج بالخلاط حتى يُصبح خفيفاً، ويتشكّل مشروب الزباغليوني الخفيف.

زخرف الرافيولي بالصلصة وأخيراً بشرائح الكمأة.

يكفي سبعة أشخاص. وبالهنا والشفا

تلوح كتل متشابكة على عدد من الجبهات. الضيوف خنازير، والآن توماس وديديه يتميَّزان عني بلائحة طعامهما: يتميزان كما يتميز كلب مُفضّل بأكل برازه.

إنَّ الوضع متفجِّر. أركض على طول نفق أرض المطار لأرى إنْ كان غوتفريد موجوداً هناك، لعل في استطاعته أنْ يخدع آنّا في الوقت الحاضر. ولكن لا أرى أثراً له حول ساحة المطار؛ وعندما أرى الطائرة النفّاثة أجد أنَّ فيها ربّانين بزيّهما الرسمي، أحدهما مرئيّاً من خلال نافذة حجرة القيادة. أعود راكضاً إلى النفق وأُركّز انتباهي على السلحفاة، التي لم يكد يتبقّى لها من الحياة أكثر من ساعة. ولكن ليس في إمكاني فعل أيّ شيء، إنَّ آليّة الأمسية متورطة في الأمر بصورة لا تعرف الرحمة.

أصل باندفاع إلى منعطف الطريق العامة وأنطلق مارّاً من أمام باب القاعة نحو مطلع الدرج. لقد فات الأوان. إنَّ آنّا تهبط الدرج حاملة كيساً من الورق وطاسين، مع وجبة متضاربة نحو العجوز جورج. أراقب شبحها ينزلقُ مقترباً من الحافلة ثم يتجمّد، متوقفاً عند الجدار كلطخة.

بعد لحظات، يُسمَع بكاء مخنوق.

مخلب حيوان باندا عملاق
مع فاصوليا بورلوتي
وخضروات جذريّة غضّة
على سكورداليا البطاطا

مكونات الباندا

250 إلى 300غ من رسغ الباندا، مُشذّب ومُقلَّم
مع إزالة مفصل الذراع والمخلب
50غ ميريبوا (بصل وكرفس وجزر)
باقة من الأعشاب
420غ فاصوليا بورلوتي، مغلية ومقشّرة
جزر غضّ، ولفت وجزر أبيض
بقدونس إيطالي مفروم

مكونات سكورداليا

كيلو غرام من بطاطا البحر الأسود
7 رؤوس من الثوم المقشّر
ملح بحري
125مللیلتر كريما
25غ زبد
25 مللیلتر زيت زيتون

اغلِ مكونات السكورداليا حتى تُصبح طرية، ثم صَفّها وأضِف الكريما الساخنة، والزبد وزيت الزيتون، وتبّلها بالملح من أجل الطعم.

تبِّل وادْعَك رسغ الباندا بالزيت، ثم اقله قليلاً حتى يتلوّن واتركه ليرتاح. أضف الميريبوا إلى مقلاة ذات غطاء وحمّره قليلاً، وضَع الرسغ في الأعلى. أضِف باقة الأعشاب واغمرها بالماء البارد، غطّ المقلاة حتى تغلي. أدخل المقلاة الفرن مدة 40 دقيقة على درجة 180، وتفقّد العملية، قلّب المواد بين حين وآخر واتركه حتى يُصبح طريّاً. برّده وانزع اللحم، وصفّ السائل بمصفاة دقيقة الثقوب واحفظه.

للتقديم، انقع فاصوليا برولوتي والخضار النضرة في سائل حافظ، أعِد تسخين لحم الرسغ وضعه مع الفاصواليا والخضروات في السكورداليا. اختم بمعالجة المرق المتبقّي بزيت الزيتون والبقدونس، وصبّه بالملعقة فوق اللحم.

يكفي 7 أشخاص. وبالهنا والشفا

أصبح الهواء في الخارج منعشاً وبارداً، وكَشَفَتْ أضواء الشارع ما يحمله من ذرات الضباب. كان الضجيج قد هدأ حول المبنى، حتى عربة المقهى أصبح إيقاعُ نشاطها أخفّ، بينما بدا المُحتجون، الذين ما زالوا يحومون حول المدخل، يفكّرون في المنزل. لدى اجتيازي المقطورات أرى أخيراً شكل غوتفريد بالقرب من آخر الخطّ.

يقول: «لدينا مشكلة صغيرة. هل هناك سلحفاة في الداخل؟ لأنَّ آنّا أبلغت أحد رجال الشرطة توّاً. إنها هناك، بعد سيارات النقل، تبكي».

«همم – لقد شهدتُ وصولها. هل الشرطي يُجيب؟».

«لا يُجيب، إنَّ رجالك محظوظون، لأنَّ هناك مُحتجين وقضايا أخرى يجب معالجتها. والوحشية الحيوانية هي آخر الشكاوى غير المتوقَّعة اليوم، لعله يعتقد أنها مجنونة». يتنفّس غوتفريد مع أزيز برهة بعد مسيره، وهو يتلفّت حوله. عندما يُواجهني من جديد يكون تحديقه ثقيلاً. «يجب أنْ أقول – إنَّ الذين أطلقتهم في مكاننا هم خنازير. إنه مشهد كابوسيّ، والحيوانات التي على أطباق الطعام ليست إلّا رموزاً، في الحياة الواقعية هؤلاء الناس يلتهمون كلّ شيء. يلتهمونني، ويلتهمون آنّا، وأنت، وأصدقاءك والعالم المحيط بك كلّه. إننا على تلك المائدة نؤكل هذه الليلة، وهم حتى لا يمضغون بل يبتلعون. الشكر لله لأنني نقلتُ غيرد إلى بيراتنبرغ».

شتَّتت انتباهي فرقعةُ وانفجار شمعة رومانيّة في الحديقة التذكارية، تبعه وقع أقدام جنود مشاة الباسكيّ يزدحمون بين الأشجار لردع المتهمين. وأجدني أتساءل لماذا يريدون إيقاف أولئك القاصفين الأبرياء، وهذا سيوفر لهم أيضاً غطاءً – وبعد استعراض بضعة خيارات في ذهني يبدأ يتكون لديَّ جواب يجعلني استشعر وخزاً، ثم قشعريرة.

أطلبُ من غوتفريد أنْ يُقابلني عند بداية مطلع الدرج عند الحادية عشرة، قبيل جلب السلحفاة إلى المطابخ.

بهذا، أفتش، وأنا أتحرك على طول جانب المبنى، مناطق المداخل عن بوادر حياة - وأرى في إحداها أخيراً شكلاً أشد قتامة. شخصاً محدودباً حتى الانطواء عند المبنى، على بُعد عشرين متراً.

أتقدّم خطوة. يعتدل الشكل ببطء في وِقفته.

إنه شكل مُحكَم، الذراعان متدليتان: إنه لآنّا.

فجأة أعي أنَّ سترة الكتفين ترفرفُ حولي، فأخطو تحت المصباح لأكشف عن نفسي. تبقى منتظرة مكانها، تبادلني التحديق.

وبعد برهة - تستدير وتمشي مبتعدة.

مربى قائمة الكوالا
مع صلصة الزعفران والليمون
يتبعها إكسير مُهضِّم من دموع طفل

مكونات صنع الكوالا

7 من قوائم الكوالا 70 ملليلتر من الخل البلسمي

للصقل: بعض قشور البرتقال

رأسان من اليانسون النجمي كبش قرنفل

مقدار إنشين من الزنجبيل *للكساء الخارجي*:

عود من القرفة 100 غ ملح

70 ملليتر من سكر الملت 100 غ من فلفل شركوان

مكونات صلصة الزعفران والليمون

3 ثمار من ليمون ماير ذرة من خيوط الزعفران

50 ملليلتر من خل النبيذ الأبيض مقدار ملعقة شاي من الفجل الحارّ

نصف تفاحة مُقشّرة ومطبوخة ملعقة شاي من الزنجبيل الطازج المُقضّب

رأس من الثوم المسحوق مقدار ملعقة شاي ملح

بصلة واحدة، مُقشّرة ومفرومة 50 ملليلتر سكر

اغلِ مكونات الصقل كلّها حتى تُختزَل إلى مادة لزجة. وبالنسبة إلى الكساء الخارجي، سخّن المقلاة وحمِّص الفلفل إلى أنْ تنبعث رائحته؛ ثم أضف الملح، وسخّنه مدة أطول، ثم برّده. اغسل الكوالا وجفّفه، وهو

مربوط القوائم للسماح للهواء بالولوج بينها. حالما يجفّ، رشَّ الملح بغزارة على القوائم واترك الحيوان الجرابي مدة أدناها ساعة وأقصاها أربع ساعات. اشطف الملح عنه تحت ماء الحنفية، وأحضر قدراً كبيراً من أجل غلي الماء مع قليل من الزنجبيل وبصل الربيع. اغل الكوالا مدة 30 ثانية لتبييضه ثم ارفعه عن النار. عندما يجفّ، ادعكه بالمادة اللزجة وانشره في منطقة باردة على مدى على الأقلّ يومين، مُكرراً العملية مرتين أو ثلاث مرات. وأخيراً، ضع القوائم في مقلاة لطهيها ببطء مع بعض الخضار. اطبخها مدة ساعتين، مع وضع الغطاء، على 150 إلى 160 درجة مئوية، ثم ارفع الغطاء واطبخها مدة ساعة.

من أجل إعداد الصلصة، قشِّر الليمون واحتفظ بالقشر قبل عصره. ضع القشر والعصير في طاس غير معدني مع إضافة الخل و 25 ملليلتر ماء. غطّه واتركه سحابة الليل قبل أنْ تُفرغ المحتوى في مقلاة من الستانلس ستيل. أضف المكونات المتبقية كلّها ما عدا السكر. اغْلها ثم اتركها هلى نار خفيفة مدة 20 إلى ثلاثين دقيقة إلى أنْ تصبح الفاكهة طريّة، ثم أضف السكّر وحركه فوق النار إلى أنْ يذوب كلّياً.

من أجل التقديم ضع قائمة كوالا واحدة في منتصف الطبق وأضف نقاطاً من الصلصة. بعد ذلك ضع 7 ملليلتر من دموع طفل صحيح الجسم و16 ملليلتر من مشروب راتزبرتز.

يكفي سبعة أشخاص. وبالصحة والعافية

ينضم إليّ توماس عند الستارة. نعبِّر عن اعتقادنا بأنَّ أذناب فرس البحر والمحار تُعتبَر وجبة خفيفة جدّاً بالنسبة إلى المزاج السائد في القاعة. لدى مراقبتنا لذيل فرس البحر يختفي داخل ثقب شرج الفتى الطويل، يُعلّق توماس لكي يوجز لديدييه الأحداث المستقبلية.

كان ديدييه قد غادر، وكذلك الرجل الآخر. وحدها القِوى الغامضة تبقى. أسأل «مَن الرجل الذي أتى بعد الباسكيّ؟».

يقول: «بايك. كان يجب أنْ تطلب منه سرد نهاية قصته».

«مذهل. لا أعتقد أنهما سيعودان؟».

«كلّا. الباسكيّ دائماً يهرب في نهاية الأمر. والجوّ العام لا يتماشى مع ذوقهما. لقد مرّت سنون كثيرة منذ أنْ كان بايك في أوروبا. أراهن على أنهما تغيّرا وذهبا إلى كري رقم 36 في مهرينغدام. سيكونون في الشارع مع البطاطا والسجق. إنَّ ديدييه يحبّ أنْ يقوم بدور البروسي الضخم في الشارع».

«أكره أنْ أسأل إنْ كانت هذه مُفارقة، في الوقت الذي تُقدَّم فيه أذيال فرس البحر والنمر على مائدة الطعام هنا».

«لا مفارقة. بل تُسمى رُقيّاً». يبتعد توماس عن الستارة بينما كتلة من البراز تمرّ بسرعة أمامنا. «هؤلاء الملاعين لا يعرفون هذا».

كانت الوليمة قد انهارت إلى الحضيض. وأضحَتْ أرض العجائب ركاماً يتلوى من الملابس واللحم. وجُمِعت وسائد المكان وسجاده، وأخذ الضيوف يتلوون كاليرقات، ينخرون ويزمجرون، وجلودهم تتلألأ فوق تصاميم فارسية، والأعضاء الجنسية أشبه بوجوه تبكي وديدات العروق تشكّل أعمالاً فنية نادرة على طراز سلحفاة ديزيسانت المرصّعة بالأحجار الكريمة.

ثمة جثة غزال مستلقية على جنبها في النافورة. الأقرب من قرنيها الطويلين والمقوَّسين يكسر تدفق المياه وتظهر أشياء متنوعة تقفز

وتدوِّم. وقبل أنْ أتمكن من إحصاء الأشياء المختلفة التي تطفو هناك، نهض أحد الضيوف مترنحاً وأخذ يتبول طويلاً وبغزارة في النبيذ. وتدفُّقه المُزبد يُرسلُ الأشياء الصغيرة لتطفو فوق القرن.

يزحفُ آخر من القوى الغامضة واقفاً ويُعيد ملء كأسه.

هناك رجلٌ بدين يتكئ إلى قوس على كومة من الوسائد. الفتى الطويل والنحيل عارٍ يركع على أربع منكبّاً على وجهه. يتلمّظ الرجل بفمه بضجيج مسموع وهو ينظر إليه، وفمه بلون أحمر فاقع، ولسانه يتحرك بسرعة ويتلاطم. وخادم تجلس عليه منفرجة الساقين، مُخوزقة وتهتز، أحياناً تمدّ يدها إلى الأسفل لتعصر عضوه شبه المرتخي. ثم يلفت عويل انتباهي وأرى فتى آخر ينحني فوق المائدة، ورأسه يرتاح على جنبه، وكفلاه منفرجين ومتباعدين، وذراع كثيفة الشَّعر لأحد الضيوف تقوم بحركات اختراق له على دفعات.

لقد انحدر مكاننا الأنيق إلى مستوى الجحيم.

تمرّ فتاة جديدة إلى القاعة قبل أنْ أتمكن من استيقافها. أشعر بالأسف. إنها تتوهج بالبهجة وعندما تبتسم تسري فيَّ رعشة خفيفة، في غياب كلّ الأشياء التي يمكن للحياة أنْ تجلب، وأيضاً لأنها تجلبها كلّها إلى هنا. بُنيتها تجعلها أشبه بفتى، ليست ممتلئة بالضبط، وذات عنق وظهر شامخين، وعينين بُنيتين صريحتين. وبينما تتنقّل في المكان أرى ذراعاً تظهر ببطء من تحت المائدة.

تختفي الفتاة مع صوت مكتوم.

وينمو الشوق داخلي.

إلى الرحيل.

أوشك أنْ أستدير عندما يقبض توماس على ذراعي:

يهمس: «حتى الباسكيّ لم يشهد مثيلاً لهذا. إنهم مجرد سلالة من الحيوانات. سوف أخرج من هنا مع إحدى العربات، أما هؤلاء الفتية فليذهبوا إلى الجحيم. ولكن قبل أنْ أنسى، قال الباسكيّ على سبيل

الشُّكر إنَّ عليك أنْ تختار شيئاً من المطبخ قبل أنْ ترحل. تفحص الأرفف، المنتجات ممتازة: كمأة، شوكولاته، سمك مُدخّن - أشياء كثيرة لذيذة. وأيضاً هناك صندوق قد تتعرَّف عليه من أحد مطاعم طوكيو - ما زال مختوماً، في حالة حجر صحيّ من الناحية التقنية، يحتوي عيّنات ذات طبيعة بيولوجيّة، مع أوراق موقّعة من المطعم، طبعاً، تضمن الأصالة. وفي الحقيقة لديَّ صديق يُهرّب عيّنات - بل أعتقد أنك قابلته. فاختر لنفسك شيئاً آخر من الرف، ودعه يُعيد ذلك الشيء إلى اليابان».

أشعر بعرق الارتياح، وترتخي عِظامي داخلي.

«سوف تتوفّر غداً ليلاً. المناظرات القضائيّة تتوقّعها».

«وهذا كلّه كان مُخطّطاً له؟».

«يا صديقي، يا صديقي»، ويُعانقني توماس من كتفي. «أولاً كنا نأمل في أنْ تدرك أننا في حاجة إلى ذريعة لضمان عيّنة، بحيث لا يبدو أنَّ الباسكيّ كان يجمع دليلاً من أجل القضية. والوليمة سوف تكون معروفة في أوساط معيَّنة وكانت الفرصة الشرعية الأولى لتقديم سمكة. كيف كان لنا أنْ نعرف أنها مسروقة من المقطورة؟ أما بالنسبة إلى سؤالك، كلّا هذا لم يكن مُخطّطاً له - في الحقيقة هو لم يحدث أبداً. أتذكر؟».

تبادلنا التحديق، مستعرضين مغامراتنا في عقولنا. وأنا أعلم دون أنْ أتساءل أنَّ هذه ستكون المرة الأخيرة التي أرى فيها الحيويّ توماس جورج فيليب فريدريك فلوريان فون براندنبرغ شتندال ساكس ويعلم الله ماذا أيضاً، الذي يحتاج إلى بطاقة عمل بطول متر.

عندما انفصل خطّ تحديقنا - تحديقي مكفهر ومرتبك، وإنْ كان ربما مع لمعة جديدة، وتحديقه أشبه بضربة قوية بطقم شاي صيني - نتفكَّر قليلاً في ضياعنا بعد أنْ تلامسنا بتلك الطريقة.

لأنّهما تلامسا حقّاً، هذه المرة الوحيدة.

ثم يبتعد، ويقرقع بكعبيه، وينحني لي.

ويرحل.

جرو نمر أبيض مُكرمل تغذّى على الحليب

التوفو حريري ومُبخَّر مع الباذنجان

مع فطر، وثوم مشوي، وزنجبيل،

وبصل شالوت في مرق الصويا

خلال أسنان النمر منحوت بإزميل

المكونات

بطن جرو نمر أبيض مُغذّى على الحليب - بصلتا شالوت مُقطعتان

من الجزء الأبيض شرائح

حبّة باذنجان متوسطة الحجم - قطعة زنجبيل بحجم 3 سم

مقطعة شرائح

500 غ من زيت بذر العنب - ملعقتا شاي من زيت الفول

السوداني

ستة رؤوس من الثوم - 7 فطر المحار

500 غ من التوفو الحريري - 7 من فطر شيتاك

3 ملاعق شاي صويا الفطر - بصل شالوت مقلي وعيدان

ملعقتا شاي من نبيذ شوا هسنغ كزبرة للزينة

احتفظ بجلد النمر ومخالبه وذَنَبه من أجل تزيين المائدة. انقع بطن النمر بالملح والخل 24 ساعة مع إضافة بذور الكزبرة وشرائح الزنجبيل، وبعض سكر النخيل والفلفل الأبيض المطحون. احرص على ألّا تُكثِر

من السكّر. ضع بطن النمر على نار هادئة، مع إضافة بعض الزيت، لمدة 6 – 8 ساعات. وكلما كانت النار هادئة والعملية بطيئة كانت النتيجة أفضل. حالما ينتهي الطبخ يجب وزنه من أجل ضغط البطن وجعلها مُسطّحة. قطِّع البطن المسطحة إلى مربعات يتراوح وزنها بين 180 و 220 غ. احرص على إعادة تسخين البطن من الأسفل قبل تقديمها للسماح لها بأنْ تكون مقرمشة.

بالنسبة إلى تحضير صلصة التوفو الحريرية والباذنجان، قطّع ثمرة الباذنجان إلى قطع كبيرة وملّحها مدة 20 دقيقة قبل شطفها وتجفيفها.

حمِّ الزيت في قدر معدني مقعّر وأضف الثوم، واقله حتى يصبح ذهبيّ اللون. ارفع الثوم عن النار وجفّفه، ثم اقلِ الباذنجان حتى اللون الذهبي، أيضاً جفّفه بمنشفة. قطِّع التوفو بحجم قطَع الباذنجان، مع الحرص على عدم كسر القطع. ضع الباذنجان والتوفو في وعاء مُضاد للحرارة ورشَّه بالصويا وبنبيذ شاو هسينغ. بخّره مدة 8 دقائق حتى يُصبح التوفو طريّاً. اطبخ الفطر وحده وأضفه إلى الطبق في النهاية.

للتقديم، ضع التوفو الحريري والباذنجان في وسط كلّ طبق وضع مربعات بطن النمر في الأعلى. وفوقه الفطر، وزيّنه بالخضروات المقطعة شرائح طولية. وفي الختام، رشَّ مزيج الصويا وفوقه البصل المقلي.

يكفي 7 أشخاص. وبالهنا والشفا.

تراجعت السلحفاة إلى داخل صدفتها، ولم تترك إلّا وجهها الشبيه بوجه رجل عجوز يطل مع تعبير الحزن المرتسم عليه، والعينان تتجعدان هذه الناحية وتلك. وقد تطلَّبَ نقلها إلى شاحنة البضائع أربعة رجال، وقام اثنان بدفعها إلى القاعة.

يقول أحدهم: «لقد تأخّرنا. امنحهم فقط خمس دقائق معها».

عندما أشقّ طريقي مرتقياً الدرج أمرّ بفتاتين جميلتين شعثتين بجوار الشاحنات، ورأساهما يستندان إلى الجدار، تدخنان. ويتلكّأ *المُعلن* في الأسفل، يهتزّ راقصاً وحده، يُدقق النظر في الأرض. ألجُ مخزن عربة بيع الأطعمة، وأستعيد إحدى ألعاب غيرد النارية وأرتقي الدَّرَج لأجد أنَّ غوتفريد في الخارج.

يقول: «لقد رأيتُ الفتاة. وأخشى أنها تعلم أنكَ مسؤول هذه الليلة بصورة ما. لقد فهمت الأمر وحدها، ولم تُخطئ إلّا في نقطة واحدة - إنها لا تعتقد أنه وضعٌ خارجٌ عن سيطرتك؛ تعتقد أنك تركت الأمر يحدث. ربما عليك أنْ تجدها وتشرح لها».

أقول: «أو ربما علينا أنْ نوقف خروج الأمر عن السيطرة».

يتبعني غوتفريد تحت الأرض إلى باب مطلع الدرج، حيث أشير إلى الفرنسي المنتظر مع مسدسه.

«هل تستطيع أنْ تسيطر عليه؟ أنْ تُبقيه هادئاً؟».

استفهمَ غوتفريد مني بحاجبيه، ففتحت يدي جواباً على ذلك لكي أكشف عن طرف الإشعال من المفرقعة. نتبادل النظرات على مدى بضع لحظات، وفمه مفتوح قليلاً، أراه يفكر في الحركة حتى نهايتها.

يهمس: «إنها حركة كبيرة، نهاية اللعبة».

السلحفاة تنتظر في سيارة الشحن في بقعةٍ أشدّ ظلمة من النفق على مسافة بسيطة من باب القاعة، بينما يُسمح للحمّالين بالدخول

من الخارج. الباب يُغلَق خلفهم. وبعد فترة صمت في أثناء استكشاف المكان، يضغط غوتفريد بسرعة على ذراعي ويسير متمهلاً نحو المُعلِن. أراقب إلى أنْ يقترب، ثم أهرع إلى باب القاعة، هامساً باعتذار في أثناء مروري للسلحفاة. عندما ألاحظ أنَّ غوتفريد وصل إلى الفرنسي أجثم عند باب القاعة وأُشعِل المفرقعة.

يهزّ الجوّ انفجار هائل. وبعد برهة ينفجر إطار الباب ويتطاير الحمّالون، والخادمات والفتية في أرجاء النفق. وألتصق بالجدار، وأسمع وطء خطى القوات في أرجاء أرض العجائب.

أصرخ: «اتركوا المكان، فقط اركضوا! اخرجوا!».

يمرّ بي المُحاسب مندفعاً، يُحاول أنْ يجمع صينيته وميزانه، إلى أنْ يطير ضيف بدين مرتطماً به عند الباب، عارياً ما عدا من إحدى ساقَي البنطلون، ويُرسِل الصينية بكلّ ما عليها من أحجار كريمة إلى الأرض. القزم يتجمّد في مكانه، وينظر خلفه - ولكن عندما يرى أنَّ الضيوف كلّهم غادروا، وصدى وقع الخُطى يتلاشى، يُسرع بإطلاق ساقيه للريح.

لم يُعلَن عن أيّ إنذار كاذب. ولدى إنعامي النظر على طول النفق أرى غوتفريد يمشي متمهلاً نحو إحدى الفجوات مع ساقين زائدتين تتدليان بين ساقيه، والأرض تتلألأ بالأحجار الكريمة، يتبع ذلك لحظات مُخيفة لخلوّها من الضجيج، أمشي على طول النفق إلى أنْ يظهر شكل موحش، ما زال منطوياً على نفسه. أراقب رأسه يبرز منحنياً مع تقدُّم خطواتي. وسرعان ما تأتي خطوات أخرى، رشيقة تهرع هابطة الدرج؛ ثم شكل ضئيل تتضح ملامحه عند مطلع الدرج، ينظر إلى الداخل.

تراني جاثماً بجوار سيارة النقل فتسكن حركتها.

أداعب صَدفَة المخلوق إلى أنْ يُبرِز رأسه نحو الخارج. ثم أميل مُقترباً منه، وأضعُ وجهي بجوار رأسه، وأوجّه نحو الفتاة.

أمنَحُها وقتاً لأُبدي إعجابي بها.

وأقول: «وووش بسرعة».

نخرج أنا وغوتفريد بيتش من مطار تمبلهوف المركزي، في برلين، على الرغم من أنَّ مدخل الخدمة في الليلة الأخيرة من الحياة التي خُلِقَتْ لها، لن تعود أبداً. يُقابلنا عند الباب الليلُ البارد. لقد غادرتِ العربات كولومبيادام، والمحتجون تفرّقوا. وعلى الرصيف ترفرف مُزقة صغيرة.

خلفنا في منطقةِ آخر الخطّ المُعتمة لا يوجد بحَّارة يفسرون سبب إطلاق اسم غيرد على ديتر. لا أبواق تُنفَخ، ولا سجق يُقدَّم. لا جواد واقفاً في الردهة. وعبر ثلاثة ملايين ونصف المليون من الأمتار المُربّعة التي هي مساحة برلين لا تهدر طائرات قاذفات الحلوى[119]، ولا ينتظر أطفال، ولا سكان برلين يحدوهم الأمل، ولا طيارين يلوحون بأيديهم، ولا شيوعيين يراقبون من بعيد.

لا نازيين يفرون هاربين، ولا روساً يزحفون، ولا لهباً يتصاعد.

يهبط حيوان خرافيّ خُدِعَ وأُعيد إلى حياةٍ لا وجود لها من نُصُبٍ لا ينتمي إلى أية حقبة، مع صديقٍ من دولة لم تتمكن من الوجود، إلى مدينة وُجِدتْ من جديد.

هذه الليلة ينتهي ضياعنا كلّه.

ويهبّ النسيم.

بينما نمشي على طول كولومبيادام متجهين إلى الحديقة التذكارية، يطلّ علينا نسر من قاعدته، تلقّى ضربة خفيفة من جاذبية بناء كان المأمول أنْ يدوم على امتداد التاريخ الإنساني - طائرة رجال أعمال نفّاثة تزعق منطلقة في سماء تمبلهوف. مندفعة كالصاروخ في قلب الليل، تومض ضربات قلب مُلحّة على صورة اللونين الأحمر والأبيض. نتوقف،

119- بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتقسيم ألمانيا، كان الكولونيل الأميركي غيل هالفرسون الطيار المتقاعد يرمي بالحلوى بمظلات إلى أطفال القطاع الأميركي من برلين قبل أنْ يحطّ في مطار تمبلهوف لرفع معنوياتهم. - المترجم

مُحدقين في صمت إلى أنْ يتلاشى نبضها خلف الغيوم، إلى أنْ يخفق هديرها وترجِّع أصداؤه وتخفت إلى همسات، وتموت الهمسات بارتدادها عن النجوم.

عندما نعود أدراجنا إلى الشارع يقترب منا شكل مألوف. إنَّ غوتفريد ما زال ينتظر، وهو يومئ برأسه قليلاً: «لا بُدَّ أنَّ بيراتنسبرغ قد قُصِفَتْ».

يلوّح غيرد بيده: «*هاا!* كدنا ننسى ألعابنا النارية!».

ينظر غوتفريد إليَّ قبل أنْ يلقي نظرة إلى ساعة يده.

أُجيبُ دون تفكير: «شمال-شرق، هلسنكي».

يقترب غيرد، طويلاً وضامراً من شرب البيرة لكنه يلزم الصمت لدى خروجه من أرض المطار، يبدو عليه أنه يستشعر تغيُّر مزاجنا. لهذا السبب، يجذبنا إليه من الكتفين لنُصبح معاً ثلاثيّاً، ويقودنا غوتفريد ببطء على الطريق، مُطأطأ الرأس كأنه ينوي الاعتراف، ولكن بعد أنْ نمشي بضع خطوات على الطريق، وبينما تعبث عصفة ريح بشعرنا، يرفع بصره إلى الليل ويقول بهدوء: «حسب تقديراتي، أيها السادة - سوف تملأ الألعاب النارية سماء منطقة البلطيق كلّها».

تنسحب أحاسيسي قبل أنْ أسمع جواب غيرد. وبدل ذلك أندفع كالصاروخ فوق الغيوم أراقب آخر بوصة من فتيل المفرقعة يحترق. يجلبُ هذا مع هسيس سرعة الانطلاق في الجوّ معرفةً تامة - بأنَّ ما أراقبُ هو آخر بوصة من البراءة، فورة عهد الطفولة تنطفئ حتى الموت. ولا يتبقّى وقت للتفكير. أنفجر بقوة، متناثراً كلوح من زجاج، وفي غمرة النشوة الصافية التي تلي، من سجادة القاعة الدبقة بفعل الدماء، أقوم بتقديراتي وأشعر بقوة جديدة: بأنفاس قريبة، وبثقل ذراع، ذراع طبيب، وليس ذراع رجل ثري - مجرد ذراع إنسانية عادية، ذراع صديق صلبة على كتفي، وبأخرى خلفها، وأخرى وأخرى، إلى أنْ أُصبح خيطاً في كتلة من الأصحاب يحتلون العالم كلّه، يحتلون الزمن كلّه قبلي وبعدي، من شالٍ نسيجُهُ لا يُحلّ. من أصحابي، في عالمي.

أخيراً، وبنشاط، أنهضُ واقفاً عن سجادة القاعة تلك.

أقفُ وأنتزع ما علقَ بي من مُزقٍ، وأرميها.

وبعد برهة، تبدأ أشكال مُدمّاة تنهض من حولي، على سجادة قاعة مترامية الأطراف مجاورة للبحر - أشكال صغيرة غير هيّابة ببجامات عليها رسوم بوو، وقطط صغيرة، وحيتان، وصغار دببة، يمسحون أنفسهم، يبتسمون عالياً نحو السماء التي تتفجّر بألوان رائعة، تفرقع وتومض وتنفجر، تلفظ جمراً من خلال الغيوم، وتُسقِطُ ألسنة من إحباط، وكآبة وصدمة مستهلكة. وأقفُ كفتى وصل توّاً من كوكب المريخ أحدقُ بفزع عبر هذه الكتلة من الرفاق القاصرين، ملاحظاً أخيراً بعض الانزعاج بينهم، وسرعان ما يُحدثُ شكلٌ ضئيلٌ حركةً من بعيد. إنه يركض حافياً، ببجاما على شكل مسدس كاوبوي، وقد اكتسب سُمرة من كيب تاون:

يثبُ قائلاً، موجهاً صياحه نحو الغيوم: «*عاهرون! عاهرون جشعون!*».

يرتسم التكشير على وجوهنا، ولكن عندئذٍ بالذات، وكأنَّ في وسعي أنْ أحلِّق أعلى من ذلك، وكأنَّ تكشيري يمكن أنْ يتسع أكثر، انزلقتْ يدٌ صغيرة إلى يدي من عالم آخر، من زمن آخر، تشدّ عليها كأنما تدفعني إلى الأمام إلى يومي الأولّ الحافل في المدرسة:

تقول: «أوفف، حسبتُ أنها كانت ليلة يوم جمعة عادية بالنسبة إليك؟».

أقول متأملاً: «هكذا كانت حقّاً، ولكنني أحياناً أخرج لأحتسي شراباً».

أُنيرت الأضواء

تتقدَّم سيارة اللادا مُصلصلة تنبعث منها روائح التبغ العتيق، والبلاستيك والصابون الرخيص نحو مطار برلين-تيغل. وبينما أنا في حالة أسر بين غوتفريد وبرلين، يستقر تعبٌ ممتع جدّاً وعميق، وكأنني تناولت عشرة ملليغرامات من الفاليوم.

أرتمي مُسترخياً على المقعد أراقبُ غيرد يُناور خلال ساعة الذروة القصيرة، يمدّ عنقه ويهتزّ وراء المقود. إنه يرتدي مزيجاً من الألبسة، كصورة ذاتية لدوامة خيل لا تتوقف مهما كانت النتيجة. ومع ذلك، إنها دوامة عادية وحركاته هو أكثر تحرّراً، وتبختراً واسترخاءً. في الحقيقة يبدأ جوّ العطلة برفع السيارة، ترتفع كالنغمات الأولى لرقصة، ولكن فقط اثنان منا سيسافران.

ينخر غوتفريد: «أواثقٌ أنت بأننا سوف نعود في الوقت المناسب لمشاهدة مسلسل ***تاتورت***؟».

«*Ja*، طبعاً. يمكننا أنْ نشاهده في منزل ديدييه، في طريق عودتنا إلى المنزل من المطار – إنْ كان تلفازه يعمل، أنت تعلم كيف هو».

«لو أننا ذهبنا إلى بار لأمكننا أنْ نشاهده بالألوان».

«حسن، أو إلى بار، *Ja*. المشكلة هي أنَّ الناس سوف يتحدثون عنه في أثناء عرضه».

تواجه عينا غيرد عينيَّ من خلال المرآة. «هل شاهدت ***تاتورت***؟ مسلسل بوليسي ألماني عظيم، إنه عُرف وطني. في أمسية يوم الأحد تتوقف ألمانيا كلّها لكي تشاهده».

يلتفتُ إلى آنّا بينما تبدأ قطرات المطر تنقّط حاجب الريح: «هل لديكما مانع بتشغيل الماسحتين؟ آسف لأنني أفصل بينكما يا عصفورَي الحبّ، لكنَّ غوتفريد في يده السلطة، لذلك هو معذور». تتوقف

الماسحتان بعد كلّ ستّ حركات أو سبع، وتمدّ آنّا يدها لكي تهزّهما. ويصفع غيرد المقود. «لادا الجبارة. صُنِعَتْ لأجواء سيبيريا، فقط انظروا - ثلاث مئة ألف كيلومتر وما زالت تمشي كالدبابة».

«بفف، كالدبابة حتماً»، وشدّتِ المعطف حولها.

عندما تخفّ حركة المرور، يمدّ غوتفريد يده ويتناول حقيبة لوفتهانزا قديمة عند قدميه ويُخرِج منها عبوة من البيرة، يفتحها عند لوح زجاج الباب. يُناولها عبر المقعد الأمامي إلى آنّا. ويفعل الأمر نفسه معي، ثم مع غيرد، مُحافظاً بذلك على الترتيب الهرمي لحُسن الضيافة، من دون أنْ يُصدِر أيّة ضجة خلاف الأزيز عندما يمدّ يده بين المقعدين.

«هذا مُخدِّر مشهور للبدء بالإدمان»، وأُلقي نظرة سريعة إلى بيرة آنّا.

«لا بُدَّ أنك حصلت على واحدة رديئة، إنني حتى لم أنزف بعد».

يقول غيرد: «*Gott*، عندما كنا في مثل سنّك كنا نشرب الفودكا. كنا نستيقظ ولوننا أخضر، إه، غوتفريد؟ كنا نستيقظ ولوننا أخضر!».

«لم تكن تشربها بشكل صحيح».

«إه؟ ليست هناك طريقة صحيحة لشرب الفودكا. دائماً ينتهي بك الأمر أخضر».

«هنا تُطبَّق القاعدة 80 – 20. إنَّ 80 ٪ من المتعة تأتي من 20 ٪ من المشروبات. والبراعة هي في شرب تلك الـ 20٪ فقط».

«أوه، إذن أنت تريد فقط 20 ٪ من نبيذ غابرييل؟».

يلزم غوتفريد السكون، ويفترّ فمه قليلاً عن ابتسامة. «كلّا - أنا سأشرب 99 ٪، بعد أنْ تكون قد انطرحت أرضاً حتماً بعد الكأس الأولى».

«*هـا!*»- ويضرب غيرد المقود بصوت مكتوم - «إنك تحارب الكلمات، يا هر بيتش، تحارب الكلمات».

تتجعّد البشرة حول عينَي غوتفريد، ويصرّ المقعد تحت وطأة ثقله.

«إنه عكس نظامك القديم» وتلتفت آنّا إليَّ: «إنَّ 80 ٪ من المشروبات تمثّل 1 ٪ من المتعة، والباقي يمتزج بالدم».

أقول متجهماً: «ماذا؟ هذا ظلم. لقد رأيتني في يوم سيئ».

يرتفع حاجبا غوتفريد دلالة على معرفته بذلك. «مع الإنكليزي لم يكن الأمر يتعلَّق بالمشروبات. لقد كان يسعى وراء شيء آخر، وراء شعور». ينظر إليَّ: «هل أنا على صواب؟».

«همم – أعتقد أنَّ هذا صحيح».

يقول: «أنا أعرف ما هذا. ولكنه في الواقع موجود هنا في المقدمة، المكان الذي تبحث عنه. في اللحظة السابقة مباشرة».

«*هاا*، أتسمع هذا، يا فريدريك؟ تعلَّم من الأساتذة. في المرة التالية راقبنا، الحفل الكبير التالي يمكن أنْ يكون ظهورك الأول للمجتمع».

«أه، نعم، نعم» ويُريح غوتفريد رأسه إلى الخلف ليتفكَّر. «في نهاية المطاف علينا جميعاً أنْ نصبح راشدين. وطبعاً المتعة تُصبح راشدة، حالما يُصبح المرء ضليعاً في الأسرار. لا أعلم متى يُصبح سنّ الرشد عتيق الطراز قليلاً. عندما كنا صغاراً كان مُتوقَّعاً منا أنْ نصبح راشدين صِغاراً. بنظام أفضل، لأنك كنتَ تتعلّم كلّ قواعد السلوك باكراً، ثم في سنّ الرشد تُصبح الأمور فجأة ممتعة. إذ يمكنك أنْ تشرب الخمر، وتنفق المال – وتُفتَح أمامك الأبواب كلّها».

أقول: «سوف تكره الأسواق هذا. إنَّ نصف الاقتصاد يتغذّى عبر الأطفال».

« في الواقع، لعل نصف اقتصادك يتغذّى عبرهم. أما نصف اقتصادي فسوف يُنفَق على إرسالهم إلى السرير باكراً».

يقول غيرد: «*Ja, Ja*، في بلد بيتـــــش ستكون الأمور مختلفة، إه، يا غوتفريد؟».

«عفواً – سوف تكون الأمور مختلفة *حتماً*. سوف تكون مختلفة كثيراً في أرضي».

«أه، هيا. اعترف بأنكَ عالق في العالم كما هو».

يميل غوتفريد نحو الأمام: «ماذا؟ لا أحد عالقٌ في أيّ شيء كما هو. علينا جميعاً أنْ ننهض ونتولى زمام الأمور».

«باه - يجب أنْ تعترف بأنَّ من السهل أنْ يتكلَّم المرء بالنيابة عن قومه».

«ماذا تعني بكلمة المرء؟ أنا لديَّ مبعوث أجنبي». يلكزني غوتفريد. «الرفيق الإنكليزي سوف يحمل القضية إلى ما وراء البحار. هو لا يمكن أنْ يبتئس بشأن حالة الأوضاع، إنَّ بريطانيا في وضع ممتاز. هم الذين بدؤوا هذه التجربة التجارية، فمن الطبيعي أنْ ينهاروا أولاً. وهذا يعني أنه يمكن أنْ يكونوا أول مَنْ ينهض في المستقبل. وطبعاً الفاشيّة ستأتيهم، ولكن في النهاية الشَّعب دائماً يقضي عليها. الآن هو الوقت المناسب لزرع بذور ما سيأتي بعد ذلك».

يقول غيرد: «أه، أنت تحكي تاريخ برلين. إنَّ مفهوم الشَّعب زُرِعَ قبل مجيء الفاشست».

«أترى؟ إنَّ للتاريخ إيقاعه».

«إذن، فريدريك»- ينظر غيرد خلفه - «لقد حذّرتك من أنه سوف يحاول أنْ يُجنّدك. ويجب أنْ تُحذّر صديقك عندما يأتي من اليابان - انتبه من غوتفريد، لا تستطيع أنْ تتكهن بما سيفعل. قد يبدو أشبه بتمثال، ولكن عندما ستعرفه جيداً يكون الأوان قد فات. متى سيصل صديقك؟».

«ليل يوم الخميس» وأرشف من البيرة.

يقول بارتياب: «مُجنَّد آخر. انتبه، *mein Gott*. ثم تأتي بعثتك إلى بلد بيتش، إه؟ ما الذي ستحمله معك في تلك البعثة في مواجهة قِوى الانحطاط؟ خلاف آثار السُّكْر؟».

أتفكّر في هذا بينما هم يضحكون. «حسن، الآن أصبح للانحطاط آثار سُكْره الخاصة - لكنني دوّنت بعض الملاحظات، إنها بداية صغيرة».

تلتفت آنّا: «بفف، تعني دفتراً صغيراً؟ للقرود والشعراء أو كائناً مَنْ كان؟ الفِقرة الأولى تقول لم تكن هناك تسمية لوضعك لأنكَ كنت تنوي أنْ تنتحر».

يقول غيرد: «إه؟ فريدريك لا يفعل ذلك».

يقول غوتفريد: «إنه رمز. لا بُدَّ أنه يتكلَّم عن الثقافة، والأسواق. والآن كلّ ما عليه أنْ يفعل هو أنْ يضع الفِقرة نفسها في النهاية، ولكن مع القول إنه سوف يعيش. ثم إنها دورة كاملة – تشبه دورة الحياة».

«وماذا عن آنّا؟»، يلكزها غيرد: «هل ستنضمين إلى بلد بيتش، هل أنا في مواجهة رحلة خروج جماعية لكلّ شخص أعرفه؟».

«الأمر نسبي. إنْ كانت عربة لبيع الأطعمة ستبقى هناك، فالجواب هو كلّا».

استمر المزاح طوال الطريق حتى ولوجنا المطار، إلى أنْ تُجمَع بطاقات الركوب ونبدأ نعجّ كما يفعل المحتشدون حول بوابة المغادرة، يبدون بلهاء، يتفوهون بكلام لا معنى له، وحتى حين يفعلون يتركون جُملهم ناقصة. وعندما يدعو النداء المسافرين إلى ركوب الطائرة ويبدأ الغرباء بالتجمُّع، أتساءل إنْ كنتُ لاحظتُ وجود دمعة في عين غيرد. ونتجمّع معاً، غيرد بابتسامته المُستمدة من لوحاته، وغوتفريد بتحديقه الجامد، ونتبادل كلام الدقيقة الأخيرة الذي لا معنى له وهو نصيب المسافر.

يقول غيرد: «أراك في يوم الأحد».

يئزّ غوتفريد: «*Tschuss* إلى اللقاء».

نتبادل أنا وآنّا التلويح بالأيدي – «استمتع بشتوتغارد»- وتنبض المُصافحة بين يدينا، لعله الوعد القذر نفسه الذي يعبُر بين الوالدين عندما يُغادر الأطفال ويتركونهما وحدهما في المنزل. «سلِّم على جيزيلا».

«أه»- يلتفت غوتفريد إلى غيرد – «هل الحجر الكريم في حوزتك؟».

يومئ غيرد برأسه: «*Ja*، ولكن الزَمِ الصمت بشأن ما تبقّى، قد تعود هي قريباً جدّاً».

نضحك، ويمشيان بخُطى مضطربة نحو البوابة كعانستين تلتفتان لتلوحان للمرة الأخيرة من نقطة تفتيش جوازات السفر. ألمح من طرف عيني، بينما ألوح بيدي، شكلاً مألوفاً يدخل من البوابة المجاورة لبوابتنا: أدركُ مُجفلاً أنه شكل ديدييه الباسكيّ المشؤوم. أحاول أنْ أُلفت انتباهه لكنه يختفي دون أنْ يراني، تاركاً غيرد وغوتفريد يتساءلان مَنْ أو ما الذي لمحتُ. ثم، وقبل أنْ أجد تفسيراً، يظهر شكل آخر مألوف بصورة غامضة.

أُجري بحثاً في الذاكرة، ويُضيء الجواب كالومض.

أهتفُ: «بايك! هيه، بايك – ما هي خاتمة القصة؟».

يلتفتُ الرجل، عابساً، محاولاً أنْ يتعرَّفَ عليَّ.

أقول: «كنتَ هناك، حيث البحر أزرق، والسماء ممتدّة ومترامية، والهواء حارّ، يمكنك أنْ تشم رائحة الفتاة، والجلد المدبوغ والبحر. حيثُ النشوة مضمونة».

بينما أراقب، والآن غيرد، وغوتفريد وآنّا يراقبون ويتساءلون، يسترخي تعبير وجه الرجل، وتضيق عيناه وتلمعان حتى أكاد أشعر به يلمس المشهد، مُستعرضاً إياه بمشاعره، يده في يدي، ورفاق قريبون منا، ومغامرات خلفنا حديثة العهد، وكلّ الليل وكلّ الحياة أمامنا في انتظار قدومنا.

أُعجّل بالقول: «***لا يمكن أنْ يُصبح الحال أفضل مما هو عليه الآن.*** وماذا بعد؟».

يستغرق منه الأمر برهة أخرى، وهو يومئ برأسه برفق. ويقول:

«أنا كنتُ على صواب – لم يكن كذلك».

وووش بسرعة.

ليس لوضعي تسمية. أولاً لأنني قرّرتُ أنْ أعيش.

ثم بسبب الفكرة التالية:

لستُ مُضطرّاً إلى أنْ أفعل ذلك فوراً.

-انتهـــى-

الشروط والبنود

سوف نُدمَّر كلّنا
شئنا أم أبينا

أنا أقول فلنشأ.

فليكن هذا الكتاب الصغير،
الذي يضم أموراً يقينية
ثمرة حياة قصيرة،
دليلك في عصر الانحطاط،
مُعلّمك في زمن الدمار،
صديقك في وحدتك؛

وليكن بروزه من جيبك
منارة لكلّ مَن
يُشاركنا روحنا في آخر الزمان.

*

هذه الملحمة ترفع كأساً لـ:
بوني هتشن ودب برلين.
وطبّاخ مطبخ ديفيد سبانر.
وكارل ولي.
في Aniversario De La Muerte (في ذكرى الموتى)

كزافييه، وهيلدغارد وباقي اللائحة.

وبارس، ونبات العلّيق، ولين بيرس

وفريق فيبر.

جمعية كلّية ترينيتي الأدبية

سايمون نن، جاكي جيفريز وخدمة الإسعاف في نورفوك

من أجل حضور الموعد النهائي العاشر للملحمة في غضون سبع دقائق.

وراين لي

كيف هي سُمعتي في هذا المكان على أية حال؟

هذه الحفلة انتهتْ... وإمبراطوريّة التسوُّق الخاصة بنا تلفظُ أنفاسها الأخيرة... باي-باي للأسواق الحرَّة، وداعاً للشروط والبنود، وتشاو للضحكِ الزائف...

عندما يبدأ غابرييل سويفت الذي تجاوز العشرين من العمر والناشِط المُناهِض للرأسماليّة، يبدأ بجني الأرباح، تكون تلك هي القشّة الأخيرة. وتساؤلاته الفلسفيّة عن وضع العالم - بدءاً بمبادلة الائتمان الافتراضيّة وانتهاءً بمُجمعات التسوُّق المُجرّدة من الروح - تُشير كلّها إلى اتّجاهٍ واحد. ولكن قبل أنْ يُغادر الحياة، يُقرِّرُ غابرييل أنْ يقوم برحلة أخيرة، تأخذه من لندن إلى طوكيو وإلى برلين - وأخيراً إلى أرض العجائب.

«إنْ كان هناك روائيٌّ يستطيع أنْ يُبرِز المُفارقة القاتلة لِما يحدث حولنا فهو دي. سي. بيير»

آلان وورنر في صحيفة «الغارديان».

«إنّه صوتٌ سرديٌّ حيويّ، مُنطلِق ومُضحِك بصورة مُعقّدة»

صحيفة «سكوتسمان»

«إنّه مُنعِش... ومُقنِع حقّاً»

صحيفة «فاينانشل تايمز»

ISBN 978-9933-6170-4-2

9 789933 617042